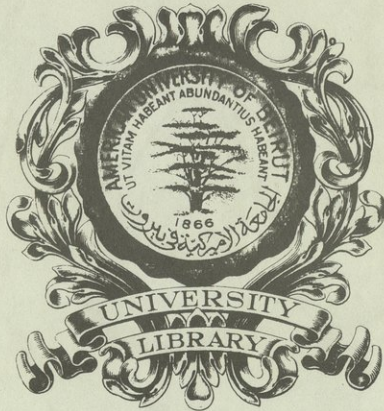


A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT





117
4
5

هدية اعتراف
 بالفضل ، الى مكتبتي
 من القديس محمد بن
 ١٩٥١ / ٥١ - ٦

CA
 297.61
 K19hA
 c.1

هدى هي الأغلل

تأليف
 عبد علي لقصبي

ثورة في فهم العقل والدين والحياة ...
 دراسة عميقة للعوامل النفسية والاعتقادية
 والتاريخية والحلقية التي قضت بانحلال المسلمين
 عربهم وعجمهم وذهابهم في طوفان الغرب
 الطاغى ... ثم كيف يمكن أن ينحسر عنهم
 هذا الطوفان ...

544
 Cat. Mar. '52

78482

الكتاب

مطبعة
 ١٠ شارع فرانكلين (ساحة شارع القديس)

١٩٤٦



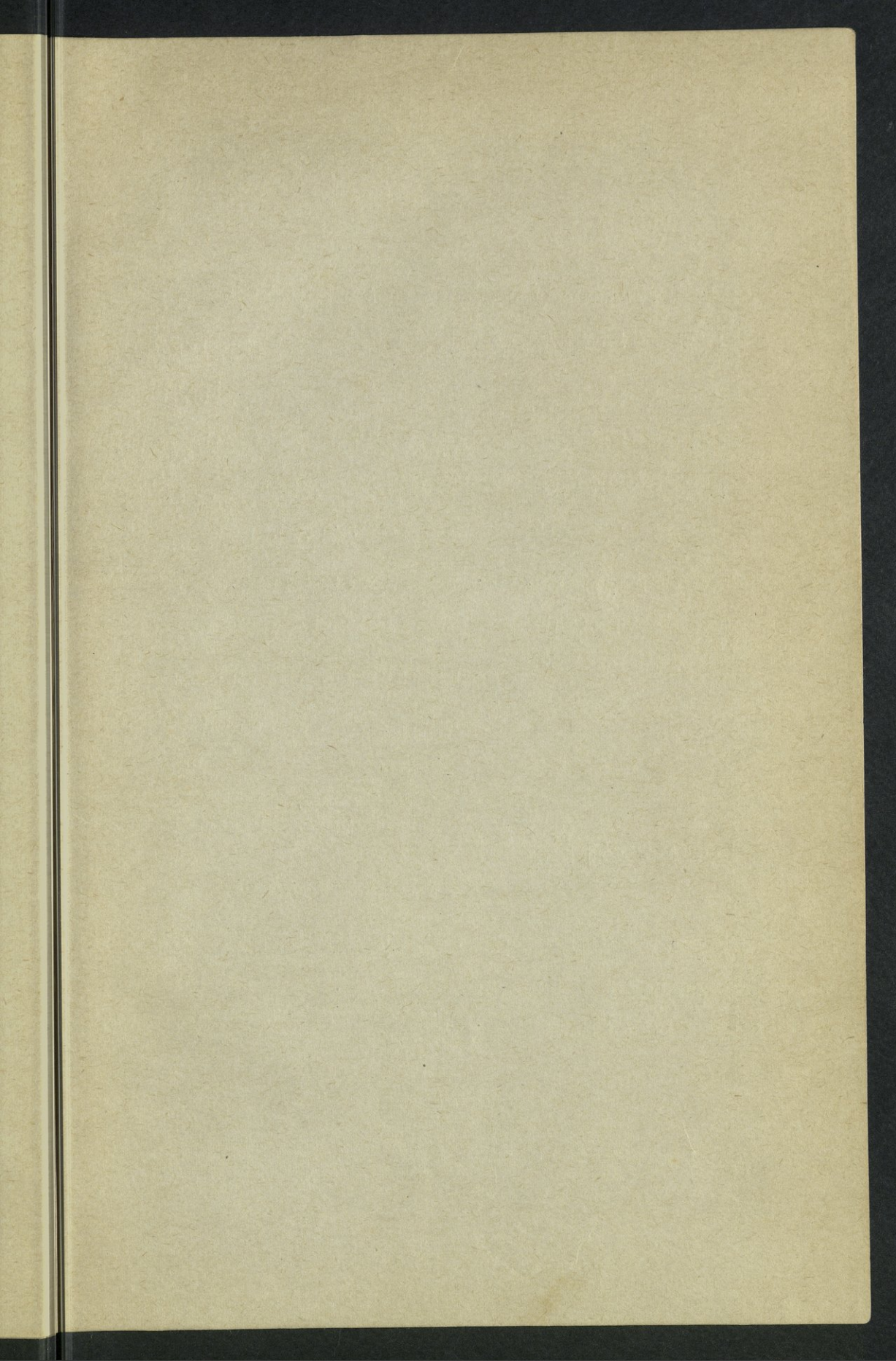
إن الجهل الاعتقادي قد ضرب على قومنا عقداً فوق عقد ، وإن أفضل ما يعمل المرء أن يحل عقدة من هذه العقدة . . . إن للوهم الواحد في الحياة ثلاث نتائج : أولاً أن يعوق عن السير إلى الغاية المنشودة ، وثانياً أن يوجه جهة أخرى مضادة ، وهذا فيه الإبعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى ، وثالثاً إفساد العقل ، فإن الأوهام تأكل العقول ، وكل وهم يأخذ من العقل بقدره . ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التمييز ويتخلى في النهاية عن وظيفته . . . إن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التي تفقدها أمة قهوى لأنها فقدت حقيقتها من حقائقها الطبيعية ، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة . . . ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم ، يستغنى عن هذه الأفكار إذا أرادت له حياة صحيحة طبيعية .

إن الدين إذا فسد العمل به صار آلة ضعف وانحطاط .

[أحد فلاسفة الغرب]

طلاسّم هذا الذل دقت وإنما تفك بسر العلم هذى الطلاسّم
يقولون حظ اليعربيين نائم لقد وهموا فالسعى لا الحظ نائم

[أحد شعراء العصر]



مرفوع إلى

باعث العرب ومقيم دولتهم الملك عبد العزيز آل سعود

بإصاحب الجهورنة :

إن آباء جلالتم العرب الأحرار لما أن تدفقت جحافلهم المظفرة على بلاد الأكاسرة الجبارين ، وعلم رستم قائد الفرس الأعلى أنها الهزيمة لاشك فيها بعث إلى سعد بن أبي وقاص : أن أرسل إلينا من قبلك من نعرف منه الأغراض التي قدمتم إلى بلادنا من أجلها ، فبعث إليه سعد رسله ، فسألهم رستم فكان جوابهم الذي لم يختلف أن قالوا جميعاً : إن الأغراض التي أخرجتنا وأقدمتنا إلى بلادك هي : أولاً أن نخرج الناس من عبادة المخلوق إلى عبادة الله (١) ، وهي ثانياً أن نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، وهي ثالثاً أن نخرجهم من جور الأديان إلى عدل الإسلام .

(١) مما يشهد لما بلغه العرب من تربية الشخصية ومن حراستهم لطاقة الفرد النفسية من الضياع والانهيار والضعف والضعمة ما جاء أن عمر بن الخطاب رأى مع عيينة بن حصن أحد سادات العرب في الجاهلية والإسلام جماعة يمشون وراءه فعلاه بالدرة ، فقال عيينة اعلم ما تصنع يرحمك الله ، فقال عمر أما علمت أنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع . وما جاء أنه — أي عمر — ضرب قوماً مشوا وراء أحد الصحابة وقال إنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع . وما جاء عن أحد التابعين ، قال خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه أناس فقال لهم ألكم حاجة ؟ قالوا لا ولكن أردنا أن نمشي معك قال ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

ولن يتصور المرء تربية أسمى من هذه التربية ، ولا إيماناً بالإنسانية المثالية أبلغ من هذا الإيمان ، ولا وضعاً لحقوق الفرد في الجماعة وفي الدولة أعظم مما سمعنا . ونحن لا نستطيع أن نعلم ما لهذا من قيمة إلا إذا علمنا فساد ذلك العهد ومظالمه وكيف كان الفرد مسلوب الحقوق بل كيف كان الناس يجهلون أن للفرد حقوقاً أو أنه من الممكن أن يكون له حقوق ، وإلا إذا علمنا كم كان الآلهة البشريون الذين يجب أن تؤدى لهم حقوق الألوهية ، بل وحقوق الربوبية وإلا فالويل لأهل الأرض جميعاً ، بل الويل لهم على كل حال . فإن أولئك الآلهة كانوا يغضبون وينقمون ويبيرون وإن عبدوا حق العبادة ، لأن الغضب والانتقام حقان من حقوق الإله على حسب ما يتصورون ... ولولم يسد العرب في العهد الذي سادوا فيه لوجب أن نعتقد بأن العالم يسير بتدبير الفوضى ، وأنه ليس هناك أسباب تقدم ولا أسباب تؤخر ، ولكننا من المؤمنين بالنظام وبالأسباب والسبببات .

ومعنى هذه الكلمات التصيرات أن العرب الأحرار إنما بعثوا إلى العالم في الزمن الذى وجب أن يبعثوا فيه ليلغوه رسالتهم المحمدية وهى تتلخص فى ثلاثة أمور جامعة : الأول : تخليصه من مفاصد عبودية رجال الدين ، وعبودية القادة والرؤساء الظالمين ، وعبودية سائر صنوف المخلوقين ، تلك العبودية التى أرهقت العقول والمواهب والقوى البشرية فلم تقدر على الانبعاث والنهوض إلى جسيات الأمور ، فظل الإنسان الأحقاب تلو الأحقاب عاجزاً عن أن يحقق من معانى الإنسانية وأهدافها سوى مظهرها خصب . وثانى الأمور الثلاثة الجوامع : تخليصه من ذلك النظام الحكومى الفاسد الذى رماه بالفقر والضييق والشقاء ، وكل تلك التى كانت — وما زالت — مبعث الانحطاط والفساد ، ومصدر الفوضى والشر الكثير . وثالث الأمور الثلاثة : تخليصه من المعتقدات والمذاهب والأديان الواهية الواهنة التى جردت الإنسان من كل فضيلة ، وعطلت فيه كل نبوغ وعبقريّة وانطلاق فى تحصيل المعانى الإنسانية المهدبة لما فى هذه المعتقدات والمذاهب والأديان من الجمود والتضليل والتعويق والتخدير للقوى الفاضلة .

با صاعب الجورة :

إن العرب الكرام لما أن آمنوا بهذه المعانى والمبادئ واندفعوا إلى الدنيا ليشركوها معهم فى الإيمان بها أرغموا التاريخ العالمى العام أن يكتب لهم تاريخاً وأن يسجل لهم انقلاباً كاد فى سرعته وقوته ومفاجأته أن يخرج عن جميع سنن التطور التى عرفت حتى اليوم : انقلاباً بهر الكثيرين من العلماء والباحثين الذين يحاولون التغلغل فى الأسباب والمسببات ، فعجزوا أن يحدوا له تعليلاً بين العلل والمعولات ، فذهبوا يقولون إن العرب كانوا — فيما سُمى الجاهلية وقبل الإسلام — أمة راقية متوثبة متهيئة لمكانها الجديد من القيادة والصدارة . لأنه من غير المعروف فى نواميس التطور المعروفة ، ولا فى تواريخ قيام الأمم وسقوطها أن شعباً من الشعوب يتخلى فجأة عن عزلته السياسية وعن أميته التى تكاد تكون شاملة ليثب وثبة واحدة تحلّه موضع الزعامة العالمية .

ولكن الذى فهمناه ، والذى يجب أن يفهمه الناس جميعاً هو أن للحجعات دائماً جانبين من القوى والمواهب : جانب ظاهر بارز ، لأنه وجد ما يظهره وما يبرزه ، أو لأنه لم يجد ما يمنعه الظهور والبروز ، وجانب خفى مستور كامن ، لأنه لم يجد ما يظهره ، أو لأنه وجد ما يمنعه من أن يظهر ويبرز ... والقوى البشرية تشبه فى كونها وبروزها قوى

الأرض وقوى الطبيعة أجمع . ومن العلوم أن قوى الأرض ، وكل القوى أيضاً ، تظل
كامنة ساكنة ما وجدت ما يمنعها الظهور ، أو ما لم تجد ما يعمل على إظهارها وبعثها .
وقد ظل النفط في الجزيرة كامناً مستوراً منذ وجد ، كأنه لاشيء فيها ، وكأنها لا تحمل
في أحشائها جيناً نفيساً كل يتمنى حضائه وكفالاته ، حتى هيا الله لها جلالتكم ، فأخذت
تخرج كنوزها من النفط وغيره ، وأخذ العالم يؤمن بقواها الكامنة الطبيعية . وهكذا
هي من الناحية الزراعية ... والأمة العربية كانت في عصورها التي عرفت بالجاهلية أمة
ذات قوى كامنة هائلة ككون كنوزها الطبيعية في أرضها . وكانت عوامل هذا الكون
وأساببه معروفة أو على الأقل موجودة ، فلما زالت هذه العوامل والأسباب برسالة
محمد عليه الصلاة والسلام ، وجاء مابعث الكامن منها وثبت تلك الوثبة التي حار في تعليلها
وفهمها الباحثون . ولكن لامعنى للحيرة في هذه الوثبة إلا إذا كان من الممكن الحيرة
في خروج النفط في الجزيرة على عهد جلالتكم لأنكم أمرتم بإخراجه وهيأتم الأسباب
التي تخرجه والقوى التي تبعته . ومثل هذا كان العرب في المملكة السعودية قبل أن يوحدهم
الله على يد جلالتكم . فقد كانوا ذوى قوى كامنة واستعداد مستور . فلما آن الأوان ،
والفضل لله ثم لجلالتكم ، طفقت هذه القوى تبرز وهذا الاستعداد يظهر ... والعرب
اليوم — بل والمسلمون كافة — متخلفون عن الأمم الغربية تخلفاً ظاهراً ، لا تقول في شيء
دون شيء ، بل يجب أن تقول والأسفاه في كل شيء . ولكن هذا التخلف ليس طبيعياً ،
وإنما هو تخلف يشبه تخلف الجزيرة العربية قبل عهد جلالتكم عن العالم من الناحية
الاقتصادية . ويشبه تخلف العرب قبل الإسلام من الناحية السياسية والعسكرية عن الرومان
والفرس دولتي العالم في ذلك العهد ، أى إنه تخلف ظاهري فقط لوجود أسباب معينة
عارضة وهم ينطوون على مواهب وقوى كانت تستطيع إلحاقهم بمن سبقوهم إذا أخرجت
وأبرزت ، وتستطيع القضاء على هذا التفاوت بينهم وبين الآخرين ... ولقد صار معلوماً
أن عظمة الشعوب ليست في الاستقلال السياسي ، ولا في وفرة العديد ، ولا في ثروة
البلاد الطبيعية ، ولا في الوطنية الباسلة ، ولا في الحماسة المتوقدة ، ولا في الانفاقات وقيام
الوحدات ... وصار معلوماً أن شيئاً من هذا لا يهب الشعب تلك المنزلة الدولية الرفيعة
المحترمة ، ولا ذلك التأثير القوي في المجتمع العالمى . بل صار معلوماً أن أمراً من هذه
الأمر — بل هذه الأمور كلها مجتمعة — ليس في طاقتها أن تحافظ على الاستقلال
السياسى إذا كان موجوداً ، ولا أن ترده إن كان مفقوداً ، ولا أن تصونه من عدوان

العادين ... ولكن عظمة الشعب الحقيقية التي تطأىء الدنيا أمامها إجلالا ورهبة تتجلى في شيء واحد لا ثانی له : هذا الشيء الواحد هو قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج العقلی والمادی من ناحية الأفراد . فالشعب الذی يتفوق أفراده في هذا الإنتاج هو الشعب الذی له التفوق المطلق ، وله السيادة المطلقة ، وهو الشعب الذی تخفض له الدنيا رأسها ... والفرق بیننا وبين شعوب أوربا وأمريكا لا يعدو الفرق بین أفرادنا وأفرادهم في هذا الإنتاج . فإنهم لما وفر إنتاج أفرادهم العقلی والمادی وضعف إنتاج أفرادنا — أو أضحى مفقوداً — أضخوا أقوى منا في كل شيء ، فسادوا وتأخرنا . والقوى هو سيد الضعیف في قانون الأزل وقانون الأبد أيضاً . وهو قانون مطبق على الإنسان وعلى الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد ، بل وعلى كل شيء . فهو قانون خالد من قوانين الطبيعة الخالدة . وقوانين الطبيعة هي بالنسبة لها كالوجود ، لاتتخلى عنها مادامت موجودة ، كما أنها لاتتخلى عن وجودها ما دامت كذلك . وإذا ما سألنا العلماء اليوم : لماذا صارت الشمس هي المركز لمجموعة الشمسية ، ولماذا صار أكبر نجم في كل مجموعة من المجاميع الفلكية الأخرى هو المركز الذی تدور حوله الأتباع والأقمار وتدين له وتتجذب إليه ، ولا تستطيع مفارقتة ، قالوا لنا هذا قانون الطبيعة وقانون القوة . وإذا سألناهم : هل من الممكن التملص من القوانين الطبيعية ، أجابونا بلا طبعاً . وكما أن العشرين أقل من الأربعين ، وكما أن هذا العدد لا يمكن أن يكون مساوياً لهذا العدد بحال من الأحوال ، فمثل الشعب الذی هي أكثر إنتاجاً وأضخم قوة ، لابد أن تكون سيدة الشعوب الذی هي أقل منها في هذا الإنتاج وأضعف منها في هذه القدرة . ولا يمكن أن يقوم التساوی بین هذه وهذه إلا أن يكون بالكلام مثل أن يغلط طفل فيقول إن العشرين أكثر من الأربعين أو أنها مساوية لها . ولكن هذا القول لا يغير الحقيقة الأبدية وهي الاختلاف والتفاوت .

ما الذی أعطى الطوائف اليهودية هذه المكانة الدولية وهذا الاعتبار الدولي اللذين لم ينلهما كثير من الشعوب المستقلة سياسياً ؟ إنه مقدرة هذه الطائفة العجيبة على الإنتاج الفردي .

فعلينا إذن أن نعرف كيف يعظم إنتاج الفرد الذاتي ، وعلينا أن نحشد كل قوانا لتحطيم ما من شأنه أن يضعف هذا الإنتاج ، ولتحطيم القيود التي تعوق القوى الفردية

عن القيام بوظائفها الإلهية ، وعن إخراج أفضل ما فيها من استعداد وآخر ما عندها من طاقة .

وفي هذا الكتاب الكشف عن الأسباب والعوامل التي قضت علينا بهذا التخلف وبهذا التفاوت بيننا وبين الغربيين والتي أضعفت الإنتاج لدينا وجعلتنا عاجزين عن اللحاق بالركب البشري . ولكن العرب والمسلمين يحتاجون من أجل إفهامهم هذه الحقيقة إلهاماً عاماً شاملاً إلى قيادة بارزة ، وإن الآمال لترنو — لأسباب واضحة جلية — إلى جلالتيكم ، فبخت أرفع إليكم الكتاب ، سائلاً الله أن يسعد القائد وأن يحفظه ويسدده ، راجياً أن أكون قد قدمت لأمتي ودينها ما فيه نفع أو ما فيه دفع ضرر . وقد آن أن يقبس الناس من تلك الشعلة المقدسة التي أوقد جذوتها مصلح الجزيرة العظيم الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١) .

(١) ها هنا ملاحظة خليقة بالتفكير . ذلك أنه قد قام في أوقات كثيرة متقاربة ومتباعدة ، وفي بلاد متعددة رجال مخلصون يدعون إلى ما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وقد بذلوا كل إخلاصهم وعلمهم رجاء أن يصيبوا نجاحاً ، ولكنهم قد أخفقوا جميعاً : أخفقوا سياسياً وأخفقوا دينياً : فالأمرء والملوك والرؤساء رفضوا هؤلاء الدعاة ورفضوا دعوتهم ، بل وتألبوا عليهم مع العامة : فسجنوا وآذوا فريقاً منهم ، وازوروا وتباعدوا عن فريق آخر . وبهذا عدوا محققين سياسياً . أما دينياً فإن دعوتهم لم يكتب لها النجاح ولا القبول لدى العامة والجمهير ، بل عادوها وعادوا أصحابها وأصرروا على البقاء في ما كانوا فيه . وبهذا صاروا فاشلين دينياً .

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد كتب له ولدعوته النجاح المطلق : أما من الناحية السياسية فإن آل سعود العظام قد شادوا دولتهم وأقاموا صروحها على دعوته منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري حتى اليوم . وقد آوى أمراء آل سعود آل الشيخ محمد وقربوه وأكرموه وأخذوا عنهم ولا يزالون يفعلون ذلك ، ولم يحاولوا التخلص منهم في وقت من الأوقات لا في أوقات الشدة ولا في أوقات الرخاء . وأما من الناحية الدينية فقد كان النجاح عظيماً . ذلك أن الناس هناك خاصة وعامة قد آمنوا بهذه الدعوة وقبلوها ظاهراً وباطناً قبولاً لا يشوبه شيء من التردد أو الريب . وإنه لا يخطر على بال إنسان واحد اليوم — كما لم يخطر قبل اليوم — أن يرفض هذه الدعوة أو أن يشك فيها . فالإيمان بها كان إيمان اقتناع لا إيمان اضطراب أو حاجة أو ظرف من الظروف . ومن أكبر الدلائل على ذلك أن آل سعود قد غلبوا على أمرهم في عهدين معروفين ، وخرج حكم الجزيرة من أيديهم إلى أيدي قوم آخرين هم خصوم لهذه الدعوة ، ومع هذا فإن الناس هناك بقوا مستمسكين بالدعوة مؤمنين بها كما كانوا في عهد آل سعود المؤيدين لها . . . فنجاح الشيخ إذن كان نجاحاً مطلقاً ، وإخفاق الآخرين إذن كان إخفاقاً مطلقاً ، فما الأسباب ؟ أما إخفاق الآخرين في كل زمان ومكان فلا بد من عزوه إلى أن الناس الخاصة منهم والعامة في تلك البلاد كانوا غير مستعدين استعداداً حاضراً لقبول فكرة التوحيد الخالصة . بل كانت هناك موانع مؤلفة من النظام الاجتماعي القائم ، ومن =

== التربية الدينية المختلطة ومن الوراثة ومن البيئة ومن التفكير العام ، تحول بينهم وبين الإيمان بمبدأ التوحيد النقي . ومن أجل هذا نجد أكثر الذين يقبلون هذا المبدأ إجمالاً من أهل هذه البلاد يدخلون عليه في التفصيلات ما ليس منه ، أى أنهم في الأكثر لا يستطيعون إدراك هذا التوحيد وهذا السمو الفكري إدراكاً صحيحاً كاملاً مبرأ من شوائب ما يضافه وينافيه . وسبب هذا هو عجزهم عن التحرر من سيطرة الموانع الآنفة — وهى النظام الاجتماعى والتربية الدينية والتفكير العام والبيئة والوراثة . هذه هى أسباب فشل أولئك الدعاة المحزن . ولا يزال هذا الفشل يتلقى كل من يحاول ما حاوله أولئك الدعاة .

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد كان نجاحه التام يرجع إلى أمرين أساسيين أحدهما : أن الناس في جزيرة العرب الخالصة كانوا كافة مستعدين لقبول هذه الدعوة وللإيمان بها ، ولكن لماذا كانوا مستعدين دون غيرهم ؟ كانوا مستعدين لأن النظام الاجتماعى القائم عندهم والتربية الدينية والتفكير العام والبيئة والوراثة : لأن ذلك كله لا يأبى قبول هذه الدعوة بل إنه يقبلها ويهضمها بسهولة ويسر ، إذ لا تنافى ولا تنافر بينهما بل بينهما التوافق التام ... ومن ثم فإن أجزاء معينة من جزيرة العرب عجز أهلها عن فهم هذه الفكرة وعن الإيمان بها مع كثرة من جاءوهم من أنفسهم بالدعوة إليها . وسبب هذا أن رسوماً دينية ، ونظماً اجتماعية أجنبية ، وغلت عليهم بلادهم في عصور مختلفة فأثرت في تفكيرهم وفي تربيتهم الدينية تأثيراً كان هو العائق الأكبر الأظهر .

أما الأمر الثانى من الأمرين الأساسيين في نجاح الشيخ محمد فهو أمر خاص به وبأسلوبه العام وبحياته الخاصة والعامة .

إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان أحد أولئك الرجال القليلين الذين تتكافأ قواهم العقلية والعلمية والخلقية فيصيبون النجاح الذى يبغون . وإن كل إنسان — سواء أكان عادياً أم كان عبقرياً — له قوى مختلفة ، أحياناً تكون متكافئة ، وأحياناً تكون متفاوتة متفاوتة . ولا ينجح من الناس فى الغالب — سواء فى ذلك الأفراد والجماعات — النجاح التام الصحيح إلا من تكافأت قواه تكافؤاً تاماً . فإذا كان للإنسان قوة علمية غير مكافئة لقوته العقلية أو لقوته الخلقية مثلاً ، أو كان العكس لم يكن إنساناً مرجحاً له النجاح المطلق فى الأكثر ولا مرجحاً منه الفائدة المشودة . لأن قواه حينئذ تنهدم ويدمر بعضها بعضاً .

أما إذا تكافأت هذه القوى فإنها كلها حينئذ تنطلق فى سبيل واحدة وقوة واحدة إلى الغرض الأقصى قبلته . والأمم فى هذا كالأفراد سواء . وقد رأينا كيف صرعت أمة من أكبر الأمم وأعظمها فى قوتها العسكرية والعلمية ، ولكن هاتين القوتين كانتا فوق قوتها السياسية والخلقية . فلم يكن بين قواها تكافؤاً فتنافرت وراحت تتخط بين هذه القوى تتخط من وقع بين قوتين متنافرتين حتى خرت صريعة خائرة مهتمة . وهى ليست أمة بل أمم ، وإنما أردنا التل فقط .

أما الأفراد الذين يسقطون فى الميدان وتتلقاهم الحية والفشل أينما وجدوا وذهبوا — على رغم المواهب الهائلة التى امتازوا بها لأنها لم تحيىء متكافئة — فكثيرون جداً ، وطريق الحياة يعص بهم دائماً ، وهم يشاهدون كل وقت مجندين دون أغراضهم وأهدافهم . وإن أغلب الناس من هذا القبيل . والتنافر فى القوى الإنسانية المعنوية يشبه التنافر فى قوى الطبيعة ، والتكافؤ بينها يشبه التكافؤ بينها . ولو أن هذه الأجرام التى نشاهدها سائرة دائرة بنظام ودقة أصابها التنافر وعدم التكافؤ لكان القضاء المحتوم ، ولما كان هناك بد من فرض تحطم هذا العالم كله وتدميره .

== والشيخ محمد رحمة الله عليه كانت قواه العقلية والعلمية والحلقية متكافئة تكافؤاً دقيقاً . ثم إنه لم يكن عالماً دينياً فحسب ، بل كان زعيماً ورجل دين ، وكان يتصف بكل ما يتصف به الزعيم الشعبي من الذكاء والدهاء وقوة الشخصية والمجازية والمرونة مع الصرامة أحياناً . ورجل الدين كان متهماً دائماً بأنه عاجز عن مجابهة الحياة ، ولكن هذا الشيخ كان أحد رجالها المعدودين . ومن هنا لم يكن عجيباً أن يصيب النجاح الذي أصاب ، وأن يبلغ الغرض الذي قصد ، وأن يظله هو وآله ودعوته آل سعود العظام بظلالهم الوارفة ، وأن يرصدوا قواهم وبطولتهم ودولتهم في سبيل الدعوة وفي سبيل المبادئ التي جاءوا بها بلا قيد وبلا شرط .

قبل البدء

لست أعلم قضية أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها بينما هي أولى القضايا بالتفكير والعناية والبحث من هذه القضية . وذلك أن جموعاً بشرية هائلة — قيل إن أعدادها تبلغ أربعمائة مليون منتشرة في سهول فسيحة واسعة من أفريقيا وآسيا وأوروبا أيضاً، تدين بدين مبادئه السليمة الأولى هي أسمى ما يتصوره العقل البشرى من القوة والحث على مواصلة السير في سبيل المجد والكمال — عاجزة منذ مئات السنين عن اللحاق بالركب الإنساني المغذ الحظا إلى هذه الحياة التي تتفجر كل يوم عن ينبوع دفاق بالمثل الإنسانية العلمية التي من ملكها فقد ملك ناصية هذا الوجود واحتكم فيه وفي من فيه من حيوان وجماد ونبات ... وقد غلبت هذه الجموع على أمرها في كل معنى من معانيها وضرب من ضروب حياتها ... فهي من الناحية السياسية خاضعة ، بل خاضع ماتحت أقدامها إما بالفعل وإما بالقوة ، كما يقول المناطقة ، للسلطان الأجنبي — ومن الناحية العلمية عاجزة عن أن تقدم للتراث العلمي شيئاً يمكن أن ينسب إليها ، وعاجزة عن أن تستغنى عن الآخرين في أمر من أمورها الدقيقة أو الجليلة — وهي من الناحية الصناعية عاجزة عن إيجاد ملاعق لأفواهها وإبر لأثوابها — ومن الناحية الزراعية عاجزة — لولا الآخرون — عن الانتفاع الصحيح بغزارة مياهها وخصب أرضها — أما من الناحية التجارية فإن أكبر عاصمة من عواصمها عاجزة عن أن يكون لأحد أبنائها متجر واحد يضارع أحد متاجره هؤلاء الغزاة أو يغني عنه .. وهكذا هي في كل وجه من وجوه حياتها وغرض من أغراض وجودها .

ومما يوجب الدهشة والاستغراب أن هذه الجموع الهائلة عاجزة أفراداً كما هي عاجزة أمتاً ، فلم يستطع أفرادها ومهاجروها في أوروبا وأمريكا أو إحدى القارات الأخرى أن يوجدوا لأنفسهم مكاناً في هذه الحياة تتعلق به الأبصار أو يبعث على الإعجاب أو يؤثر في المجموع الصناعي أو التجاري بوجه من وجوه التأثير كما فعل غيرهم ... وإن العجب ليأخذ منا كل مأخذ — كما يجب أن يذهب الألم في نفوسنا كل مذهب — إذا نظرنا فرأينا الرجلين من سوريا أو لبنان أو غيرها ، أحدهما مسلم والآخر مسيحي ، يخرجان يضربان في الأرض ، يطلبان الثراء والمجد ، فهبطان أميركا أو هبطان وطناً إسلامياً

كعصر مثلاً. فما هو إلا أن ينعكس ذلك المسيحي في ذلك المجتمع القوي اللجب، ثم لا يلبث أن يرفع رأسه عالياً، فإذا به قد دفع الجموع عن موضعه، وإذا به يذكر حيناً يذكر أصحاب رؤوس الأموال الضخمة وملوك الصناعة المتوجون بتاج العصامية البراق... أما صاحبه المسلم فيبقى في مهاجره مابق بدون أن يحس له وجوداً كما لم يحس له وطنه حيناً خرج منه قفداً ماعداً النادر القليل.

وقد أخذ هذا التفاوت بين الفريقين في الوطن الواحد ومن العنصر الواحد يتعاظم يوماً فيوماً، حتى أصبح ملحوظاً جداً في جميع الأقطار التي يسكنها المسلمون وغيرهم أن غير المسلمين يفوقون المسلمين في كل ضروب التقدم وفي كل وجوه الحياة بشدة وقوة، سواء في ذلك الجوانب المادية والجوانب المعنوية... وهذا التفاوت العجيب لم يقتصر على الشرق دون الغرب أو على البلاد العربية دون الأخرى غير العربية، بل يوجد في أوروبا وأمريكا كما وجد في الشرق العربي وفي الشرق غير العربي من الشعوب الآسيوية والأفريقية.

وقد التقيت هذا العام في الحجاز بأناس ممتازين وآخرين عاديين من بلدان إسلامية كثيرة، فتحدثنا طويلاً وممرات كثيرة في هذه المسألة، فوجدت كلهم متفقه على وجود هذا التفاوت بأشكال وصور قوية بارزة في كل مكان، وإن كانوا حيناً حاولت أن أفهم منهم العوامل والأسباب لذلك لم أجد عندهم شيئاً، بل وجدتهم في الأكثر يذكرون أشياء هي بعيدة جداً عن المسألة وعن أن تكون أسباباً للمسألة، زاعمين أنها هي الأسباب الحقيقية. وهذا وأسفاه مما يبعد عن معرفة المرض الحقيقي، ثم مما يبعد عن نيل الشفاء أو التماس الشفاء... وإن الأمراض في نفسها خطيرة مخيفة، ولكن أخطر هذه الأمراض أن يكون المرء مريضاً ثم لا يدري ما المرض، بل يذهب يظنه شيئاً آخر، ويظل يتعنى العلاج من ذلك الشيء الآخر حتى يهلك، لأنه في نفس الأمر عاجز عن العلاج وعن الشفاء من تلك الأمور التي زعمها أمراضه... والخطوة الأولى اللازمة لمحاولة العلاج — أو لإفادة العلاج — هي معرفة المرض. وقد كان خطب الإنسانية في مراحل وجودها الأولى في عجزها عن معرفة أمراضها، ثم في عجزها عن الخلاص منها لو عرقتها قبل تقدم الباحث الطبية والكشوف العلمية.. إنها ظلت كل تلك الأحقاب العابرة جاهلة بأمراضها وأسبابها، ثم جاهلة بالعلاج الذي فيه ضمان الشفاء... وستظل الإنسانية أيضاً

تعانى أمراضها الاجتماعية والعقلية والاعتقادية حتى تتوصل إلى معرفتها معرفة صحيحة جازمة ، وإلى تعيينها تعييناً قاطعاً صحيحاً ، وحتى تتوصل إلى معرفة الخلاص والشفاء منها . وإذا كان صحيحاً قولهم : إن تشخيص الداء نصف العلاج فإن أصح منه أن يقال : إن العلاج مستحيل ما لم يشخص الداء . . . فعلياً إذن أن نعرف أمراضنا وأن نعمل على معرفتها إذا كنا راغبين حقاً في أن نكون قوماً صالحين نافعين لأنفسنا ولغيرنا في هذه الحياة .

يوجد اليوم قوم يعدون من خيرة المسلمين تعليماً وأخلاقاً ، ينادون ماوسعهم النداء : بأن جماع علل المسلمين هو سفور المرأة واختلاطها بالرجل ، ويزعمون أنهم لو رجعوها إلى البيت وإلى الحجاب لاستطاعوا بسهولة وسرعة أن يشبوا على قمة المجد الدولى . . . وقد عبأ هؤلاء القوم كل قواهم للنهوض بهذه الفكرة .

ولا يمكن أن يصدق هذا القول إلا إذا صدق القول : بأن سواد جلود الزنوج هو السبب في حرارة الشمس وفي غزارة ضيائها . ويجب أن يعلم هؤلاء الإخوان الفضلاء أن الأجنبي الظافر حينما اعتدى على بلاد المسلمين وسلبهم حريتهم كانوا — أى المسلمون — آخذين بالحجاب وبالتفريق بين الرجل والمرأة بلا هوادة ولا اعتدال ، وأن يعلموا أيضاً أنه لا تزال توجد إلى اليوم أمم مستمسكة بهذين الأمرين بعناد وشدة . ومع هذا فإنها — أى هذى الأمم — تعد بين الشعوب نموذجاً رائعاً للهوان والضعف والجهل والمسكنة .. ويوجد إلى جانب هؤلاء جماعات أخرى عظيمة الشأن من حيث العدد والحماسة ، تكاد في هذه الأيام تقيم الدنيا وتقعدها — وأنا أعنى كما لا يخفى دينا ناقط لادنيا الأعداء — مبشرة برسالة روحية خلقية ، استاقت في طريقها جماهير الشباب ، وأوشكت تصيب معظمهم بنوع من جنون الفكرة التقي البار ، أو الجنون المقدس .

خلاصة هدى الرسالة : أن طريق المجد الإسلامى المنشود ينحصر في الرجوع إلى الأخلاق الدينية الأولى ، وفي تنفيذ الحدود الشرعية ، وفي أداء الزكاة ، وفي إقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية ، ثم في الإيمان بالله والجهاد الدينى في سبيله .. وقد انطلقوا في كل مكان يبشرون بهذه الرسالة ، وأخذوا بأساليب قوية بارعة نشيطة لنشرها والدعوة إليها حتى كثر المؤمنون بها والمعجبون والثنون . . . وبأليت هؤلاء يعرفون أن الأخلاق الدينية المحض وكل ما يدعون إليه ويبشرون به من الفضائل هو سبيلنا بلا شك

الإخوان
المؤمنون!؟

إلى دخول ملكوت الله ، وإلى امتلاء أنفسنا بالجمال والرضا والثقة ... ولكن السبيل إلى المجد القومى المطلوب ينحصر فى أشياء أخرى : فى الأخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية ... وإذا كان لا أمل لنا فى أن يخرج صيام غاندى الانجليز من الهند ، فإنه كذلك لا أمل لنا فى أن نخرجهم هم وسواهم من الغاصبين بصلاتنا أو صيامنا أو إيماننا المجرد ، أو بأخلاقنا الدينية الصرف . فالأخلاق الصناعية والاقتصادية العلمية المادية هى التى تعز الشعوب وتحلها الندوة .. ويؤسفنا أننا لا نزال محتاجين إلى فهم هذى الحقيقة وإلى تفهيم الآخرين إياها ... أما الأخلاق الدينية المحض فتلك أشياء أخرى ، لها نتائج أخرى . ولهذا فإن المستعمرين والغاصبين والمنافسين وغيرهم من ضروب الأعداء ، لا يرهبون هذى الأخلاق ولا يخشون أصحابها ، ولا يؤلمهم كثرتهم وكثرتها ، بل لعلمهم يعملون على أن تكون الشعوب التى يريدون اقتراسها أو بقاءها تحت سلطانهم وعدوانهم ، متدينة مسرفة فى تدينها ، محافظة على كل فضائلها الدينية ... وإنما ينحى هؤلاء الأخلاق الصناعية المادية العلمانية ، لأنهم يدركون مالهذه من قوة ومنافسة .

ولعله من الواضح المستغنى عن كل بيان أن ألمانيا واليابان وأشياعهم إنما انتصروا فى بداية هذه الحرب المنتهية بصناعاتهم وجيوشهم المزودة بالقنابل والطائرات والمدافع والدبابات الكثيرة المتفوقة ، وأن خصومهم إنما انتصروا فى آخر الجولة بهذه الأمور نفسها ، وأن الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لا فى البداية ولا فى النهاية .

أمريكا اليوم مثلاً هى أقوى منا — مع الفروق المخجلة بلاشك — فىلى ماذا ترجع قوتها وتفوقها علينا ، وإلى ماذا يرجع ضعفنا ومجزنا ؟ من الجلى المفروغ منه أن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب إيمانها بالله ، أو بسبب أخلاقها الدينية أو الروحية ... وإنما نالت هذا التفوق بأخلاقها الصناعية والاقتصادية والمادية والعلمية ، وأنا إنما مجزنا عن اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذى ، لالعجز فى روحانيتنا أو فى إيماننا بالله أو فى فضائلنا الدينية ... لا أحد اليوم يستطيع أن يمارى فى هذى الحقائق بعد أن ظفرت روسيا وجيوشها بأعظم نصر عرفه البشر مع أن هؤلاء سليون من هذه الناحية تماماً .

فطريق المجد القومى إذن يجب أن يكون معروفاً واضحاً متفقاً عليه ، ويجب أن يعلم أنه غير ما يبشر به هؤلاء الإخوان الصالحون ... إن كان هؤلاء الإخوان يعرفون هذا الطريق ولكنهم إنما يدورون حولها الآن اضطراراً ، وإنهم بعد حشد الحشود سيتعرفون

إلى طريقهم الحقيقي : إن كان هذا هو الأمر الذى ينوون فما أبعد ما ذهبوا بأنفسهم
وباتباعهم . ونظنه مخطئاً جداً من حاول أن يقوى نظره بقراءة الحروف الصغيرة تحت
النور الضئيل ...

كم تستولى على شتى العواطف إذا رأيت هؤلاء الشبان المخلصين المتوقدين حمية وغيره
يقادون بهذه الأفكار ، دون أن يدروا من أمرها سوى أنها تسرف في إعطائهم الوعود
السخية الكريمة الرخيصة ، وسوى أنها تؤكد بلوغهم كل ما يرجون ويحبون من آمال
بأضعف الأسباب وأضعفها ... إنى لأهتف أحياناً كثيرة إذا رأيت هؤلاء المؤمنين —
كما كان يهتف أحد أدباء فرنسا إذا رأى أمثالهم : يا للسداجة المقدسة ، ويا للإيمان المخدوع ! .
يقال إن الدعاة ينجحون كثيراً ويلقون المؤمنين الكثيرين بهم بين الشعوب الاتكالية
التي يعتمد أفرادها على الآخرين في تحقيق آمالهم لعجزهم هم عن تحقيقها . فأمثال هؤلاء
يسارعون إلى تصديق كل من جاءهم بفكرة أو مبدأ أو دين أو مذهب ، زاعماً أنه
سيعطيهم كل شيء إذا ما اتبعوه وآمنوا به وأخلصوا في إيمانهم .. ويسارعون إلى التنازل
لمتبعهم أو قائلهم أو زعيمهم أو مرشدهم عن كل شيء فيهم ، ويصبحون له آلات إنسانية
تقاد بأذنيها لا بعقلها ، ويهبسونه منهم الطاعة العمياء . وهؤلاء يعسر جداً إفهامهم
أو إخراجهم من قبضة هذا المؤمن به ، وتذهب الحجج والبيانات لديهم عبثاً ولغوياً ...
فعلينا نحن إذن أن نتوقع رخص الإيمان ورخص المؤمنين ما لم نصبح أئمة استقلالية ذاتية
تعتقد أنها إنما تبلغ آمالها بأعمالها وأفكارها وقواها الذاتية الفردية ، لا باتباع الدعاة
والرؤساء الكرماء بالكلام ... إن أعاصير رجعية مجنونة لتهب في هذه الآونة الأخيرة
على مصر التي رضيناها لنازعيمة ، وإنما لترنح تحتها . ولاندرى أثبت لها أم تتهاوى تحت
ضرباتها الوجيعة .

لست أحاول هنا وقف العاصفة ، فهي لن تقف ، ولكنها ستكسر على الشواطئ
الصخرية ، وستذهب مرّتها في انطلاقتها في هذا الفضاء الرحيب ، وفي دوراتها حول
نفسها . وحينئذ نرجو أن توجد العوامل التي تمنع هبوبها من جديد ، أو لا توجد العوامل
التي تجعلها تعصف مرة أخرى .

ولا أجد مفرّاً من أن أذكر هؤلاء الإخوان أن الروح الدينية كثيراً ما تكون
سلبية تجاه الحياة ، وعطلا في أصحابها إن لم تشايعها روح متوثبة من المادية الواقعية الصارمة

ومن التربية العالية ... وفي الحق أنهم قليلون جداً — إن لم يكونوا غير موجودين — أولئك الذين استطاعوا أن يجمعوا بين التدين وبين الإبداع في الحياة والنهوض بها . ولهذا فإنه ليؤكد يعجز الباحث أن يجد متديناً حرفياً استطاع أن يكون في الحياة شيئاً مذكوراً ، وأن يتقدم بها ويعطيها ما ليس عندها ، ونجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والأساليب المتكررة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه ... والعيب بلا ريب عندنا ليس عيب الدين ولكنه عيب المتدين العاجز عن التوفيق بينه وبين مطالب الحياة .. وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء . ويروي أن زياداً — ذلك القائد الداهية العربي المشهور — قال : أما عبد الله بن عمر فقد تعدت به تقواه — يعنى عن النهوض إلى السيادة والمجد — وقال المتنبى يصف الرجل الذى سيكون عوناً في اتزاع الملك :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم
يريد أنه غير متدين ، لأنه يرى المتدين غير أهل لما يطلب ويراد منه ...
ولما قال أحد الشعراء يمدح المؤمن :
أمسى إمام الهدى المؤمن مشغلاً بالدين ، والناس بالدنيا مشاغلي
غضب وقال : ما زدت على أن جعلتني عجوزاً عاجزة عن الحياة .

فطبيعة المتدين — غالباً — طبيعة فاترة ، فاقدة للحرارة المولدة للحركة ، المولدة للإبداع ... ومن ثمة فإنك غير واحد أعجز ولا أوهن من هؤلاء الذين يربطون مصيرهم بالجماعات الدينية ... ورجع لنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ، ولكن الذنب ذنب النفس البشرية التي لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين ، والتوفيق بين الروحين روح الدين ، وروح العمل للحياة . وسيكون عملنا هو محاولة التوفيق .

وإن مما يؤلم وما يتعجب منه حقاً أن هذا الانهيار الشامل لم يكن وفقاً على الشعوب الإسلامية فحسب ، بل شملها وشمل الشعوب المؤلفة من المسلمين وغير المسلمين فقد اجتاحت الضعف والاندحار والسلطان الأجنبي كل الشعوب الموحدة الإسلامية والشعوب المختلطة حتى لم يفلت صغير ولا كبير من هذه القبضة المحكمة القوية ، ومن هذه البطشة القاسمة . ومن المشاهد الموجهة أن الشعب من هذه الشعوب يظل جامداً في موضعه لا يتقدم ، بل ولا يتحرك ولا يأخذ بشيء من وسائل الحضارة وال عمران القوى ولا بالعلم الحديث

— أولاً يطل مظهره ومظاهر بلاده بذلك — إلا إذا وصل نفسه بهؤلاء الغرباء واستعانهم واستقدمهم كعلمين مرشدين أو قدموا هم غزاة فاتحين . وصار مقدار ما يأخذ الشعب وما يكسب وما يستفيد من هذه الحضارة وهذا العلم وذلك العمران مقيساً موزوناً معدوداً بالسنين والأعوام التي قضاها في كفالة هؤلاء ، وبعدد الشركات والتاجر والمصانع والخبراء الفنيين الذين استخدموا في وطنه وأراضيه ، أو على الأصح الذين سادوا في أراضيه . فكلما كثرت هذه الأعوام والتاجر والشركات وزاد عديد هؤلاء الخبراء والفنيين في وطن من الأوطان كثرت بقدر ذلك مظاهر حضارته أو طلاء حضارته كما هو الواجب أن يقال ، وكلما نقص ذلك نقص ذلك ... ولهذا فإنك إذا أردت أن تسأل : أي هذه الشعوب والأوطان أكثر حضارة وعمرانا ، أو أيها أكثر استعارة للحضارة والعمران ، أو أيها أقدم في ذلك وجب عليك أن تقول : أي هذه الشعوب والأوطان اتصل بأوروبا أول ، وأيها أكثر انتفاعاً بشركات أوروبا ومتاجرها وخبرائها وأموالها وما أحسب بلداً من بلاد المسلمين استطاع أن ينبجوا من هذا الناموس الشامل الصارم وقد شوهد وإلى اليوم لا يزال يشاهد أن الأمة التي تختار العزلة التامة والاكتفاء الذاتي تظل محرومة من كل أسباب هذه الحياة الحاضرة ، محرومة من كل ما يسمى تقدماً ، متمسكة بخيوط تلك الحياة القديمة الواهية . ونحن نعرف وأكثر القراء في ظني يعرفون أن أمة من هذه الأمم اختارت لنفسها البقاء خارج هذه الحلقة المضروبة فصارت مضرب الأمثال في ضعف الشأن وسوء الحال حتى إن بلادها كلها — وقد كانت في أزمان متقدمة موثلاً للحضارة والسلطان والمجد — لا يوجد فيها اليوم طبيب واحد ولا مدرسة واحدة ولا صحيفة واحدة وسكانها لا يقولون عن سبعة ملايين من الأنفس البشرية تحمل أربعة عشر مليون عين وأربعة عشر مليون أذن ! !

ومن الملاحظات الجديرة بكل عناية وتفكير أننا — حتى المتعلمين منا في المعاهد الأجنبية أو في المعاهد الموضوعه حذو المعاهد الأجنبية الذين يحملون الشهادات العلمية العليا التي يحملها زلمتهم من الأوربيين والأمريكيين — قد عجزنا عن اللحاق بالآخرين وعن مساواتهم في الانتفاع بالشهادات العليا والدراسات العليا : فإن هؤلاء المتعلمين منا عندما يتخرجون من هذه المعاهد يتقنون وقصارى أمرهم أن يكونوا مقلدين ناقلين محتدين مراجعين فاقدين كل ابتكار وتجديد وسير بالعلوم التي درسوها إلى الأمام خطوة واحدة ... وإن الذين يحملون الشهادات العليا عندنا في العلوم المختلفة يتعدون الإحصاء ،

ولكن أى ابتكار علمى جاءوا به ، وأية نظرية لم يسبقوا إليها سلمها لهم العلم ، وأى اكتشاف فى ناحية من نواحي المعرفة وفقوا إليه ، وأية خطوة خطوها بالإنسانية القائمة على خطوات بنينا ؟ ؟

أما زملتهم الأوربيون والأمريكيون الذين خرجوا من المعاهد التى خرجوا منها ، والذين يحملون الشهادات التى يحملون فهم الذين يقدمون إلى العلوم وإلى الثروة الإنسانية العامة كل يوم شيئاً جديداً . وهم الذين يفتحون للبشرية كل حين باباً من أبواب المعرفة لم يفتح لأحد من قبلهم . وهم الذين ينفقون أوقاتهم جادين دائبين فى فرش الطريق وإزالة كل العقبات الموجودة فيها . وهم الذين على أجنحتهم طار الإنسان حتى سبق الخيال . وهم الذين تنتظر منهم الإنسانية أن يحققوا لها كل أغراضها وأن يقضوا على متاعها وآلامها ! فما أعظم الفرق بين الفريقين ! فما هى العوامل الخفية التى قضت بهذا التفاوت الخزى المفرع ؟

هذه مناظر بشرية متكررة تؤلم كل نفس ، أو يجب أن تؤلم كل نفس ، ويقف عندها طويلاً كل مفكر أو يجب أن يقف عندها كذلك . ولكننا — والأسباب خفية أو تكاد تكون خفية — نمر بها ممثلة أمامنا ، بل ممثلة فى أوطاننا وفى أنفسنا إذ نحن أشخاص الرواية — بل ومؤلفوها — غافلين معرضين لآمنحتها أقل التفات ولا أسرع نظر . . . فمن منا فكر تفكيراً جاداً صادقاً فى هذه المشاهد الباكية متمسكاً بالأسباب ، باحثاً فى الأعراض والأمراض محاولاً الوصول إلى مصدر الداء وإلى علة العلة ؟ ومن منا قال لنفسه أو لغيره : إن هذه ظاهرة غريبة ، وحالة اجتماعية مريبة ، كيف حدثت وكيف يمكن أن تعالج ؟

إن المطابع عندنا تخرج لكبار الكتاب ولصغارهم كل عام ما يصعب عدة من الأسفار المؤلفة فى الآداب ونحوها ولكن أى كتاب أخرجته فى هذه القضية بل أى كاتب فكر فيها ؟ الظاهر أن الشعوب إذا مرضت أمراضاً اجتماعية خطيرة ضعف شعورها بالحياة ، ثم تبع ذلك ضعف شعورها بأمراضها وآلامها ، ثم تبع ذلك ضعف تفكيرها فيما أصابها وما يصيبها ! والإحساس بالآلام هو فى الحقيقة برهان الحياة الفياضة المتدفقة وبرهان القوة والعافية . . . ومن أجل هذا كان إحساس الإنسان أقوى من إحساس الحيوان ، وإحساس الحيوان أقوى من إحساس النبات ، ثم الجماد لا إحساس له لفقده

الحياة . بل إن الكبار أعظم إحساساً من الصغار لأن حياة هؤلاء أكبر من حياة هؤلاء! وإذا عرفنا هذه الحقيقة لم يكثر تساؤلنا ولا استغرابنا لخضوع الشعوب والجماعات المنحطة القريبة في معانيها من الحيوانات بصبر هو الرضا عينه لكل هذه الآلام المصوبة عليها ولاستعباد الآخرين الأقوياء لها ، غير محاولة أن ترفع رءوسها أو تلقى عن كواهلها شيئاً من هذا العذاب ، أو مفكرة تفكيراً صحيحاً جداً في أنها مظلومة مستعبدة أو أنها موضوعة في غير الوضع الإنساني الصحيح ... بينما نجد الشعوب والجماعات الأخرى ذات الحياة والشعور القوي والإحساس الفياض تقوم قيامتها على من أراد أن يصيبها بشيء ، ما من هذه المصائب التي تنزل كل وقت بالجماعات والشعوب الأولى ... فلا يجب أن نعجب إذن كثيراً إذا رأينا أمة من الأمم تسام كل ألوان الخسف غير قائمة : لا ، بل غير متألمة بل غير شاعرة بعذابها ، ثم رأينا أمة أخرى تعصف بكل ما أمامها إذا ما مسها ماس ... ومن هنا كان المتنبي حكيماً جداً حيناً قال :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بمت إبلام

وليس بحميل منا أن نطالب الجماعات بأن تفكر في حالتها المنكرة الخبيثة وتفكر في محاولة تغييرها ونبذها حتى نستطيع أن نشعرها بآلامها ونشعرها بأن هنالك حياة إنسانية أرقى وأفضل من حياتها التي تحياها . هذه خطوة في أول السلم لا بد منها ... فالسبب إذن في أن قومنا لا يفكرون كما يجب في دأهم العضال ، ولا يتطلبون أو يتامسون له العلاج هو أنهم لم يشعروا به شعوراً قوياً يبعث على الإنكار أو الثورة لأن أمراضهم اشتدت بهم حتى صاروا لا يكادون يحسونها . ومن عجب أن يكون وجود الشيء وشدته باعثاً على عدم الشعور به ! ومن هنا أيضاً كان المتنبي حكيماً خبيراً جداً حيناً قال مبيناً عن هذا المعنى الدقيق الغامض :

وشكيتي فقد السقام لأنه قد كان لما كان لي أعضاء

أما أنا — وقد يكون هذا لسوء حظي — فلقد فكرت في هذه المسألة تفكيراً شاقاً مضنياً ، وما زلت منذ ست سنوات أو تزيد ورأسى يلتب بالتفكير فيها التهاياً ، مقلباً لها على كل الوجوه ، محاولاً إنضاجها في معمل الفكر . وما فتئت كل هذه الأعوام أثير مع الأصدقاء ومن يظن بهم الفهم والعلم حولها المعارك الكلامية ، والحروب الجدلية ، بغية الإحاطة بها من كل أطرافها ، والإمام بأسبابها ، حتى لقد ظننت بها شبه مريض ،

أشقى إذا تحدثت فيها وأمراض إذا سكت عنها... وقد اجتهدت أن أدرس القضية درساً دقيقاً من كل وجوهها واحتمالاتها، فدرستها في الكتب التي ظننتها مصدر الداء، ودرستها في التاريخ الخاص والعام، ودرستها — وهذا أبلغ الدروس — في نفوس المسلمين: في نفوس الخاصة والعامّة المتعلمين والجاهلين، الآخذين معارفهم عن الشرق أو عن الغرب... وقد حرصت كل الحرص لما تشرفت بأداء فريضة الحج في العام الماضي على أن أتصل بالمسلمين الذين جمعهم هذه الفريضة اتصال بحث ودرس وتنقيب واستقراء، وأصررت على أن أغوص إلى الأعماق وأن أستخرج الدفين الكمين، وأن أصل من تلك النفوس الحائرة إلى ما لم يوصل إليه قبلاً، وأن أكتشف منها ما ظل كل هذه الأحقاب مجهولاً حتى بلغت — حسب ظني — ما أردت. وقد كان كثيرون من الإخوان يعجبون من عنايتي بالصغار المتصلة بهذه القضية إذا ما رأوني ملحاً في السؤال، ملحفاً في طلب الاكتشاف، وإذا ما رأوني أسأل وأكلم من لا يجوز — باديء الرأي — أن يسأل وأن يكلم من دهاء الناس وعامتهم.

وقد خيل إليّ أني قد صدرت في هذه الدراسة والبحث عن نتيجة طيبة كاملة بل نتيجة صحيحة لا شك فيها عندي، فحُتت أعرضها هنا عرض مؤمن بها وأسجلها تسجيل مؤمن بما سجل.

أن التفاوت الذي ذكرناه بيننا معشر المسلمين وبين الأجناس والأمم الأخرى لا بد له من أسباب وعلل. وهذا ما لا ريب فيه. فليس من العقول أن يكون تقدم قوم وتأخر آخرين مشابهيين لهم في ظاهر الخلق بل وباطنه مجرد صدفة من الصدفة أو مجرد اتفاق لا تعليل له، بل كل شيء قائم على أسباب وعلل.

والسألة لها احتمالان أو فرضان من حيث النظر العام: أحدهما أن يقال: إن هذا التفاوت طبيعي في أصل التكوين وجبله الفريقيين. وثانيهما أن يقال إنه تفاوت عارض له أسباب عارضة من الممكن علاجه ومن الممكن الشفاء منه.

أما الفرض الأول فليس من الممكن القول به ولا المصير إليه. وذلك أن تطور العقل البشري في جميع مراحل ومراحل وجوده — وأن التاريخ العام لقيام الأمم وسقوطها ولتوثبها وركودها — وأن تعاقب الأمم والشعوب على عرش الحضارة وتداولها الأخذ بيد المدينة — وأن اختلاط العناصر وتمازجها — بحيث لا يوجد عنصر نقي

حقيق لا تشوبه شوائب العناصر الأخرى التي فرضت متأخرة طبيعة أو فرضت متقدمة طبيعة — وأن ما ثبت ثبوتاً لا ينهض لهدمه شيء من استعداد كل إنسان — حسب ما يصادفه في طريقه وحياته — لأن يكون إنساناً راقياً مهذباً أو إنساناً منحطاً فاسداً — إن ذلك كله — مضافة إليه أشياء أخرى كثيرة — لا يبيح لهذا الافتراض فرصة لأن يكون مقبولاً قائماً . وهناك شيء آخر في هذه المسألة هو أعظم مما ذكرنا وأظهر . ذلك أن علماء التشریح قد أثبتوا أنه لا فرق يذكر بين جمجمة هذا الإنسان السيد الراقى اليوم وبين جماجم هذه الشعوب التي نشكو اليوم من ضعفها وهوانها لا من ناحية الحجم ولا من ناحية التلايف والتعقيد والوضع . وأثبتوا أن المخ العام في أمنا الواهنة المغلوبة على أمرها والأم القوية المتكثرة التحكمة في مصائر العالم ليس له فروق يوبه لها تقضى بهذا التفاوت العنيف البعيد ... فهذا الافتراض مفروغ إذن من بطلانه ، وإذن فالافتراض الآخر هو الصحيح الواجب المصير إليه ، وعليه بنينا بحثنا وكتابنا .

وسنبت في الفصول الآتية أن المسألة لا تعدو أن تكون تفاوتاً بعيداً في فهم الحياة وفهم سنن الوجود وفهم ما بين الأسباب والمسببات من ارتباط ، وفهم الإنسان نفسه وفهم صلات الإنسان بالإنسان وصلاته بالوجود وفهم كل ما يقع تحت الحس والوجدان ، وإن الحواجز والعوائق التي وقفت في سبيل المسامين لا تخرج عن أن تكون عوائق معنوية نفسية اعتقادية حملوها أنفسهم فوهنت ، ووضعوها في طريقهم فغادوا عن الطريق ، وجللوا بها الوجود فلم يفهموه أو يعرفوه ولم يعرفوا حدوده وأرجاءه وقوانينه ، فتأهوا فيه وذهبوا إلى غير مذهب وسلكوا غير سبيل . فاعترض طريقهم من عرفوا الطريق وأخذهم بقوة سنن الحياة من علموا سننها .

شعبان هبط هذا الكوكب الأرضى الواسع الأرجاء الكثير الأخطار ، أحدها فكر في نواميس هذا الكوكب الذى هبطه وفي قوانينه ونظمه وفي نواميس أهله وقوانينهم ونظمهم تفكير فاحص فاهتدى إلى كل شيء مما يتصل بذلك فسار تحت ضمان معرفته في قوة لا يكبو ولا يضل ، فاستغل واستقل وثبت أقدامه وقواعده على العلم والعرفان ... وشعب آخر هبط غريباً في هذا الكوكب جاهلاً بنواميسه وقوانينه ونواميس من فيه وما فيه وقوانينه ، بل جاهلاً بنواميس نفسه ونواميس وجوده ، فلم يدرك كيف يأخذ ولا كيف يدع ولا كيف يسير ويتجه ، ولم يعرف ما يقوده إلى النجاح والفوز

ولا ما يؤدي به إلى الفشل والدمار.. هذان شعبان فإذا عسى أن تكون النتيجة لاجتماعهما؟
ليس هنالك أدنى ريب في أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان، وقد كانت حقاً، وليس هنالك
أقل تردد في هزيمة الجاهل إذا ما اصطدم بالعالم وقد حقت بلا صعوبة.

فهممتنا إذن في هذا الكتاب — بل مهمتنا العامة — أن نعمل على دلالة قومنا
بأن الله جلت قدرته وضع لهذا الوجود سنناً لا تبديل ولا تحويل لها، وأن هذه السنن
تسير — وفق حكمته وعدله — سيراً دقيقاً موزوناً مقدوراً لا تشويش فيه ولا اضطراب
كأنه مسألة رياضية لا يختلف في حلها العلماء ولا تختلف نتيجتها لاختلاف العلماء الحاليين
لها. فالنتيجة هي هي واحدة سواء أقام بحلها المسلم أم قام بحلها الكافر، وسواء أحلها
الشرقي أم حلها الغربي فإن الحقائق المجردة لا تتغير لاختلاف المتناولين لها أو لاختلاف
أديانهم ومبادئهم... فإذا ما استطعنا — وذلك ما يجب أن نستطيعه — أن نفهم
قومنا ذلك، وإذا ما استطاعوا هم أن يفهموه حقاً — وذلك ما يجب أن يفهموه — كان
من اليسير جداً بل ومن الحقيق يقيناً أن يسيروا سيراً سريعاً — لا إبطاء ولا تأخير —
في سبيلهم التي خلقهم الله وأعدهم وهياهم وأمرهم للسير فيها — أي إلى الكمال وإلى
الحياة القوية. [فإن الله] قد ذرأ خلقته وذرأ فيها بذور الكمال وذرأها مهياً لأن تبلغ
أقصى ما في الحياة من قوة ونجاح. وذلك أن [الله] خلق الأشياء لتكون كاملة لأنه كامل،
ولتبلغ أشدها في وقت من الأوقات كما قلنا. فالحيوان — وعلى رأسه الإنسان طبعاً —
والنبات والجماد خلقت وفيها عناصر الشوق الطبيعي الآلي والشوق الاختياري الإرادي
إلى الكمال... وقد حدث العلماء أن هذه الشمس الباهرة الوضاء، وهذه النجوم المتلألئة،
وكل هذه الأفلاك التي تزين الظلام في حلقة الليل الأصم — وهذه الأرض التي صارت
من كمالها وقوتها تنبت الإنسان والحيوان وكل ما فيها مما يحل عن الحصر والتسمية
ومما يسعد الإنسان ومهبه الراحة والعيش الهنيء: حدث العلماء أن كل هذه الموجودات
خلقت — أول ما خلقت — لا تصلح لشيء مما هي صالحة له اليوم وليست شيئاً له قيمة
بالنسبة لما صارت إليه اليوم. ولكنها ظلت — لما وضع الخالق فيها من استعداد للكمال
والتقدم — تدرج إلى غاياتها وتجو في طريقها جادة لا يعوقها عائق ولا يصدها صاد
حتى أصبحت اليوم شمساً ونجوماً وكواكب لامعة تعمر الوجود بهجة وجمالاً وحياة
وضياء...

والإنسان بلا أدنى ريب وهب من الاستعداد للكمال والثوب والقدرة على إبراز
أجمل ضروب الحياة وأقواها ما لم يوهب مخلوق آخر ، ولكن الإنسان — لسوء حظه
وقد يكون لحسن حظه — جعل سيره نحو الكمال اختيارياً وآلياً معاً لا آلياً فقط —
بمعنى أنه من الممكن بالنسبة له السير نحو الكمال والسير أيضاً نحو النقص والدمار . وكلا
الأمرين بيده وتحت مشيئته لأن الله شاء له ذلك .

فكان من اللازم الضروري المحافظة حينئذ على خطواته كيلا يزل أو يضل ولكيلا
يخرج عن الطريق . ولا جدال في أن شيئاً من الأشياء لا يستطيع أن يصل إلى غايته
المرسومة إلا إذا أزيلت عنه العوائق وزحزحت الموانع ثم استعملت المواهب الكامنة فيه
وألهمت استعداداته الطبيعية . ولكن يجب أن يفهم هنا — وهذا له شأن خطير كبير —
أن في استعداد المواهب البشرية وفي طاقتها أن تمضي في سبيلها دون وقوف ، فعلينا
أن نرفع هذه الموانع ثم لا نحتاج بعد ذلك لأن نلتمس مهماً نرفع به الإنسان إلى العمل
بطبيعته بل هذا المهماز موجود فيه وفي طبعه . . . فارفعوا هذه الأوهام والخرافات
والقيود الذهنية والأغلال الاعتقادية ثم انظروا كيف يكون الإنسان .

وإن رجائي إلى كل قارىء لهذا الكتاب أن يشاركني الاهتمام بهذه القضية الإنسانية
الكبرى ، وألا يعتقد أن المسألة لا تخرج عن أن تكون أفكاراً تقرأ أو سطوراً تتلى
ثم تنسى كما تنسى صفار الحوادث اليومية .

والله المستول أن يلهم الصواب والحكمة ، وأن يعين على بلوغ الغرض المنشود ،
وَألا يجعل العمل باطلاً ولا الجهد ذاهباً .

عبد الله القصبي

لقد كفروا بالإنسان — الإيمان به أول

العلم للرحمن جل جلاله	وسواء في غمراته يتقم
ما للتراب وللعلوم وإنما	يسعى ليعلم أنه لا يعلم
	[الزمخشري]
نهاية إقدام العقول عقال	وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
	[الرازي المفسر]
فيك يا أغلوطة الفكر	حار أمري واتقضى عمري
سافرت فيك العقول فما	ربحت إلا أذى السفر
فلحي الله الألى زعموا	أنك المعروف بالنظر
كذبوا . إن الذي ذكروا	خرج عن طاقة البشر
	[ابن أبي الحديد المعتزلي]
لعمري لقد طفت المعاهد كلها	وجولت طرفي بين تلك العالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر	على ذقن أو قارعا سن نادم
	[الأمدى المفسر]

بعثت إحدى الشركات الكبرى بخرائها الفنين إلى مكان ما في دولة ما للقيام بالبحث عن النفط ، وبعد القيام بالاختبارات اللازمة الأولية تقضوا أيديهم قائلين : إنه لا يوجد نפט في ذلك المكان وإن وجد فقادير ضئيلة لا توازي التكاليف والتنفقات . فتخلت الشركة عن هذه الثروة المرتجاة . ولكن شركة أخرى أرسلت خبراءها إلى المكان نفسه ، للغرض نفسه ، في الدولة نفسها ، فجاءت النتيجة مقررة وجود ما ينشدون ، فأسرت تلك الشركة إلى شراء تلك الكنوز الخبوءة المجهولة المقادير من أهل تلك البلاد ، ووضعت لها ولهم شروطاً اتفقوا عليها . فبدأت أعمالها وأخرجت الكنوز فأفادت هي وأفادت البلاد وازدادت بتلك الثروة العالمية العامة والتفت العالم إلى ذلك المكان وحسبوا له الحساب بعد أن كان في حساب النسيان والإهمال .

هذه حادثة وقعت سقناها هنا لنقول إن الإنسانية في نظرها إلى نفسها وإلى مواهبها الكامنة وكنوزها الداتية الخبوءة تشبه خبراء الشركتين في اختلاف رأيهم في وجود

النفط وفي اختلاف النتائج التي تلازم كلا من الرأيين والنظرين ... ففريق من الإنسانية — بل أم وشعوب — ينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأولى اليائسين من الحصول على النفط في ذلك الموضع ، أي ينظرون إلى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط من أن يكون فيها مواهب نادرة واستعدادات طيبة يكمن وراءها النبوغ والعبقرية والكنوز الداتية . بل يرون أنهم خلقوا ضعفاء مجدين ، وسيقون كذلك ضعفاء مجدين ما بقوا ، ويرون أنهم خلقوا من الضعف للضعف فلن يعدوا طورهم ولن يقدموا نطقاً ولا غيره . فلا يحاولون القيام بعمل ما لاستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده ، فيظنون كما ظل ذلك المكان مئات الألوف من السنين لا يأتون بشيء ولا يلفتون نظر أحد ولا يفيدون الإنسانية شيئاً ولا يضيفون إلى ثروتها المختلفة قليلاً ولا كثيراً ...

أما أفراد آخرون وشعوب أخرى فينظرون إلى أنفسهم نظر خبراء الشركة الأخيرة المؤمنين بوجود النفط وبوجوب استنباطه فيرون — وهم ينظرون إلى أنفسهم — أنهم حريون بالاستثمار والاستغلال وأن مواهبهم الطبيعية حرة بأن تخرج وتصدر النبوغ والعبقرية ، فينشطون إلى العمل ويأخذون بكل الوسائل ، فيصبحون ما شاءوا مجدداً وضخامة شأن ، ويصيرون أعظم مصدر للحضارة البشرية وأكبر مولد للقوى العلمية .

وهذا يلخص أظهر الفروق بين الشعوب ، وهو الذي يحدد اتجاهاتها ويضع لها طرقها ، فالشعوب والأفراد الذين لا يؤمنون بأنفسهم ولا بالإنسانية ولا بقواها يقفون في مكانهم لا يتقدمون لأنهم يجهلون مصادر القوة التي يكون بها التقدم وهي الاستعداد الذاتي الذي لا ينضب ولا ينفد والذي لم يقيد بقيود ولم يحد بمحدود . فيهملونها كما يهمل الجاهلون العاجزون العافلون القوى الطبيعية الخصب بدون استغلال ولا استثمار وهي تحت أقدامهم وبين أيديهم وأمام أعينهم ، وهذا هو شأن الأمم المهمجة والأفراد المنحطين ... لكن الشعوب التي تؤمن بإيمان علم واستيثاق بهذه الموارد البشرية والكفايات الإنسانية والطبائع الفنية ينهضون للاستنباط والاستخراج وللشجذ والصقل فيثرون ذلك الإثراء العظيم . فيصبح الفرق بين هؤلاء وهؤلاء مثل الفرق بين موضعين محضيين غنيين بالمعادن وبالعناصر اللازمة لضرور المزروعات : أحد الموضعين استغل واستغلت كنوزه وطبيعته ، وترك الآخر مجهولاً مهملًا .

إن الشعوب الراقية تمتاز بالإيمان بالثراء الإنساني الطبيعي ، ولهذا تحاول الظفر

بكل شيء والوصول إلى كل شيء ، والتغلب على كل شيء وتجربة كل شيء ، فتسير إلى
الأمام بالمدنية وتسير بالحياة خطوات واسعة ، وتدفع في سبيلها كل عناصر الحضارة وتنقل
الإنسان في وجوده وحقيقته من طور إلى طور أعلى وأرقى . وما من شعب — سواء
أكان في الشعوب الحديثة أم في الشعوب القديمة — أمكن أن يسود وأن يقتعد مقعداً
ملحوظاً رفيعاً إلا وكان متزوداً بهذا الإيمان بقدر معلوم معين . وقد كان الإغريق
والرومان والصربون القدماء والعرب وأوروبا الحديثة وأمريكا طبعاً وغيرهم ممن أوجدوا
التاريخ الإنساني وصنعوا الحضارات مدفوعين — على أقدار مختلفة متفاوتة — بفيض
من هذا الإيمان . وكل شعب يكفر بالإنسانية — الإنسانية المطلقة ، إنسانيته هو وإنسانية
غيره — ويكفر بمواهبها وثرواتها الذاتية الطبيعية ويؤمن بأنها مقيدة بقيود وحدود
لا تتعدها ولا تتخلص منها ، وأنها ليست مطلقة القوى وليس متروكا لها الطريق
— الطريق الذي ليس له نهاية تحده ولا غاية تلزمه الوقوف عندها — نعم كل شعب
يكون هذا رأيه وهذا إيمانه بالإنسانية لا محالة من أن تفتر همه وبضعف عمله وأن
يقف عاجزاً عن التحليق في سماء اللانهاية ، وأن يرضى من زمنه بالتافه الحقير وبالتصيب
اليسير ... ولو أن هذه الأمم التي ترهب العالم اليوم وتسوقه إلى غاياتها الخاصة فقدت هذا
الحافز ورأت أن للتقدم وللعلوم وللقوى وللعلو والسير إلى الأمام غايات وحدوداً لا يستطيع
قهرها ولا اجتيازها لأثر ذلك أعظم تأثير في توثبها وفي حياتها ووجودها ، تأثيراً لا شك
في أنه يحد من سلطانها ويضعف من شأنها .

لماذا ينبغ العبقريون الذين يهدون إلينا المخترعات والمكتشفات ؟ بماذا يمتازون
على الآخرين الذين لم ينبغوا نبوغهم ولم يكونوا مثلهم ؟ أيمتازون بالذكاء الخارق ؟ ليس
هذا كل ما يميزهم ، إذ لا شك في أنه يوجد في من لم ينبغوا نبوغهم من هم مثلهم ومن هم
يفوقونهم ومن هم قريبون منهم ذكاء . إذن أيمتازون بالهمم الوثابة التي لا تعرف الكلال ؟
لا ريب في أن هذا من أعظم وأظهر ما يمتازون به ، ولكن لماذا يمتازون بهذه الهمم
التي لا تمل العمل والإقدام ولا تكل من الإجهاد والإرهاق ؟ يغلب على الظن أن الذي
يزودهم بهذه الهمم الخاصة الممتازة والذي يقدم لها الوقود حتى لا تقف والنشاط حتى
لا تنصب هو هذا الإيمان بالمقدرة الإنسانية ، وإيمانهم بأنهم متمتعون بالقوى التي ستوصلهم
إلى غاياتهم وأهدافهم والتي ستتم لهم مخترعاتهم ومكتشفاتهم ... وليس من موضع للشك

في أن أحد هؤلاء لو أنه فقد هذه الشعلة — وهو في طريقه للجد الخالد بل وهو يني
مجد الإنسانية الأرفع — لوقف في مكانه يحيط به اليأس ويغمره الكلال ...
وقد اتصف كل أولئك الذين جاءونا بالمخترعات والمكتشفات الكبرى التي نحميا
اليوم هذه الحياة على حسابها بمعين من هذا الإيمان بالطبيعة البشرية لا يعرف النضوب .
وقد استطاع مكتشفو أمريكا وغيرها — يدمم هذا الإيمان الفياض — أن يتخطوا عقبات
وحوائل عجز كل أهل عصرهم ومن قبلهم عن تحطيمها ، وقد خارت كل القوى والعزائم
أمام المعوقات التي خارت هي أمام عزائمهم وقواهم المشبوبة بحرارة هذا الإيمان . وقد
حاول تخذيلهم وترهيبهم وتعويقهم كل من عرضوا عليهم فكرتهم وإيمانهم ولكن لاشيء
استطاع أن يثنى ذلك الإيمان الذي جاءنا بأمريكا الجبارة وغيرها .

وكل أصحاب النظريات العلمية والدعوات الإصلاحية التي سيطرت على مصير التاريخ
وغيرت مسيره كانوا ممدنين بهذا الإيمان الذي لا يتضعض ... أن أعظم فرق — أو أعظم
ما أوجد الفرق بين الأمم المهمجية والرجال الحاملين وبين الأمم المتمدنة والرجال المتوثبين
— هو هذا الإيمان بالإنسانية . فالأمم والرجال الذين وثبوا امتازوا كما ذكرنا بهذا
الإيمان ، والأمم والرجال العاجزون القاعدون — وكذلك الأطفال — لم يرزقوا هذا
الإيمان ، بل رزقوا — وأخبت به رزقا — الاعتقاد اللازم للسيطر بأن الإنسان خلق
عاجزاً محدوداً مهيناً حقيراً لا قدرة له على التحكم في الطبيعة القاهرة الغالبة ولا يد له تستطيع
الامتداد إلى تغيير هذا العالم الذي أوجده الله ولا إلى تغيير صبغته التي صبغها الله بها ...
فعلية أن يعترف بعجزه وحقارته وضعفه وحدوده وألا يتجاوز قدره أو يتخطى طوره ،
بل عليه أن يفر أمام الطبيعة وأمام ظواهرها وأن يركع مستسلاً مستخذياً طالباً النجاة
والعافية كما تصنع الشعوب الأولية البدائية ، وكما يصنع الأطفال الأغرار وكما تصنع العجاوات
إزاء كل ظاهرة طبيعية ومنظر كوني ومشكل خطير كبير وأزمة محتاجة غالبية .

أن رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحني أمام المشكلات الإنسانية الكبرى كمشكلة
الفقر ومشكلة المرض ومشكلة البطالة ومشكلة الجذب ومشكلة الجهل ومشكلة الأخلاق
ومشكلة الاستقلال والسيادة الوطنية وكل مشكلة ... ويرون أنهم ليسوا أهلاً لحل مشكلة
من هذه المشاكل ، بل وأنهم غير مخاطبين بحلها ، بل وأن محاولة حلها وعلاجها
من التناول على الله ومن محاولة الوثوب على مقام الألوهية المقدس . وما عليهم إلا أن

ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاؤون ويشتهون؟ وكل ما يجب عليهم في هذه الحالة أن يطيلوا الدعاء والبكاء وأن يصدقوا الضراعة والمسكنة وأن يجملوا الانتظار... وهكذا تمر الأيام والشهور والسنون، بل والقرون، وهم يؤملون وينتظرون ما لن ينالوا لأن الله لا يفعل لمن لا يفعل لنفسه، ولا ينصر من لا ينصرها كما قال القرآن: « إن تنصروا الله ينصركم » وفي الإنجيل: « أن الله يعين عبداً يعين نفسه » .

أما الآخرون المؤمنون بالإنسانية وبأنفسهم فيهبون لعلاج كل مشكلة وينهضون لحل كل عيب، فيصيرون مرة ويفشلون أخرى إلى أن يصيروا في النهاية النجاح الحقيقي الأكبر. وهنا تصبح الإنسانية إنسانيتين: إنسانية راقية ناجحة عالمة قوية وأخرى ذليلة فاشلة جاهلة ضعيفة وقد أصبحنا — وأسفاه — من الإنسانية الأخيرة .

إن أولئك يريدون كل شيء من السماء ومن الآلهة المتعددة الأخرى . أما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم وأن يعولوا عليها وأن يطلبوا منها كل شيء وأن في استطاعتها أن تهبهم ما فقدوا وما احتاجوا إليه... فيدعون في الأعمال ويسرون في الطريق، أما أولئك فقصاراهم النجيب والدعاء المذل، ثم الانتظار الطويل الممل، ثم التسلى والاشتغال بذلك كله عن العمل وعن اقتحام الصعاب .

وإن أبشع صورة لهذه الحالة النكراء هؤلاء الخطباء الذين يقرعون مسامعنا كل يوم جمعة بهذه الضراعات الكاذبة والابتهالات الوقحة الدليلة — داعين على الآخرين — سائلين الله أن يسقط عليهم السماء أو يخسف بهم الأرض أو يجعلها عليهم ناراً، وأن يدعهم وأن يجعلهم هم وأمواهم ونساءهم وذراريهم غنيمة باردة لهم ولأمثالهم من المسامين العاجزين عن الحياة . ولكن الله لن يصنع ذلك أبداً ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، لا حتى تمتد ألسنتهم بالسوء والسباب وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين العاملين والحسد لهم .

ومعلوم أن الدعاء أضعف وسيلة يلتقي بها عدو عدوه، بل إنه ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تعويض وتصريف خبيثة ضارة . وبيان ذلك أن إنساناً ما إذا غضب أو حنق على إنسان آخر — أو أمة على أمة أخرى — لسبب من الأسباب كالظلم والعدوان أو المنافسة والحقد والحسد — صار هذا الحنق والغضب قوة دافعة، من الممكن، أو من المؤكد، أن تدفع ذلك الحائق الغاضب إلى العمل أو إلى الانتقام

والبطش . ولا محالة من أن تدفع هذه القوة في سبيل ما من سبل الاندفاع . والسبيل الطبيعي النافع لها أن تدفع في سبيل الانتقام والبطش أو العمل والإنتاج — أى ينتقم المظلوم من ظالمه أو يعمل وينتج ليلحق أو يسبق منافسه الذى أضرم في قلبه نار الغيظ . ولكن إذا وجدت هذه القوة لها متنفساً وطريقاً آخر غير هذا الطريق الطبيعي انطلقت فيه فألفت في انطلاقها هذا تعويضاً ومصرفاً عن الوجه الآخر . وهذا معروف في كل القوى المندفعة بالضغط أو الدفع . وإن أعظم قوة تسيير أعظم الآلات وأكبرها لتعجز عن القيام بوظيفتها هذه إذا وجدت لها طريقاً غير هذا الطريق أو متنفساً .

وقد كان المفروض في هذه الشعوب والأفراد الحائقة الغاضبة المهتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن تقوم بعمل ما مثمر لتحطيم هذه الحواجز والقيود والأغلال والفروق الظاهرة المخزية — تدفعها قوة الخنق أو قوة الحسد والمنافسة . ولكن هؤلاء سلكوا طريقاً آخر لتبديد هذه القوى الداتية النفيسة ... أنهم اشتغلوا بالسباب والدعاء والاتهام وسأروا ألوان الكلام ، فوجدوا في ذلك أعظم راحة تخلصهم من تلك القوى المتولدة من احتراق الانفعالات والعواطف المختلفة .

إنها فروض ثلاثة : إما أن تدفع هذه العواطف إلى العمل وإما إلى الكلام ، وإما أن تبقى لها مخامراً وغيظاً دفيناً ، تحتبس نيرانه المتوهجة في النفس ..

أما العمل فهو ما يجب أن يكون أثراً لهذه العواطف وبهذا تصبح نافعة مفيدة حافزة على النجاح والإبداع . وأما الكلام — أى السباب والدعاء والاتهام — فهو المصرف الحيث لها والملهة المفسدة المعوقة للبشر عن الإنتاج والعمل النافع . وأما الهموم ودفن الأحقاد في حنايا النفس فهذا قد يكون شر الفروض الثلاثة من الناحية النفسية غير أنه لا ريب في أن هذه العواطف والانفعالات هي من القوى الدافعة الضاغطة كما ذكرنا ، فلا بد أن تنتهي بصاحبها إلى أحد الأمرين الأولين : العمل أو السباب والتشفي الساذج . فلنحذر الأخير لنصير إلى الأول .

لقد رأينا — وإننا لا نزال نرى ، كما يرى غيرنا أيضاً — الحشود الكثيرة التي وجهت هذا التوجيه السخيف القاتل ، تظل تقتل أوقاتها وتجوذ بساعات نفيسة من ليها ونهارها في الدعاء على المتفوقين الناجحين ، وعلى الظالمين الذين يجب أن يقاوموا وفي السب والاتهام لهم ونثر الإشاعات عنهم ، وفي الآمال الباطلة الراجية من الله

أو من الزمان أن يتبرع بتدميرهم وبالقضاء عليهم — لا لشيء إلا لأنهم هكذا يشتهون ويريدون.. وإن هؤلاء البائسين ليشعرون بأعظم العزاء في هذا الأسلوب البدائي المنكر!! وهم لا يدرون أنهم بذلك يحطمون أمضى سلاح أودعه الله فيهم للانتقام أو للمنافسة والمباراة والتداود حول مشرع الحياة .

وكم من الفروق بين أن تقوم بعمل ما — مهما كان هذا العمل صغيراً — إزاء منافس قوى أو ظالم جبار وبين أن تذهب تصطفي أربع ألفاظ الدعاء وأجمعها ، وأقبح الإشاعات والاتهامات وأشنعها ، لتنتزعها من أعماق عاطفة محترقة مضطربة لتصلى بها منافسك أو ظلمك فلا تصلية ولكن تصلى نفسك وتدمر حياتك ، فلا تزداد إلا احتراقاً وهبوطاً بينما يزداد هو مجداً وارتفاعاً .

ولعله مما يبالغ ويضعف في سرور أعدائنا المحتلين أن تنشق حناجرنا كل أسبوع في مساجدنا بالدعاء عليهم وبلغهم وقذفهم لأنهم يعلمون عواقب ذلك كله . وأن المثل العربي القائل : « لا تلعنوا الظلام ولكن أوقدوا الشمعة » خير ما يجب أن تنسج على نوله التريية والتوجيه العاطفي والعقلي .

وقد لونت الثقافة التي ما زلنا منذ ألف سنة تقريباً نطمع على مائدتها بهذه الألوان الدكناء ... فمن رأى هذه الثقافة — وهو الرأى الذى لارأى لها سواء — أن الإنسان ما خلق ليكون يوماً ما عظيماً بل إنه خلق ضعيفاً فى عقله وجسمه ، وليس له مفر من هذا الضعف . وكل محاولة تبذل للفرار من هذه الحقيقة هى محاولة خاسرة . وعند هذه الثقافة أن الإنسان محدود وأنه ليس من المستطاع أن يخرج من حدوده إلا إذا كان من المستطاع أن يخرج من عبوديته ومخلوقيته . فإن هذا التحديد الذى زعموه وخلوه هو أحد معانى العبودية والمخلوقية وأحد ما يلزمها . وإطلاق القوى المختلفة من الحدود والقيود لا يكون — فى رأى هذه الثقافة — إلا للخالق وحده . والأشعار التى أوردناها فى مطلع هذا البحث تبين عن حكم هذه الثقافة فى هذه القضية أحسن إبانة : فى قول الزمخشري أن العلم لله وحده أما من سواه من المخلوقين فهم فى غمراتهم أو غفلاتهم يتعمقون ، وليس لهم أن يطلبوا علماً ولو حاولوا هذا الطلب لما بلغوا ما طلبوا ، وذلك أنهم تراب : خلقوا من التراب ومصيرهم التراب ، وما للتراب وللعلوم . وهم إنما خلقوا ليعلموا وليعلم سواهم أنهم غير قادرين على أن يعلموا شيئاً وأن يكونوا علماء وأن يفتوا من أصفاد الجهل :

ما للتراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم

فالإنسان عند الشيخ الزمخشري ما خلق إلا من أجل التدليل بجمله على أنه جاهل جهلاً طبيعياً لا يمكنه التفلسف منه . وهذا بمثابة الحكم بالإعدام على المواهب الإنسانية بل على الإنسانية في كل معانيها .

وأما الشيخ الرازي فيرى أن أقصى خطوات العقل البشري أن يعجز عجزاً مطلقاً وأن يقع في عقول يمنع التفكير والعمل والتقدم والتأخر . ومعنى هذا أن العقول كلما فكرت وعملت وحاولت الإقدام في مجالها ازدادت حيرة وضلالاً وضعفاً وجهلاً وعجزاً عن المعرفة ! فمن الخير لها إذن أن تحجم وألا تقدم ، ومن الخير لها أن تبقى في مكانها لا تبرحه لثلاث تفضل ولثلاث تذهب بداداً ثم لا ترجع أبداً .

لكن ابن أبي الحديد يحكي أنه قد أضاع عمره كله في تلمس الحقيقة — والحقيقة أغلوطة من أغاليط الفكر — وأنه حار في أمره . ويحكي أن العقول الأخرى أيضاً قد سافرت وجهدت قبل أن يسافر ويجهد عقله هو طلباً لهذه الحقيقة ، ولكنها لم تظفر بها ولم تربحها ، وإنما رحبت مشقة السفر العقلي ! ثم ينحى باللائمة على أولئك الذين زعموا أن الحقيقة يمكن أن تعرف بالبحث والنظر والفكر ، ويدعو عليهم — مترقياً بهم راحماً لهم من أجل جهلهم ومن أجل ما أصابهم من العناء والنصب . ثم يرسل حكمه الصارم قاضياً عليهم بأنهم في زعمهم هذا قد كذبوا ، وزاعما أن عرفان الحقيقة خارج عن الطاقة البشرية . فليس في إمكان البشر مجتمعين أن يدركوها وأن يعلموها ! فليقتنعوا إذن بالجهل الذي هم أهله ، وليدعوا تطلب المحال وما لا ينال .

على أن الشيخ الآمدي — بالبيتين اللذين نقلناهما عنه — قد رمى البشرية العامة بما أسمى فقد زعم أنه قد طاف بالمعاهد العلمية كلها طواف مختبر مستخبر ، وأنه قد جول بطرفه بين تلك المعاهد جميعاً تجويل فاحص مستقص ، راجياً أن يرى أو أن يعلم من نفعه بحثه ودراسته أو من هداه عقله وكتبه فاطمأن إلى عرفان ، أو برد كبده الحرى ببرد الإيقان . . . ولكنه — واأسفاه — لم يجد أحداً من هؤلاء الذين طلبهم وإنما وجد من وضع كفه على ذقنه من الدهول وشدة الحيرة ومن ذهب يقرع سبته من الندم والأسف على ما أفقته من الأعمال العقلية والفكرية التي كان أملاً فيها أن تهبط به على ساحل النجاة فهبطت به في ظلمات من الشك والريب والغواية .

وقد صنع أحد هؤلاء أنشودة قديمة يتناقلونها في كتبهم ويتنمّون بها في مجالسهم ،
 ويزينون بها أحاديثهم ... قالوها في مذمة أولئك الرجال الذين حاولوا في عصور سحيقة
 أن يضعوا اللبنة الأولى في بنيان هذه الحضارة ، وأن ينحتوا الأحجار التي قامت عليها
 المدنيات سافاً بعد ساف ... وقد ظنوا أنهم بوضع هذه الأنشودة الظالمة يرضون الله
 إذ يخلصونه وحده بالعلم ، ويرضون الأديان وأصحابها إذ يحسبون أنها إنما جاءت لتجرد
 الإنسان من كل القوى العقلية والمادية لتقدمها للخالق من غير أن يشاركه فيها مشاركاً !
 وقد جاء في هذه الأغنية قولهم متكلمين ساخرين :

من أنت يا رسطو ومن أفلاط قبلك قد تجرد
 ما أتممو إلا الفراش رأى السراج وقد توقد
 فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشداً لأبعد

يعنون بهذا أن هؤلاء الرجال الباحثين وغيرهم من الفلاسفة حكمهم حيناً أرادوا
 الدنو من المعرفة ومن العلم الذي لم يهتك حجابهم حكم الفراش الذي يرى النور المتوقد
 فيثب عليه ويدنو منه فيحترق فيموت ! وقد كان حكم العقل الراشد يقضى بأن يبعد عن
 السراج وعن نوره لينجو ، ولكن الفراش لا يهتدى لأنه لا عقل له . وكذلك هؤلاء
 الذين يطلبون المعرفة يحرقون أنفسهم بطلبها من غير أن يدركوها ويجهلون كما يجهل
 الفراش المهاجم على النار والنور . فالمعرفة إذن لا يمكن الوصول إليها ، ومن حاول هذا
 الوصول هلك في طريقه .

هذه صور قليلة تنبئ عن مقدار سيطرة هذه الروح الخبيثة الشريرة على ثقافة
 هؤلاء الذين تعلق العالم الإسلامي منذ مئات السنين بركابهم فراحوا يجرّونه وهو لا يدري
 أين هو ذاهب فأصابه من الجروح والقروح والأحوال المذهلة ما أعجزه حتى اليوم عن
 الإفافة وعن الشعور بما هو فيه من الآلام . إن من كلامهم الذي سار مسار الأمثال :
 « العجز عن الإدراك إدراك » يعنون أن العجز عن العلم علم .

انظر إلى هؤلاء الواقعيين صرعى في معركة الحياة الرهيبة ، العاجزين عن النهوض
 وعن الحياة الصحيحة ، ثم سلّمهم فرداً فرداً : لماذا سقطوا ولماذا عجزوا تعلم أنهم قد سقطوا
 وأنهم عجزوا لأسباب ، وأن أحد هذه الأسباب هو شكهم في أنفسهم وكفرهم بكفائاتهم
 الذاتية بل كفرهم بالكفايات الإنسانية .

نعم ، كل إنسان يحب النجاح غريزة ، ويعشق الكمال ، وكل إنسان فيه الاستعداد الطبيعي لهذا النجاح ولهذا الكمال ، بل كل شيء في هذا الوجود — سواء في ذلك الجماد والنبات والحيوان — سائر في طريقه الطبيعي سيراً آلياً أو اختيارياً إلى النجاح وإلى الكمال النسبي اللائق به ، وكل شيء أعد إعداداً طبيعياً ليحيا حياة صحيحة بالنسبة لوجوده وحقيقته . وما من شيء ينحرف عن هذه الحياة الصحيحة ويعجز عن الاستمتاع بها إلا لآفة طارئة عاقته عن أن يصل إلى ما هيء له . فإذا عجز نوع من أنواع النباتات عن بلوغه العناية المقدرة له من النمو والقوة والجمال فهل هناك من يرتاب في أن آفة من الآفات النباتية عدت عليه وأن هذه الآفة ليست طبيعية وإنما هي عارضة . والإنسان بلا خلاف أولى هذه الموجودات بالكمال وبالحياة القوية لأنه أرقاها ؛ فلماذا إذن لا يبلغ هذا الذي يحب ويعشق والذي جعل مستعداً لبلوغه ؟ لماذا لا يبلغ النجاح ولا الكمال مع أنه يحبهما ويعشقهما ومع أنه خلق وفيه الاستعداد والكفاية الفطرية النائية لبلوغهما ؟ لماذا لا يبلغ الصانع والتاجر والزارع والعالم والمتعلم وكل صاحب فكرة أو عمل العناية التي يجب والنهاية التي يتصورها ؟ ولماذا يرضى من كل ذلك بالحظ التافه وبالحصصة الحقيرة ؟؟ لهذا أسباب بلا ريب ، من هذه الأسباب الجهل والعجز وضعف الهمة . ولكن لماذا يبقى جاهلاً بما يجب عليه من أجل النجاح فيما هو فيه وعاجزاً عن الأخذ بما يلزم من أجل النجاح ؟ لا تردد في أن من أسباب ذلك جهله بنفسه وكفوره بما فيه من ذاتية عريضة ، في استطاعتها — إذا أحسن استخدامها والانتفاع بها — أن تحطم أصفاد الجهل وأغلال العجز والضعف . فالأمر إذن يرجع في كثير منه إلى الكفر بالإنسانية المشتركة . . . ثم ضعف الهمة ! ؟ لماذا يرضى الإنسان بالهمم الضعيفة الواهنة ولماذا لا يثب حتى يصير من ذوى الهمم الغالبة القهاره ؟ لهذا أيضاً كما لا يخفى أسباب . لأن رضا الإنسان بالدون ليس طبيعياً فيه ولا غريزياً . . . بعض هذه الأسباب شكه أيضاً في مقدرته على أن يكون من أرباب الهمم العاتية العالية واعتقاده أنه عاجز عن صعود هذه القمة — أى جهله بما يكمن فيه من القوى وضروب الاستعداد وجهله بحقيقة الإنسان من حيث هو إنسان . وإلا فإن النجاح الحقيقي يغرى ببذل الثمن مهما كان غالياً ، ومهما كان كثيراً . فالخوف في الغالب من بذل الثمن لمن يكون مانعاً عائقاً ولكن الذي يمنع ويعوق ويقعد بالهمم والقوى عن النهوض هو الشك في النجاح ، وهو العجز عن الإيمان بالقدرة الشخصية التي تكفل الفوز وتبلغ الغرض البعيد .

• وأمور الناس كلهم قائمة على الإعطاء رجاء الأخذ وعلى التضحية من أجل انتظار الجزاء ، وكلهم مستعدون فطرة وطبيعة أن يعطوا وأن يبذلوا ، وإن آلم الإعطاء والبذل إذا آمنوا إيماناً لا شك فيه بأنهم سيأخذون أكثر وأفضل مما أعطوا وبذلوا ، سواء أكان هذا الإعطاء وهذا البذل ذهنياً أم جسدياً أم مالياً . . . ولولا هذا الاستعداد الإنساني الشامل لوقفت كل الأعمال ، ولما استطاع الإنسان أن يتقدم ولا أن يتأخر ولا أن يفعل شيئاً . هذه طبيعة إنسانية لا يمكن ردها ولا تبديلها ، وهي في خير الإنسانية بلا شك ، بل عليها قامت كل الحضارات والمدنيات والعمران ، بل وكل الأعمال الصالحة البارة التي يفعلها الأبرار الصالحون رجاء الجزاء الأخرى . ولوقد الإنسان هذه العريضة لما استطاع أن يكون شيئاً مذكوراً . وعلى هذا فلا شك في أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون بالأجزية والمكافآت في دار البقاء وهم يصرون على المخالفات وعلى كسب السيئات وترك الحسنات غير مؤمنين حقاً بالثواب ولا بالعقاب وإلا لعموا لما يؤمنون به . والمسألة مسألة شك أحياناً يكون ظاهراً ، وأحياناً أخرى يكون مقنعاً . ولو ارتفع هذا الشك لكانت النتيجة غير ذلك . فليس الفرق بين الصالح الورع المنقطع إلى عمل الصالحات وبين الفاجر المكب على الشهوات المحرمة هو أن الأول أحرص على الخير لنفسه وعلى البذل والإعطاء من أجل الأخذ والجزاء من الثاني ، كلا فإيهما يستويان في هذه الناحية . بل قد يكون الفاجر أحرص على ذلك من الصالح إن كان في هذا تفاوت . ولكن الفرق بينهما أن الصالح آمن بالأجزية إيماناً تاماً أما الفاجر فإنه لم يؤمن بها هذا الإيمان ، وإنما شك وشكا وظن ظناً أو كفر كفراناً أو نسي نسياناً ، فراح يأخذ ما استطاع أخذه ولم يجد إيماناً بالعاقبة يحمله على أن يعطي عاجلاً ليأخذ آجلاً . والحكمة المتبعة عنده قول القائل :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

فكل هؤلاء الذين تراهم عاجزين عن النجاح راضين من الأعمال ومن الحياة ومن أنفسهم بأحق ما يمكن لا يجب أن تفهم أنهم قد رضوا بذلك وهم يرون أن في استطاعتهم الحصول على أحسن وأفضل منه أو أجمل . وإنما يجب أن تفهم أن من أعظم ما حملهم على هذا الرضا أو هذه القناعة هو أنهم لم يعلموا أن في قدرتهم أن يصنعوا شيئاً وأن يتخلصوا مما هم فيه وأن يظفروا بما يحبون ويشتهون .

أفنع إنساناً ما — تاجرأ أو صانعأ أو زعيماً أو من شئت من ضروب الناس — بأن فيه العناصر اللازمة لأن يكون أكبر وأعظم مما هو ومما كان ، وممكنه من أن يؤمن

بهذا إيماناً بمعناه الصحيح ثم انظر هل من المنتظر أن يتخلى عن هذه الفرصة وأن يقنع بحالته الحاصلة خوف البذل وخوف الإقدام إلا إذا كان من المنتظر أن يعلم إنسان بأن تحت قدميه كنزاً عظيماً لا يحول بينه وبين الظفر به إلا العمل على إخراجهم ثم يتركه لأنه لا يريد أن ينصب ولا يريد أن يقوم بعمل من الأعمال ولو في سبيل إخراج الكنوز الموضوعة تحت قدميه . وإذا عقلنا سر هذا في الطبيعة البشرية بل في طبيعة الحياة كلها تجلّى لنا عمق قول أبي الطيب وغزارته :

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنعص القادرين على التمام

من الصدق والحق أن يقال لا عيب أشنع من أن يقدر إنسان على الكمال والنجاح ويعلم من نفسه تلك القدرة ثم يأبى الكمال ويזור عن النجاح ؟ إن مثل هذا الإنسان إن وجد لابد أن يكون شاذاً في قوانين الطبيعة الإنسانية شذوذاً هو المرض عينه .

من الواجب المفيد أن نعرف من أين جاء الإنسان هذا الكفر بذاته وإنسانيته أو لماذا كفر بهما هذا الكفر ! يلوح أنه كفر هذا الكفر لأنه أراد أن يؤمن بالله الإيمان الذي تصوره . فقد تصور أن أساس الإيمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق أو بين الله وعباده . فالله يجب أن يعتقد بأنه كامل في كل شيء قوى في كل شيء ، والعبد يجب أن يعتقد بأنه ناقص في كل شيء ضعيف في كل شيء . ثم تصور أنه كلما بالغ في تنقيص الإنسان والمخلوق وفي تضعيفه فقد بالغ في تعظيم الله وفي الإيمان بكلماته وأن كل ما يحلعه على الإنسان من النعوت الفاضلة والأوصاف المحترمة إنما ينتقصه من حق الله ومن نعوته وأوصافه . فإذا ذم علم المخلوق وقوته ووصفه بالجهل والضعف فقد كان ذلك بمثابة الثناء على الله وعلى واسع علمه وعلى اختصاصه بالعلم والقوة ، وتصور أن ذلك يرضى الله كل الرضا وأن خلافه يفضبه كل الإغضاب ، لأن الله لم يشأ لعباده أن يساوه ولا أن ينازعه في الكمال والعظمة أو السلطان العلمي أو المادى ، فحدد قواهم العقلية وغيرها بمحدود صارمة معلومة لا يستطيعون تعديها : فعلومهم ومعارفهم وعقولهم محدودة بمحدود ضيقة ، ليس لها أن تتجول في باحات المعرفة كيف شاءت ولا أن تنطلق من أغلال الجهل والنقص كلما أرادت ، وإلا فما الفرق بينهم وبين الله ! ما الفرق بين صفة المخلوق وصفة الخالق ؟ وهل يرضى السيد العظيم أن يكون لبيده الأذلاء من الصفات مثل ما له ، أو هل يرضى أن ينازعه كماله ؟ ثم البرهان العقلى يقضى بالأبلى يكون المخلوق الحادث مثل القديم الأزلى في أمر من الأمور وإلا فلا فرق

بين القدم والحدوث ولكن المسألة كلها قائمة على التفريق بين الحدوث والقدم أو بين القديم والحادث . ولولا هذا لما كان هناك عابد ومعبود ، ولكن الديانات كلها مبنية على العبودية . ومن أجل هذا كله ومن أجل غيره أيضاً فإنهم ما فتئوا يضعون الأهاجى المريرة الواصفة للإنسان بجميع أوصاف الانحطاط الذهني وغير الذهني . وقد رأوا — وما زالوا يرون — أنهم بهذه الأهاجى يتقربون إلى الله وينالون رضاه ويتملقون ألهيته ، لأنهم يذمون من عداه . فالخطيب والواعظ والشاعر والمفسر والمحدث والمتصوف والمتفلسف — كل هؤلاء وغيرهم يرون أنهم لا يبلغون الشاء على الله وأنهم لا يحسنون الإحسان المطلوب منهم المفروض عليهم إلا إذا بدأوا كلامهم وختموه بهجاء الكفريات الإنسانية ، وإلا إذا حكموا على الإنسان بالموت وقالوا كما قال أحد شيوخهم — وهو الشيخ الزمخشري كما سبق — : إن العلم للرحمن فقط وأما الإنسان فما خلق إلا من أجل أن يتقتم في جهالاته وغفلاته ومن أجل أن يثبت له أنه لن يكون عالماً وأنه تراب وأن التراب لا يمكن أن يعلم شيئاً .

وقد أكثروا جداً من هذه الفلسفة المجنونة المخدولة ومن هذا التدين المدخول حتى أصبح الخلاف فيهما خلافاً لديهم ولدى القطعان التابعة لهم في إحدى القضايا المفروغ منها . وصار من العقائد الثابتة للخاصة والعامة أن الإنسان لا يعدو أن يكون أحد تلك الأشياء التافهة الحقيرة التي لا يرتجى منها خير ولا علم ولا قوة . وصاروا كلما سمعوا ذكر المشكلات والأزمات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والنفسية والحلقية والأديبية ، وسمعوا إمكان تغلب الإنسان عليها وحله لها ونهوضه بها ، وسمعوا ما ينتظر من ثوب الإنسان بالعلوم وكل نواحي الحياة وقهره للأمراض وللجهل وفتوحاته العلمية المرتقبة التي قد تفضي إلى القضاء التام على صنوف الشقاء الإنساني : صاروا إذا سمعوا هذا أو سمعوا شيئاً منه اشمأزوا منه ومن قائله واتهموهم بفساد الاعتقاد وبالزندقة والإلحاد . إذ يرون أن مثل هذه المزاعم تدل على أنه — أي الإنسان — ترك غير محدود القوى الذهنية وأن له أن يشارك الله في عمله وأن يخرج من نطاق الإنسانية الضعيفة الواهنة إلى رحاب الألوهية التي تتصرف كيف تشاء وتعلم ما تريد ، وهذا عندهم نهاية الكفر والضلال . ولكنهم لا يشمأزون الاشمأزاز البالغ ، ولا يثورون الثورة الجامحة المحتاجة إلا إذا سمعوا أن علم الإنسان قد يتوصل إلى ما يظنونه غيباً . فلو أقيمت لهم كل الدلائل على أن الإنسان قد يستطيع بآلاته الدقيقة المحكمة وبأشعته المختلفة القوية التي هتكت كل حجاب أن يعلم

ما في بطن الأنتى — أذكر هو أم أنتى — كما يعلم الأمراض الباطنة ويراها رأى العين ويعلمها علم اليقين ، وكما يرى المخلوقات الميكروسكوبية التي كانت من وراء المادة ، ومن الأشياء الغيبية قبل صنع الميكروسكوبات وغيرها من الآلات — أو أنه قد يستطيع التوصل إلى جعل إخصاب المرأة كما يريد إن شاء ذكراً وإن شاء أنتى — كما توصل إلى هذا في كثير من النباتات والحيوانات ، بل كما قيل إنهم قد صنعوه في الإنسان نفسه — : نعم لو أقيمت لهم كل البراهين على أن الإنسان قد يستطيع هذا أو أنه قد استطاعه لما آمنوا ولو سمعوا من يدعيه ويقولوه لكان أقل ما يرمونه به التكفير .

وهكذا قد أصروا على اتهام الإنسان وعلى اتهام مقدرته ، وأصروا على أنه ما خلق ليعلم ولا ليتحكم بعلمه في الكون ولا ليخضع الطبيعة ويسوقها إلى أغراضه ومصالحه ، بينما كان الآخرون جادين في استغلال القدرة الإنسانية مصرين على أنها قد تعطى الشيء الكثير إذا أحسن استخدامها واستغلالها ، وأنها قد تسمو حتى لا يعوقها عائق وتقدم حتى لا تجد مكاناً للإحجام . فكانت النتيجة بالنسبة للفريقين مختلفة كل الاختلاف . وليس هنالك مجال للشك في أن الفرق سيكون عظيم جداً بين أمتين أو إنسانين أحدهما يرى أنه صالح لأن يعلم ويعمل ويقهر كل صعب ، والآخر يرى أنه عاجز مهين لا يصلح إلا ليكي نفسه وينشد الأناشيد في ضعفه وجهله ، وإلا ليرتقب من الكون الذي يطبق عليه أن يرزأه بما يشاء ويصيبه بما يجب بدون أن يستطيع الدفع عن نفسه لأنه عاجز مخذول متخاذل أمام الطبيعة ، راعع أمام قوى الكون .

ومن غريب الاستدلال الباطل في حقيقته ، العجيب في مرماه أنى قرأت مرة في كتاب مطبوع لأحد المسيحيين ما خلاصته : إن القول بألوهية المسيح وإن كان باطلاً في نفسه إلا أنه مفيد في نتيجته ، وذلك أننا إذا أفهمنا الدائنين بالنصرانية ففهموا أن بشراً في مظهره ومنظره ومولده وحياته وكل صفاته استطاع أن يترقى حتى صار إلهاً يفعل فعل الآلهة ويعلم علمهم ويخضع الأمم والشعوب إلى أن تدين له بالألوهية والربوبية وتعبده ، فقد فتحنا مجالاً للتسامي وللرقى لا حد له ، يأخذ بالهيم والآمال فتتسامى هذا التسامى وتطمح بأبصارها إلى هذا المرتقى العظيم ... وفي هذا من الحفز للهمة والإغراء بالوثوب ما يعجز عن وصفه الواصفون . ولهذا فإن الفرق في عظمة الآمال واتساع المضامع العظيم بين الأمم المسيحية وغيرها ... هذا خلاصة قول هذا المدافع عن تأليه

المسيح... وليس بخاف ما في هذا القول من محاولة للتساي بالمواهب الإنسانية والحقيقة الإنسانية، وكم من الفرق بين هذه الروح التي أملت هذا الكلام وبين تلك الروح التي أملت قولهم (ما للتراب وللعلوم الخ...) لقد عظم الفرق في التوجيه والاتجاه فعظم الفرق في النتيجة والغاية . ولا يفهم أحد من سياقنا لهذا الاحتجاج أننا نرضاه . كلا وإعما سقناه لما فيه من الدلالة على رغبتهم الشديدة في أن يتساموا بآمالهم وأعمالهم .

ومن الحسن أن يفهم القارئ أن هذه الفلسفة التي ذكروها في ضعف الإنسان فلسفة باطلة ، يردها النظر كما تردها النصوص الدينية الصحيحة . . إذ لا ريب من ناحية النظر أن الصانع يعظم كلما عظمت صنعته وعظمت آثار صفاته ويمدح بذلك ، وأنه ينقص إذا نقص الشيء الذي يفعله ويوجده ويذم بذلك . فعلى حسب الشيء تكون الآثار والأفعال ، فالذي يفعل العظم المحكم البديع الصنعة يكون عظيماً ، والذي يصنع الحقير التافه ولا يستطيع أن يصنع غيره يكون تافهاً حقيراً . وهذه قضية منطقية لا خلاف فيها . فإذا أثبتنا على الإنسان الذي هو مخلوق لله فقد أثبتنا على خالقه ، وإذا ذمناه فقد كدنا نذم خالقه — أو فقد ذمناه من حيث لا ندرى ولا نريد — ولهذا فإن الأديان كلها قد دأبت على لفت الأنظار والتوجيه إلى المخلوقات الكبيرة العظيمة كالشمس والقمر والنجوم والسموات والأرض لما في ذلك من التعظيم لله ومن الإبانة عن سلطانه وعظمته ومن التذليل على أنه الإله الكبير المتعالى .

ولهذا أيضاً فقد جعل المقربين لديه كالملائكة والأنبياء والرسل هم أقرب الموجودات إلى الكمال وأعظمها علماً وذكاء وقوة . فالنظر إذن يرشدنا إلى أنه يجب — إذا أردنا تعظيم الله — أن نعظم مخلوقاته وأن نعتد بأنها قد خلقت مستعدة للكمال وأنها إذا لم تكمل فهي التي أتت لنفسها هذا الكمال الذي أراد لها خالقها ، إذ الكامل يخلق الكامل ويريده ، والناقص يخلق الناقص ويريده ويعجز عن سواه .

وأما من ناحية النصوص فلنذكر في هذا المقام ما حكاه الكتاب الكريم عن الإنسان الأول إذ قال : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة — إلى قوله — وعلم آدم الأسماء كلها — إلى قوله : — قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبذرون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . . » الآية . فأخبر تعالى عن الإنسان

أنه مستخلفه في الأرض . ومعلوم أن الخليفة في العادة ينوب عن مستخلفه . ولا يستخلف
الحكيم العاقل إلا خليفة جديراً بالقيام بالخلافة قياماً صحيحاً لا يمنعه القيام بها — كما يجب —
جهل ولا عجز ولا هوى . ولو كان الله يعلم أن الإنسان مطبوع بطبع طبيعة على الجهل
الذي لا يمكن الخلاص منه لما اختاره خليفة له في أرضه . ثم من المعلوم أيضاً أن الخليفة
يكرم ويشرف بقدر شرف مستخلفه وكرمه . فمن كان الله مستخلفه كان ذلك نهاية
الشرف ونهاية الكرم . ثم من العادة أيضاً أنه لا يبشر ولا يخبر بوجود الشيء قبل
وجوده إلا إذا كان ذلك الشيء عظيماً محبوباً مرضياً ، ولا يمكن أن يخبر ولا أن يبشر
بوجود الأشياء التافهة الحقيرة . والإنسان إذا كان عظيماً وكانت له قيمة فإنما ذلك
بعقله وعلمه لا بشكله وصورته بلا خلاف . والله قد أنبأ الملائكة بوجود هذا الموجود
العجيب قبل أن يوجد وبشهرهم به . والعادة أيضاً قاضية ألا يخبر العظيم بالشيء
إلا إذا كان ذلك الشيء شريفاً عظيماً ، فلو كان الإنسان تافهاً حقيراً صغيراً في قيمته
الأدبية لما أخبر الله الملائكة به ولما جرى فيه حديث . وقد قالت الملائكة متعجبة مستفهمة
بعد علمها بهذا النبأ : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » فقال الله معقباً
على مقالهم هذه ، دالا على الحكم والأسرار الكامنة وراء هذا الوجود ووراء سفك
الدماء والإفساد الظاهري الذي لا بد منه لما جبل عليه هذا المخلوق الغريب من الطباع
والغرائز : « قال إني أعلم ما لا تعلمون » فكانه تعالى قد قال للملائكة رداً على سؤالهم
وتعجبهم : نعم هو يسفك الدماء ويفسد في الأرض ولكن وجوده ينطوي على أسرار
وفوائد وحكم تفوق أضرار هذا السفك للدماء وهذا الإفساد في الأرض . وهذه الفوائد
والحكم هي بلا شك نتيجة لما امتاز به من العقل والذكاء والاستعداد للترقي المطلق في كل
معنى من معانيه وأمر من أموره . فهو بمثابة أن يقال : حقاً هو يظلم ويشب الحروب
ويفعل غير ذلك من الآثام القانونية والشرعية ولكن هذه الأفعال تتلشى أمام فضيلته الحقيقية
وميزته البارزة الظاهرة وهي موهبته العقلية والأدبية التي لا يقف ترقبها وتقدمها عند حد .
ثم في هذا الرد الذي أجاب الله به الملائكة إشارة تكاد تكون جلية إلى أن هذا
السفك للدماء في الحروب وغيرها ، وإلى أن هذا الإفساد في الأرض هو وإن كان
في ظاهره وفي ملمسه القريب ، وفي حكمه القانوني شراً إلا أنه ضروري ، لأنه من أسباب
تقدم الإنسان وأسباب نضجه وبلوغه رشده وأسباب وصوله إلى الدرجة الرفيعة التي هيء
للموصول إليها باستعداداته المختلفة كما أشار إلى ذلك الكتاب الكريم في آيات كثيرة صريحة .

فلولا هذه الحروب وهذا التنازع والتسابق إلى الحياة وإلى سرقة الحياة — ولولا شحنة القوى الذهنية لخدمة الحروب والتنازع والسباق إلى امتلاك الحياة — ولولا هذه الغرائز والطباع التي ركبت في الإنسان وساقته إلى سفك الدماء وإلى مظالم الآخرين والعدوان عليهم — لولا هذا كله ولولا سواه أيضاً لما قدر الإنسان على أن يبلغ هذه الدرجة التي بلغ ، ولما ظفر بكل هذه الأشياء التي بها قد ظفر ، ولما برزت موهبته العقلية هذا البروز. فإن الحروب بل وكثيراً من هذه المظالم هي أعظم صيقل تصقل به القوى ، وأعظم موقظ ومنبه لما يمكن فيها وفي طبيعتها من معان سامية . فكأن هذه الشرور هي شرور في الظاهر فقط ، وكأنها بمثابة العملية الجراحية القاسية الموجهة في أولها ، المفيدة المصلحة في نتائجها — أو كأنها اقتصاص من أخلاق الإنسان الفاسدة أو التي يقال إنها فاسدة قانوناً وعرفاً . . . والقصاص حياة كما قال الله في كتابه : « ولكم في القصاص حياة » . فأصبح هذا الجواب من الله للملائكة تنبيهاً واضحاً إلى فضيلة هذا الإنسان وإلى قيمته وإلى ما يشتمل عليه وجوده وأعماله — حتى سفكه الدماء وإفساده في الأرض — من فوائد ومصالح . فمن ذم الإنسان واستصغر أمره أو قدح في فضيلته من أجل بعض أفعاله ككروبه وتنازعه على البقاء الموجب للتظالم ، ومن أجل إتيانه ما يسمى فساداً أحياناً كان فاعلاً قاتلاً ما فعلته وقالته الملائكة لما أن تعجبت من جعله خليفة في الأرض . ولكن الملائكة قد رجعوا عن هذا التعجب أو عن هذا الاستفهام أو الاعتراض لما أن دلهم الله على الحكمة البالغة في هذا الجعل والاستخلاف . أما من بقى مصرّاً على مذمة الإنسان وقدحه فيه ، فقد بقى مصرّاً على ما رجعت عنه الملائكة ، ومقلداً لهم في ما تركوا وتبرأوا منه ، ومصرّاً على ما أبان الله أنه غير صحيح وغير حق .

أما قوله « وعلم آدم الأسماء كلها » فهو تصريح بعلم الإنسان كل شيء فقد وكده بقوله « كلها » فإن من علم الأسماء علم التسميات والإفلامعنى لعلمه ولا فائدة منه ، والقصد التسميات لا الأسماء ، والأسماء لم توضع إلا للتسميات . فمن عرف اسم شيء ولم يعرف مسماه كان ذلك لغواً وكان ذلك العرفان جهلاً . على أن من عرف اسم أمر من الأمور ولم يعرف ما المراد به لم يسم عارفاً ولا عالماً بذلك . فإن المعرفة والعلم للأشياء لا للأسماء . ولو أن إنساناً علم لغة من اللغات — أسماءها وأفعالها وحروفها — ولم يعلم مدلولاتها ولا المراد بكل لفظ منها لما قيل إنه يعلم اللغة . وعلى كل حال فإن من المستحيل على عاقل أن يتعلم الأسماء كلها ثم يبقى جاهلاً بمسمياتها ، بل إذا علم هذه فقد علم تلك .

وقوله « ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء » واضح في أن المراد علم الأشياء لا علم أسمائها . ومن الواجب أن يعلم هنا أيضاً أن موضوع اللغات يجب أن يكون موجوداً قبل اللغات نفسها ، فالناس إنما يضعون لغاتهم — أفعالها وأسماءها وحروفها — ليدلوا بها على أشياء موجودة ماثلة أمامهم ، ولا يمكن أن توضع اللغة — لا أفعالاً ولا أسماءً ولا حروفاً — قبل وجود الأفعال والسميات نفسها حقيقة . فكأن اللغات إشارات أو صفات . ولا تعرف الصفات ولا الإشارات إلا بعرفة المشار إليها الموصوفات . فتعليم الإنسان الأسماء كلها وعلمه إيها صريح إذن في سعة علومه وفي أن معارفه ليست لها نهاية ولا غاية بل هي قابلة للتوسع وقابل هو للتعلم والاستفادة حتى يعلم الأسماء كلها ويعلم دلالاتها على مسمياتها . ومعنى هذا أن يعلم كل شيء . وقد دلت كشوفه العلمية الأخيرة ومعرفته كل ما أمامه — حتى استطاع أن يعرف عناصر الطبيعة وأن يعدها عدداً ، وأن يعلم ما هي مركبة مكونة منه — على هذه الحقيقة القرآنية والنبوة الإسلامية .

وعرض الله الأسماء كلها على الملائكة وسؤاله إياهم إنباءها وعجزهم عن معرفتها ، واعتراهم بالعجز ، ثم أمره لآدم أن ينبئهم ، وأنباؤه إياهم بها يدل ذلك كله من وجوه كثيرة على فضيلة الإنسان العلمية . فإنه ثبت أولاً أنه أعلم من الملائكة . ومن المفروض المعلوم أن الملائكة ذوو مكانة علمية ظاهرة ، فمن كان أعلم منهم كانت فضيلته العلمية لا تدفع . ثم فيه تانياً أنه جعل مقام الإنسان منهم مقام المعلم . ثم فيه ثالثاً أنه أراد تعالى أن يظهر للملائكة أنفسهم فضيلته بهذا الأسلوب وهذه الطريقة التي لا يخفي ما فيها من التحدي والتعجيز لهم ومطالبة الاعتراف له بهذه الميزة الكبرى .

وقوله « إن كنتم صادقين » يشير إلى أن مذمتهم للإنسان واستصغارهم شأنه وحكمهم عليه بسفك الدماء والإفساد في الأرض ، وزعمهم أنهم هم خير وأحسن منه ، لأنهم يسبحون له ويقدمون اسمه : يشير إلى أن ذلك غير صواب وغير حق . ولهذا قال « إن كنتم صادقين » أي صادقين في الاتهام والتدحج والادعاء . ففيه دفاع جلي قوى عن الإنسان . وقوله بعد إنباء آدم لهم : « قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » إبطال ورد لتدحجهم في الإنسان ولزعمهم أنه مفسد مقاتل لا خير فيه ، وإثبات أن هذه الرذائل والشور — أو ما حسبه

رذائل وشروراً — تدوب في غمار فضائله العقلية وترحض بتيار علمه .. فهذه أساليب متعددة أريد بها إظهار المكانة الإنسانية من الناحية الأدبية . وقد صدقت هذه المكانة وختمت بخاتم لا يقبل التزوير والادعاء وهو أمر الله للملائكة بأن يسجدوا له ، وسجدوا له ، وطرده تعالى لمن أبى السجود ، وحكمه الأبدى عليه بالكفر والهلاك . وأوامر الله العليم الحكيم ليست عبثاً وليست مجرد أوامر خالية من الحكمة والقصد والتعليل . فما أمر الله الملائكة — وهم المقربون لديه — بالسجود له إلا لفضيلة فيه ليست فيهم ولميزة ذهنية فضل بها عليهم . وكذلك ما طرد من امتنع عن السجود له إلا لأنه امتنع عن فعل شيء جميل واجب فعله . والله أعلم حيث يأمر وينهى ، وحيث يبعد ويقرب ، وحيث يضع رسالته .

ومن الآيات المسوقة لبيان هذه المكانة قوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » . والمراد هنا بالتقويم الندى وصف بأنه أحسن تقويم هو تكوين الإنسان — من حيث خلقته العامة ووضع أعضائه وأجزائه وكل ما فيه وضعاً مبدعاً يؤدي من حيث الأعمال والوظائف إلى الإبداع والإحكام . فالملخ والرأس والقلب واليدان والرجلان والعينان واللسان والأذنان وكل ما ظهر وما بطن منه وصفات هذه الأشياء كلها قد كونت تكويناً هو الإبداع والإحكام . ولا يمكن أن يقال بصدق وحق إن شيئاً من الأشياء قد قوم أحسن تقويم إلا إذا كان يستطيع أن يؤدي وظيفته ويؤدي الغرض المنشود منه أحسن تأدية ، سواء في ذلك الموجودات الجامدة والموجودات الحية النامية . فالإنسان إذن من ناحية آلات الفهم والعقل والشعور والإدراك فيه وآلات العمل كلها قد جاء في أحسن تقويم وتكوين ، والإنسان إذن قد أعد من الناحية الأدبية والعقلية والخلقية ليكون المثل المقصود الأعلى وإن كان هذا لا يحصل إلا بالتدرج والبطء كما تقضى نواميس التطور نحو السكّال والاستواء ، ذلك التطور الذي يبدو لنا أنه بطيء وأنه مسرف في البطء وإن كان بالنسبة لعمر العالم سريعاً مسرفاً في السرعة .

وليس من الممكن أن يكون الثناء على الإنسان بحسن التقويم عائداً إلى صورته الظاهرة ومنظره الخارجي فقط لأن في المخلوقات ما هو أجمل وأحسن منه من هذا الوجه ولأن الله قد ذم حسن الصورة المجرّد من الفضيلة في آيات كثيرة منها قوله تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة — إلى قوله :

قاتلهم الله أنى يؤفكون» ولأن الله قال بعد ذلك: «ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضاً أسفل سافلين لو كان المراد بذلك الصور والمظاهر.

وقال تعالى: «وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون» في الأرض وفي نفس الإنسان آيات للموقنين! فما هي الآيات التي في نفس الإنسان والتي لفت الله الإنسان إلى نفسه من أجلها ودله عليها؟ أعظم الآيات في النفس الإنسانية هي القوى العلمية والأدبية والعقلية والخلقية. وإلا لو كان القصد هو البناء للمادى المنظور لما كان هناك ما يميزه على المخلوقات الأخرى حتى يستحق به أن يلتفت إليه خاصة وأن ينبه عليه وحده في هذه الآية، وهو مما في الأرض من هذه الناحية. فلماذا ذكر تخصيصاً بعد التعميم إن لم تكن الإشارة إلى ميزاته الجليلة الكبيرة لا إلى ما يشاركه فيه كل شيء في الأرض من المخلوقات.

وفي قوله «أفلا تبصرون» نعى على هؤلاء الذين لا يبصرون الآيات الكامنة في أنفسهم وفي النفس البشرية العامة ولا يحاولون الانتفاع بها ولا استخدامها، وعلى هؤلاء الذين لا يرون هناك من الكنوز الذهنية أعظم مما في الأرض من كنوز الذهب والفضة والفحم والنفط وغيرها مما لا يقوم بشمن — تلك الكنوز التي لولا كنوز النفس العلمية لما أمكن إخراجها ولما أمكنت معرفتها ولما علم كيف تخرج ولا ماذا يصنع بها لو أخرجت. ومن الجليل جداً، البالغ في جماله أقصى الغايات أن يجمع الكتاب بين الآيات الموجودة في الأرض والآيات المستقرة في النفس الإنسانية، موجهاً إليهما معاً، ناعياً على من لم يبصرها، وعلى ما لم ينتفع بهما. فإن فيهما كليهما كنوزاً هي آيات بل غايات والفرق بينهما أن كنوز هذه مادية وكنوز تلك أدبية ذهنية، وأن الانتفاع بأحدهما واستخراجه متعذر إلا إذا عرف الانتفاع بالآخر وعرف استخراجيه. ومن عجز عن أن يبصر كنوز الأرض التي تحت قدميه أو كنوز نفسه التي بين جنبيه كان حقاً أخسر الخاسرين وكان حقاً ممن لا يبصرون ومن يجدر أن يقال لهم «أفلا تبصرون».

ومن المصائب المؤلمة أننا معشر المسلمين الذين نزلت عليهم أمثال هذه الآية منذ أربعة عشر قرناً تقريباً لا نزال غير مبصرين لكنوز الأرض التي هي آياتها، ولا لكنوز أنفسنا التي هي استعداداتها، ولا نزال محتاجين في هذه وهذه إلى الآخرين ليخرجوها

لنا وليبصروها ويروها ، ولا تزال عاجزين عن أن نبدي أقل عون ومساعدة صادقة فنية في عملية هذا الإخراج والاستخراج بل وعملية الإبصار ، ولا تزال حريين بأن يقال لنا « أفلا تبصرون » مكررة علينا آية نزلت منذ ألف وأربعمائة سنة . فهذه الآية أقوى أمر لنا بأن نحاول إبصار أنفسنا وإبصار ما تنطوى عليه من القوى العجيبة . فأين من يبصرون ! وإن العمى قبيح ولكن أقبح أنواعه هو العمى عن النفس لأن من شقى بعدم إبصاره لغيره كان أشقى جداً إذا لم يبصر نفسه .

وقال تعالى : « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » . البيان هو الإبانة عن الأشياء . وقد أطلق هذا البيان الذي يراد به الإبانة ليدلنا على أنه يعنى به الإبانة المطلقة العامة . ولا يبين عن الأشياء إبانة مطلقة عامة إلا من علم الأشياء وعلم حقائقها وتفصيلها وخصائصها علماً عاماً شاملاً ، وعلم ما يجوز لها وما يستحيل عليها وما يناسبها وما لا يناسبها وما يصاحها ويفسدها وهكذا . وإلا فلن يكون مبيناً عنها إبانة صحيحة كاملة فالإنسان إذن معد مهياً كي يكون مستطوعاً البيان عن هذا الوجود الذي يحيط به والذي لا يستطيع الانفصال عنه . وهذا لا يكون إلا إذا علمه علماً حقيقياً وعلم كل ما يتصل به . ونتيجة هذا هي الإحاطة العلمية الشاملة ... والآيات في هذا كثيرة جداً من العتب محمولة استقصاًها وجمعها وشرحها في هذه الكلمة الاستطردادية القصيرة العجلى .

ومن الأحاديث التي يحسن إيرادها هنا حديث صحيح مشهور قدسى هو قوله صلى الله عليه وسلم حكاية لما قاله الله : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها ... » ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله — وهذا بلا ريب على غير ظاهره — فلا بد أن يكون بصره نافذاً وسمعه واعياً وعمله موقفاً قوياً ، ولا بد أن تكون له من القوى والأعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس ، ولا بد ألا يكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيدته إذا شاء أن يفكر وأن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع ، ولا بد أن يكون مستطوعاً أن يصنع ما يشبه أن يكون خارجاً عن الطاقة البشرية المعروفة وما يكاد يضاف إلى قسم المعجزات ، ولا بد أن تبقى مواهبه العاقلة متجددة متوثبة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب ، ولا يقال لشيء من الأشياء — كائناً ما كان — إن هذا فوقها أو إنه بعيد عن تناولها أو إنه ليس مما يدين لها . والله حيناً خلق هذا الوجود العجيب

الجميل أراد له أن يبلغ في الأجل المعلوم رشده وكاله وأن يخرج كل طاقته الكامنة على أحسن وجه وأجمله ، ولكنه تعالى أراد أن يبلغ ذلك بأسباب إذ قد ربط كل شيء بأسباب من ورأها أسباب ليكون كل شيء متحركاً سائراً عاملاً لاجماداً ولا ساكناً . ثم أراد تعالى أن تكون أسباب هذا النضج والبلوغ العقلي بواسطة أعظم وأفضل مافيه ، وكان أفضل وأعظم مافيه هو الإنسان فأراد تعالى أن يكون الإنسان هو الذي يبلغ به رشده وكاله ، فأطلق لعقله العنان ليظل متنقلاً من طور إلى طور ومن سن عقلية إلى أخرى حتى يصل بنفسه وبالعلم معه الحد المعلوم المقدر على حسب السنة الموضوعية . وهو ينتقله هذا وبقيادته للعلم إنما يبصر الله ويسمع الله ويبطش الله ويمشي برجل الله — أو أن الله يكون حينئذ سمعه وبصره ويده ورجله وقواه العقلية والبدنية . لأنه بتطوره وتنقله — سائراً معه العالم — يقوم بدور المنفذ لنواميس الله ، العامل على إبلاغ سنته تعالى نهايتها بما أعطاه من الخصائص المختلفة . والحكيم إذا ندب أحداً للقيام بأمر جليل يريد ، أو ندبه لتأدية رسالته أو إحدى رسالاته سلحه بكل ما يانزم للمعركة وكله بأنواع الكمال الذي لا بد منه لأجل إتمام الرسالة . والإنسان بلا نزاع هو سيد هذه الأرض وقائدها وسيد مافيه . فلا محالة من اختصاصه بخصائص القائد السيد وإلا كانت سيادته وقيادته باطنتين مرفوضتين قائمتين على الجور والظلم ، ولكنهما سيادة وقيادة سلمهما الجميع بلا قيد ولا شرط . فلا محالة من أن تكون صلته — أى صلة الإنسان — بالسيد الأعلى ، أى بالله ، صلة الملهم المخصوص ، أو صلة من يكون السمع والبصر واليد والرجل ليحسن القيادة وفاق ما يريد القائد الأعلى .

ولعل من أظهر الدلائل على هذا الاختصاص وعلى هذا القصد أن الله قد أهل الإنسان لتلقي رسالاته التشريعية ، وأهله لمكان وحيه ، وسما به وقرّبه حتى صار منه موضع النجى الكلام ، فصار المبلغ عنه ، وصار أنبأؤه ورسالته منه . ومن كان هكذا فلا يمكن أن يكون محدود المدارك من حيث الإجمال ، ولا أن يكون محجوراً على تفكيره ونظره بنوع من أنواع الحجر ، ولا مضيقاً عليه بصورة من صور الضيق . فإن من استطاع أن يتلقى عن الله فقد سما إلى أبعد سماء وبلغ مكان الارتفاع فوق كل الوجود . وهذا الارتفاع على كل الوجود يجب أن يكون بحق وجدارة وهو لا يكون كذلك إلا إذا كان ارتفاعاً من حيث المعنى والحقيقة كما كان من حيث الظاهر والصورة . ومن ارتفع على الوجود كله بمعناه كان معنى هذا إخضاع الوجود له ، وإخضاعه لا يمكن إلا بفهمه

وفهم أسرارہ . فالإنسان إذن يجب أن يكون فاهما هذا الوجود مدركا كل ما فيه إدراكا وفهماً تامين صحيحين . وإذا كان كذلك فلا حدود ولا قيود . ولكن يجب أن يعلم أن هذا الإدراك والفهم هما من حيث الجملة لا من حيث الأفراد . فإن معارف كل فرد محدودة مقدرة ، ومعارف الفرد دون معارف الجماعة ومعارف الجميع .

هل الإنسان غير عظيم ، أو هو أهل لأن يساء به الظن ويساء باستعداده الداني ؟ إن هذا السؤال لا يمكن ولا يصح أن يجاب عنه بالألفاظ وإنما يجب أن يكون جوابه بالواقع والحقائق الشاهدة للموسم .

إن للإنسان حدين من حيث وجوده : حد هو وجوده الأول يوم أن رأى ورأته هذه الأرض ، وحد هو تاريخه الموجود الآن الحاضر المشهود أمامنا . وما بين هذين الحدين أو الطرفين هو جملة تاريخه وأعماله الواقعة التي يمكن أن تكون له ويمكن أن تكون عليه ، ويمكن أن تدل على أنه غير عظيم وأن تدل على أنه عظيم .

لا محالة من أن تتصور الإنسان في بداية وجوده عارياً من كل معرفة كما كان عارياً من كل لباس . وعلمنا أن هذا التصور صحيح لا يحتاج إلى غناء ولا بحث طويل . فإننا لانزال نشاهد الإنسان — بعد بلوغه هذه الغاية العظيمة من المعارف والعلوم — يأتي إلى هذه الدنيا حيناً يأتي عارياً من جميع المعارف . جاء إلى هذه الحياة — ولا مجال للجدل في كيف جاء — كما يجيء الأطفال اليوم على أحسن تقدير . على أن من الواجب أن نعتقد أن هنالك فرقاً عظيماً من حيث الاستعداد الكامن بين أطفال اليوم والإنسان الأول ، لأن أطفال اليوم يحملون في دماغهم تراث الآباء والأجداد كله بخلاف الإنسان الأول الذي جاء لا يحمل معه سوى ماورث من منبته إن كان فيه ما يورث ... نعم جاء إلى الحياة كما يجيء أطفال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس : لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة دلالة على الكلام ، ولا زراعة ولا صناعة ، ولا شيئاً مما هو ضروري لذلك . فهو لا يعرف أن يبني بيتاً يسكنه ويأوى إليه اتقاء ما تأتيه به الطبيعة ولا أن ينسج ويحيط له ثوباً يلبسه ، ولا ناراً ينضج عليها ما يأكله وتوفر له الدفء والحرارة . بل لا يعرف وسيلة من وسائل التفاهم ، والتفاهم هو أول الخطوات . فلا يدري ما يجول بخاطر من حوله بل لا يدري أن لهم خواطر تجول بالمعاني والأفكار والخطرات

لا يدرك شيئاً مما يحيط به . فيفزع من كل ظاهرة كونية : يرى البرق فيفزع ، ويسمع الرعد فيظير له هلعاً ، وتهب الريح فيتقسمه الخوف والزعج ، وينزل المطر فلا يعلم كيف يفعل ولا كيف يفهم ، ويرى جريان الأنهار والمياه فيحسبها تجري بالحياة والإرادة مثله ، ويحسبها قادرة على إيدائه ، بل يرى الظلام فيظنه يتراقص بالأشباح المؤذية المهاجمة وبكل ما يخيف ويذعر... أما طلوع الشمس وغروبها — وكذا النجوم والكواكب — فأعظم ما يملأ جوانحه روعاً... وهكذا كان لا يعلم شيئاً ولا يأمن شيئاً... والخوف عادة وليد الجهل ، فإن من يجهل الشيء يخافه . وقد نشأ عن هذا الخوف وعن هذا الجهل أن تمت فيه فكرة العبادة لهذه الظواهر الكونية وهذه الأشياء المتحركة المضطربة . فإن الخوف يحدث التفكير في دفع ما يخاف وفي اتقائه . والجاهل الضعيف إنما يدفع عن نفسه ويتق ما يرهب بالملق ، والملق له صور كثيرة إحدى هذه الصور البكاء والضراعة — كما يفعل الأطفال . والبكاء والضراعة هما أعظم مظاهر العبادة... فراح يعبد كل ما يرى ويسمع عبادة ساذجة حقيرة . فكان الإنسان إذ ذاك يتلخص في شيئين : في الجهل المطلق بكل شيء ، وفي عبادة كل شيء متقلب مضطرب . ونعود فنقول مرة أخرى : إن أحسن وأصدق صورة ترسم للانسان في ذلك العهد هو الطفل من حيث العرى من كل لباس علمي وبدني .

والآن لننتقل نقلة فكرية ، ولنرجع رجوعاً سريعاً خاطفاً من تلك العهود الموعلة في القدم ، ولنمر بتاريخ ثلاثمائة ألف سنة أو تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً من تاريخ هذا الإنسان الطويل البطيء من غير أن نقف على مرحلة من مراحلها حتى نقف وقفة طويلة معنة عند تاريخنا اليوم وعند الإنسان في القرن العشرين . ولنحاول أن ننسى ما بين هذين التاريخين من تاريخ ، ولنأخذ الفرق بين هذين التاريخين أو هذين العهدين أو هاتين الصورتين ولنجعلها هو مجموع ما عمله الإنسان بفكره وجسمه... إن أول نظرة إلى صورتى الإنسان في عهديه وتاريخيه لتملأ العين وتملأ القلب إعجاباً بهذا الإنسان الصغير البدن ، المحدود بالحدود المادية الضيقة .

ماذا نرى الآن في هذه الحياة التي تموج بأعمال الإنسان وماذا نرى من القوى المادية والفكرية التي أوجدها هذا المخلوق وجعلها في خدمته وملكا له ؟ كيف استطاع الخروج من تلك الظلمات الأزلية حتى وصل إلى هذا العصر ، وكيف استطاع الوصول إليه في سيره المتعثر واستطاع أن يسدد وقع أقدامه المتحركة في الظلام بدون أن يكون

له هاد إلا طبيعته ، ومرشد إلا حاجته ونور يبصر به السبيل إلا أمله ، وبدون أن يكون له قوة دافعة إلا استعداد المولد للطاقة بعد الطاقة بدون عطل أو توقف ؟ لقد بدأ في إيجاد تاريخه وبناء حضارته بداية توجب الرثاء والإعجاب معاً : فكر في أنه محتاج إلى أن يتفاهم أفراده ، وفي أن هناك حاجات مشتركة يجب أن يعدها كل فرد — أو على الأصح فهم كل فرد في نفسه أنه يريد أن يفهم عن غيره وأن يفهم غيره ما في نفسه وما عنده وما يضطرب في جوانحه . ولكن ما كان يعرف وسيلة واحدة من وسائل التفاهم . فراح يحاول أن يتخاطب وأن يتفاهم بالأصوات التي لا مقاطع ولا معاني لها كالأطفال سواء حينما يلجون في طلب حاجاتهم بالبكاء والصراخ الذي هو تصويت فقط . فظلت هذه هي وسيلة تخاطبه وتفاهمه الوحيدة أزمانا يعجز التصور عن تحديدها تحديداً دقيقاً . ثم ترقى درجة بقصد أو بغير قصد بأن ذهب يتخذ لنفسه طريقة للتفاهم والتخاطب أفضل من التصويت المبهم ، فذهب يتخاطب بالإشارات والحركات . . . وهذه طبعاً أفضل وأوضح من الوسيلة الأولى لأنها أدنى إلى التحديد والإفهام . وإن الأطفال ليتبعون طريقة أسلافهم في التنقل من وسيلة إلى وسيلة أخرى محاولين الإفهام والإفصاح . فإنهم بعد أن يظلوا مدة معينة يتكلمون ويأمرون وينهون ويطلبون بالأصوات المجردة يذهبون بعدها إلى الاستعانة بالإشارات والحركات . ومن العجيب أن محاولة الإفصاح عن الغرض بالإشارة والحركة والتثيل البدني لا تزال ملازمة الإنسان اليوم . . . ثم غير أحقاباً بعد أحقاب يدأب لنفسه ويكدر لها كدحاً متواصلًا عنيفاً ، ويصنع التجارب تلو التجارب ويخرج النماذج إثر النماذج ، مستعيناً بوسيلتيه الأوليين : الإشارة والحركة حتى ظفر بعد ما لا يمكن تخيله من العناء والمشقة والزمان بما يصح أن يسمى أول لغة إنسانية ذات مقاطع وحروف مفهومة . . . وهنا يجب أن يقال بحق وصدق : لقد استطاع الإنسان أن يخرج بغمع عظيم وأن يمضي أشواطاً هائلة في طريق أهدافه وفي طريق هذه الحضارة الحاضرة التي يتمتع الإنسان اليوم بها . إذ قد استطاع بمعرفته أول لغة أن يضع حداً فاصلاً بين عهود الطفولة — أو الحيوانية على رأى آخرين — وبين العهود الإنسانية ، وأن يخلى الطفولة والحيوانية وراءه بحيث لا يخشى عليه الرجوع إليها مرة أخرى . ويجب أن يسمى هذا العهد أول تاريخ للإنسانية وأول نقطة استطاعت الوثوب منها . ولو أن الإنسان بقي عاجزاً عن الظفر باللغة لبقى عاجزاً عن بلوغ كل ما بلغه ، ولبقى عاجزاً عن أن يصنع له تاريخاً يفوق تاريخ الحيوان .

ونحن لا نستطيع أن نقدر قيمة اللغة ومقدار ما أنفق في سبيل الحصول عليها إلا إذا تصورنا جمعاً من الأطفال الذين لم يسمعوا حرفاً واحداً من حروف اللغات المختلفة ألقى بهم في إحدى الجزائر التي لم يقطنها الإنسان بعد ثم تركوا وشأنهم على أمل أن يتوصلوا فيما بينهم إلى لغة بها يفاهمون ويتخاطبون ، وتصورنا كيف يخفقون وكيف يعجزون عن تحقيق هذا الأمل وعن الوصول إلى هذه الأمانة .

أما بعد اللغة فقد أمكن أن تتلاقح الأفكار وأن يغذى بعضها بعضاً وأن يصبح كل فكر ملكاً مشاعاً ورأياً إنسانياً عاماً ، في استطاعة كل فرد من أفرادها أن يصيره ملكه وفكره . لهذا كله ولشدة الوثبة التي وثبها الإنسان وبعد الخطوة التي خطاها في مجموع قواه الذهنية والشعورية والجسدية وعظم النقلة التي انتقلها والمسافة التي قطعها راحت معارف الإنسان وأعماله تنسم بسماوات النضج والتقدم المستمر العجل . فعرف أشياء من الزراعة والصناعة ولكنها كانت بلا ريب أولية ، وعرف أشياء أخرى كثيرة غير الزراعة والصناعة مما عد مميّزاً للإنسان عن المخلوقات الأخرى . . . وبعد أشواط في مضمار الحياة الإنسانية البحتة لا يمكن تحديدها تحديداً تاماً استعملت فيها الخطوط والرسوم والصور التافهة والأشكال المشوشة والتجارب العديدة المضنية ظفر الإنسان باختراع آخر لا يقل عن اختراع اللغة وسيلة ونتيجة . . . هذا الاختراع هو اختراع الكتابة ، أو ما يمكن أن يدعى كتابة صحيحة . وهذا المخترعان : اللغة والكتابة هما أعظم الأسس التي شيدت عليها المدينة البشرية كلها ، بل هما الشرطان الأولان اللذان لازمتهما . ولولاهما لظل البشر حتى اليوم في جهالاتهم الأولى النكراء . . . ولا يقل اختراع اللغة والكتابة عن أكبر مخترع نالته الإنسانية في كل عهودها . بل كل المخترعات التي جادت بها عقول القرن العشرين والقرن التاسع عشر تتضاءل قيمتها وفوائدها إزاءها وإزاء فوائدها وقيمتهما . . . وعلى هذا لا يمكن أن يعد مخترعو القرن العشرين والقرن التاسع عشر أجل خدمة للإنسان وأسرع خطوا به إلى الأمام من مخترعي اللغة والكتابة .

أخذت المعارف والعلوم والأعمال الصناعية والزراعية وغيرها تتساقق وتتدافع بعد هذا بسرعة عظيمة ، وأخذت كلما تقدمت خطوة ازدادت سرعتها واتسع المجال أمامها إذ كأن الخطوات التي تخطوها والمكاسب التي تكسبها ، والفوتوحات التي تفتحتها تصيرها

قوى وطاقات تمنحها قوة الدفع وقوة الاندفاع وقوة الاستمرار... ولا شك في أن المخترعات التي تمت في القرن التاسع عشر أكثر من المخترعات والكشوف التي تمت في تاريخ الإنسان كله، وفي أن المخترعات والكشوف التي تمت والتي ستمت في القرن العشرين ستفوق في كثرتها وضخامتها مجموع المخترعات والكشوف — وفيها مخترعات القرن التاسع عشر وكشوفه — التي تمت في جميع العصور الخوالي. وهكذا

وسيكون لهذا نتائج طبيعية: إحدى هذه النتائج أن الإنسان كلما تقدم وكلما ازدادت علومه تضاغت قدرته على التقدم وعلى السير في سبيله وعلى إدراك العلوم تضاعفاً مقدرًا بمكاسبه العلمية والكشفية والعقلية تقديراً رياضياً لا تختلف نتيجته. والشأن في هذا كالشأن في سائر القوانين الرياضية. فإنه إذا ضرب عدد ما في عدد آخر ثم ضرب العدد المضروب في الناتج من عملية الضرب مرات عديدة فإن الناتج من آخر عملية يفوق الناتج من جمع جميع الناتج في العمليات الأولى كلها... ونتيجة هذه النتيجة أن تقدم الإنسان سيبقى مستمراً مضروبة سرعته في كل الخطوات التي خطاها في تاريخه كله. ومعنى هذا أن تقدمه لن يتوقف البتة، بل يأخذ في طريقه حتى يبلغ أقصاها ومنتهها إن كان لها منتهى. ولو ضرب عدد في عدد معها كانا صغيرين على أن يضرب العدد المضروب في كل ناتج لاستغرقت هذه العملية كل الأعداد الموجودة بل والمفروضة. وهذا برهان رياضي قاهر على أن أشواط الإنسان ستنتهي المعركة كلها وستوصله إلى كل أهدافه وستضعه في أقصى الطريق وستجعله يتقدم حتى لا يجد متقدماً ويعلم حتى لا يدع مجهولاً إلا أن توقف هذه العملية الرياضية الإنسانية، ولكن لاسبيل إلى وقفها إلا بوقف الحياة فيه لأن هذه العملية هي عملية الحياة، فما دام الإنسان حياً فلن يقف عمل حياته شيء لأن الله القدير العليم قد أراد هذا كله لحكمة عليا.

غير أن من الممكن أن يوجه إلى هذه النتيجة الصادقة في ظاهرها ومقدماتها اعتراض بأن يقال: إننا نشاهد — كما نعلم — أن سير الإنسان إلى الأمام يقف أحياناً كثيرة وقوفاً قد يكون الجلود نفسه حتى يبدو أنه لن يسير مرة أخرى وينام حتى ينخل إلى من يفكر بأنه لن يستيقظ. بل قد يأخذ في الرجوع إلى الوراء والسير القهقري... وقد تنتاب هذه الحالات وهذه الأعراض الرجوعية أحياناً الإنسانية جمعاء وتنتاب أحياناً أخرى أمة دون أمة وفريقاً دون فريق وتكاد توجد هذه الأعراض في كل زمان.

ولكن من السهل أن يقال إجابة عن هذا الاعتراض السليم في ظاهره : إن عملية التقدم مستمرة بلا توقف وبلا رجوع إلى الوراء بحال من الأحوال . أما ما يشاهد مما يظن توقفاً أو تأخراً فليس سوى هدوء ظاهري — أى إن الحالة لا تعدو أن تكون طوراً من أطوار الكون الذى يصيب كل شيء ويوجد في كل شيء . ومثل هذا قطعة من الأرض تزرع وتستغل فإنها في حالة زراعتها واستغلالها لا يظن ولا يقال إنها في حالة تأخر وضعف في الظاهر مادامت غلتها غير متناقصة . أما إذا تركت هذه القطعة من الأرض بدون زراعة وبدون استغلال فإنها في الظاهر لا تعطى شيئاً ولا تأخذ شيئاً أما في الحقيقة فإنها إذا تركت كذلك تقوى وتتفاعل العناصر الكامنة فيها مع أشعة الشمس ومع الهواء ومع كل عوامل التعرية حتى تصير بعد مدة من الزمان في قوة تمكينها من الإغلال والإثمار الكثير القوى إذا ما زرعت بحيث يتبين بعد زراعتها وبعد تمكينها من إظهار طاقتها أنها ما كانت في حالة تأخر ولا في حالة جمود وإنما المسألة مسألة هدوء في الظاهر فقط . بل نقول : إن كل شيء له كون وظهور . فالظهور هو مظهر يدل على الكامن ولكن عدم الظهور لا ينفى الكون أو لا ينفى الكامن . فقد يكون تقدم الشيء مع ما كان هذا الشيء ظاهراً وباطناً أى ظهوراً وكوناً ، وقد يكون كوناً فقط . وليس من الممكن أن يكون ظهوراً صرفاً . فإن الشيء الذى لا حقيقة له لا يمكن أن يكون له مظهر من المظاهر . ونحن إذا رأينا أرضاً هادئة لا يصح أن نقول إنه لابراكين ولا زلازل فيها تتوثب للانطلاق والانفجار والخروج بمجرد الهدوء الذى نشهده . وإذا حصلت هذه الانفجارات والهزات ، أى البراكين والزلازل وجب الاعتقاد بأنها أثر من آثار الداخل أى الكامن قبل حدوث الظاهر ، وإذا لم نر نفضاً نازلاً على وجه الأرض ومدققاً جارياً لم يحز لنا أن نقول إن الأرض خالية من هذا السائل النفيس . ولو قلنا هذا لكان مثلنا كمثل من قال إن الإنسانية قد تقف وقوفاً تاماً أو ترجع القهقري لأنها تتخلى أزماناً كثيرة عن إخراج الكامن من قواها والساكن من استعدادها ... فالتقدم الإنسانى الذى تحدث عنه ونذكر أنه مستمر بدون توقف هو التقدم في المدارك والعقول وكل ما يسمى معانى إنسانية وأخلاقاً إنسانية وقوانين إنسانية . ولكن هذا التقدم الإنسانى قد يكون بارزاً لوجود عوامل الإبراز ، وقد يكون كامناً كما تكمن قوى الطبيعة المختلفة : كما تكمن الكهرباء والمغناطيسية والجاذبية وكما تكمن طاقة الحديد والفحم فيهما . وهكذا ... بل كما تكمن صفات الإنسان العليا فيه كالشجاعة والمروءة والنجدة

والكرم والذكاء وسواها حتى يوجد ما يظهرها .. فالتقدم الإنسانى إذن مستمر لا يتوقف فكيف الرجوع إلى الوراء . والاعتراض المذكور اعترض يرد على هذه الحقيقة العلمية .

والنتيجة الثانية أن هذا التفاوت الموجود العظيم بين الأمم والشعوب سيظل مع تقدمها كلها باقياً مع حفظ النسبة — بمعنى أن الأمة التى قطعت ألف شوط إلى المدنية أو فى المدنية ستبقى النسبة بينها وبين الأمة التى قطعت مائة شوط فقط كالنسبة بين رجل يملك ألف جنيه وبين رجل آخر يملك مائة جنيه إذا تاجر بالألف وبالمائة وكان الربح السنوى أو الشهرى يساوى الأصل وما يجد من الأرباح السابقة . ومعلوم أن النسبة تبقى كما هى مهما تقدمت السنون . هذا على افتراض تساوى نسبة الربح السنوى أو الشهرى فى الألف وفى المائة . ولكن يجب أن يراعى أن الأموال الطائلة أقدر على رفع نسبة الربح من الأموال القليلة وعليه فإن الفرق سيتعاضم كلما كرت الأعوام بين صاحب الألف وصاحب المائة كما سيتعاضم هذا الفرق بين من قطعوا ألف شوط فى الحضارة وبين من قطعوا مائة فقط . وإذن فالفجوة بين الفريقين صائرة إلى الاتساع والتزايد .

هذا معنى قد أشار إليه بعض كتاب الغرب مستحسنيين له واجدين فيه الضمان الكافى لأن تظل أهمهم وشعوبهم سيدة حاكمة ، وتظل هذه الشعوب والأجناس التى نحن أحدها محكومة مسودة مهما تقدمت ووثبت وتعلمت وأخذت كل ما استطاع أخذه من العلوم والصناعات التى بها ساد الغرب وحكم وتحكم . ولكن يجب أن يقال هنا : إن هذه النتيجة قد تكون صحيحة صادقة لو كان رقى الأمم ونضجها يقاس بما يظهر منها وبما تعمله فقط دون ما يمكن فيها وما يمكن أن تعمله وأن تظهره . غير أن الذهاب إلى هذا والترامة يشبه أن نحكم على إنسان قد تعلم بأنه أرقى وأنضج طبيعة وأعظم استعداداً من إنسان آخر لم يتعلم ، لأننا شاهدنا المتعلم يفعل ويعلم ويحسن ما لا يفعله ولا يعلمه ولا يحسنه ذلك الإنسان الآخر الذى لم يتعلم . مع أننا نعلم جميعاً بأن ذلك الذى لم يتعلم قد يكون فى استعداده الطبيعى أعظم وأذكى من ذلك الذى تعلم وأنه لو تعلم لفاقه وسبقه فى كل شىء .

ويشبه أن نرى إنساناً غامراً وقام بأعمال معينة تجارية أو صناعية أو زراعية أو غيرها فنجح نجاحاً رائعاً فنسرع إلى الحكم بأنه أرقى وأعظم فى استعداده من إنسان آخر معين لم يغامر ولم يقيم بعمل من الأعمال فلم يصب نجاحاً ولا شيئاً مما أصاب ذلك المغامر المخاطر ، ونسرع إلى الحكم بأن ذلك الذى ترك مواهبه راكدة كامنة لا يمكن

في يوم من الأيام — معها حاول وناضل — أن يكون مثل ذلك الناجح ولا أعظم منه ...
أو يشبه أيضاً أن نرى جوادين ، أحدهما في الرباط والآخر في السباق ، فنزعم أن الذي
في السباق أصل من ذلك الذي في الرباط ، وأنهما لا يمكن أن يستويا ولا أن يفوق ويسبق
الذي في الرباط الذي في السباق ، بحجة أننا شاهدنا الذي في السباق يسابق فيسبق ويستعين
بأصالته فنتجده ، وأننا شاهدنا الآخر في رباطه محبوساً محكوماً ... أو يشبه أن ندعى
بأن أرضاً خير من أرض وأخصب ، ولا برهان لدعوانا سوى أن إحدى الأرضين
زرعت فأنتبت وأخصبت ، وأن الأخرى لم تزرع فلم تنبت ولم تخصب . مع أن الناس
يعلمون جميعاً بأن التي لم تزرع قد تكون في طبيعتها وحقيقتها أعظم وأقوى وأخصب من
الأخرى ... أو يشبه أن نحكم بأن بلداً من البلدان أغزر نطقاً — مثلاً — من بلاد
العرب ، وحثنا في هذا أن البلد الذي حكمنا بأنه أغنى بالنفط من بلاد العرب قد رزق
شركة قوية أو حكومة غنية ققامت بإخراج نفطه والانتفاع به ، وأن بلاد العرب ترك
نفطها في جوفها جيساً سجيناً ... إلى غير ذلك من الدعاوى السطحية الباطلة .

إننا معشر المسلمين — أو معشر الشرقيين إذا استثنينا أمة واحدة — متأخرون
عن الغرب في كل ما يهب السيادة والقوة ، وكذلك بلادنا متأخرة في الظاهر عن بلاد
العرب : فهي لا تغل لا زراعة ولا معادن ولا مناجم مثل ماتعل بلاد الغرب . فهم — أرضاً
وأَنْفُساً — أرق وأعظم إنتاجاً منا أرضاً وأنفساً أيضاً . فأرضهم تخرج أكثر مما تخرج
أرضنا إجمالاً ، وناسهم ينتجون أكثر مما تنتج نحن أفكاراً وعلوماً ومعارف وأعمالاً .
ولا أحد يقدر أن يرجع السبب في تأخر إنتاج أرضنا عن إنتاج أرضهم إلى أن أرضهم
أغنى وأوفر طبيعة وخصباً من أرضنا . بل كذلك بحارهم تعطى لحوماً وأشياء أخرى أكثر
مما تعطى بحارنا . وليس هذا بلا شك عائداً إلى اختصاص بحارهم بالثراء دون بحارنا .
وكذلك القول في عجزنا عن أن نفعل مثل أفعالهم وأن نعلم كعلومهم وأن نصنع ما يساوي
أو ما يفوق صناعاتهم . فهو عجز غير راجع إلى الطبيعة والاستعداد ، كما أن عجز أرضنا
وبحارنا عن أراضيهم وبحارهم غير راجع إلى الطبيعة والاستعداد . بل المسألة تتلخص
في أنهم هم قد أحسنوا استغلال أرضهم ونفوسهم وأخرجوا ما في الإمكان إلى الواقع
وما في الطاقة إلى القوة ، وأما نحن فقد تركنا الممكن في إمكانه والكامن في كونه والطبيعة
في ركودها وسكونها ، وتخلينا عن الإظهار والإبراز لأسباب عارضة إذا زالت

— وستزول — زال هذا الركود العام وتماست الطبيعة وتحاكت فأخرجت ما في الطاقة
وصيرته قوة ...

والنفوس كما قلنا كنوز مدفونة كما دفنت جميع الكنوز ، تحتاج إلى الإخراج
والاستثمار والإلقيب في مدافنها كأنها غير موجودة كما يبقى الأموات في أجدانهم حتى
يؤذن لهم بالبعث والخروج .

لماذا لا يصير الحيوان مثل الإنسان في فهمه وعلمه وإدراكه إذا ما علم كما يعلم الإنسان؟
ولماذا تقف معارفه عند حد معلوم لا يتجوزه بحال من الأحوال؟ ولماذا لا تقف معارف
الإنسان عند الحد الذي تقف عنده معارف الحيوان؟ إن السبب في ذلك هو الاختلاف
بين الحيوان والإنسان في الطبيعة والاستعداد . فطبيعة الإنسان تبقى هي طبيعة الإنسان
وفوق طبيعة الحيوان وإن ترك بدون تعليم ، وطبيعة الحيوان تبقى هي طبيعة الحيوان
ودون طبيعة الإنسان وإن علم وأريد منه أن يبلغ أقصى نهاية النضج والكمال العلمي ...
فكل شيء إذن تؤهله طبيعته واستعداده . فالإنسانية لها مستوى معلوم مقدور لا تهبط
تحتة ولا ترتفع فوقه قبل الأوان المحدود . وهذا المستوى يرتفع ويزداد شيئاً فشيئاً على
مر الزمن ويتكون ويستوى وينضج كذلك رويداً رويداً بتفاعل مهبأ كما تتفاعل وتتكون
المعادن والأحجار الكريمة والحسيسة والعناصر كلها في مواضعها ، بل كما تتفاعل
وتتكون الطبيعة كلها . ولا شيء يمنع هذا التفاعل والتكون : لا يمنع أنه لا ينتفع
به أو أنه يجهل أو ينكر أو أنه في أماكنه المجهولة ... فاستغلال الشيء والانتفاع به شيء ،
وتكونه وتفاعله وسيره في طريقه المرسومة وعلى سنته شيء آخر ... فموهب الإنسان
وطبيعته المتدورة الموزونة سائرة في سبيلها وسبيل تحقيق غايتها ونهايتها وتكاملها ، سواء
استغلت أم لم تستغل ، وسواء أبرزت أفعالها أم لم تبرز . وهذا لأن مواهب الإنسان
العلمية والعقلية راجعة إلى استواء وتكافؤ وتكامل في محل هذه المواهب وفي موضعها
أى إلى تكوين المخ وتكوين ما به الإدراك والفهم تكويناً يهيئه ويؤهله لأن يبدى من
المعارف والقوى العلمية والعقلية ما يقضى بالحكم له بالنضج والكمال والتكافؤ . ولن يقف
في طريق هذا المحل — أى محل المواهب — إهمال الانتفاع بها ، ولن يعوقها عن نموها
وأخذها في سيرها الجهل بها أو الجهل باستغلالها . . . وهذه ليست فروضاً نظرية
بل هي حقائق واقعية يشهد لها جملة تاريخ الإنسان وجملة تدرجه في مدارج الاستواء

والنضج . فإننا لو انتزعنا طفلاً من بيت عريق غريق في الأمية والجهالة المتوارثة القديمة ،
حيث لا نجد في آباءه وأجداده من استطاع أن يخرج من نطاق الأمية ثم وضعناه في معهد
علمي فيه أطفال أشتات من بني جنسه ، منهم من كان آباؤه وأجداده وأسلافه يتوارثون
العلم حتى عدوا سلسلة من المتعلمين لا يوجد بين آحادها جاهل لكان من الواقع المشاهد
الكثير أن يتفوق ذلك الطفل على من في المعهد جميعاً ولكان من الممكن الواقع المشاهد
أن يتفوق على أطفال قد توارثوا العلم والتعلم آباءً وأجداداً ... ومعنى هذا أننا نستطيع
أن نخرج المواهب الكامنة من ذلك البيت العريق الغريق في الأمية بتعليم أحد أطفاله
وتعرض مواهبه للخروج وللإشتغال مرة واحدة من حيث الظاهر وحيث الإبراز .
أما من حيث الحقيقة والواقع فإن مواهبه كانت تنمو وتتكامل وإن كانت لم تجد
ما يخرجها ويوقدها ويشعل مصباحها ... وهذا الحكم يصدق في الأم كما صدق ويصدق
في الآحاد . فإن التاريخ القديم والحديث قد عرف أنما أخرجت مواهبها من الكون
والإمكان بسرعة محيرة . وأحسن مثل يذكر لهذا الأمة العربية في التاريخ الأوسط ،
والأمة اليابانية في التاريخ الحديث . وهذا يصدق عكساً أيضاً ، أي إن مواهب الأمم
البارزة قد تختفي وتلجأ إلى الكون فجأة ولكن بأسباب ولأسباب . وقد يكون هذا
الاختفاء واللجوء بطيئاً حتى يبدو للنظر الأول أن هذه الأمم التي انطفأت نار مواهبها
فسكنت وركدت أقل جداً من أم برزت فجأة في الميدان وظهرت مواهبها أعمالاً
وحقائق مشهودة تملأ الحياة حياة وقوة ونحيباً ... ومن هذه الأمم التي أصيبت مواهبها
وأزمت بالانكماش والكمون الإغريق والرومان والعرب . ونحشى — على احتمال بعيد
جداً — أن تلحق بهم أم من أم هذا العصر الفتية . غير أن هذا الاحتمال بعيد جداً
لأن الأم أو الأمة إذا بلغت شأواً معيناً من السمو والرفعة فقد يكون من غير الممكن
المحتمل النزول عنه حتى ولو أرادت هي بل ولو أراد العالم كله لها ذلك . إذ يكون مثلها
في رفعتها وتبوئها مكانها الرفيع كمثل كوكب أفلت من منطقة جذب إلى منطقة جذب
أخرى حتى أصبح مستحيلاً عليه هو وعلى العالم كله أن ينزل به من تلك المنطقة أو أن
يزحزحه عنها . ويجب أن يكون معلوماً أن للمعاني مناطق جذب وقوة جذب كما للمادة
وكما للكواكب والشموس . والعزة للأقوى الأغلب في المعاني وفي المادة معاً .

أما معارف الإنسان اليوم وشهادتها على عظمته وعلى ضخامة ما ينتظره من الآيات العلمية الإنسانية فأمر من الواجب أن يكون فوق كل خلاف وجدال . لقد كادت الطبيعة أن تستسلم بلا قيد ولا شرط لعلم الإنسان وعقله وكادت — أو قد فعلت — أن تضع في يده قيادها يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب .

أى شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب ؟ لقد هاجم كل شيء في معقله وغزاه في مكنه بانتصار مبین ساحق . فلقد هاجم أكبر وأقدم أعداء الإنسانية — بل وغير الإنسانية من الحيوان والنبات — وهو المرض قهوره . لقد عرف أسباب هذا العدو القديم الشنيع الذى لازم الإنسان منذ وجد بل لازم الحياة وعرف وسائل مقاومتها : عرف كيف ينشأ وم ينشأ ، ثم عرف كيف يحارب ويقضى عليه . لقد غزا جيوشه الميكروسكوبية الخفية التى يصح أن يقال إنها لولا الآلات الدقيقة القوية التى هتكتها من عوالم ما وراء المادة وما فوق الطبيعة ! فعلم كيف تعيش هذه الجيوش وكيف تتكاثر وتنمو وكيف تموت وتبيد ثم كيف تتق قبل هجومها وكيف تطرد وتقتل وتؤسر إذا هجمت واحتلت الأجسام ! لقد صنع لها الأسلحة الفتاكة والأطعمة السامة المهلكة ووضع لها الأرصاد والآلات الحساسة التى تعرف أين توجد وأين تحل وأين تعسكر ! لقد علم من شأن هذا العدو ما يجعلنا نوقن بأنه عن قريب جداً سيخترصيراً بين يدي هذا الإنسان وأمام علمه وستستسلم له كل جيوشه استسلام مهزوم مقهور ، وسيضع بهذه الجيوش الطاغية الباغية ما أراد : إن أراد أبقي وإلا أفنى على ألا تضر منه أحداً لما سيوجده من أسلحة المقاومة وأسباب الحماية الثابتة المتقنة .

لقد تلفت هذا المخلوق الضئيل العجيب ، مفكراً صادق التفكير ، فوجد أنه أسرة واحدة كبيرة كثيرة مفرقة تفصل بينها الأبعاد والمسافات ووجد أن هذه الأسرة تسكن بيتاً واسعاً جداً — هو الأرض — ووجد أن هذه المسافات والأبعاد والسعة والتفريق تفتت عليه أغراضاً جلي ، وحاجات لا يستغنى عنها . فهب يستجد فكره : كيف يزيل المسافات والأبعاد ، وكيف يجعل الإنسانية كلها حقيقة كأنها أسرة واحدة تقطن بيتاً صغيراً لا أبعاد له ولا مسافات ... فإذا فعل وما عساه يستطيع أن يفعل ! إنه أوجد ما جعل الأرض ومن فيها وما فيها كأنها كرة صغيرة فى يده يقلبها صباح مساء بين يديه ويعلم ما يحدث فيها بلا عناء ولا خفاء ولا تعب .. فطوى الأبعاد والمسافات . وكان له ما أراد .

وراح أفراده يتخاطبون في أطراف هذه الأرض كما يتخاطب أفراد البيت الواحد الصغير بل أسرع وأروع ! إنه يستطيع أن يبعث برسالة من رسائله الصغيرة أو الكبيرة ، العظيمة أو الحقيرة فتطوف حول الأرض في أقل من ثانية ! ثم ما ثانية ؟ إنه هو الذي أوجدها أيضاً وحددها وعرفها .

إن أحقر وأصغر إنسان في أى مكان كان ، في مجاهل الصحراء ومضارب البدو ، أم في أحضان المدن والمدنية ليضع أصبعاً من أصابعه الضئيلة العليقة على زر كهربائى فيديره فيسمع ما يشاء من لغات ومن أصوات ومن كلام ومما يشاء . ويضع أصبعه أيضاً على زر من هذه الأزرار المسحورة بقوى العلم السحرية فيقول ... ماذا يقول ؟ يقول ليكن نور فيكون له ما يشاء .

لقد قضى على الأبعاد المكانية قضاءً حاسماً — سماعاً ورؤية وانتقالاً أيضاً — أى إنه صار يرى ويسمع وينتقل بدون أن يكون للأبعاد سلطان . لقد هزمت الأبعاد المكانية إذن . أما الأبعاد الزمانية فكانت معركتها لا تقل عن معركة الأبعاد المكانية ولا عن غيرها من المعارك العامية التي اقتحم الإنسان غمارها بعلمه بروعة وانتصاراً ! إنه استطاع أن يطير على أجنحة العلم وأن يرجع إلى الوراء الزمانى آلاف الملايين من السنين ، وأن يوجد نفسه قبل أن يوجد بما يفوت الأعداد أو يكاد ... إنه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكوونه وتوالده وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد : كيف ولدت مادة الكون ومتى ولدت وكيف ظلت تتفاعل وتتطور ، ثم كيف أخذت تتوالد ثم كيف ولدت هذه الشمس وغيرها من الشمس ، ثم كيف راحت هذه الشمس نفسها تلد الأتباع والبنين ليحيطوا بها وليخفوا من حولها : يدورون ويتحركون ولكن لا يستطيعون الخروج من قبضتها ولا الاتصال عنها أو الابتعاد ولا الاستغناء عن سلطان جذبها ... فكأنها بينهم أب وقور مبجل بين أبناء كرام بررة يطيعون به لياً تمرروا بأمره ويلفعلوا ما يحب ويشتهى . وراحت هى تفيض عليهم بأنوارها وحرارتها وقوتها مثل ما يفيض الأب الحكيم الرحيم على بنيه أنوار الهداية وحرارة الإيمان وقوة الرجولة .

انظر ! إنه مشهد من مشاهد العلم التي لا يقدر على إبصارها والاستمتاع بها إلا هذا الإنسان . فياله من مخلوق ما أعظم حظه لو استطاع أن يعلم ذلك أو أن يفيد منه . ثم راح يحدث كيف راحت هذه الأتباع توجد الأتباع ، وكيف راحت الأبناء

تصير من الآباء . فقد ولدت السيارات الأقمار كما ولدت الشموس السيارات . فكان
السنة واحدة لا تختلف ، في الجماد ، كما هي في النبات ، كما هي في الحيوان .

ثم رجع يشهد كل العصور التي مرت بهؤلاء الآباء والأبناء والأحفاد . ووفق يحكي
حكاية العلم المستتب الأديار المتقلبة التي مرت بها والتطور البديع المنظم الذي ظل يسوقها
ويدفعها إلى الكمال . ويحكي كيف أخرجها هذا التطور من الحالة الغازية أو السديمية
وما قبلها إن كان لها قبل إلى حالة التكاثر والتكتل ، ومن حالة الاضطراب والقلق إلى
حالة الاستقرار والهدوء ، ومن العصور الجليدية والنارية إلى عصور الاعتدال ، ومن حالة
التكتل والفوضى الهندسية التي لا تمكن من سكنها ومن الانتفاع بها إلى حالة التشذب
والتهذب والتمهد الذي جعل منها السهول والسهوب والأنهار والجبال والأودية والمرتفعات
والمنخفضات وكل ما نشهده اليوم فيرونا منظرًا ومخبرًا . وقد وقف وهو آيب من هذه
الرحلة العلمية الطويلة البديعة على عصر وجود الحياة في كوكبنا هذا وقفة غير قصيرة .
فحضر بشغف واهتمام متزايدين هذا الفصل الشائق من الرواية — وهو فصل ظهور
الحياة ، وهي اللغز المعقد الذي لا يزال العلم الدائب واقفًا أمامه حائرًا دائبًا على محاولة حله .
فحضر وجود الإنسان ووجود غيره من أنواع الأحياء . فانزم هذه الموجودات الطريفة
— وعلى رأسها الإنسان — فتدرج معه ومعها وهو وهي يحوان في مدارج الحياة
والوجود ، فوصف الإنسان ووصف أيضاً غيره منذ وجوده البدائي الشقي إلى وجودنا
هذا ، المتحضر المهذب السعيد . فكتبه فصلاً من أعجب الفصول ، يصف وصفاً يكاد يكون
تصويراً لهذا المخلوق وكل ما شهد وهو يتنقل من طور إلى طور ومن حالة إلى حالة ،
من حالات النعماء والبأساء ، حتى صعد هذه القمة الرفيعة من المدنية التي منحت الحياة
كل هذه الألوان الزاهية من ألوان السعادة والترف والعيش الرخي ... ثم لم يقف بعلمه
عند هذا بل ذهب مسرعاً يسابق الوجود فيسبقه وذهب يجربنا عما بقي من عمر هذا
العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود الذي سبق أن ولده وأن شهد نشوءه وتكونه ،
وعما بقي من عمر هذا الإنسان وغيره من الأحياء ، ويجرب عن الأحداث والحوادث التي
لا تزال في طريق الوجود والتي لا تزال تترقب لتنب وثبتها .

بالعجب ! إنه قد فرغ من علم الأرض وما فيها وما سيكون فيها ومن دراستها
ودراستهم ثم رنا يبصره الحاد الطموح إلى ما هو أسمى وأعلى موضعاً وأوسع وأكبر نخرج

من كوكبه هذا الذي لم يشبع رغباته ومطامحه العلمية إلى رحاب الفضاء بآلاته وأرصاده ورياضياته وخياله يجوبه جوباً ويرود مافيه روداً : يعدد مافيه من عوالم ويصف أوضاعها وهيئاتها ومقاديرها وأبعادها وأعمارها وأنوارها وحرارتها وقوتها وسيرها وسرعة سيرها ودورانها والتناسب القائم بينها ، ويميز التابع من المتبوع والطائف من المطوف حوله والوالد من المولود . بل يخللها حتى يعرف ماهى مركبة منه وماهى عناصرها وما مادتها وما غير ذلك . ثم لا يقضى هذا كله وطر شهواته العلمية بل يجمع أمره على ما هو أعظم ويعد العدد ويقوم بالتجارب بعد التجارب ليتصل بهذه السماوات العلويات إما بالرسائل الكلامية اللاسلكية وإما بالانتقال إليها على متن سفن سهمية تطلقها قوة العلم وتوجهها حيث يريدون .. نعم هم لم يصلوا حتى اليوم إلى هذه الغاية ولكن من زعم أنهم لن يصلوا يوماً ما فقد أساء إلى نفسه .

وهكذا لا ينتهون عند حاجة من حاجات النفس يظفرون بها فكأنه لانهاية لحاجات هذا الخلق وكأنه لاشيء يرضى طموحه العلمى إرضاء يحط لديه رحاله وكأنه خلق ليضى بسنة الله حتى يبلغ بها غايتها التصوى وحتى يوجد الكمال المنشود الذى أراده الله الكامل لعالم صنعه بيديه ... فمن أراد لهذا الإنسان ألا يستمر فى رحلاته الكشفية العلمية فقد أراد بلا ريب بسنة الله ألا تمضى فى سبيلها . ومن أراد ذلك فلا شك فى أنه عاجز عن بلوغ مراده .

لا أدق كلاماً من الله العلى حينما قال « ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم » فالإنسان حقيقة لم يشهد خلق هذه العوالم الكبرى لا السماوية ولا الأرضية ولا خلق فردة الأول لأنه إنما وجد بعد ذلك إذ البيت يوجد قبل السكن فيه . فأنبأ الله بهذه الحقيقة الصحيحة الواضحة . ولكنه لم يقل « ما أعلمتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم » بل اختار نبي الإشهاد على نبي الإعلام وكأنه إنما أشارا بهذا الاختيار إلى أن الإنسان بمداركة الفكرية قد يعلم خلق السماوات وخلق الأرض وخلق نفسه بل وخلق كل شيء كما علم بذلك سائر العلوم التى علمها والتي صارت حقائق مشهودة منظورة . أما شهوده أو إشهاده لوجود العوالم التى خلقت قبله فغير ممكن . والشهود والإشهاد غير العلم والإعلام . فالإشهاد هنا يراد به إشهاد الحضور . ولو أن الله قال ما أعلمتهم خلق السماوات والأرض لنهض أقوام من هنا وهناك ينازعون فى معارف الإنسان

وينكرونها عليه ويدعون أن القرآن قد أنكرها . فالشهود قد نفي بهذه الآية ... وأما العلم فقد أثبت بقوله تعالى « سنرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فالرؤية هنا رؤية العلم أو الرؤية البصرية بواسطة العلم وليس المراد رؤية البصر العادية للأشياء العادية لأنهم لم يفقدوا هذه الرؤية حتى يقال : إن الله سيرهم إياها . وآية الله في الآفاق التي أخبر القرآن أنهم سيرونها هي هذه الكشوف والمخترعات أو الآيات الكونية التي يراها الإنسان بوسائله العلمية والتي لولا هذه الوسائل لما استطاع رؤيتها . فالجديد هو المرئي أو الرؤية هي الجديدة لأمر قديمة أو هما معاً جديداً : المرئيات والرؤيات . ولا بد من القول بأن الآية تشير أو أن فيها إشارة إلى العلوم الحديثة وإلى آياتها وإلا لما كان لها معنى مفهوم بيسر . (!!!)

وأما الآيات في الأنفس فهي الحقائق النفسية التي اكتشفها العلم ، وهي أيضاً الحقائق التكوينية والتشريحية والبتكرات العلمية التي تفجرت عنها النفس البشرية وكل ما يتصل بالحياة الإنسانية مما كشفه العلم وأعان عليه ومما لم يعلم إلا أخيراً .

والآية دالة على أن معارف الإنسان ومراييه ورؤيته للأشياء متجددة متطورة كما يقرر العلم ، وعلى أن الإنسان يسير دائماً إلى الأمام ولا يرجع إلى الوراء . لأنه إذ رأى الآيات التي لم يكن رآها من قبل فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى قواه العقلية المبتكرة التي أوجدت ما لم يكن موجوداً وعلمت ما لم يكن معلوماً — أي التي جدت في مخترعاتها وأحدثت في موجداتها ، أو راجعاً إلى مقدرته الذهنية التي جدت في خيالاتها وإدراكاتها ... والتجديد في العلم أو في المعلومات إنما ينشأ عن التطور . ولو كان الإنسان لازماً حالة واحدة من الناحية العقلية والخيالية — أو لو كان يرجع القهقري — لما حصل جديد لا في علمه ولا في معلوماته بل ولا في خيالاته .

وصل الإنسان وقت نزول القرآن إلى طور معين من التدرج نحو الحياة ونحو الرشد العقلي . وكان هذا الطور لا يبدو النظرة السطحية والإلمام بظواهر الأشياء دون النفوذ إلى بواطنها . فكان يرى رؤية قد يضبطها الاستقراء بعض الضبط ، وقد تغفلت من كل ضبط وهو الأكثر الأغلب ، فكانت أحكامه على الأمور ، وكانت علومه مبنية كلها على هذا الإلمام الظاهري الصادر عن الرؤية الناقصة . وكانت هذه المرحلة من وجود

الإنسان بمشابه النهاية أو القرب من النهاية لطور لا يبعد جداً عن الطور الحيواني الذي كانت وسائل إدراكه تنحصر في الحواس الغليظة المجردة مع شيء غير كثير من التفكير الصادق والخيال الذي له بعض القيمة . . . فأنزل الله في كتابه متحدثاً عن هذا الطور قوله تعالى « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » فعلمهم كلها كانت ظاهرية : يرون الظواهر الطبيعية والفلكية والنفسية والاجتماعية وسواها ولكن لا يدرون لماذا هي ولا ما هي ! ولا يدرون ما الأسباب وما أسباب الأسباب : يرون الشمس والقمر وغيرها معلقة في الفضاء متحركة ذاهبة آتية دائرة سائرة بنظام ومواعيد لا تختلف ولا تتخلف . ويرونها تبعث بالحرارة والأشعة ولكن لا يدرون لماذا ولا كيف هذا ! بل لعلمهم ما كانوا يفكرون في هذه الظواهر والمشاهدات ! لماذا لا تقع علينا وعلى الأرض ! ما الذي يسكبها ويمنعها من الوقوع ! ما الذي يديرها ويحركها ويضبط مواعيد غيبتها وطلوعها ! ما الذي يمدها بهذه الأنوار والحرارة التي لا تنفذ ! كل هذا لا أسئلة له عند هؤلاء وإن سألوا فلا أجوبة صحيحة . وكل ما يمكن أن يقولوا في هذا أو كل ما يمكن أن يفهموا : أن الإله - أو الآلهة - هي التي تفعل ذلك أو أنها - أي الشمس والكواكب - هي التي تفعله بنفسها لأنها آلهة أو لأنها كائنات حية متحركة بالإرادة والاختيار ، إذ قد ظل الإنسان أحياناً متنادية في الطول يعتقد أن كل متحرك إما إله وإما حي عاقل . فكانت الكواكب المتحركة الطالعة الغائبة على حسب ما يرى آلهة في أزمان عند أقوام ، وأحياء في أزمان أخرى عند أقوام آخرين . . . والطفل كما قلنا غير مرة يعطينا أبدأ صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين . والأطفال حتى اليوم إذا رأوا شيئاً يتحرك ويسير حسب حياً وحسبوا حركته وسيروا إرادته وقصدته مثل ما يصنعون هم . ولا تزال بقايا هذه الإنسانية الظاهرية السطحية موجودة .

وكانت تلك الإنسانية منذ وجدت ترى التفاحة تسقط على الأرض وترى كل ما رأى مكتشف قانون الجاذبية ولكنها لم تستطع أن تظن إلى ما فطن إليه نيوتن في هذه المسألة . وكانت ترى كل ما رأى مكتشفو قوة البخار والكهرباء وجميع المكتشفات والمخترعات التي قلبت حياة الإنسان . غير أنها كانت عاجزة عن أن ترى غير الظواهر وغير ما يرى الأطفال من مظاهر الأشياء . . . وهكذا كانوا أمام جميع مظاهر الكون .

وكانوا أيضاً يعلمون فتك الأمراض بالأبدان ويعلمون أعراضها ومظاهرها ويعلمون أنها تورد موارد العطب ويعلمون شيئاً كثيراً من أنواعها على حسب اختلاف أعراضها

ولكنهم كانوا جميعاً جاهلين بأسبابها جاهلين بما وراء الأعراض ... فلا يدرون من عوالم الميكروبات شيئاً فهم لذلك لا يدرون من وسائل مقاومتها شيئاً أيضاً فكانت هذه الجيوش الخفية القوية تغزوهم فيصرون وقعاتها وفعالها لأنها ظاهرة ولا يبصرونها هي لأنها من عالم الحقائق المستورة خلف الظاهر .. فكانت دائماً منتصرة عليهم وكانوا أبدأ مهزومين أمامها بدون قتال .

وكانوا أيضاً يرون كل الظواهر التي تؤيد قانون الوراثة وتشرحه والتي تدل على ما كان عليه الإنسان الأول من أخلاق وطباع ووحشية ، والتي تعطي مباحث علم النفس ما شاء من مواد لبنائه وتشبيته ووضع حدوده .. غير أنهم لبثوا أمام هذه الحقائق والظواهر شاخصين بأبصارهم كما يشخص الأطفال إلى القمر : يرونه كل ليلة يحجى ويذهب ويرونه يصغر ويكبر ويحيا ويموت وبغمرهم بضيائه الباهر وهم في بيوتهم ومخادعهم ثم لم يفهموا من هذا شيئاً سوى هذه المرأى ... إنهم رأوا كما رأى المتخصص اليوم بدراسة علم النفس أن الأطفال يولدون وهم يحملون معهم شر الأخلاق وأظلم الطباع وأنهم لو تركوا لسجاياهم لما تورعوا عن إثم ولما أنفوا من ظلم ولما فعلوا شيئاً حسناً من أجل أنه حسن أو لأن فيهم ما يحفزهم على فعل الحسن ... ورأوا ما يجب أن يعلموا منه أن الحسنات — أو الليل لفعل الحسنات والخير — لم يولد مع الأطفال وإنما لقنوه تلقيناً وارتاضوا عليه بحكم التقليد والتربية والمشاهدة والتعليم بعد الولادة ... وكان يجب أن يكون لهذا دلالات عديدة عندهم ولكنهم بقوا مع هذا كله يقولون ويعتقدون أن الأطفال — بطبيعتهم — ملائكة وأنهم مجبولون مجبورون على الخير وحب الخير مع أن الواقع أنهم بطبيعتهم شياطين أشرار .

وهذا يدل على أشياء كثيرة لم يفظنوا لواحدة منها ، من هذه الدلالات أن الإنسان بطبيعته شرير خبيث ظالم وأن الإنسان الأول كان كذلك في كل عهوده وأن الأطفال يرثون هذا الشر والحبث والظلم من أولئك الآباء الأولين الظالمين الأشرار ... أما الخير والإحسان وكل هذه الصفات والألفاظ الجميلة التي يتصف بها الإنسان والتي يدعو إليها ويمتدحها ويأمر بها فهي مكتسبة اكتساباً من الأديان ومن التربية التي كونها الإنسان لنفسه بحكم الضرورة والحاجة والأنانية أيضاً . فإن الخير قد تدفع إليه الأنانية كما سيجيء بيانه في فصل مقبل ... وعلى هذا فمن الجهل الفاضح التلفت إلى وراء بقصد الاقتداء

والاحتذاء . وإنما يجب الهرب دائماً من الماضي والتطلع إلى المستقبل باسم راغبين
آملين أن يحو كل وراثت ذلك الماضي وأن ينزع تأثيرها وسيطرتها على الإنسان القبل .
فالحنين — من أجل هذا — إلى الماضي والتصايح بالدعوة لتقليد الأولين والأخذ
عنهم بلاهة .

ومن هذه الدلالات الإيمان بأن الإنسان يتقدم ولا يتأخر وأنه خلق متطوراً من
شر إلى خير ومن نقص إلى كمال .

ومن هذه الدلالات أيضاً العلم بأن ترك الأطفال لطبائعهم بدون تعليم ولا تربية
إنما هو بمثابة تركهم للوحشية العريقة العريقة في كل ألوان العدوان وأنهم إنما يبنون
بقدر ما يخلصون من تلك الطباع الموروثة العادية ، ويهدمون وتهدم أممهم وشعوبهم
بمقدار ما يترك لهم ومعهم من هذه المخلفات الموروثات ... وعليه فالرجل والمرأة أيضاً
اللدان يتركان من غير تعليم وتربية إنما يتركان لهذه الوحشية العاتية فلا أمل فيهما — أى
في الرجل والمرأة الموكولين لطبيعتهما من حيث الإنسانية بل هما من أعداء الإنسانية التي
بتنها التربية والتعليم والأخلاق المكتسبة .

ويجب التنبيه هنا إلى أن الإسلام قد نبه إلى هذه القضايا كلها تنبيهاً صريحاً فمن
تصوصه الصريحة قوله تعالى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » أى
لا تعلمون شيئاً من هذه الأصول المعلومة في الأخلاق وفي التربية وفي الأديان وفي التعاليم
المتختلفة . وهذه الأمور إنما تعلم بالتعليم فمن تركوا بدون تعليم بقوا لا يعلمون منها شيئاً
وبقوا أشراراً ظالمين لأنهم لا يعلمون الأصول المنافية للشر والظلم ، الناهية عنهما .
فالأطفال — ذكوراً وإناثاً — يكبرون وتكبر معهم هذه الطبايع العدوانية
إن لم يعلموا .

ومن هذه النصوص قوله تعالى « وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » وقوله
« قتل الإنسان ما أكرهه » وقوله « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » وقوله
« وأحضرت الأنفس الشح » . والآيات في هذا كثيرة معلومة . وفي الحديث الصحيح
المشهور (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وقد أكثر
شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم في كل نص يقع بين أيديهم .
ولا التفات إلى ما قالوه فيه لأنه غير قائم على أصل من أصول العلم المقررة ... والمعنى النبى

يجب أن يفهم : هو أنهم يولدون على الفطرة الأولى . والفطرة الأولى معروفة وهي الجهل بكل التعاليم الموجودة اليوم عند الإنسان سواء أكانت تعاليم دينية أم تعاليم أخرى ، فهم لا يعلمون شيئاً من هذه التعاليم بسجائهم وطباعهم لأنها تعاليم اكتساب وتلقين ، وإنما يعلمونها إذا تلقوها وعلموها . وكل طفل وما يلقن ويعلم — أى إنه يتجه على حسب التوجيه الذى يصادفه وعلى حسب ما يريد موجهه . فإن كان معلمه وموجهه ومربيه نصرانياً جاء نصرانياً ، وإن كان يهودياً جاء يهودياً ، وإن مجوسياً فكذلك ، وإن كان مسلماً فلا بد من أن يكون مسلماً كما يشاهد في كل زمان ومكان .

ومن المعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة في تعليم الأخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه . ولو تركوا لم يعلموا شيئاً لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية بقوا على فطرتهم أى مجردين من كل دين . وفطرتهم هى العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط . والفطرة حينما تطلق إطلاقاً ليست ممدوحة وليست خيراً . وإذا قيل : الأم الفطرية كان يعنى بذلك تلك التى تركت بعيدة عن التعليم والتهديب فهى جاهلة مجرمة . والفطرة مأخوذة من الفطر وهى فى أحد معانيها الخلق . فالرجل الفطرى هو الذى ترك خلقته الأولى التى لا أثر للعلم والتعليم فيها وهذا لا خير فيه .

والإسلام لا يقبل شهادة الأطفال . ونحن نفهم أنه إنما رد شهادتهم لما جيلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء . أما قول بعض الفقهاء — أو قولهم كلهم — إنه رد شهادتهم لأمر آخرى ذكروها فهو من جملة أقوالهم الكثيرة التى تموج بها الكتب موجاً من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية . وهنا يجب أن يفتن القارئ إلى أنه لا تناقض بين دعوتنا إلى الإيمان بالإنسان ومواهبه العديدة ، وبين قولنا هذا فى جيله على الظلم والعدوان . فإننا نريد بالقولين معاً : أن الإنسان خلق ناقصاً شريراً ظالماً جاهلاً ، ولكن خلق إلى جانب ذلك معدداً للتطور والسير بالتدرج نحو الكمال ونحو البلوغ العقلى والخلقى . فهو شر بالنسبة للماضى خير بالنسبة للآتى . وهذا يحملنا على أن نعمل لتدمير الماضى الفاسد وبناء المستقبل الصالح . ولا يظن أحد من القراء أنه يدخل فى هذا الأصل الحبيث الشرير الظالم آدم أو غيره من الأنبياء الذين جاءوا برسالة الإصلاح العامة ، وجاءوا لنقل البشر من ماضيهم الحبيث

إلى رسالتهم الطيبة الهادية التي تعمل على إبلاغهم طور الفضيلة المتبغاة... وإنما نعني بذلك تلك الإنسانية المتروكة لجهالاتها ولطباعها غير الطيبة . وكلامنا لا يحتاج إلى مثل هذا التنبيه . ولكن التجربة دلتنا على أنه يجب الحساب لما هو أبعد من هذا عن القصد . والإنسان — كما هو موضوع كلامنا — شرير بحسب الأصل والطباع الأولى . فاحتياجنا إذن لهذا التنبيه راجع إلى هذا الأصل وإلى محاولة اتقائه .

هذه كلمة استطرادية فلنرجع إلى أصل البحث الذي أردنا به التدليل على أن الإنسان كان وقت نزول القرآن لم يعد كثيراً طور رؤية الظواهر دون معرفة البواطن فنقول : وكانت الإنسانية أيضاً إذ ذاك تعلم وترى أن أمماً تسقط وأمماً أخرى تقوم ، ولكنها ما كانت تعرف لماذا يسقط من يسقط ولماذا ينهض من ينهض ويسود من يسود . وكل ما كان يمكن أن تعلق به هذه الظواهر هو زعمها أن الآلهة — أو الإله — قد غضب على الأم الساقطة المهاوية فخر لها فأسقطها ، ورضى — أو رضيت أى الآلهة — على الأم الأخرى القائمة السائدة فأقامها وسودها . أما الأسباب الاجتماعية أو النفسية أو غيرها من الأسباب التي صارت اليوم معلومة مدروسة في قيام الأمم وسقوطها فكانت عازبة عنهم وكانوا عنها بعيدين ، لأن تطورهم ورشدهم كان حينذاك لم يبلغ هذا المدى .

هكذا كانت الإنسانية يوم نزل القرآن : ترى ولا تعلم — أو تنظر ولا تبصر كما جاء في الكتاب الكريم « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » . وما أجمل هذا النفي والإثبات مجتمعين ، وما أروعهما متواردين . وقد جاءت إشارة الكتاب الكريم إلى هذا المعنى في آية أخرى أوضح وأجلى وهي قوله تعالى « فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . وقد كان القرآن ناعياً على الإنسان نقصه وحاله حينما قال : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » لأن الله يريد بهذا الخلق المختار الكمال وبلوغ الرشد . وهذا لا يكون إلا بعلم البواطن والنفوذ إلى إدراك الحقائق . أما الوقوف عند الظواهر فهو شأن الطفولة . والطفولة بلا ريب ليست هي القصد من الوجود وليست هي غايته وإنما هي طريقه وبدايته .

وجاء في الكتاب في سورة أخرى : « وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ولا يمر بالآيات مع الإعراض عنها إلا من لم يستطيعوا تجاوزة الطور النظري البصرى المجرد ، لأن الحاسة العقلية عندهم التي تنفذ في الأشياء متجاوزة

مجرد النظر ضعيفة أو مفقودة أو ساكنة سكوناً يمنعها تأدية وظيفتها . ويشترك في هذا النظر الظاهري ثلاثة أصناف على ثلاث درجات مرتبة : الحيوان ثم الأطفال ثم الأم البدائية أو الأم التي أصيب عقلها العام بجمود يشبه الموت .

كان هذا الطور الذي بلغته الإنسانية يوم نزول القرآن . وقد عمل الإسلام أعمالاً باهرة لا تكفر لنقل الإنسانية من طورها هذا إلى ما هو أكمل وأفضل ، فكان له من التأثير في هذا النضج البشري الذي نشاهده اليوم ما هو معروف . فقد خضت الإنسانية بعد ذلك الطور الذي نعاه القرآن عليها خطوات فانت في سرعتها وقوتها كل حساب وظن ... فالإنسان اليوم قد خلف وراءه عصر الظواهر ، وأصبح لا يقنعه ولا يشبع نهمة إلا أن يعلم كل شيء علم ظاهر وباطن : إنه لم يكتف بأن يعلم كل نواميس هذه الطبيعة بل ذهب يقسمها إلى خلايا وإلى عناصر وإلى ذرات ، وذهب يعلم خصائص كل ذلك بل ذهب يتحكم في هذه الخلايا والعناصر والذرات . إنه لم يرض بأن تقدم إليه مادة عليها ألوان الطعام الشهى الواهب للجسم ما يحتاج إليه ، بل رأى أنه لا بد أن يعلم العناصر التي يتألف منها هذا الطعام ويعلم نسبها ومقاديرها . ثم راح يؤلف من هذه العناصر أطعمة صناعية تفوق في جودتها وحسنها وفائدتها ومذاقها الأطعمة الطبيعية ... إنه قد حصر كل هذه الموجودات أمامه في عناصر عينها وعددها خفاءت حوالى اثنين وتسعين عنصراً ، فكان هذا كالانتصار في معركة فاصلة ، ترتب عليه كل ما يترتب على الانتصار في المعارك الفاصلة . وقد طفق من أجل ذلك يبارى الطبيعة ويسامها في كل أفعالها وعجائبها . وصار من المألوف المعروف أن يقال : هذا طبيعي وهذا صناعي ، أى طبيعي وإنساني . وأصبح البترول الصناعي والمطاط الصناعي والحشب الصناعي والصوف الصناعي واللؤلؤ الصناعي وكل شيء صناعي لا يقل في منظره ومخبره عن أخيه الطبيعي ... وإننا لنخشى أو نرجو — وقد تحقق الأيام أى الأمرين أحسن — أن يأتى الزمن الذي يقال فيه : الإنسان الصناعي والحيوان الصناعي ... وهذا ما لا يزال العلم أمامه حيران عاجزاً . ولكنه لم يعترف بالعجز ولم يفكر في الاستسلام للإخفاق ، بل مافتىء يهاجم ويناضل بعزم من يعلم أنه منتصر لا محالة . ومحاوله صنع المادة الحية أو إيجاد الحياة في المادة لا تزال من المعارك الملتحمة التي لم يكتب للعلم حتى اليوم الظفر بها . إذ يكاد يكون سر الحياة من أسرار الطبيعة التي لم يرفع عنها العلم الأستار . ولكن الإنسان يقول : إنه قد انتصر في نضال هو أشد من

هذا النضال الدائر الحامى من أجل الانتصار على سر الحياة ولغزها . وعلينا نحن أن ننتظر
وأن نلزم الحياذ حتى نرى لمن يكتب النصر .

لقد لون الإنسان اليوم كل وجوه الحياة بألوان مشرقة لامعة بعد أن كانت مغبرة
مكفهرة : لقد حسن كل شيء فيها بعد أن وهبه النظام وجعل له الأصول والقوانين .
كان كل شيء مضطرباً ، وكان كل شيء مشوشاً لا نظام له ولا قاعدة ، فأصبح اليوم يرى
علماً كله النظام وكله الترتيب في كل ناحية من نواحيه ومعنى من معانيه .

ولنذكر هنا مثلاً واحداً لنعرف به قيمة ما بلغه الإنسان وقيمة ما أعطى الحياة من
جمال وروعة وراحة ونظام : كان الإنسان الأول يراع من رؤية البحار ويرهبها أشد
الرغبة ، وكان لا يخطر على باله أن يجيء يوم يخاطر فيه بحياته فيركب متن هذا العدو
الجياش الصاحب . ولقد لبث على هذا أحقاباً وأحقاباً . ثم بعد ما لا يعرف الآن على وجه
التحقيق من الدهور وفق أن يتوصل إلى تفر جذوع النخل والأشجار الأخرى فيطفو
بها على سطح الماء مزهواً أو مذعوراً . ولنرسم في أذهاننا صورة لذلك الإنسان وهو
على ظهر سفينته تلك وكيف كان منظره ومنظرها ... ثم لم يزل يسوقه التطور شيئاً
فشيئاً ويدفعه حتى تهيأ له أن يركب هذه المدن الجميلة الطافية اليوم ساخرة من البحر
ومن أمواجه ومن صخبه ونصبه ، غير منتظرة ريحاً تسوقها أو حظاً يخدمها ! ولنفكر
في الجهود العقلية والصناعية التي بذلت للانتقال من ظهور تلك الجذوع إلى هذه السفن
التي تزهى بها البحار في هذا العصر .

إن كل ضرب من ضروب الحياة الإنسانية قد أدخل عليه من التجميل والتحسين
والتكميل مثل ما أدخل على صناعة السفن وتصميم السفن . إذا علمنا هذا ثم ألقينا نظرة
فاحصة على عالمنا اليوم وعلى ما غمره من صناعة الإنسان وعلم الإنسان ونظم الإنسان أيقنا
حينئذ بعظمة هذا الخلق ، وأتينا بالجواب الصحيح الذى يجب أن يجاب به السؤال
السابق : (هل الإنسان غير عظيم) .

إن من السخف المبين أن يظل خطبائنا وعلمائنا ووعاظنا وجميع رجال الدين وغير
رجال الدين ينشدون الأناشيد ويقذفوننا بالخطب تلو الخطب والمقالات إثر المقالات ،
مؤكدين لنا بأن الإنسان ما خلق ليكون عالماً ، ولا ليكون شيئاً كبيراً ، ولا ليغالب الطبيعة

والحياة ، ولا لينازع الله في علمه وقوته وقدرته ، ولا ليخرج من طبيعته .. وإنما خلق عبداً ضعيفاً جاهلاً ليبقى أبدأً ضعيفاً جاهلاً . وإنما خلق من التراب وسيتبقى أبدأً في التراب ! وإنما خلق ليثبت له ويبين أنه لن يستطيع أن يكون عالماً كما يقول أحد الشيوخ الذين أوردنا كلامهم ... ! إنه ما خلق ليحل المشكلات ولا ليقتضى على الأزمات ولا ليدخل التغيير الكبير على شيء من هذا الوجود الجبار الذي منحه الله نظامه .. وإن من السخف المبين أيضاً أن نظل خاضعين لهذه الثقافة الميتة التي حكمت علينا وعلى مواهبنا الإنسانية بالإعدام من غير أن نحاول التجديد فيها ولا الخروج عليها ولا التبديل في نصها أو روحها ، حتى لنسمعها كل يوم جمعة — بل كل يوم — تلحن وتعاد فوق منابرنا وفي جمعياتنا وفي كل ما يقال وما يكتب عندنا : نعم إن من السخف كل هذا بينما الآخرون الذين نسميهم أعداءنا جادون ماضون في استغلال مواهب الإنسان ومواهبهم الإنسانية حتى استطاعوا أن يصنعوا كل هذه الحضارة وكل هذه المدنية وكل هذه الحياة ، وحتى استطاعوا أن يتقوا هذه الحضارة وهذه المدنية وهذه الحياة كل يوم خطوات إلى الأمام ، وأن يضيفوا إليها كل حين جديداً . وحتى عجزنا نحن أن نشاركهم أقل مشاركة أو أن يكون لنا في مافعلوا أضعف أثر . نعم ! إن هذا من السخف المبين ومن القبح الفاحش أيضاً .

إن أقل ما يجب أن نفعله الآن هو أن نشيد ثقافة جديدة كل الجدة منزعة من روحنا المضعوفة تحت هذه الثقافة الحيثة القاتلة ، وأن نقيم قواعد هذه الثقافة على روح الإيمان بالإنسان ومواهبه التي لا تحصى ، ليتسنى لنا بعد هذا الإيمان الاتجاه إلى استغلال هذه المواهب وإلى الانتفاع بها . ثم أن نعد هؤلاء الذين يدعوننا إلى الكفر بالإنسان مجرمين لا يستحقون منا إلا مثل ما يستحق أصحاب الدعوات والمبادئ الهدامة .

إنه لو اعتقد إنسان اعتقاداً قائماً على الوهم بأنه مقيد بقيود لا يستطيع التغلب عليها ولا الخلاص منها لبقى قاعداً مستسلماً لهذه القيود الوهمية ولما حاول النهوض ولا المسير ، ولو اعتقد بأنه مقعد وأنه لا يقدر على القيام لظل قاعداً ، ولو وضع في مكان ثم أفهم بأن ذلك المكان مغلق وأنه لا يمكنه الخروج منه بحيلة من الحيل لألزمه ذلك الإغلاق الوهمي مكانه ، ولما أمكن أن يلتمس الوسائل للنجاة والإفلات إلا أن يكون لديه منفذ للأمل يتعلق به . وكذلك الجماعات والشعوب التي تعتقد — خطأً — بأن قواها العقلية مقيدة بقيود وهمية أو أنها مقعدة أو أنها موصدة عليها الأبواب تظل خاضعة لهذه الأوهام ما دامت خاضعة للإيمان بها .

وأخيراً لقد زعم هؤلاء الهدامون أن الرسول الكريم قال (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ثم زعموا أن معناه : من عرف نفسه متصفة بأضداد صفات الله ، أى بالجهل والغباء والحقارة والضالة والضعف والافتقار والفقر والموت وبكل الصفات المرذولة المقنونة فقد عرف ربه بالعلم والقوة والغنى وكل صفات الكمال ، أى إن العبد يجب أن يكون على الضد من أوصاف الله ، أى على الضد من أوصاف الكمال ، أى يجب ألا يكون كاملاً وألا يدعى أنه كامل ، ويجب أن يبالغ في انتقاصه وتحقيره وبالْحكم عليه ... وهذا من شروخهم وتفسيرهم المضللة التي ملأوا بها الكتب بل زعموا بها الطريق — وأى طريق ؟ إنه طريق العقل وطريق الحياة الصحيحة ... والتفسير الصحيح لهذا القول لو كان صحيحاً أن المراد : من عرف نفسه على حقيقتها فعرف مواهبها العديدة الكامنة وخسبها العجيب فاستثمرها عرف ربه معرفة صحيحة ، وعرف سننه العامة العادلة ، وعرف ما يجب له تعالى وما يجب أن يبرأ منه ، وعرف بطلان ما ينسب إليه الجاهلون الأغبياء الذين لم يعرفوه معرفة صحيحة لأنهم لم يعرفوا أنفسهم هذه المعرفة . وكل الذين ينسبون إلى الله الجهل والعبث والسفه والفوضى في الأحكام وفي الأوامر والنواهي وفي القضاء والقدر ، وينسبون إليه الحقد وحب الانتقام وكل ما لا يجوز — وكل الذين يعبدونه عبادة باطلة سخيفة ويريدون منه شيئاً سخيفاً ، ويسألونه ما لا يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يقع — وكل الذين يعبدون سواه ويظنون أن هذه العبادة ترضيه وتقرب لديه — إذ هي عبادة المقرين عنده : كل هؤلاء ما صنعوا هذا إلا لأنهم لم يعرفوا أنفسهم على حقيقتها لأن معرفة الشيء إما تكون بمعرفة صفاته ، ومن جهل صفات شيء فليس عارفاً له ، والذي يعرف صفات نفسه لا بد أن يستفيد من هذه المعرفة ، وأعظم فوائدها أن يقدر الأمور تقديراً صحيحاً . وإذا قدرها هذا التقدير الصحيح فلا بد أن يكون قد عرف الله معرفة صحيحة بعيدة عن الأباطيل وعن الترهات الاعتقادية التي ينساق إليها الجاهلون . والله يعرف بالعلم لا بالجهل ، وعند هؤلاء المخربين أنه إنما يعرف بالجهل ! ولهذا فإنهم يقولون من عرف نفسه بالجهل فقد عرف ربه بالعلم . وإذا عرف نفسه بالجهل — وكانت هذه المعرفة صحيحة ، ثم كان ذلك سبباً في معرفة الرب كان المعنى والنتيجة أن الله يعرف بالجهل وأن الجهل من أسباب معرفته ! ولكن لا يدعى هذه الدعوى إلا قوم لانصيب لهم في العقل ولا في الدين .

العلم محاب — الجهادة أم الفضائل — أكثر أهل الجنة البدر

هكذا قالوا :

روى جماعة منهم الحاكم وصححه أن الرسول عليه السلام قال (لا تنزلوا النساء
الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا عليهن بالمغزل وسورة النور) .
وروا أن علي بن أبي طالب مرَّ بامرأة تعلم الكتابة فقال (أفعى تسقى سمّاً) .
وروا أن النبي عليه السلام قال (إن البيان والبذاء والنفاق ، وإن العي
والبذائة من الإيمان) وأنه قال (إن الله يكره البليغ من الرجال) .
وروا أنه عليه الصلاة والسلام رأى التوراة مع أحد أصحابه فاستشاط غضباً وقال :
(أمتهوكون أتم) الحديث ..

وتقلا روايات كثيرة مشهورة جاء فيها أن عمر بن الخطاب كان يمنع من قراءة
كتب الأوائل وقراءة التوراة والإنجيل ويعاقب على ذلك ، وأنه كان يقول في كل كتاب
يحاولون قراءته : (أيوافق مافيه القرآن) إن كان يوافق قال فالقرآن يغنيننا ولا معنى
حينئذ لقراءته ، وإن كان يخالفه قال : لاخير في شيء يخالف القرآن . وهنالك الرواية
المشهورة التي ذكرها بعض هؤلاء مستحسنًا لها ومفتخرًا بها ، منهم المقرئ ومن
لايقول عنه ، وهي الرواية التي قيل فيها إن عمر أمر بتحريق مكتبة الإسكندرية قائلاً :
إن كان ما في المكتبة موافقًا للقرآن أغنانا القرآن عنها ولا حاجة بنا إليها ، وإن كان
مخالفًا له فلن نبقى على شيء يخالف القرآن ، وإنما أحرقت . وقد طار بهذه الحكاية
المختلقة بعض من يحملون على العرب والإسلام فرحاً .

وقد تكلموا كثيراً في تحريم المنطق والفلسفة وألقوا في ذلك كتباً منها كتاب
الأسيوطي المشهور (أقوال أهل المشرق في تحريم تعلم المنطق) وقد حكى في هذا الكتاب
الإجماع — أو شبه الإجماع — على تحريمه . ومن العبارات المشهورة عندهم في هذا
قولهم (من تمنطق فقد تزندق) . وفي الكتب المدروسة في الأزهر : (فابن الصلاح
والنواوي حرماً) أي حرماً تعلم المنطق . وقد شنعوا على الخلفاء العباسيين الذين وجهوا
عنايتهم إلى تعريب كتب الأقدمين وعدوا هذه العناية من مثالب بني العباس ، لأنهم
في زعمهم تقوا إلى المسامين علم الكفار ، وساعدوا الزندقة والإلحاد على الانتشار .

وجاء في كتاب مطبوع حديث التأليف أن أحد العلماء المشهورين جداً قال :
« كل ما يسمى علماً مما ليس في الكتاب ولا في السنة ومما ليس من علوم المسلمين فهو
لا يخلو من أحد احتمالين : أحد الاحتمالين أن يكون غير علم وأن تكون تسميته بالعلم
من تسمية الجهل بالعلم خطأ ، وثانيهما أن يكون علماً حقيقة ولكنه علم ضار غير نافع .
فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله » .

وجاء في أحد الكتب الدينية المشهورة المحترمة جداً في معرض تقسيم الأفكار
إلى جيدة وإلى رديئة مانصه : « منها — أى من الأفكار الرديئة الضارة — الأفكار
في الصناعات الدقيقة التي لاتنفع بل تضر كالفكر في الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال
والتصوير ، والفكر في العلوم التي لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كالا ولا شرفاً
كالفكر في دقائق المنطق والعلم الرياضى والطبيعى وأكثر علوم الفلسفة التي لو بلغ
الإنسان غايتها لم يكمل بذلك ولم يرك نفسه — إلى أن قال — فكل هذه الأفكار
مضرتها أرجح من منفعتها . ويكفي في مضرتها شغلها عن الفكر في ما هو أولى وأعود
عليها بالرفع عاجلاً وآجلاً ... »

وكتب ابن عربى والشعرانى وغيرهما ملامى بمذمة التعلم والعلم ، ومن الأقوال
المشهورة في هذا قولهم : (العلم حجاب) .

ومن البلاء حقاً أنهم لم يقصروا عند امتداح الجهالة بل قاموا — ببلاهة كشيعة —
يتمدحون الجنون والبلاء والبُله والمجانين ، فرووا أنه عليه السلام قال : (أكثر أهل الجنة
البُله) وأنه قال (المؤمن غر كريم ، والنافق خب لئيم) وأنه قال (إن الله يدخل قوماً
الجنة كأن قلوبهم قلوب الطير) أى في السذاجة والسلامة من المكر والخبث ، ومن الدهاء
والذكاء . وراحوا كالمصروعين يندشون في امتداح الجنون والمجانين :

مجانين إلا أن سر جنونهم عظيم على أبوابه يسجد العقل

وجاء في النهاية لابن الأثير — مفسراً البله الذين هم أكثر أهل الجنة — :

« البله هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر
دنياهم فجهلوا حقد التصرف فيها ، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها فاستحقوا أن يكونوا
أكثر أهل الجنة » . وهكذا قال غير ابن الأثير .

وهم يقصدون أن المؤمنين حقاً الذين ينحسون بدخول الجنة هم الذين يكونون

بالأوصاف المذكورة من العباوة بالشؤون الدنيوية وبما يلزم لها . وقال أحدهم في تفسير
البله : (الأبله هو الأبله في دنياه ، الفقيه في دينه) .

وفي النهاية لابن الأثير أيضاً :

« المؤمن غير كريم ، أى ليس بنكر فهو يتخدد لانتقياده ولينه وهو ضد الحبث .
يريد أن المؤمن المحمود من طبعه العرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه . . . ومنه
حديث قول الجنة : يدخلني غرة الناس ، أى البله الذين لم يجربوا الأمور فهم قليلو الشر
ينقادون . فإن من آثر التحول وإصلاح نفسه والتزود لمعاده ونبت أمور الدنيا فليس غراً
في ما قصد له ولا مذموماً بنوع من الذم . . . »

ومما ذهب كالمثل قولهم (العجز عن الإدراك إدراك) ، يعنون امتداح الجهل
وأن الجاهلين هم العلماء حقاً لأنهم عرفوا قدرهم وهو الجهل فوقوا عنده .
وهناك قسم كبير من الأولياء عند الذين كتبوا في الطبقات يسمون بالمجاذيب
أو بالأولياء المجاذيب . وقد أورد الشعراني في كتابه (طبقات الأولياء الكبرى) أسماء
طوائف كثيرة من هؤلاء المجذوبين . وهكذا صنع غيره .

لقد تبين بهذا أن الفساد الفكرى عند هؤلاء كان فساداً عاماً وكان فساداً أصيلاً .
فهم لم يكتفوا بمدح الفقر والمرض والجوع وكل ألوان الشقاء كما سيأتى ، بل امتدحوا
كما رأى القارىء الجهل والغباء ! ثم لم يكتفوا بهذا أيضاً ، بل امتدحوا الجنون وضعف
العقل والعجز عن التصرف فى الحياة ! وهم لم يقصروا عند ههنا الثراء والصحة والعافية
بل هبوا — بكل ما أوتوا من بله — يهجون العلم والتعلمين والعقل والعاقلين ! فهم
إذن قد قصدوا إلى كل مقومات الإنسانية ، وإلى كل عناصر الحضارة والمدنية ، ومحاولين
هدمها وتدميرها .

لقد سرت هذه الأفكار والآراء وغيرها فى البيئات الإسلامية سرىناً عجيباً ،
وغزت معقل الاعتقاد ومعقل التوثب الفكرى ، حتى أضحت روحاً عامة للخاصة والعامة
— إذا استثنينا من استثنى الله — مدى ألف سنة تقريباً ! وظل المسلمون الذين يعيشون
بهذه الروح طوال هذه العصور ينظرون إلى العلوم التى لاتتصل بالعبادة الحرفية الشخصية

بعين الجفاء والاشمئزاز بل والبغضاء ! ولبثوا ينظرون إلى من يحاولون الاتصال بهذه العلوم ودراستها أو ترجمتها نظراً كله الكره والقت والاتهام ! ولبثوا يعدون من اشتغل بها ملاحدة وزنادقة أو فساقاً إلى عهد قريب جداً ، بل لا يزالون كذلك حتى اليوم في بعض البلاد التي لم يعمرها نور العلم والتي لم تستطع الخروج من أحكام الجهل .

فقد عدوا من شغلوا بعلوم الإغريق — سواء أكانت طبيعية أم رياضية أم فلكية أم فلسفية أم طيبة — ملاحدة ، وألفوا كتباً في ذمهم وإكفارهم وتبيان أضرارهم وكذلك حسبوا من درس شيئاً من هذه العلوم من المسلمين والعرب . وقد اجتهدوا في تحامى هؤلاء وتحامى كتبهم وتحامى النظر إليها وعملوا على قتل هذه الكتب وعلى دفنها ... فأمثال الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان وأبي بكر الرازي والكندي وسواهم — ممن قاموا بتجارب ودراسات لها قيمة صادقة في الكيمياء والطبيعة والرياضة والفلك والطب والفلسفة — محاربون مكروهون متهمون في دينهم وأخلاقهم . وهم لا يذكرون حيناً يذكر علماء الإسلام وأعلامهم ورجالهم البارزون . أما كتبهم التي بحثت في هذه العلوم فلا توجد في المكتبات بل ولا يسمع بها ولا تذكر إذا ذكرت كتب المسلمين . ومن المؤسف حقاً أن الذين شهرروا هذه الكتب وشهروا مؤلفيها وأخرجوها وأخرجوهم من ظلمات القدم والنسيان هم علماء أوروبا أو من أخذوا عن علماء أوروبا . أما المسلمون فقد أجمعوا على رفض هؤلاء ورفض مؤلفاتهم وعلومهم وعلى تجنبها وتجنبهم . ومن أجل هذا لم يوجد بعد هؤلاء من ينهضون بإتمام ما بدأوه أو بتوسيعه أو للسير في الطريق التي اختطوها ونهجوها . بل ما كان مثل هؤلاء العلماء العلميين في هذا التاريخ الطويل المظلم الظالم إلا كوميضات لمعت في ليلة حالكة ثم تلاشت وتلاشى مصدرها من غير أن تعود مرة أخرى إلى أن غمرنا بل وغمر العالم نور النهار الذي خرج من جانب آخر .

ومن أجل هذا كانت مقاومتنا للعلوم التي غزت العالم كله مقاومة صادقة طويلة ، وكان نفورنا منها نفوراً حقيقياً ، وكان إباؤنا إياها إباء مصمماً ، وكان اتهامنا لها اتهاماً معززاً بالبغضاء والتشنيع .

لقد قامت أوروبا — قارة الضباب والثلج والظلام — منذ ثلثمائة سنة — بل تزيد — تحاول بكل الوسائل الخروج من ظلامها وجهلها . فما زالت كل هذه القرون تناضل هذين العدوين نضالاً مرأً عنيفاً حتى ظفرت هذا الظفر العجيب . وكنا نحن إذ ذاك نأبى

أن نبصر أو أن نفكر أو أن نستيقظ بل أو أن نقصد ، ونأبى أن ننظر إلى من حولنا وما حولنا . بل كنا لا نبغى بجهلنا ولا بلبينا بديلاً من العلم أو من النهار والنور . فلقد كنا مأخوذين متأثرين بل مخدرين أو مسحورين بأقوال هؤلاء الشيوخ المدمرين الذين كتبوا لنا وخلفوا وراءهم هذا العداة الكريه الميرير للعلوم ، ولاسيما علوم الكافرين والآخريين من الأمم الغريبة .

وكنا إذا ما طاب لهذه القارة أن تغزوا بلداً من بلادنا وأن تنتقص جانباً من جوانبنا بقوة علومها التي كرهناها وذيمنها ، فعزت ماشاءت غزوه ، وغصبت ما أرادت غصبه بدون عناء أو مقاومة — لأن الجهل لا يقدر على مقاومة العلم — فغرنا أفواهنا بدون أن نتكلم ، وشخصنا بأبصارنا ولكن من غير أن نبصر ، واستكت آذاننا فلا نسمع . لأن الحجب والموانع كانت تحول بيننا وبين أن ننظر أو نسمع أو نتكلم أو أن نستفيد مما يحيط بنا . كانت حجبا وموانع كثيفة أقامتها ونسجتها هذه التعاليم وهذه الآراء الخربة التي غبرنا نلقنها ونطعم بسموها القرون بعد القرون .

لقد بقينا نحن وبقوا هم هكذا : يعملون ونجهل ، ويقوون ونضعف ، ويأخذون ونعطى ، ويزيدون ونقص حتى قامت هذه النتيجة المروعة الخربة ، وهي أننا فقدنا نحن كل شيء وأخذوا هم كل شيء . والسبب في هذا كله يتلخص في شيء واحد : هو أننا تعلمنا كيف نبغض العلوم وكيف نأبأها وننفر منها ، بينما كانوا هم يتعلمون كيف يبغضون الجهل ، وكيف ينفرون منه ، بل وكيف يقاومونه ويدمرونه ويهزمونه .

ولقد كانت آثار هذه التعاليم التي ورثنا إياها هؤلاء القوم قوية فعالة . فإننا عملاً بهذه الوصايا بقينا محافظين بأمانة على عداوة العلم حتى اللحظات الأخيرة ، وظللنا مغمضين أعيننا خيفة أن تهرنا أضواء العلم في كل بلد من بلادنا وكل ركن من أركاننا . وما قبلنا من فتوح العلم إلا ما يدخله علينا هؤلاء الغزاة الغرييون اضطراباً وإكراهاً . وكنا ننظر أيضاً إلى العلوم أو أطراف العلوم التي تنتقل معهم أو ينقلونها معهم نظرات يشوبها الشك والريب والحذر . وكان بودنا لو أنهم أيدوا هم وعلومهم وذهبوا إلى غير رجعة . ومازلنا نسمع هذه الأمانى والآمال تشد فوق منابر المساجد ومنصات الخطب والمحاضرات في النوادي والجمعيات . وما زلنا حتى اليوم نسمع من يرفعون عقائرهم جاهدين يدعون على هذه العلوم وعلى أربابها ويسألون لها الدمار والفناء ، ويضرعون إلى الله طالبين إليه

ألا يبقى منهم ولا منها باقية ، لأنها في زعم هؤلاء الواعظين الناصحين الباكين أو المتباكين علوم لا تجلب سوى الشر ، ولا تحدث سوى الفساد والإلحاد . ولا شك في أن روح هذه الكراهية إنما هي بقية من بقايا هذه التعاليم وأثر من آثارها وصوت من أصواتها .

ومما يدل دلالة قاطعة على مبلغ تأثرنا بأقوال هؤلاء المشايخ في بغضة العلم وذمه أننا أبينا — حتى اليوم — في بلادنا المستقلة التي لم يغزها هؤلاء الأعداء العلميون بجيوشهم ولا بشركاتهم وأموالهم وأعمالهم أن تقبل هذه العلوم أو نفتح لها باباً من أبوابنا أو أن نرضاها معها بذلت لنا الشروط . ونحن نرى الآن بعض البلاد تأتي إباء تاماً أن تقبل عندها لوناً من ألوان العلم أو مظهراً من مظاهر الحضارة التي صنعها العلم ، على زعم أن هذه العلوم هي علوم قوم كافرين لا تليق إلا بالكافرين ، أو أنها علوم لاخير ولا فائدة فيها ، لأنها دنيوية لا تفيد في عبادة الله ولا في طاعته ، أو على زعم أنها تدخل معها الفساد والفسوق أو تدخل معها أهلها ، أو على زعم أنها علوم مخربة مدمرة . . . تعددت الأسباب والمنع لا بد منه .

وما استطاعت البلاد الإسلامية الأخرى أن تقبل بعض هذه العلوم أخيراً إلا إكراها لأن أهلها أدخلوها معهم كذلك أو لأسباب قاهرة ليس لهم فيها اختيار ولا يد . . . وظنى أن أكثر المسلمين الآن لو رجعوا إلى اختيارهم الخاص في قبول هذه الحضارة وعلومها وفي رفضها لكان الراضون الآبون هم الأكثرين ، والأدلة على ذلك كثيرة مشهودة حسية . وكلنا يعلم أن ملكاً شرقياً مسلماً سلب عرشه وطرد من بلاده لأنه أراد — بعد رحلة في أوروبا — أن يدخل على قومه الحضارة والعلوم الحديثة . وكلنا يعلم أيضاً أن ¹ ليرة بلداً إسلامياً مستقلاً لا يزال اليوم يعيش على هامش الحياة وعلى الفطرة الأولى . . .

وقد ظل المصريون المسلمون إلى عهد قريب جداً يرفضون تعلم الحساب — دع غيره من العلوم — متأثرين بهذه الروح المعادية للعلم . وكانت الأعمال الحسابية من أجل هذا موقوفة على الأقباط . حتى إن أصحاب الأموال والأعمال كانوا مضطرين إلى هؤلاء للقيام بأعمال دوائريهم . وكانت أكثر الوظائف — إن لم تكن كلها — التي تحتاج إلى حساب وإلى كتابة مقصورة عليهم خاصة بهم . وإلى اليوم لا يزال شيء كثير من هذا عالقاً بالأذهان وقد تجلى أيضاً أثر هذه الروح في لبنان . فإن المسلمين هناك قد بقوا مجانبين للمعاهد الأجنبية الموجودة ، ثم تمتنعين عن دخولها . أما غير المسلمين من اللبنانيين

فقد أقبلوا على هذه المعاهد بشغف ، فأخذوا منها العلم والتربية وحب الحياة . فأصبحوا هم الطليعة في نهضة لبنان العلمية والأدبية ، بل في نهضة كل البلاد العربية ، فقد تعلم الناس منهم فن الصحافة والأدب والشعر ، وأشياء أخرى . نعم من الممكن أن يقال إن التعصب الديني هو الذي حمل المسلمين في لبنان على اجتناب تلك المعاهد . ولكن الصحيح أن التعصب جزء السبب وليس كل السبب ، وكذلك كراهة العلم والدعوة إلى كراهته ليست بالسبب كله . بل التعصب وروح العدا للعلم سببان من أسباب وليس كل الأسباب كما يجب أن يقال .

لماذا هذا كله وما أسبابه وعوامله ؟ إن أعظم أسباب هذا وأظهر عوامله هو هذا الميراث الثقيل الويل الذي ورثناه عن هؤلاء الشيوخ الذين لم يوقفوا إلى شيء كثير من العقل أو العلم أو النظر السديد أو الاستقراء النافع .

نعم كل ما ذكر صحيح ، ولكن لماذا كره هؤلاء العلم ولماذا كتبوا في كراهته وفي مذمته ؟ إن لهذا أيضاً أسباباً ، منها الظاهرة الجلية ومنها الباطنة الخفية . وإن أظهر وأكبر هذه الأسباب هي سيطرة الفكرة الزهدية القاضية بذم الدنيا ونبذ كل ما يتصل بها وكل ما يعين عليها وما ييسر من أسبابها . فإن الزهد في الدنيا وفي الحياة المترفة المنعمة يفضى إلى الزهد في ما هو من عواملها ومقوياتها .

إن أساس أكثر أخطاء هؤلاء السعاة هو أنهم اعتقدوا أن العبد لا يكون عبداً لله حقاً مخلصاً خالصاً له إلا إذا كان ضعيفاً في كل شيء عاجزاً عن كل شيء : ضعيفاً في ماله وفي جسمه وفي صحته وفي علمه بل وفي عقله . فالقوة للعبد في كل شيء مذمومة لأنها عنوان الجبروت ، ولأن القوة يجب أن تكون لله وحده . أما العبد فله الضعف ، لأن الضعف أدل على العبودية ، ولأن الضعيف أقرب إلى الخضوع والاستسلام والإقرار لله بالعبادة . فالمال مذموم ، والقوة مذمومة ، والصحة مذمومة ، والعلم والعقل مذمومان ، وكل ما هو من صفات الله مذموم إذا كان صفة للعبد ! ومن أجل أن يحققوا هذه العبودية الضعيفة المستسلمة الخاضعة ذموا العلم وذموا الذكاء النادر والعقل الجبار ، وذموا الفصاحة والبيان وذموا كل ما يهب صاحبه القوة أو الكمال ، وامتدحوا الجهالة والغباء وضعف العقل والجنون والعي والفهاهة وكل ما يهب صاحبه ضعف الشخصية وخور الإرادة والعجز عن المقاومة : رأوا بتفكيرهم العاجز أن أعظم فرق بين الخالق والمخلوق هو الضعف

والقوة : الضعف في المخلوق والقوة في الخالق . ورأوا أن أحدهما لا يصح أن يتصف بصفة الآخر . فالخالق لا يصح أن يتصف بالضعف والمخلوق لا يصح أن يتصف بالقوة . فكل ما هو ضعف هو كمال في المخلوق ، وكل ما هو قوة هو كمال في الخالق . والعلم والذكاء والعقل والبيان والبلاغة من أوصاف الأقوياء القادرين ، فاتصاف المخلوق بها عند هؤلاء الأذعياء يخرج به عن طوره وحدوده . أما الجنون والعباء والجهل والفهاهة والبله فمن صفات الضعف والضعفاء ، فحسن إذن قيامها بالمخلوق مثل ما قالوا في الصحة والمرض والثراء سواء .

وهذه الفكرة الفاسدة إنما اترعوها من قياس فاسد أخذوه مما بين أيديهم . وهو أنهم وجدوا أن الإنسان أحياناً كثيرة قد يأنف من قوة عبده وخادمه وممن هو تحته ، ومن ذكائهم وعقولهم وعلومهم ، ويفار ويحقد ويحسد ويخاف من ذلك . وكذلك كثير من الملوك والأمراء والزعماء والرؤساء قد يفارون من رجالهم الموصوفين بهذه الصفات : فقد يحسدونهم ويحقدون عليهم ويخافونهم ويتمنون لو كانوا متصفين بالصفات الأخرى التي تضمن لهم اقيادهم واستسلامهم وضعفهم أمامهم . وقد روى التاريخ العدل أن بعض قادة الأمم — بل كثيراً منهم — كانوا يعملون على أن يحولوا بين شعوبهم وبين العلم ويحرمونه عليهم لأنهم يخافون امتناعهم عليهم وعسر طاعتهم لهم إذا تعلموا . وحتى في هذا العصر لا يزال يوجد فريق من هؤلاء القادة الذين يخشون العلم . ومما يؤلم أنه يوجد اليوم في إحدى البلاد العزيزة علينا من لا يكافئون المتعلمين إلا بالسجن والعذاب والمطاردة .

وجدوا هذا قد يقع ويصدق في أخلاق الإنسان وفي أعماله الضعيفة ، فذهب إلى أوهامهم أن الله أيضاً كذلك ، لأن الإنسان دائماً يفهم إلهه فهماً متأثراً بالنظام الاجتماعي الذي أمامه وبالبيئة التي هو فيها . هكذا فهموا أن الله يرضيه ويعجبه من عبده ألا يكونوا موصوفين بصفات القوة الخاصة به ، بل أن يكونوا موصوفين بعكسها أي بالضعف بكل ضروبه .

ثم رأوا أيضاً باستقراءهم الناقص أن العباء والعلى والفقر العقلي قد يقارنه الصلاح والانتطاع للعبادة ، وأن الذكاء والعقل والنبوغ والعبقرية قد يقارنها التمرد والشرود والريب ، فاستخرجوا هذه النتيجة — وهي أن الأذكاء والعقلاء والعلماء يضلون

ويكفرون ، وأن البله والأغبياء والجهلاء قوم يتصفون بالصلاح والطاعة والاستقامة وسلامة الطوية والاستسلام لله ولقضائه وقدره ولكل ما يطلب منهم ويحكم به عليهم دون أن ينبض لهم عرق بالإباء والامتناع ... ثم لم يحتاجوا لكثير من التفكير ليحكموا وليروا من أى الفريقين يجب أن يكون المسلم . هذا شئ .

وشئ آخر ، وهو أنه لا ريب فى أن كثيرين من الذين قالوا ما قالوا فى مدح هذه النقائص إنما حملهم على ذلك رغبتهم فى أن يضمّنوا لأنفسهم السيادة والزعامة ونصف الألوهية أو كلها ، لأنهم يدركون بدهاءة أن الأغبياء والجاهلين والبله هم الذين يسهل عليهم أن يسلّموا لهم وأن يكونوا بين أيديهم كالأموات بين أيدي الغاسلين كما يعبرون ! أما أهل الذكاء والعقل والعلم فمن العسير انقيادهم وتسليمهم . فنهضوا يدعون بإخلاص إلى ما يعطيهم السلطة وما يهبهم ملك القلوب ، بل وملك الجيوب . ومن هنا قال الصوفية فى تعاليمهم (العلم حجاب) وقالوا (الجهالة أم الفضائل) وقالوا (اللهم ديناً كدين العجائز) وقالوا (العجز عن الإدراك إدراك) .

ويحكى الشعرانى فى كثير من كتبه كما يحكى غيره أن مشايخ الطريق وأساطين الصوفية كانوا إذا رأوا من يقرأ ويتعلم زجروه وقالوا له : لا تأخذ علمك عن الأموات ولكن خذ كما نأخذ نحن عن الحى الذى لا يموت ! والأموات عندهم هم المخلوقون سواء أماتوا أم كانوا أحياء ، لأن الخلق كلهم فى لغتهم ميتون وإن كانوا لما يموتوا بعد ! وهم يريدون بهذا منع التعليم ومنع الأخذ عن الكتب وعن الأساتذة محافظة على سلطان الجهل الذى يرمى لهم سلطانهم ويحافظ عليه .

وقال ابن عربى فى كتابه (الفتوحات المكية) ونقله عنه الشعرانى فى كتاب (اليواقيت والجواهر) : « إن المنكرين لما تعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن الله عبادة تولى تعليمهم فى سرائرهم ! إذ هو المعلم الحقيقى للوجود كله وعلمه هو العلم الصحيح . وكان أبو يزيد البسطامى يقول لعلماء زمانه : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت . وكان الشيخ أبو مدين إذا سمع أحداً يقول أخبرنى فلان عن فلان يقول : لا تطعمونا القديد » كل هذا كلام الشعرانى وابن عربى .

وقد أرادوا — أعنى الشعرانى وابن عربى — أن يفرقا بين المجانين والمجازيب الذين هم فى رأيهم أكبر الأولياء فقالوا ما نصه : « إن الفرق بينهما أن المجانين سبب

جنونهم فساد المزاج عن أمر كوني ، وأما المجاذيب فسبب ذهاب عقولهم التبجلى الإلهى الذى جاءهم على بغتة فذهب بعقولهم ! فعقولهم مخبوءة عند الحق منعمة بشهوده عاكفة فى حضرته متزهة فى جماله ، فهم أصحاب عقول بلا عقول ! والمجازيب ثلاثة أقسام : الأول من يكون وارده من القوة . وكان أبو عقاب المغربى من أهل هذا المقام . الثانى من يمسك عليه عقله فى حضرة الله ويبقى عليه عقل حواسه فى كل ويشرب ويتصرف من غير تدبير ولا روية ويتناول العيش الطبيعى كسائر الحيوانات ...» ثم ذكرنا القسم الثالث قائلين : « واعلم أن أكبر من جذبه الحق إلى حضرته الرسل ... » وأى تضليل أكبر من هذا ؟

ومن الأوهام العظيمة أيضاً التى جعلتهم يذمون الاشتغال بالعلوم ولا سيما العلوم التى لا تتصل بعلوم الدين والعبادات اعتقادهم أن الإنسان إنما خلق لينفق كل جهوده وأعماله وأوقاته فى العبادة ، أما ما سوى ذلك فالاشتغال به من الاشتغال بالباطل الذى يؤاخذ الله ويعاقب عليه ، واعتقادهم أن من اشتغل بالعلوم الدنيوية أو التى تفيد فى الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل ، والباطل هو الدنيا وكل ما يعمل لها ومن أجلها . ولا أضل عندهم من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا أو بعبادة نفسه من طريق الدنيا . فمن أعظم الضلال فى رأيهم إنفاق شئ ما من القوى والأوقات والأعمال — التى إنما أوجدت لتصرف كلها فى خدمة الله — فى خدمة الدنيا أو خدمة ما يخدم الدنيا ... لهذه الأوهام والأسباب المنكرة أشاع هؤلاء الثناء على الجهالة وعلى الجنون والبله وضعف العقل ، وأشاعوا مذمة العلم والدكاء وقوة العقل ، حتى صار الناس الذين قضى عليهم بقراءة كتبهم والإيمان بها ينظرون إلى العلوم نظراً هو الحشية والحذر ، وينظرون إلى الجهل والغباء وتقصان القوى الفكرية نظراً كله الثقة والاطمئنان ، حتى أضحي الجنون والبله وأعراضهما عنوان الولاية والإيمان العميق لدى هؤلاء المضللين ولدى المضللين بما كتبوا وقالوا ! وحتى رأينا من يسيرون وراء المجانين العراة فى الطرقات العامة يتبعون عندهم علم الغيب وهتك أستار المستقبل وقضاء الحاجات بما لهم من قوى الولاية وقوى أهل الله المقربين الممتازين المدللين لديه ! وحتى رأينا من يكتبون فى أولياء المجانين والمجازيب وفى كراماتهم وخوارقهم ومن يكذبون الكتب فى مناقبهم وفضائلهم ! وحتى سمعنا من يندشون ثملين فى الثناء على المجانين :

مجانين إلا أن سر جنونهم عظيم على أبوابه يسجد العقل

وحتى وجدنا من يجرؤون ممن يعدون محدثين وأئمة دين أن ينسبوا إلى رسول الإنسانية الأكبر عليه السلام أنه قال (أكثر أهل الجنة البله) ! وحتى طار على كل لسان مديح الجهل والغباء وهجو العلم والعلماء . وراح الجماهير وغيرهم يقولون في عباراتهم المتوارثة التقليدية : كان الشيطان أعلم العلماء وأعلم الملائكة !! يقصدون بهذا اتهام العلم وأنه من حيث هو علم لا قيمة له وأنه من أسباب الغواية والضلالة كما كان علم الشيطان سبب غوايته وكفره وتمرده ! وراحوا يقولون أيضاً : إن العلم غير مقصود ولكن المقصود هو العمل فإذا وجد العمل فلا حاجة إلى العلم ! وصار الكلام الموحى بالحشية من العلم وإساءة الظن به فائضاً على كل لسان متمثلاً به في كل مناسبة . وحتى عز الإقبال على العلم وعجز المسلمون في العهود الأخيرة ، عهود النهضة العلمية أن يشاركوها أضعف مشاركة في وضع قواعد العلم ووضع قواعد الحضارة ، وحتى عجزوا عن أن يضيفوا إلى بنائه لبنة واحدة أو ينقلوه إلى الأمام خطوة واحدة ، وحتى صار من العسير جداً تحليلهم من آثار هذه الأفكار الهدامة وخروجهم من نطاق الجهل والغفلة الذي ضربه عليهم بإحكام هؤلاء المشايخ ، وحتى ضعف كل الضعف تأثرهم باهتزازات العالم ورجفانه من سرعة السير إلى الأمام بخطواته الثابتة القوية ، وحتى فسد نظرهم إلى الأشياء وإلى الحياة فساداً يحتاج إصلاحه إلى جهاد صريح عنيف .

إن طريق العلم ليس بالطريق القصير ولا بالسهل الاجتياز . وإن ما ركب في الإنسان من طباع مختلفة متباينة ليعمل من جهة على جذبته إلى أرض الجهل وحضيض الغباء إن لم توجد من جانب آخر قوى أدبية ومبادئ جلييلة إنسانية تعمل بقوة على رفعه إلى أفق العلم وسماء المعرفة . فالإنسان تتنازعه أشياء كثيرة طبيعية ومبادئ أخرى أدبية بينهما اختلاف . فإذا وجدت الطباع المثبطة المعوقة من التعليم والتلقين ما يعينها على تثبيطها وتعويقها انتصرت على المبادئ والميول الأخرى الداعية للنهوض والوثوب والإقدام ، وإن وجدت هذه الأخيرة ما يعينها كانت هي المنتصرة الظافرة بالإنسان . والإنسانية بمجموعها ملزمة بأن تعمل على إيجاد المبادئ والتعاليم الأدبية والدينية والشعرية والاجتماعية التي يكون عملها استنهاض الطبائع والميول المتوثبة، ونصرها على الأخرى المثبطة المعوقة . فإذا أوجدت أمة من الأمم مبادئ وتعاليم فيما بينها تشجع غرائز الركون والإخلاق إلى الجهل وحضيض الغباء وتوحى بالرضا بهما وتعطل ميول النهوض والوثوب كانت القاضية ، وكانت تلك الأمة مقضياً عليها بأن تبقى جاهلة غبية . وإن كانت الأخرى كانت الأخرى .

فهؤلاء المشايخ الذين دعوا إلى الجهل ، ومدحوا الجنون وتقضان القوى المدركة قد عملوا على إبقاء من ابتلوا بالإيمان بأقوالهم في شرك الجهل وأغلال الغفلة دون أن يستطيعوا النجاة والحرب إلا بقوى أخرى أدبية تنتزعهم انتزاعاً . وهذا ما نعمل له إن شاء الله في هذا الكتاب .

فالواجب علينا إذن أن نحطم هذه الأقاويل وأن نحطم أصحابها إن كان لابد من تحطيمهم بلاشفقة ، وأن نضع من جديد أقاويل صارمة ومبادئ قوية تدعو إلى العلم المطلق بلا قيد أو شرط ، وتمدح العلوم كلها وتمزق الجهل وكل ضعف فكري تمزيقاً لا يبقى باقية ... يجب أن تكون تعاليمنا وثقافتنا كلها قائمة على أنه لا يوجد علم يضير ولا جهل ينفع ، وأن كل شيء إنما يرجع إلى الجهل ، وكل خير إنما يصدر عن العلم . والعلم هو العلم المطلق ، العلم بكل شيء ، وأنا لا يمكن أن ننال بالجهل شيئاً ، ولا أن يفوتنا بالعلم شيء وأنه لارجاء في أخلاق ولا في دين ولا في شيء من الأشياء الجميلة إلا بالمعرفة ، وأن ضعف المسلمين وتأخرهم وقدهم كل أنواع الاستقلال والسيادة لا يعود إلى فساد في الأخلاق ، ولا إلى خلاف في الرأي والتلوب ، ولا إلى شيء مما يحسبه الجاهلون ... وإنما يعود إلى شيء واحد فقط : يعود إلى الجهل بما به قوة الآخرين ، أي إلى الجهل بقوى الطبيعة وبنواميسها ...

كيف نصر بعد اليوم على قوم يذمون لنا العلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية والفلكية والطبية والفلسفية ، وينشدون الأناشيد في مدح التصوف والزهد والدجل والشطح والرقص الديني ومدح القنطرة والأمراض والجهالة والجنون والبله ؟ كيف نحترم هؤلاء ؟ أم كيف نرجع إلى كتبهم ونجعلها مرجعاً من أهم مراجع الدين والثقافة والعقل ثم نطبعها ونشرها وتدعو إليها وندرسها في معاهدنا ومدارسنا لنخدر بها من بعدنا كما خدرنا بها من جاءوا قبلنا لتكون السلسلة متواصلة ، وليكون الشقاء مضموناً .

إن الله جلت قدرته إنما نظم هذا العالم هذا النظام العظيم الرائع وحكمه هذا الحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب بالعلم به وبنواميسه وقوانينه وقواه وأسراره . وإننا نحن أيضاً لن نحكمه أو نحكم شيئاً فيه ولن ننظمه أو ننظم شيئاً فيه إلا بهذا العلم أيضاً . وإن أنفسنا ووجودنا منه فلن نحكمها أو ننظمها إلا بالعلم الطبيعي ، أي بعلمها من ناحيتها الطبيعية . ^{العلم} وشيء هو وسيلة المولى عظم شأنه لحكم العالم وتنظيمه كيف نذمه ونكرهه أم كيف نستطيع أن ندرك نظاماً وحكماً بدونه ؟

ومن اللازم هنا أن نعلم أن القرآن قد أشاد بفضل العلم والعقل أعظم إشادة ،
وعلق عليهما الخير والسعادة والفلاح ، وامتدحهما بكل أساليب الامتداح ، وذم الجهل
والضعف العقلي بكل عبارة ، وجعلهما شعار الحية والفساد والنسوق والكفر والضلال ...
وأن نعلم أنه قد وصف المؤمنين بالعلم والفكر والتدبر والألباب والنهى والاستبصار
والاعتبار وبكل لفظة تؤدى هذه المعانى ، ووصف الكافرين والفاسقين والضالين بالجهل
والغباء والغفلة وبكل عبارة تعطى هذا المعنى ... وقد حكى عن أصحاب السعير أنهم حكوا
على أنفسهم بأنهم ما كانوا من أصحاب النار إلا لأنهم لم يكونوا من أصحاب العقول قائلين :
« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » فسجل الله عليهم في كتابه بأن
قدّمهم العقل والسمع — والسمع هنا يراد به سمع الاعتبار لا سمع الأذن — هو ذنبهم
الحقيق فقال معقباً على قولهم هذا « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » وذنبهم الذى
اعترفوا به هو أنهم لم يكونوا يسمعون أو يعقلون . وليس هناك تدليل أعظم من هذا
التدليل على جلالة شأن العقل وسماعه ، وعلى ما فى ضعفه ونقصه من شقاء وسوء عقبي .
وقد أراد الله أن يذم الإنسان فى موضع وضع فيه نفسه وضعاً جرّ عليه الوبال وعلى من
معه فيه ومن حوله فلم ير تعالى أبلغ فى الذم والإنكار عليه من نعته بالجهل فقال : « إنا
عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها
الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ... » بل حكى فى موضع من مواضع الإشادة بالعلم قوله
تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، فحكّم بأن العلماء سيخشون الله لا محالة
وأن من ليسوا علماء فلن يخشوه لأن تركيب هذه الآية اللفظى يرجع إلى : « لا يخشى
الله إلا العلماء » . والقرآن بالإجمال قائم على جملتين : الثناء على العقل والعلم ، وذم الجهل
وضعف العقل . ومن العبث محاولة إثبات هذه القضية بالشواهد ، فإنها قضية مسلمة لا خلاف
فيها ولا خفاء . ولكن الخلاف قد يقع فى المراد بالعلم حينما يطلقه القرآن . فقد يحسب
كثيرون ممن انحرفوا عن فهم كل شيء أن المراد به هو العلم الدينى فقط ، أى العلم
بالنصوص وشروح الشراح وتعليقات المعلقين القائلة : هذا حلال وذاك حرام وهكذا ...
ولكن لا ريب فى أن هذا المصير فى فهم العلم القرآنى خطأ فاضح ، بل المراد بالعلم — حيث
أطلق — ما هو أعم وأشمل ، أى يراد به المعرفة من حيث هى معرفة بلا نظر إلى
موضوعها . فكل معرفة علم . والقرآن قد أطلق العلم ولم يقيد بالعلم الدينى ، فمن قيده
فقد قيد إطلاق الله وإطلاق كتابه . بل إن مساق ألفاظ العلم فى الكتاب ووضعها

في موضعها صريح في أن المراد به ما هو أعم وأشمل ، وهذا جلي عند من تتبع موارد الآيات
ببصر نافذ . ولينظر القارئ إلى قوله تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ،
وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم
وأنتم لا تعلمون » . وليس من الممكن أن يدعى بأن المراد بالعلم هنا هو الديني ، بل المراد
علم الاجتماع وعلم النفس ، فهو الذي يدل على أن الحروب وإن كانت في ظاهرها وفي
أوائها القربية شرّاً وبلاء إلا أنها قد تكون في عواقبها ونتائجها الأخيرة خيراً . إذ قد
تقدم الإنسانية وتخدم المعارف والعلوم والاختراعات التي تبقى فوائدها ... وقد تكون
إصلاحاً وتطهيراً لكثير من أخلاق المتحاربين ورداً وردعا لمطامعهم ، ومفيدة لأشياء
كثيرة يدرسها علماء النفس والاجتماع والتاريخ ... وليس يخفى اليوم على أحد من العلماء
أن هذه الحرب التي لم تصب البشرية بحرب أشد منها هولاً تنطوي على فوائد علمية
وخلقية ونفسية وقانونية لا تحصى ... وكذلك كانت الحرب الماضية وكذلك ستكون
الحروب المقبلة . ومن هنا كان قوله تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ... »
الآية من الناحية الاجتماعية العلمية في غاية من السمو وصدق الدلالة . وإن مما يدخل
في دائرة الإعجاز أن يكتشف مثل هذه النظرية في الجزيرة العربية منذ ثلاثة عشر قرناً
من الزمان ، فلا مفر من الإذعان لمنزله .

ثم لينظر القارئ إلى قوله تعالى من سورة النساء وهو يقسم المواريث : « أبأؤكم
وأبنأؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً . فريضة من الله . إن الله كان عليماً حكيماً » .
ولينظر ما المراد بالدراية المنفية عنهم هنا وما المراد بالعلم المثبت لله ! لاشك أن المراد بهما
دراية وعلم غير الدراية والعلم الدينيين .

وقال تعالى إنباء عن يوسف الصديق : « قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ
عليك » . وعلم هنا لا يقصد به العلم بالحلال والحرام والواجبات والمستحبات الشرعية .
ولكن هو العلم بالشؤون الاقتصادية والمالية وبطرق الجباية وتنمية موارد الثروة تجارية
وزراعية وصناعية ... بل يمكننا أن نقول بدون أن نخشى الغلط : إن كل مورد ذكر
فيه العلم والعقل ممدوحين والجهل والبله مذمومين في القرآن لا يراد به العلم والعقل في
الدين ولا الجهل والبله فيه ، وإنما يراد شيء آخر أعم وأشمل .

وما من ريب في أن من يعلم الأشياء بالوسائل العلمية التجريبية أحق بوصف العلم
ممن يعلم ذلك من طريق الألفاظ دون فهم ، وممن يعلم الحلال والحرام الدينيين من

غير حكمة . وإيهما أحق بوصف العليم ؟ آلدنى يعلم خبث الزنا والربا والخمر وغيرها وأضرارها الصحية والعقلية والاجتماعية والنفسية والقانونية بالوسائل العلمية التجريبية والاستقرائية ، أم الذى يعلم ذلك من طريق النص بدون عقل ومن طريق الشروح والجدل الفقهي ؟ وأى الرجلين أقرب إلى اجتناب هذه الجباث وتركها لأنه مقتنع بحجتها ؟ وأى الناس أولى بنعت العلم : آلذين يتركون الشرك وعبادة الأصنام والخلوقين لأنهم علموا فساد ذلك ومضاره الاجتماعية والنفسية والعقلية ، أم الذين لقنوا تحريم ذلك تلقيناً مجرداً من الإدراك الحقيقى ؟ وإيهم أجدر بهذا الوصف الجميل : أقوم وهبهم الله عقولا ممتازة كبيرة عبقرية فشحذوها ثم استخدموها فى اختراع أشياء عظيمة أسعدت الإنسانية كلها ونجت بها من ويلات كانت تعانها منذ وجدت ، وقدمت إليها أموراً كانت محرمة منها أيضاً منذ وجدت ، أم قوم ذوو عقول ضيقة حرفية تقليدية ، عكفوا فى زوايا مجهولة منتبذة وراحوا يهدون ويكتبون ، وليس لهم من سامع ومن مفكر فيهم وفيما يكتبون سوى الغباوة : راحوا يكتبون فى تكفير من يصنع كيت وكيت ، وفى تفسيق أو تضليل من يأتى كذا أو كذا ، وفى تقسيم الأحزاب والأوراد اليومية والشهرية والصباحية والمسائية وتعيدها ، وفى تقسيم البدع الدينية إلى واجبة ومستحبة ومباحة ومكروهة وحرام ، وفى سرد طبقات الأولياء وحشد كراماتهم وخوارقهم ومخاريقهم وغير ذلك من الأمور التافهة التى شغلت أكثر الرءوس ؟ لا أرى أن العقلاء يختلفون فى الجواب عن هذه الأسئلة أو يختلفون فى من هم أولى بأوصاف العلم والعرفان . فالذين يزعمون أو يظنون أن العلم والعقل المدوحين فى الإسلام هما الخاصان بالأمور الدينية فقط قوم واهمون .

ومن الأحاديث المشهورة الدالة على أن العلم فى إطلاق الشرع غير ما ذهب إليه هؤلاء قوله عليه السلام فى قصة تلقيح النخل (أتم أعلم بأمور دنياكم) .

ومما يجب التنبيه إليه هنا — لأن الدين ورثوا عن هؤلاء الشيوخ كراهة المعارف لا يفتأون يغلطون ويخلطون فيه — ان العلم لا يمكن أن يكون شراً ولا أن يكون داعياً إلى الشر والفساد والإجرام والطغيان . وذلك أنهم هبوا — وخاصة فى هذه الأيام التى تفاقمت فيها ويلات الحرب — يصرخون منادين بسقوط العلم زاعمين أنه هو الذى شب هذه الحرب ، وهو الذى يقدم لها الوقود فيزداد اضطرامها والتهابها ... وقد نادى كثيرون من خطباء المساجد وخطباء الجمعيات فى هذه الأيام بمقاطعة علم أوروبا والبراءة

منه ! وسألوا الله مخلصين — على ما زعموا — أن يخلص العالم والإنسانية من هذا العلم
ومن أهله ! ثم ختموا دعاءهم وادعاءهم ودعايتهم بمطالبة المسامين والمخلصين بالرجوع إلى
الدين ونبذ كل شيء سواه . فكأن الدعاية ضد العلم لا تزال قائمة ولا تزال متصلة
الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ هم الطرف الأول لهذه الحلقة ، وكان هؤلاء الخطباء
والوعاظ هم الطرف الآخر لها .

والذي يجب أن يقال وأن يعلم رداً على هؤلاء وبياناً للحقيقة : أن العلم ليس هو
الذي أوقد هذه الحروب ، ولا هو الذي أمر بها ، ولا هو الذي دعا إلى إلقاء القنابل على المدن
وعلى غيرها ... ولكن الذي أمر بذلك كله هي الأحقاد والمطامع والأنانية والميول الشريرة
الموروثة عن عصور الجهالة ... فالعلم لم يأمر معني الحرب بأن يعلنها ولم يأمر ملقى
القنابل أن يلقوها . وإنما أمرهم أغراضهم ومصالحهم وحفائظهم الذاتية أو ما اعتقدوه
مصالح وأغراضاً ... ووظيفة العلم والعقل هي إنارة الطريق وفتحه فحسب . وهذا كقوله
تعالى « وهديناه النجدين » أى الطريقين : طريق الخير والشر . وقوله تعالى « فألمهما
جفورها وتقواها » . وقوله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » . والعلم
والعقل لا يفعلان غير ذلك . وطباع الإنسان الأخرى هي التي تعين سلوكه واتجاهه ...
وهي لا ذنب لهما ، بل إنهما يعينان على تخفيف وتلطيف ما تجره الأحقاد والطباع الظالمة
من شقاء وعذاب . وكم للعلم والعقل من وقاية وحماية وخدمات في هذه الحرب وغيرها
ولولاها لكان الشر أعم وأتم . فالعلم خير كله والجهل لاشيء منه خير . ولو كان العلم
هو الذي يشب الحروب لما وجدت في عصور الجهل مع أنها كانت في تلك العصور
أكثر . فالعلم مثلاً هو الذي صنع الطائرة والقنبلة والمدفع ولكنه ليس هو الذي أشار
باستعمالها في الشر والظلم كما أن الله هو الذي خلق الإنسان وخلق عقله وقواه وخلق
الوجود كله وخلق المواد الأولية التي تصنع منها الطائرة والقنبلة والمدفع والمتفجرات
وسائر المهلكات . ولكنه ليس هو الذي أمر باستعمال هذه الأشياء في الإهلاك والتدمير
والتخريب والإبادة . ومن قال إن العلم يلام على هذا لزمه أن يلوم الذات العلية لإيجادها
هذه الأشياء وإيجادها الإنسان وإعطائه العقل والذكاء الذي يستعمل في الشر ! .

أإنسانه هي أم سلعة؟

أما قضية تحريم التعليم على المرأة فهي من أغرب القضايا التي تمر بالتاريخ البشري . وهذا التحريم يشبه في معناه وممرماه تحريم النظر عليها بانتزاع آلتها منها . بل لا ريب أن عمى الجهالة أفتك وأشد ضرراً من عمى الحس . ولو أن قائلاً قال : إنه يجب إبطال الحواس كلها وغيرها من أعضاء المرأة ، فلا ترى ولا تسمع ولا تشم ولا تذوق ولا تلمس ولا تمشى ولا تفكر ولا تعمل — أى بأن تبطل فيها جميع الأعضاء التي تكون بها الرؤية والسمع والشم والتذوق واللمس والشمى والتفكير والعمل والحركة لئلا تستعمل إحدى هذه الحواس والأعمال في فساد أو فجور أو خروج على الآداب المحترمة في عين الرجل : لو أن قائلاً قال هذا لما كان مبعداً في هذا القول ولا ظالماً أكثر من إبعاد وظلم هؤلاء الذين يقولون بتحريم تعليم المرأة وتحريم الكتابة عليها ، لأن هذا التعليم في زعمهم قد يكون سبباً في فسادها أو فجورها أو شرورها أو عملها شيئاً يغضب أنانية الرجل الظالم المستبد الأناني .

إن تاريخ قضية المرأة مع الرجل تاريخ طويل مملوء بالظلم والأنانية والجهل . ويمكن أن يقال إجمالاً إن الرجل والمرأة وجداً — أول ما وجداً — بدائين فطريين ليس بينهما شيء يذكر من تمييز أحدهما على الآخر ومن التفريق بينهما من الناحية الاجتماعية ، حالهما تشبه إلى حد كبير حال المخلوقات الأخرى الآن التي هي دون الإنسان مباشرة . وما حكاة القرآن عن آدم وحواء يدل دلالة تكاد تكون صريحة على أنه لم تكن بينهما الفروق الموجودة اليوم وقبل اليوم بين الرجل والمرأة ، بل لم تكن بينهما فروق تذكر من ناحية الاتصال بالحياة وناحية اتصال أحدهما بالآخر واتصالهما بالآخرين . ثم بعد هذا الوجود البدائي راحا يتطوران في الوجود ، وراح يتطور نظر أحدهما إلى الآخر ، وبدأ التعقيد والتمييز يدخلان على حياتهما ويدخلان عليهما ، كما هي العادة والسنة الطبيعية الإلهية في وجود الأشياء بسيطة غير معقدة ولا متمايزة ثم وقوعها تحت سلطان التعقيد والتمييز . ومن المشاهد أن التعقيد والتمييز والتفريق في وجود الأطفال أقل كثيراً منه في وجود الكبار ، وإن هذه الأشياء تنمو مع نمو الطفولة ودولفها إلى الأنوثة والرجولة ... ثم أخذت تتعاضد وتتكامل مطامع الرجل وشهواته في المرأة ، كما أخذت مطامعها وشهواتها هي أيضاً تتعاضد وتتكامل فيه . فصار تلهبه عليها وتطلبه لها قوة طاغية ، كما كان كذلك

تلهيها هي وتطلبها إياه . فأضحى كل منهما طالباً مطلوباً محبباً محبوباً . وكان من المظنون أن يتساويا في العرض والطلب وفي القوة والضعف ، وأن يكون خضوعه لها تخضوعها هي له . ولكن قوة طبيعية ، ووظيفة إلهية ، وحالة لامرء لها تدخل في هذه المسألة فتقتضي على المرأة بأن تكون موضع الإخصاب ، وأن تكون الحامل المرضع الحاضنة ، وأن تكون الحائض المتعبة ، والوالدة المجهدة ، وأن تكون هذه العمليات كلها شاقة مرهقة قاضية بأن تكون المرأة أقل في ميدان الحياة والعمل من الرجل وأكثر تبعات ، لاتصال الأولاد الصغار بها دون الآباء ولحوقهم إياها . فكانت من أجل هذه الأمور وغيرها مضطرة محتاجة للاستعانة بالرجل . فعلم الرجل حاجتها واضطرارها إليه ، فأدخل المسألة في باب المساومة ، ووجدها فرصة مواتية دانية لفرض سلطانه وفرض حكمه المطلق . فلم تجرد المرأة بدأ من الاستسلام والخضوع لعجزها عن الحرية والاستقلال . وقد وجدت في هذا الاستسلام والخضوع في البدء بعض الراحة والاطمئنان ، لأنها بذلك تخلت عن كثير من التبعات وألقت بها على الرجل وأعانها عليها ... وبهذا تم تسليم المرأة تسليماً يكاد يكون بلا قيد أو شرط للرجل ، وجاءت شروط هذا التسليم بأن يكون الرجل هو الملك المالك وهي العبد المملوك ، وأن يكون الأمر الناهي وأن تكون المطيعة المنفذة ، وأن يكون إجمالاً بيده مصيرها وتصريفها والحكم عليها كيف شاء وكيف شاءت شهواته وأنانيته ورجولته البدائية غير المهذبة . فراحت هذه الطبائع والميول تتحكم وتبتكر وتخترع من الفروض والواجبات على المرأة ما أرهقها وأعجزها وقعد بقواها عن العمل ، وما أورثها هذا العجز الذي يشبه أن يكون طبيعياً فيها ، وهذا الفرق المبين بينها وبين الرجل في المدارك وفي كل شيء ... وقد استطاع الرجل أن يتحكم فيها تحكماً عجيباً وأن يثقلها بل أن يقتلها بأحكامه الجارفة الطاغية . فكان له — على حسب ما شرع لنفسه وما شرع له واضعوا القوانين وهم من الرجال — أن يسترقها وأن يجعلها سلعة تباع وتشترى ، وتوهب وتستوهب ، وأن يستمتع بها كيف أراد ، بالزنا القهري ، أو المتراضى عليه ، بالجعل والأجر أو بالزواج أو بما يسميه زواجاً وبما لا يعد ولا يحصى من الصور التي كلها إرغام .

وكان نظره إليها إجمالاً وحكمه فيها مثل نظره إلى ما يتحصل عليه بالبيع والشراء ومثل حكمه فيه . وكان له أن يفعل كل ما يرضى غرائزه بدون معارضة وبدون قانون يمانع ويحاکم أو يعاقب . فكان من بعض أحكامه عليها أن تمنع من النظر البتة وأن يوضع على عينها حجابان كشيخان يحولان بينها وبين الإبصار خيفة أن تنظر إلى رجل آخر

وهذا يغضب غيرة مالِكها وسيدها . والحجاب الكشيف المتجاوز للحدود الشرعية الموجود اليوم بقية من بقايا ذاك الحجاب . وكان أيضاً من بعض أحكامه أن يضع رجلها في القيود طول حياتها أو زمناً طويلاً من حياتها ، وأن يمنعها الخروج معها كانت الأغراض ، وأن يحرم عليها الضوء والشمس والسماء ، وألا يبيح لها الكلام ولا الملكية — أى ملكية الأموال والعقارات — وأن يأبى عليها إبداء الرأى والتعليم ، وأن يقضى عليها بأنها ليست إنساناً وإنما إن كانت إنساناً فليس لها روح ...

وفي القانون الرومانى أن للرجل على المرأة السيادة المطلقة حتى إن له أن يقتلها إذا شاء ، وليس لها معه حق التملك . وعند اليونانيين أن عليها حقوقاً وليس لها حقوق . ويرى الرومان واليونان أنها كشيء امتلك مثل جميع الأشياء التى تمتلك بالفتح أو بالشراء أو بالتنازل ، فهى عند الرجل — أى زوجها — كفرسه أو كسلاحه ، له أن يؤجرها ويقرضها ويبيعها . وكانت عندهم أمة شرعية ، لزوجها عليها الحقوق التى له على ماشيته وعبيده . ويرى أفلاطون فى كتاب الجمهورية أن الواجب تداول المرأة كسائر الأشياء .. ومن الدعاوى التى ادعاها الرجل على المرأة أنها لا تدخل الجنة معها عملت من الصالحات .. إلى أحكام كثيرة طويلة فرضتها قوة الرجل على ضعف المرأة ... وقد بقى كثير من هذه الأحكام .

ولقد جاهد الإسلام جهاداً عظيماً فى سبيل المرأة لإنتقاذها من هذه المظالم وللنجاة بها من هذا الجبروت الممقوت : ففرض لها حقوقاً عظيمة ، ورفع عنها آصاراً وأغلالاً ، وعمل أعمالاً جليلاً لإعطاءها النور والحياة الصحيحة ... وفك عنها تلك القيود وسجل حقوقها الواجبة المشروعة فى القرآن ، تتلى فى الصلوات وفى كل مكان ، وأمر بتعليمها وتعلمها ووجه إليها الخطاب والأمر والنهى كما وجه إلى الرجل سواء . ورفع عنها كل إكراه وقهر فى كل صلاتها وحياتها — رفع عنها إكراه الأب والأخ والأقارب ، كما رفع إكراه الزوج وأقارب الزوج . وقد فرض لها الميراث كما فرض للرجل وأكثر من وصاياه بها ولها . وقد صنع لها وفى سبيلها كل شيء جميل طيب . وكان من النصوص القاضية الفاصلة فى هذه القضية قوله تعالى « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » . وليس هنالك إنصاف وإتقان يحظر فى التصور أفضل وأكبر من هذا الإنصاف وهذا الإقتاد اللذين أنزلهما الله فى كتابه المقدس تخليداً لحقوق المرأة ووضعاً لها فى موضعها الطبيعى .

وقد بقي من مظالم الرجل وأنانيته النكراء — في ما بقي — تحريم التعليم على المرأة وزعمه أنه يجب أن تظل محرومة من كل سلاح قد ترفعه في وجهه، ومن كل قوة قد تقاوى قوته. وإنه يعلم أن أعظم سلاح وأقوى قوة هو العلم، فذهب يحرمه عليها ثم ذهب كدأبه يتهم الأديان بهذا التحريم. ولا ريب في أن من أسباب هذا التحريم غيرة الرجل وجهله.

بماذا يعللون تحريم هذا التعليم، وما هي الأسباب التي يدعون أنها هي الموجبة لهذا التحريم؟ يقولون في ذلك: إن المرأة خلقت للبيت لا للوظائف ولا للمتاجر ولا للدواوين وغيرها، وما دامت كذلك فما فائدة التعليم! ويقولون إن المرأة إذا تعلمت طغت أخلاقها وخرجت عن طورها وأضحت مخلوقاً طاغياً باغياً! ويقولون أيضاً إن تعليمها يوجب اختلاطها بالرجال واتصالها بهم. وهذا حرام وإجرام! ويقولون بعد ذلك: إنها إذا علمت وفهمت كالرجل راحت تنظر إلى الرجال نظرة المساواة، وراحت تكبر في نفسها وتتكبر. وإذا ما نظرت إلى حقيقتها هذه النظرة فلن تذل للرجل ولن تخضع له الخضوع المطلوب المبقى على المودة وعلى الحياة بينهما مستقرة مقبولة... هذا كل ما يدكرون أو كل ما يمكن أن يذكره في هذه القضية.

وهذه الأمور التي عدوها أسباباً وبراهين مستدلين بها على أن من الخير إبقاء المرأة جاهلة، هي في الحقيقة تدل على عكس ما أرادوا.

أما أن المرأة خلقت للبيت فيقال: إذا صح هذا وضح أنه يجب بقاؤها كذلك بحيث تنقطع صلاحها بالخارج وأعمالها فيه — وليس من الممكن أن يكون صحيحاً — قيل في الجواب: إن هذا مما يوجب أن تكون متعلمة مثقفة لا أمية غبية. وذلك أن وظيفتها إذا كانت في البيت وللبيت فمعنى هذا أنها مسئولة عن سعادة البيت ومن فيه من الأولاد والزوج وغيرهم، وعن التنظيم والتدبير والتربية والإرشاد والتوجيه والتمريض وعن كل ما يلزم في هذا من بناء أجسام الصغار وبناء أرواحهم، ومن سياسة الكبار وتوفير أفراسهم وعن حل جميع المشكلات والأزمات التي تتعقد بين الصغار والصغار، وبين الكبار والكبار وبين كل أحد... وبالإجمال مسئولة عن كل ما يتصل بالبيت ومن بالبيت: فمسئولة عن دراسة أولادها وعن مواظبتهم على الذهاب إلى المدرسة وعنايتهم بدروسهم وعن نجاحهم وسبقهم واستمرارهم، وعن المحافظة على صحتهم ما داموا أحياء، وعن معالجتهم وتمريضهم

إذا مرضوا ، وعن غذائهم وما يصلح من ذلك وما لا يصلح في حالة الصحة والمرض ،
وعن نومهم — متى وكيف ، وعن ملابسهم — ما هي وكيف هي ، وعن لعبهم ولهوهم
وجدهم ودخولهم وخروجهم ، وعن مراقبة نمو أجسامهم ونفوسهم وعن كل شيء له صلة
بهذه المسائل ... ومسئولة عن الزوج — عن تخفيف أزماته ومساعدته فيها إذا نزلت
وعن توجيهه وتشجيعه على الإقدام وعلى إدراك النجاح ، وعن سياسته ورضاه وإبعاد كل
ما يمكن أن يؤذي نفسه أو جسمه وما قد يشكو منه من قرب أو من بعد ، وعن محادثته
بالأحاديث التي تجلب الرضا والغبطة ، وتبعد ما يجلب الهم والكآبة ، وعمما يجب في هذه
المحادثة من اللطف ودقة الحس وشفوف النفس ، وعن مجانبة كل الألفاظ الجارحة
أو التافهة أو المنكرة أو النابية أو التي قد تحدث نوعاً من أنواع الاشمزاز أو الغضب .

ومسئولة عن نفسها — وأعظم بهذه من مسألة — كيف تهذب ظاهرها وباطنها ،
ثم كيف ترى وتسمع وتبدو وتشم ، وكيف تظهر لنفسها ولزوجها ولأولادها ولأقاربها
وزوارها ولكل أحد ، وكيف يكون سلوكها العملي والقولي والفكري أمام أطفالها
وأبيهم وأمام كل الناس ، وكيف تروض نفسها وتروض أخلاقها وطباعها على كل حسن
جميل ، وكيف تصلح أفكارها وعقائدها ودينها وتبعد عنها الفساد والخطل والبدع
والشناعات وصنوف الترهات والعادات القبيحة ، وكيف تستطيع أن تتخلص من التقاليد
الباطلة السخيفة ، وكيف تجدد الشجاعة والحدق والبراعة في هذا التخلص ، وكيف تتطور
مع ما يجد على مر الزمان من الآراء والعلوم والعادات والأشياء الجميلة الحسنة المفيدة ...
وكيف وكيف ... وكم تقول من كيف وكيف .

إذن هي مسئولة عن كل مافي البيت وعن كل ما يدخل فيه وما يخرج منه ...
والأمة كلها لا تخرج في مجموعها عن أن تكون مما يدخل ويخرج من البيت وفي البيت .
وأفراد الشعب قاطبة أبناء البيت . فهي مسئولة عنهم إذن جميعاً : فهي مسئولة عن الأمة
كلها ، وعن إسعادها وتربيتها وتوجيهها وسوقها إلى الخير والسكال ، وعن بناء أجسامها
وتكوين أرواحها .

وإذا كان هذا كله حقاً — وهو بلا ريب حق — قيل كيف يمكن للمرأة الجاهلة
المحرومة من كل تعليم ومن كل تهذيب ، بل المحرومة من مبادئ الكتابة والقراءة
أن تقوم بكل هذا ؟ بل كيف يمكن المرأة المتعلمة نصف تعليم أو بعض تعليم أن تقدر

على القيام بهذه الأعمال الجلي؟ بل لو قيل كيف تستطيع المرأة المتعلمة أفضل تعليم وأكمله
أن تفي هذه الأغراض حقها، وقيل إن هذا غير مستطاع لكان قولاً حقاً .
أليس معنى هذا أنه يجب أن تكون المرأة عالمة بكل علم إن كان ذلك مستطاعاً
أو أن تكون ملمة بمبادئ العلوم كلها إلماماً كافياً، وأن تكون عارفة بأصول التربية،
وأصول علم النفس، وأصول علم الاقتصاد والفلسفة والآداب، عارفة بطرق التغذية وأصناف
الأغذية وبالصحة والتمريض وبشياء كثيرة مما يسمى الفنون الجميلة، عارفة بالمحادثة وأصولها،
عارفة بكل ما يلزم لصلات الناس بعضهم ببعض .

لو أن قائلاً قال : إن تعليم المرأة أوجب وأفضل من تعليم الرجل من أجل ما ذكرنا
ومن أجل ما سواه لما كان قوله باطلاً ولما كان قائلاً غير الحق . ولو أن قائلاً قال : إن
الأمة التي لا تتعلم نساؤها لا أمل في نهوضها ووثوبها — أو قال إن الأمة التي لا تتعلم
نساؤها لا رجاء في أن يتعلم رجالها تعليماً صحيحاً مجدياً — أو قال إن الأمة التي تتعلم
نساؤها — وتقصد بلا شك التعليم الصحيح المثمر — فلا محالة أن تدفع رجالها إلى التعليم
وأن تعد شعباً متعلماً — أو قال إن من أظهر الأسباب في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن
الآخرين وعجزهم في كل الميادين جهل المرأة — أو قال إن الأمة التي يتعلم نساؤها دون
رجالها لأفضل من الأمة التي يتعلم رجالها دون نساؤها — أو قال علموا المرأة ثم املأوا
أنفسكم بالثقة والأمل ولا تخشوا بعد تعليمها شيئاً — لو أن قائلاً قال هذا كله أو قال
بعضه لما قال له العاقلون : أخطأت ... فهذا الذي ذكروه إذن هو برهان على وجوب
تعليمها لا على وجوب جهلها .

إننا لو جمعنا هؤلاء المصابين بالعاهات الدائمة الذين تعص بهم الطرقات في كل
مكان، ثم حاولنا أن نقوم بتحقيق دقيق لتاريخ إصابتهم وكيف أصيبوا لعلمنا أنهم أصيبوا
كلهم من جراء الإهمال، وأن أسباب الإهمال ترجع كلها إلى جهل الأم لأنها غير متعلمة،
فهي لا تعلم عقبي التفريط ولا تعلم كيف تؤدي الأسباب لا محالة إلى نتائجها ! بل إنها
لا تدرى ما الأسباب وما السببيات : فليس المرض عندها هو الذي يحدث الموت
أو العاهة، وليس العلاج والوقاية هما اللذان يمنعان ذلك ! وهي تعالج مرض العين مثلاً
بالتيمية والرقيقة، كما تعالج جميع الأمراض بالطلاسم والسحريات ! بل تعالج الأمراض
النفسية أو الفساد الخلقى بهذا . وليس للطب ولا للعلم لديها قيمة . ولو أنها آمنت بعض
الإيمان بفائدة بعض هذا وحاولت الأخذ به لما عرفت كيف تفعل .

إن أعظم النفائس البشرية والكنوز الإنسانية — وهى الأطفال وصحتهم —
توضع بعباء ليس له مثيل وبلاهة ليس لها ند في يد المرأة الجاهلة ، فتفسدها وتضيعها
وتبديدها ... إنه ليس فى القوانين غلطة أكبر من ترك هؤلاء الأطفال ضحايا جهل هؤلاء
الجاهلات بدون أن يوجد فيها ما يحميهم وينقذهم وينقذ صحتهم وحياتهم من هذا القتل
والتشويه العنيين .

من البعيد أو من المستحيل أن يصاب طفل امرأة متعلمة تعليماً كاملاً بإحدى هذه
العاهات المنتشرة بين أطفال النساء الأميات ... ومن الملاحظات التى تقررها الإحصاءات
الصحية الرسمية أن نسبة الوفيات فى أطفال الوطنيين أرفع جداً من نسبة الوفيات فى أطفال
الأجانب . ويجب أن يكون معلوماً أنه لاسبب لهذا سوى تعلم الأجنيات وجهل الوطنيات
المسامات . وهذا السبب طبعاً لا يعرفه ولا يعترف به الجاهلون ولا الجاهلات . إذ قد
يحسبون أن الله يتقصد المسلمين دون غيرهم بقتل أولادهم وتشويههم لأنه يحبهم أو لأنه يريد
أن يبتليهم ويمتحنهم أو يعذبهم من أجل أن يجازيهم فى الآخرة ! كأن الله عندهم لا يحسن
إلا إذا عذب وأساء أولاً ! ولو أن إنساناً صنع هذا لكان أبخل البخلاء وأسفه السفهاء !
تعالى الله عما يقول الجاهلون .

وأما قولهم : إن التعليم يفسد أخلاق المرأة وطباعها ويجعلها طاغية باغية — فهو
قول لو وصف بأنه من أفسد الأقوال لكان ذلك أقل ما يستحق ! إذ كيف يفسد العلم
الأخلاق ! وهل يفسدها سوى الجهل والعباء ؟ ولو كان من طبيعة العلم الإفساد لكان
مفسداً للرجل أيضاً ولما كان مأموراً به فى الأديان والآداب والقوانين ! ولا يدري
كيف يمكن أن يكون النور سبباً فى العثار ، وأن يكون الظلام سبباً فى النجاة وفى إبصار
الطريق وإبصار ما فيه ؟

نعم قد يلاحظ على بعض المتعلمات عندنا وعند غيرنا أيضاً شىء من الاعوجاج
والكبر والجور عن السبيل ؛ ولكن ليس هذا راجعاً ولا ناشئاً من العلم والتعليم ،
ولكنه راجع وناشئ من البيئة الجاهلة ومن مخلفات الجهل الراسبة فى النفوس وفى
الأعماق ، ومن عدم نضج التعليم ومن أشياء أخرى بلا شك . ولهذا فإننا نرى أن
الشعوب المتقدمة فى تاريخ تعليم المرأة أصلح نساء وأصلح تعليماً لهن وفيهن . وإذا علمت
المرأة وهى من بيئة جاهلة ثم أصاب سلوكها ونفسها وشمائلها شىء من الوضر والضرر
لم يكن العلم مسئولاً وإيما المسئول ما ذكرنا .

ثم لو كان هذا قاضياً بتحريم التعليم على المرأة لكان أيضاً قاضياً بتحريمه على الرجل
فإن الرجال كثيراً ما يلاحظ عليهم بعض هذا الذي يلاحظ على المرأة إذا تعلموا ، وقد
يلحدون ويكفرون . والعلم بلا شك غير مسئول لا في هذه ولا في هذه .

أما قولهم إن تعليمها يوجب اختلاطها بالرجال وهو غير جائز ، فيقال إن الكلام
في مطلق التعليم : أخير هو أم شر لا في طريقته ، فهذا موضوع وذاك موضوع آخر ،
وليسا متلازمين لا واقعاً ولا عقلاً .

ثم يقال يحسب بعض الجاهلين أن مطلق وجود المرأة في المكان الذي فيه الرجل
محرم ديناً وعفة . وهذا وهم وجهل . والأديان كلها بخلافه ، وحسبنا الإسلام فيصلاً وقاضياً
في هذه المسألة : إن الإسلام قد جاء بالاختلاط المحترم العفيف : فالحج فيه هذا الاختلاط ،
والصلوات فيها هذا الاختلاط ، والحرب فيها هذا الاختلاط ، والمواعظ فيها هذا الاختلاط ،
والتعليم فيه هذا الاختلاط . هذه أمور مجمع عليها بين علماء الإسلام لا يختلف نقل التاريخ
فيها ولا في شيء منها . وقد كان الرسول عليه السلام يعلم الرجال والنساء جميعاً ويعظهم
ويعظهن جميعاً ويجاهد بهم وبهن جميعاً . بل كان يأمر بخروجهن إلى المصلى أيام الأعياد
ليصلين مع الرجال في الصحراء . وكانت النساء أحياناً يقفن في دروس الرسول ويسألن
ويستفهمن في حضور من الرجال فيرد عليهن الرسول الكريم . وكان يأمر بلالا وغيره
بجمع الصدقات منهن في الاجتماعات التي تقام للمواعظ والتعليم . وهذا كله معروف . وهكذا
كان الأمر في عهد الخلفاء الراشدين . ومن الحوادث المشهورة المنقولة في هذا حادثة المرأة
التي قامت تعترض على عمر وهو ينهى عن المغالاة في مهور النساء فقال عمر حينما ردت
عليه المرأة واحتجت بالقرآن : كل الناس أعلم منك يا عمر حتى النساء ، وهذا كثير جداً .

وفي الأحاديث أن أصحاب الرسول كانوا إذا صلوا معه الجمعة انصرفوا إلى بيت
امرأة من الأنصار فأطعمتهم وناموا عندها . وفي حديث صحيح أن رجلاً دعا الرسول الكريم
إلى الطعام فاشتراط الرسول عليه أن يأخذ عائشة معه ، وبعد المراجعة رضى الرجل فخرج
الرسول وعائشة يتدافعان . وفي الحديث أيضاً أن الرسول وأبا بكر وعمر خرجوا ذات
يوم وهم جياع إلى حائط لأحد الأنصار مستضيفين فلم يجدوه ووجدوا زوجه فقابلتهم
وأدخلتهم حتى جاء زوجها . وفي حديث صحيح أيضاً أن أحد الأنصار تزوج فدعا الرسول
وأصحابه إلى طعامه فكانت الزوج هي التي تخدم على القوم . وفي الحديث الصحيح أن

أسماء امرأة الزبير كانت تجمع النوى من ضواحي المدينة لناضح زوجها ، فمر بها الرسول وهو راجع هو واصحابه من إحدى سفراته فرآها فأناخ لها ناقته ليرد فيها معه ، قالت أسماء فذكرت غيرة الزبير فأبيت . ومن الروايات الصحيحة والحوادث الشهيرة أن النساء كن يتعرضن لرسول الله عليه السلام في حجة الوداع يسألنه عن الحج وأحكامه أمام الناس ، وأن امرأة جاءت تسأله وكانت وسيمة جميلة وكان مردفاً معه الفضل بن العباس فأخذ الفضل ينظر إليها فراح الرسول عليه السلام يصرف وجهه ونظره إلى الناحية الأخرى . وفي حديث صحيح أن ضيفاً نزل على عائشة فاحتلم فأصبح يغسل ثوبه فقالت عائشة إنما يجزئك أن تغسل مكانه . ومشهور وخبر صحيح خبر قصة المرأة اليهودية التي دعت الرسول وأصحابه في فتح خيبر فقدمت إليهم طعاماً وضعت فيه سمّاً . وفي أحاديث كثيرة صحيحة من العنبر جمعها أن النبي ومعه أصحابه كانوا يذهبون أحياناً كثيرة إلى النساء السلمات ويظعمون عندهن ويستريحون . وهذه أشياء تعز على الإحصاء والجمع .
والتاريخ الإسلامي العملي والقولي مجمع على هذا . وفي الحديث الصحيح أيضاً أن امرأة جاءت إلى الرسول وهو في مجلس أصحابه فعرضت عليه نفسها للزواج فنظر إليها طويلاً مصعداً نظره ومصوبه ، ثم أخبر أنه لاجابة به إليها فقام رجل من الحاضرين وطلب إلى الرسول أن يزوجه إياها فزوجه .

وفي القرآن الكريم الفاصل في كل خلاف : « وما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال ما خطبكما ! قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء ... — إلى قوله — فجاءته إحداها تمشى على استحياء قالت إن أبي يدعوك ... » الآية .

وفي سورة أخرى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك ... » الآية .
فهما تان بنتا شعيب النبي كانتا ترعيان غنمهما في الحلاء وتسقيانها وتروحان بها وتجيئان صباحاً ومساءً بأمر والدها وقدرآها موسى النبي كذلك فلم ينكر عليهما بل كلهما وسألها وسقا لها ووقف معها وواقفهما ... ثم ذهبنا إلى أبيهما النبي وأنبأناه بذلك فلم ينكر عليهما بل أمر إحداها بالذهاب إليه ودعوته إلى أبيهما في منزله ومكانه ، فجاءته ماشية مستحجبة وأنبأته أن أباه يدعوها فذهب معها وفي صحبتها ودالاتها ... ولو كان في شيء من هذا إثم أوربية لما رضيه هذان النبيان . وإحدى هاتين اللتين كانتا ترعيان وتسقيان

والتي ذهبت لدعوة ذلك الضيف الغريب وإحضاره وهدايته إلى البيت كانت بنت نبي
وزوجة نبي : بنت شعيب وزوج موسى .

وقد أمر الكتاب الكريم بالاستشهاد بالمرأة وبتأديتها شهادتها ، وأمر لها بالحقوق
التي للرجل . وهذا لا يكون ممكنناً إذا كان من الحرام الممنوع أن تجتمع هي والرجال
في مكان واحد كما يحسب بعض المتشددین .

لا شيء يفيد مثل الفهم للأشياء ، ولا شيء يضر مثل جهلها : لهذا أراني مضطراً
إلى أن أحاول محاولة صادقة فهم هدى المسألة لنفسى وللقراء . ولست أريد سوى الحق
اصبت أم أخطأت . وما من شيء يقف في طريق الشعوب والأفراد مثل الجمود والتعصب
للموروث المؤلف بلا برهان سوى التقدم والإلّف ... وكَم من التجار والصناع والعلماء
والموظفين وغيرهم من صنوف الأحياء العاملين ظلوا حياتهم كلها حلفاء الضراء لأنهم
عجزوا عن أن يغيروا في تجارهم أو صناعتهم أو وظيفتهم أو طريقتهم أو أسلوبهم ، لأنهم
في الحقيقة عاجزون عن الخروج عما ألفوا وورثوا . وإن الناس على درجات متفاوتة
جداً في هذه المسألة ، مسألة القدرة على مفارقة المؤلف ، بل القدرة على امتحانه لينبذ
إن ثبت أنه غير صالح أو أن غيره أصلح منه . فبعضهم يضع قدميه في أسفل السلم وبعضهم
في أعلى السلم وبعضهم يقف بعيداً جداً ... وليس الأفراد وحدهم هم الذين يتفاوتون في هذا ،
بل الشعوب كذلك تتفاوت تفاوتاً بعيداً . وكما عظم حظ الشعب من النضج العقلي ومن استواء
الآلة الفكرية عظمت قدرته على التحرر من أغلال الماضي الذي يظهر تحت الاختبار فساده
أو نقصه ، وعظمت قدرته على اختباره ووضعته تحت التجربة الحرة المطلقة ... ويمكن
أن يقال : بل كلما تعلم الشعب الجراءة على هذا التحرر وهذا الاختبار وهذا النبذ عظم
نصيبه من الحضارة والرقى والحياة ، فإن الشعوب كلها إنما تأخذ من الحضارة ومن الحياة
والعلم بقدر مألديها من استعداد لهذه الصفات ، صفات المرونة والامتحان والانتقال والتحرر
والأمم التي تصاب بالجمود والركود والاستمساك بالمعروف المؤلف يتضاءل حظها جداً من
الحياة ومن القوة بل ومن المعرفة ، ويذهب العالم كله من حولها يسير ويتحرك ويسعى
وهي متجمدة متبلدة في مكانها عاجزة عن مسابقتها ومتابعته ، وتبقى أمام كل ما يجد ويحدث
من الآراء والعلوم والصناعات وأساليب الحياة المختلفة داخل سور قوى من ذاتها وجمودها
لا يمكن اقتحامه ولا اجتيازه ، وفي حماية قوية شديدة من الثبات والبقاء ، لاجئة إزاء كل

مفاجيء جديد رائع إلى نصوصها المقدسة وإلى أديانها الكثيرة ، متهمة لها بأنها تأبى هذا الجديد وتنكره . ويقوم من يعدون منها مصلحين متنورين يديرون المعارك الجدلية ، منتزعين أسلحتهم من تلك النصوص وهاتيك الأديان ليقنعوا الآخرين من أهمهم بجواز ذلك ! ولكن أنى لهم هذا !

ولقد جهلت وهانت تلك الأمة التي تحتاج إزاء الحقائق السافرة للموسى إلى براهين دينية تقنعها بفأدتها أو بجوازها وجواز الأخذ بها . وإذا مارأت أمة تثير غبار الجدل الدينى أمام ما يجد من مبتكرات العقل الإنسانى — مجوزة أو مانعة ، محللة أو محرمة — فاعلم أنها أمة فاشلة مريضة بعقلها وتفكيرها ودينها ... والجود شأن من شؤون الجماهير الجاهلة وشؤون النساء الجاهلات ، وشؤون الأمم الهمجية . فكل هؤلاء حراس على ما ألفوا وورثوا ، مقاومون لكل من يريدون دفعهم إلى الأمام والخروج بهم نحو النور . وأقدر الناس على التحرر والسير فى السبيل هم أولئك الأقوام المتازون الذين يهبون الشعوب ما هى فيه من أديان ومعارف وصناعات ومخترعات ومكتشفات ... ولولا هؤلاء لما استطاعت الإنسانية أن تنعم بشيء مما تنعم به اليوم من وجوه هذى الحياة المشرقة الواضحة ، ولما استطاعت أن تدرج عن وجودها الأول الفطرى البليد ... فلكل هؤلاء الذين أعطونا هذه الحياة وعودونا على التحرر والخطو إلى الأمام شكر الإنسانية أجمع .

والقدرة على هذا التحرر هى برهان السمو الفكرى ، فإن من استطاع أن يترك ما ورث وألف هو وآبؤه منذ آلاف السنين أو مئاتها إنما يصنع ذلك لأن عقله قد أصبح قادراً على التمييز بين الأشياء مألوفها وما لم يؤلف منها ، بل وما لم يوجد — وأصبح قادراً على الامتحان والسبر الذى هو وظيفة العقل الكبرى .. والذين يعجزون عن ذلك هم فى الواقع لا يزالون عاجزين عن الارتفاع على العجاوات فى فهمها للأموور ودورانها حولها ، وتناولها لها ، فإن العجاوات إنما تهتدى وتتصرف بحواسها المجردة دون أن تشعر أو تفكر فى أن مالم تحسه وتعتده خير وأفضل مما رأت وأحست وألفت ، بل دون أن تدرك أن هنالك شيئاً غيره . فهى قانعة راضية بما ألفت واعتادت لا تعرف سواه ... وكذلك هذه المخلوقات البشرية التى تأبى مفارقة إلفها واعتيادها إنما تصر هذا الإصرار لأنها إنما تعيش أيضاً بحواسها المجردة ، فما رأت وأحست واعتادت فهو الحق الذى لاحق وراءه ، وما لم تر وتحس وتألف فهو الباطل الذى لاخلاف فى بطلانه ! فإبها إذن حاجة إلى تجربة

أو موازنة أو تفكير أو حتى اختبار . فهي ثابتة قائمة مناهضة لكل من يريد لها الخير
الذي لم تره . وهؤلاء هم الذين يقاومون الأديان والعلوم والإصلاح وكل جديد مفيد :
فهم الذين يصرون على الشرك والوثنية لأنهما مألوفان ، ويرفضون التوحيد لأنه جديد ،
وهم الذين يصرون على الجهل لأنه مألوف ويرفضون العلم لأنه جديد . ويصرون على اللمامة
والقبح لأنهما مألوفان معروفان ويرفضون الجمال لأنه جديد ، وعلى الظلم لأنه المألوف
ويرفضون العدل لأنه جديد ... وهكذا هم في كل جديد وقديم . وإن الحرب لم تزل
مستعرة بين قديم هؤلاء وجديد الصالحين منذ كان الإنسان ، وأعظم الناس في هذا
هم الأنبياء ثم الأدنى فالأدنى على درجات متباعدة .

بعد كل هذا الذي تقدم تقول : إننا لا نرى مانعاً من أن نحكى آراء وحججاً يذكروها
هؤلاء الذين صنعوا هذه الحضارة في موضوع المرأة وموضوع الاختلاط والحجاب
والسفور . ولسنا في حكايتهما لهذا ملتزمين القول والإيمان بكل ما فيه . وإنما نحن حاكون
وعارضون لا غير . وحاكي الضلال ليس بضال إن كان في شيء مما نحكى ضلال . فليرح
جماعة الأتقياء وأدعياء الأتقياء أنفسهم ، وليسكوا بعنان ثورتهم وغضبهم وورعهم ،
فما نحن غير ناقلين .

قال هؤلاء : إن أمامنا في هذه المسألة احتمالين أو طريقتين : أحدهما الزعم أنه يجب
أن يحال بين الرجل والمرأة حيولة شاملة بحيث لا يرى أحدهما الآخر أو يخالطه أو يشاركه
في عمل من أعمال الحياة العامة . فالمرأة للبيت لا تغادره إلا إلى قبرها ، والرجل للأعمال
كلها خارج البيت ، لا عدوان لأحدهما على الآخر . هذا احتمال أو طريق .

والاحتمال الآخر أن يقال : كلا ، فإن النساء شقائق الرجال ، وإنهما سواء في هذه
الحياة وفي القدرة عليها والحاجة إليها وفي أعمالها ومطالبها . وإن ما فيها معاً من أعضاء
وغرائز وميول متشابهة متساوية ، ومن عقل وفكر وروح وحياة وتكوين عام لينادى
بسقوط هذه الفروق المدعاة بينهما ، وبألا يقضى على أحدهما بصد ما قضى به على الآخر ،
فإن ذلك تفريق بين متساويين متماثلين وهذا باطل في قانون العقل وقانون العدالة العامة
بل وفي كل القوانين حتى في القوانين الطبيعية العمياء . ولو كان لأحد الجنسين عمل
خاص به لا يصح أن يقوم به الجنس الآخر لفرق بينهما في الطبيعة العامة وفي الوظائف

العضوية والروحية والفكرية والعاطفية ، ولأعطى أحدهما من الأعضاء والغرائز والطباع والقوى الذهنية ما يناسب عمله فقط ، ولحرم مما لا يناسبه ، ولكن كلا ، فإن هذا الفرق — أو التفريق — لم يوجد : لم يوجد الله تعالت قدرته . والتسوية بين الآلات مع اختلاف وتفاوت القصد بها والغرض والغاية منها لا يقع إلا من الجاهلين السفهاء . وما من شيء يمكن أن يقال إن الرجل يصلح له بطبعه إلا والمرأة تصلح له أيضاً بطبعها ، وما من شيء يمكن أن تعجز عنه المرأة بطبعها إلا ويمكن أن يعجز عنه الرجل كذلك . فالذين يقولون بعد هذا كله : إنه محرم على المرأة ما أحل للرجل — بل ما أوجب عليه — يهتمون الله بالعبث والفوضى العملية والتشريعية .

إن للاحتمال الأول القائل : بدفن المرأة في منزلها حياة لأضراراً كثيرة اجتماعية ونفسية وعقلية وحسية وخلقية أيضاً .

إنه لا بد أن تتزوج المرأة ويتزوج الرجل — أى لا بد أن يجتمعا بعد هذا الاقتراق ويقتربا بعد هذا الابتعاد المفروض ، ولا بد أن تقوم بينهما العاملة الفكرية والروحية واليدوية والقولية ، ولا بد أن يكون أحدهما ملاءماً للآخر عدلاً له منطبعاً به موافقاً موافقاً وإلا صارت الحياة بينهما مستحيلة أو بغضة لا تحمل . وإذا كانت هذه الأمور لا خلاف فيها بين الناس ولا خلاف في اشتراطها للحياة الزوجية الصحيحة فكيف يكون من الممكن الحصول عليها إذا كان أحدهما يجهل الآخر ويجهل طباعه الخاصة والعامة ، ويجهل ميوله ويجهله كله جهلاً عاماً ، لأنه لم يتصل به ولم يره ولم يعرفه !! إنه حينئذ يدخل عالماً لا يدري منه شيئاً ، فسيكون الاصطدام به هائلاً مستمراً ، وسيكون التوافق بينهما مستحيلاً بعيداً ، وستبنى الحياة على أساس الجهل المطلق بها ، وسيتهدم كل شيء من أركان هدى الحياة أو تظل خطراً دائماً قائماً فوق رأس الزوجين . لقد أكثر الفقهاء من الكلام على بيع المجهول — أو بيع الضرر — وذكروا أن ذلك مما يحرمه الدين ، وأوردوا دلائلهم ونصوصهم . فالدين يحرم أن يشتري المرء شيئاً مجهولاً ببضعة قروش لأن مثل هذا الشراء مظنة للغش والخداع وعدم الرضا حين الاستلام والرؤية ، ويوجب أن يكون المشتري معلوماً معروفاً ، ثم يحل هذا الدين نفسه — على رأى قوم — أو على الأصح يحلون هم ، بل يوجبون — أن يقدم المرء على ربط حياته ومصيره ومصير أولاده وكل ما يملك بامرأة يجعلها سيده بيتة المطلقة وسيده ما فيه ومن فيه كل حياته

أحياناً دون أن يدري من أمرها شيئاً سوى أنها امرأة!؟ فأعجب لها من قضية لا شهود لها غير الجمود والجهل والتعصب الأعمى .

للمرأة حقيقة باطلة في ذهن الرجل وتصوره ، وكذلك للرجل في ذهن المرأة وتصورها : فالمرأة مخالفة للرجل في جميع أخلاقه وطباعه وعاداته وميوله — هكذا يقول الرجل ، لأنه هكذا يفهم : فهي غادرة ماكرة جاهلة جهلاً طبيعياً ، شهوانية ، لا ضمير ولا أمانة ولا عقل ولا فضيلة واحدة لديها ، لا خلقية ولا روحية ولا عقلية .. أما الرجل فهو على نقيض لها في هذه الأمور كلها . وكل ما يعرفه الرجل عنها أنها معين لا ينضب من الشهوة الجنسية الطاغية ، وهي لا تصلح لشيء سواها ولا تتصور غيرها ، ولا تطلب إلا إيائها . وإذا أريد منها شيء آخر فذلك هو العيب والجهل ... هذه هي صورة المرأة في ذهن الرجل وخياله . وهذا هو رأيه وقوله فيها — وهكذا تضع المرأة أيضاً صورة الرجل وتطبعها في ذهنها وخيالها : فهو مخلوق خصه الله بجناحين للطيران بهما من فنن إلى فنن ومن شجرة إلى أخرى لأكل ثمرها ثم تركها بل ثم اجتثاثها واجتثاث أصولها : فهو لا يلمس لدى المرأة سوى الشهوة البهيمية ، وهو يتنقل ويطيء وراء هذه الشهوة أينما تنقلت وطارت ، وهو غادر لا يري عهداً ولا ذمة ولا ماضياً ولا إخصاً ولا خلقاً ... فلتعامله المرأة على مقتضى هذه الحقيقة التي لوتها له وطبعها في نفسها ..

وها هنا — ومن أجل هذا كله — توجد خصومة حادة قديمة مستمرة بين الجنسين لا تهدأ ولا تخف : فكل منهما يريد افتراس الآخر والإيقاع به قبل أن يصنع به خصمه ذلك ، وكل منهما يواجه الآخر على هذا النحو من الخوف والحذر والريبة والترقب ، وكل منهما يعمل على تعجيز الآخر وقهره وإضعافه ... فما هي أسباب هذا ؟ إنها هي بلا ريب جهل أحدهما بصاحبه . ولكن ما هي أسباب هذا الجهل ؟ إن أسبابه — أو من أعظم أسبابه — هو ما يوجد بينهما من تباعد وعدم اختلاط حقيقى صريح من أجل الظن أن الاختلاط والتقارب يقعان في الفساد والنكر ، إذ كل منهما يرى — على حسب ما لقن وورث — أنه يجب عليه أن ينأى عن الآخر وأن يخاف الاتصال به والتقرب منه في الحياة العامة وفي كل مكان ، وإذا حصل شيء من الاتصال واللقاء فإن التكلف والتصنع والتخفي والاستحياء المقصود يفسده ولا يبقى له فائدة ما .

إن الذين يعرفون المرأة معرفة صحيحة تامة ليتعجبون ويندهشون إذا قرأوا ما خطته

أقلام الكاتبين من هذا الصنف عن خلائق المرأة وما تشتمل عليه من ميول وغرائز ليست إنسانية بالمرّة ، وإنهم ليعلمون أن تلك الأقلام إنما كانت تستمد مدادها من الجهل كل تلك العصور ، وأن مآب هذه الأخطاء الشنعاء إلى أن هؤلاء الكاتبين والمؤلفين والشاعرين وغيرهم من الواصفين كانوا يصفون مخلوقاً لم يعرفوه لأنهم لم يروه ولم يخالطوه .

وقالوا : إن لوجود المرأة بين الرجال في حياتهم العامة في المصانع والتاجر والمعاهد والنوادي والمستشفيات وسواها لفعلا سحرية : فهي تشيع النشاط الروحي والعقلي والتقليد أيّنا وجدت ، وهي تلهب أجهزة الحياة وتبعث فيها الحرارة والحركة والقوة وتزيل عنها السأم والكسل والركود والجمود ... والإنسانية — أفراداً وجماعات — إنما ترقى وتأخذ من الحياة والوجود والعلوم كلها بقدر ما لديها من نشاط في الروح والعقل والقلب والحياة وبقدر ما تطرد عنها السأم والكآبة والركود والتبدل والميل العام إلى النوم في هذي القوى الأبدية . ولن تحيا أمة حياة صحيحة إلا إذ كانت مستيقظة نشيطة متوثبة نفيض سروراً وحركة وحرارة وحماسة في جميع قواها البدنية والروحية والعقلية ... إن الحياة لتبدو كثيفة شوهاء أحيانا كثيرة في أعين الكثيرين ، فلا بد لها مما يحملها ومما يجعلها حلوة مستساغة ، ولا شيء في هذا الوجود يستطيع أن يعطيها ذلك مثل المرأة . إن الحياة لاتهب إلا بقدر ما توهب من الإخلاص ، ولكن ذلك لن يكون إلا بقدر الحب لها ، فيجب أن يكون حبا عند طالبها ومريدها حبا صادقا حاراً . والمرأة هي الكفيلة بأن تصير حبا هكذا ... هذي حقائق لا ريب فيها كما أنه لا ريب في أن وجود المرأة بين الرجال يؤدي إلى هذا النشاط العام في هذي القوى العامة .

قالوا : وقد ثبت بالتجربة والاستقراء أن المصانع التي تؤلف بين الجنسين يكون إنتاجها أعظم من إنتاج المصانع التي يكون عمالها من أحد الجنسين فقط .

قالوا : وإن المدارس التي تجمع بين الطلبة والطالبات يحىء مستوى النشاط الذهني فيها أسمى بكثير من المستوى الآخر الذي يمثله أحد الفريقين فقط ...

قالوا : وقد قامت البيئة على أن وجود المرأة في المستشفيات بين المرضى والمرضى والأطباء أيضاً قوة لا تنكر ، وأن الحياة في هذه المستشفيات تنشط جداً في الجميع : في الطبيب والمريض والمرضى وفي كل شيء حتى الصحة والعافية تنشطان فيها وتسيران سيرا في قوة وفيه سرعة . وإنه من المستحيل أن تحصل هذه النتيجة في المستشفى الذي يضم الرجال فقط أو يضم النساء فحسب .

قالوا : وأما في ميادين القتال والبطولة فالأمر فيها لا يحتاج إلى تدليل : فهي تعطى
المقاتلين والزاحفين إلى الموت ما لا يوصف من الفتوة والصبر والاحتمال ، بل والسرور
في أحفل الساعات بالأحزان والأوجال ، وهي تمهيم الابتسام والإقدام ، بدل العبوس
والندع والإحجام ، وتخلق منهم رجالا يسمون على المخاطر والمخاوف . ومما لا يحدث
أن يقاتل الرجال المفردون المحرومون من هذه القوة وأن يصبروا في ميادينهم
ويكونوا كما يجب .

قالوا : وإن الفروسية القديمة إنما وجدت وظهرت بدءاً بفعل المرأة وتأثيرها ،
وإن الفارس إنما كان فارساً لأن المرأة كانت تراه وكان هو يريد أن يريها من صنيعه
ومن نفسه ما يرضيها ويعجبها ويملاً جوانحها احتراماً وإكباراً وحباً له وثقة به . ولهذا
فإن الأمم القديمة كانت تخرج النساء في ميادين حروبها لتلهب الفرسان وتدفعهم إلى
الوغي بقلوب لا تهاب . والعرب أنفسهم كانوا في جاهليتهم وفي إسلامهم أيضاً يرون هذا
الرأى ويعرفون هذه الحقيقة ويحضرون النساء الشريفات وغير الشريفات مواطن قتالهم ،
وكثيراً ما كن ينشدن الأناشيد في تلك الأوقات يحسن المقاتلين ويعتن في نفوسهم
الجرأة والبسالة . هذا حسان بن ثابت شاعر الرسول الكريم يقول في إحدى قصائده :
تظلل جيادنا متمطرات تلطمهن بالثمر النساء
هذا معروف . وهكذا المرأة في كل شيء وفي كل فن من فنون الحياة .

قالوا : ولم يحدث أن عالماً أو أديباً أو شاعراً أو غير هؤلاء استطاع أن يكون
شيئاً عظيماً إلا والمرأة من وراءه تدفعه وتلهمه وتلهبه وتعطي حياته الوقود والحرارة .
ولهذا فإنه لم يقع في التاريخ قط أن أمة أبدعت في الحياة ونساؤها مقبورات في المنازل ،
مبعدات عن الجامع وعن الشؤون العامة : فأوروبا وأمريكا واليابان اليوم لم يبلغوا هذا
الشأو البعيد في الصناعة والعلم وفي كل شيء إلا ونساؤهم من وراءهم وأمامهم وإلى جوارهم .
وكذلك كان العرب والإغريق والرومان وكل الناس . فالمرأة هي القوة المحركة لقوى
الحياة وقوى النبوغ في الرجل .

قالوا : وقد دلت التجارب أن تباعد الجنسين أحدهما عن الآخر يقضى بشدة
التطلب : تطلب كل منهما لصاحبه وتلهفه عليه ، وأنا كلما غلبنا في الحجاب وفي التفرقة
ازدادا هتكا للحجاب واقتحاما على الخبوء المسكون ، وتفكيراً فيه وفي الطرق الموصلة إليه ،
وإبداعا وابتداعا في الموصلات المقربات ، وأنا كلما تناسينا هذه الفروق بينهما وجمعناها

وأدنيناً أحدهما من الآخر، فتعارفا وتلاقيا خفت شدة الطلب وهبطت حرارة الغريزة الدافعة الدافقة، وأصبح الاجتماع والاقتراق عاديين مألوفين، لا يحدثان عدواناً ولا مبارزة بين الغرائز المكبوتة المتأججة المتوهجة، ولا احتراقاً ذاتياً داخلياً خطيراً — قالوا: وقد علم أن اعتياد الشيء يصيره إلماً لا يجلب ضرراً ولا خطراً — وعلم أن الإنسان يكون أحرص ما يكون على الممنوع المحرم البعيد، وأزهد ما يكون في المبدول المباح القريب، وأن هذه الغريزة الطاغية إنما يتجلى جبروتها المروع حين يكون ما تطلب مجهولاً محاطاً بالأمرار والألغاز، وأن ذلك كلما عرف وفهم تضائل سلطانه وهان شأنه. والإنسانية محتاجة حاجة ظاهرة لأن تعمل — ما وسع العمل — على التخفيف من وطأة هذه الغريزة الشيطانية والحد من فعلها، لأن أكثر قوى الإنسانية ومواهبها ضائعة، منفقة فيها وفي ما يتصل بها وفي إضرام نيرانها. ولا شيء يستطيع القيام بهذا الغرض الجليل مثل ما ذكرنا — وهو محاولة إزالة الفروق بين الرجل والمرأة بمحاولة الجمع بينهما ما استطيع إلى ذلك السبيل.

لقد كتب شيخ من شيوخ الإسلام المعروفين في كتاب له معروف منذ ثمانمائة سنة تقريباً يقول: لو كان لرجل من أهل بغداد نساء بغداد كلهن ثم جاءت امرأة من خراسان محجبة لاشتاق إليها ولظن أن تحت حجابها شيئاً ليس عند واحدة من النساء اللواتي في بيته وفي ملكه. وهذا صحيح وسببه الحجاب والبعد والجهل بهذه المطلوبة المشتهة الخراسانية... إن الرجل ليرك زوجته البارعة الحسن ويذهب يتلمس من هن دونها في كل شيء من النساء القصيات المنوعات المحرمات، والسبب هو ما ذكر أيضاً. وتجرد أحد الجنسين من ملابسه أمام الآخر مألوف في اليابان. وقد أضعف هذا جداً من قوى شيطان الشهوة المتبادلة.

قالوا: وقد علم علماً ليس بالظن أن الفساد الجنسي في البلاد الآخذة بالحجاب وبالتفرقة بين الجنسين أعظم جداً من الفساد في البلاد الأخرى الآخذة بالسفور وبالجمع بينهما، وعلم أن الحجاب والتفريق لم يستطيعا أن يقوموا في سبيل هذه الغريزة العاتية المحتاجة المحتالة — وعلم أيضاً علماً تقرره المباحث النفسية الدقيقة أنه يكثر في الشعوب المحتجة المفرقة بين رجالها ونساءها الشذوذ الجنسي، أو عشق الجنس لجنسه، ويقبل جداً في الشعوب الأخرى الآخذة بغير ذلك. والإحصاءات كلها تثبت هذا. وعشق الجنس من أشنع ما تصاب به الأمم.

قالوا : وعلم أيضاً أن الحجاب والحرمات والحجر الخلقى يصيب الجنسين معاً بالعقد النفسية وبالاضطرابات العصبية التي يعز شفاؤها . وبدعة الزار إنما وجدت عند المحجبات المقصات المحرومات من غشيان المجتمعات ، وهي لا تعرف عند الأمم الأخرى ولا عند النساء البارزات المشاركات في إيجاد الحياة . ولا ريب في أن كثيراً من هذه الحالات النفسية التي يبتلى بها الكثيرون والكثيرات إنما مردها إلى هذا الحرمان الشنيع وإلى هذا الحجر الخلقى القاسى . وعلماء النفس والأطباء يعرفون اليوم ذلك جيداً .

قالوا : ولا معنى للريب في أن الاختلاط يهذب من أخلاق الفريقين ويرقق من شمائلهما ويسمو بهما مادياً ومعنوياً ، ويحمل كلا منهما على أن يظهر وأن يعتاد الظهور في أحسن الحالات وأجملها ، وأن يشذب من عيوبه ويخفيها أو يطرحها وأن يروض نفسه على الأخذ بالكمال في الظاهر والباطن ، في مخبره ومظهره . ولا شئ في قدرته حمل كل منهما بقوة على التجميل والتكامل مثل وضع أحدهما أمام الآخر وجهاً لوجه ومراقبة كل منهما لصاحبه . والجمال والكمال إنما يبلغان بتطلبهما ، أى بالتجميل والتكامل .

قالوا : وإن من أعظم المسائل التي تجب عناية التربية بها مسألة ارتباك أحد الجنسين إزاء الآخر واستحيائه منه وعجزه عن مواجهته بمواجهة سليمة قوية ثابتة . فإن الارتباك أو الحياء أو الاضطراب الذي يسيطر على موقف كل منهما من الآخر وعلى شعوره عقدة من أعظم العقد التي تؤدي إلى الخيبة والإخفاق في الحياة وعند مقابلة الأمور التي لا مفر من مقابلتها . ولا ريب في أن العلاج الصحيح الوحيد لرفع هذا الوهم القائم بينهما المتحكم في علاقتهما هو التقريب بينهما وتناسى الفروق التي صنعها الوهم وغالى فيها الخيال المحروم المجدب .

قالوا : والجنسان إنما تصلحهما المعرفة ، وتفسدهما الجهالة . ولا معرفة حقيقية مع الانزواء والابتعاد . فالمرأة التي تحرم من الجامع ومن الاتصال بالعالم الخارجى وبأهله من الرجال والنساء أيضاً كيف يمكن أن تكون لها معرفة نافعة ؟ قد تكون أضعف وسيلة لهذه المعرفة هي القراءة المجردة والاكتفاء بالكتاب وبالدرس والمدرسة ، وقد يكون أعظم وسيلة لذلك هو الاتصال بالعالم ولقاءه والأخذ عنه بدون وسيط . وإنما إذا فرضنا إنساناً ما قد أكب على كتبه في منزله وابتعد عن الحياة الخارجة وعن أهل هذى الحياة فلا محالة من أن نقرضه جاهلاً بأكثر ما تجب معرفته ، عاجزاً عن مسانرة هذه الحياة

ومعايشة أهلها متى خرج إليها وقضى عليه بهذه المسيرة وتلك المعاشة . فالجنس الذى يقول قوم إنه يجب أن يظل حياته كلها قسماً محرمة عليه المجمع والحياة الخارجة الدائرة حول منزله أئى يمكن أن يكون له علم تجريبي صادق وعقل واسع نافع ودراية هادية حقيقية ؟

قالوا : وإن من شر ما تصنع الأمة بنفسها أن تتخلى عن أحد نصفها وعن مواهبه وأن تفرض عليه البيت ما بقى حياً ليظل حليف الجهل والعباء والتصورات الرديئة الضارة والأوهام المختلفة التى يصنعها الفراغ المملول والانطواء على النفس ، التى يخلقها الوقت المجدب المحروم من الحركتين : الفكرية والبدنية ... إن الأمة لتضيق ذرعاً وفكراً ببضعة آلاف من أبنائها يعجزون عن أن يجدوا لهم فى هذه الحياة عملاً ، وترى أن ذلك من الأمور الخيفة الخليقة بالعباء والعلاج والاهتمام الصادق ، فكيف بأمة — بل بأمة — تفرض هذا العجز على مئات الملايين من بناتها ، زاعمة أنه لن تستقيم أخلاقها ولا حياتها ولن يقوم مجدها ودينها إلا بذلك ؟

قالوا : ومن غير المستطاع أن توجد حياة صحيحة أو مجد أو علم أو ذكاء خارق عبقرى إلا لدى من صحت أبدانهم ووهبت القوة والنماء الحقيقى ، فهذه الصحة والقوة هما واهبتا هذه الأمور ، بل إنهما أيضاً واهبتا صحة الأرواح ... ولكن هذه الصحة لن يظفر بها من لزم البيت ، ولم ينعم بالضياء والهواء ، ولم يعمل أعضاءه إعمالاً صحيحاً منظماً يمنحها الاتساق والانسجام والرونة والقوة والحياة المتجددة ... فالمرأة اللازمة للبيت لن تمنح هذه الصحة ، ولن تمنح الجسم السليم القوى الحامل المثمر الأولاد الأقوياء الأذكياء ، ولن توهب البدن الجميل الرائع ، بل لابد أن تكون مريضة عاجزة واهنة شوهاء المنظر والتركيب ، ولا بد أن يجيء أولادها وأفكارها كذلك مرضى عاجزين مشوهين ، فإن المريض العاجز الضعيف لا يعطى إلا مريضاً عاجزاً ضعيفاً مثله ، ولا رجاء فى مثل هذا الشعب : لا رجاء أن يكون شعباً عظيماً فى ناحية من نواحي العظمة . فسلامة الأبدان وقوتها هى الشرط الأول لعظمة الأمم وارتفاع مجدها . وقد لوحظ — بل ثبت ثبوتاً قاطعاً — أن النساء اللواتى استطعن الإفلات من هذا السجن القديم الخفيف وانغمسن فى الضياء والهواء — وأعطين أجسامهن الحركة والنشاط اللازم — لوحظ أن هؤلاء النساء قد جعل فيهن كل شيء : أجسامهن وأفكارهن وعقولهن وبل وأبنائهن .

قالوا : ولا ندرى ما هى الجريمة التى أتتها النساء البائسات حتى عوقبن من أجلها

بالسجن المؤبد . والسجون إنما فتحت وبنيت للمجرمين الذين يفعلون ما تحرم القوانين والشرائع . فيداع النساء هذه السجون ، ومعاقبتهن هذه العقوبة النكراء يجب أن يكون لها مادة قانونية أو وجه من الوجوه ، وإلا فإنه يحسن — بل يلزم — أن تقام دعوى عامة من جانب النساء ضد الرجال الذين فرضوا عليها هذا العذاب والعقاب بدون ذنب جنته — كما لا ندرى ما الذى أباح للرجال ما حرم على النساء : ما الذى أباح لهم الخروج والتصرف فى الحياة والعمل تحت الشمس والهواء كما يشاؤون ، وأبأح لهم أن يعطوا أجسامهم ما تطلب وتشتهى من حرية وتنقل ودخول وخروج ، وذهاب ومجيء : ما الذى أعطاهم حرية العمل المطلقة فى البيت وخارج البيت ، ثم حرم ذلك كله على المرأة وهى محتاجة إليه ، مستفيدة منه ، مستعدة له احتياج الرجل واستفادته واستعداده ؟ إن كل ما يمكن أن يذكر للاحتجاج به على وجه حرمان المرأة من هذا يمكن أن يذكر للاحتجاج به أيضاً على حرمان الرجل ، وكل ما يذكر للتدليل به على جواز الرجل يمكن أن يذكر للتدليل به على جوازه للمرأة بلافرق . ومن المسلم به أن الخطر الذى يخشى من شروء المرأة وخروجها خطر مشترك لا يمكن أن يتصور ولا أن يتحقق إلا من الجانبين معاً : فلو لا المرأة لما فسد الرجل ولو لا الرجل لما فسدت المرأة ... فإذا قيل إنه قد حرم الخروج على النساء والاختلاط بالرجال فى مجرى الحياة خيفة أن يتصل بهن الرجال اتصالاً غير شريف ، وخيفة أن يغرينهم ويفتنهم قيل : إن العكس صحيح ويمكن أيضاً : أى بأن يحرم خروج الرجال من أجل هذا الاتصال وهذا الافتتان . وكلاهما يصلح للدخل كما يصلح للخارج فما الفرق ؟ يقول قوم : إن الرجل أقدر من المرأة على العمل والتفكير بدليل أن النساء لم يستطعن أن يساوين الرجال فيهما — أى فى العمل والتفكير — فى البلاد التى أطلقت لهن الحرية بأوسع معانيها ... غير أنه من الممكن أن يقال : إن هذا غير صحيح : أما مجزهن عن هذى المساواة فهو راجع إلى عدة أمور : منها أنهن قريبات عهد بعصور الاستعباد والإذلال ، فلا تزال سجون الماضى ذات آثار واضحة فى مواهبن وجميع قواهن ، ولا يزلن حتى اليوم عاجزات عن التحرر من بقايا تلك العصور ، وقد يحتجن إلى جهاد قد يكون طويلاً لإتمام هذا التحرر ... ومنها أن الأم كلها ، حتى التى أعطت المرأة حريتها لم تقدر حتى اليوم على التخلص الصحيح من أوهام الماضى ، فلا تزال المرأة والرجل معاً فى هذه الأم يريان أن المرأة دون الرجل وأنه يجب أن تظل دونه — ولهذا فإنها لا تقوم بكل الأعمال التى يقوم بها الرجل . ولهذا — بلا شك — تأثير لا يقل عن

تأثير قول الغربي للشرقي : إنك لا تصلح للحكم مع عمله على إبعاده وتنحيته عنه . ومنها أن المرأة والرجل لا يزالان — أو لا يزال جمهورهما — في الشعوب كافة يعتقدون أن أعظم عمل للمرأة في هذه الحياة أن تعد نفسها بشق الأساليب لإغراء الرجل وجذبه إليها وإيقاعه في شرك حبها ... فعلى لذلك تصرف أكبر اهتمامها وتفكيرها ووقتها في صنع نفسها بحيث تصبح مطمح الأنظار وملتقى الشهوات . وهذا يشغلها عن الأعمال الجسيمة .

وينهض قوم آخرون ينادون بأن ما خصت به من وظائف الحمل والرضاع والحضانة يقوم مانعاً طبيعياً من هذه المساواة ، فإنها وظائف مرهقة شاغلة ... ولكن الطبيعة — الطبيعة التي طبعها الله — تدلنا على فساد هذا القول ، فإنها ترىنا أن الفرس والناقة وغيرها من إناث الحيوانات لم تعجز عن القيام بالأعمال التي يقوم بها الحصان والجمال وغيرها من ذكورهما مع قيامها بهذه الوظائف .. بل من الممكن القول بأن هذه الوظائف الطبيعية تقضى بأن يكون للمرأة أعمال فيها بعض الجهد والمشقة ، وذلك لأنها في حاجة ظاهرة إلى القوة البدنية — ولا سيما أعضاؤها التي لها اتصال بهذي الوظائف — والأعمال تقويها وتعددها لأن تكون قادرة شديدة الاحتمال . ومن غير الممكن أن يهمل عضو ويترك في الكسل الدائم والسكون المتواصل ثم يحىء صالحاً لما يراد منه قادراً عليه . وقد شوهد أن الريفيات وغيرهن ، اللواتي يعانين الأعمال الشاقة أقدر على الحمل والولادة والرضاعة والحضانة من المنعمات المحبوسات في المنازل بدون حركة ولا عمل ... فعلى إذن من أجل ذلك أخلق من الرجل بالأعمال .

وقد يزعم زاعمون آخرون أن النساء يجب أن يلزمن البيوت لخدمتها وللقيام بشؤونها ، لأنه لا يصلح للبيت ولا يصلحه سوى المرأة ...

ولكن هذا خطأ أيضاً ، لأننا نشاهد اليوم أن الطهارة وغيرهم من المختصين بخدمة المنازل والقيام عليها هم من الرجال دون النساء . وكل الأعمال التي قد يظن أنها من خصائص المرأة دون سواها ثبت أن الرجل يصلح لها ويصلحها ...

يقول بعض علماء النفس : إنه من الخير والصواب ألا يميز بين الرجال والنساء في الزنى ولا في العمل ، لأن هذا التمييز يشعر كلا منهما دائماً بأنه طالب أو مطلوب ، أو طالب مطلوب ، وهذا الشعور يظل موقظاً أبداً للغريزة الجنسية ، وهذا يشغل كلا منهما ويرهقه ويحملة على الاحتمال وعلى القيام بعملية القنص ... والإنسانية محتاجة جداً إلى تناسي هذه الأمور ما أمكنها ذلك .

وإذا كان هذا من الخير والصواب فمن الخير والصواب أيضاً ألا يميز بينهما بأن يكون أحدهما للبيت والآخر للأعمال خارج البيت؛ فإن هذا التمييز ينشط جداً في تنبيه الشهوة وفي الإغراء بالطلب. فإن المرأة التي تحجز في المنزل وتفهم أنها محجوزة لأنها في عين الرجل صيد مطلوب كلما رأتى ووجد وأمكن اصطيداه تبقى دائماً متنبهة لهذا المعنى شاعرة به، مفكرة فيه. ولا يخفى على أحد ما لهذه الإحساسات من نتائج وآثار ومعان في نفسها... إذ كأن هاتفاً يهتف بها في أعماقها الخفية يقول لها: أنت مشتهة مطلوبة، فهل تقبلين هذا الطلب، وهل تجيبين إلى مبادلة الشهوة بشهوة مثلها، وهلا تقومين بالتجربة؟ ما المانع من ذلك، ولماذا تحرمين على نفسك وعلى طالبك ومحبك أمراً شهيئاً لديك، هيئاً عليك... وهكذا تدور في رأسها مئات التصورات من هذا القبيل... وكذلك الرجل الذي تبعد عنه المرأة ويفهم أنها إنما أبعدت عنه لأن فيها رغبته، ومعها مفتاح شهوته ولذته، ولأنه يحبها ويشتهيها، ولأنها كذلك تجبه وتشتهيها، وأنه من أجل هذا الحب وهذه الشهوة حيل بينهما... إلى آخر هذه الأفكار التي لا بد أن تتراكم في خياله، وتتأجج في أعصابه...

ومن المعلوم أن إتيان شيء ما لا يمكن أن يقع إلا بعد التفكير فيه: فالقتل والسرقه والزنا وغيره لا يحتمل أن يحدث لو لم يحدث التفكير فيه. فالتفكير سابق للعمل. وإذا وقع التفكير فقد يقع العمل. فإذا فرقنا بين الرجال والنساء فلا محالة من حصول هذه الأفكار والخطرات. وما بعد التفكير إلا الخطر الحقيقي، وهو محاولة الوصول إلى المفكر فيه، وهو من ناحية أخرى عذاب المفكر إذا لم يدرك ما يفكر فيه، فهما خطران. ولهذا فإن مما يشبه المستحيل أن يجتمع رجل وامرأة — إذا كانا ممن لم يعتادوا الاختلاط — إلا وشغل كلا منهما التفكير في الآخر. إن أساس كل شيء الفكرة.

لماذا لا يحاول الرجل أن يلمس شهوته ولذته عند الأمهات والأخوات والبنات ويلتمسها عند النساء الأخريات الغريبات؟ السبب في ذلك أنه لا يفكر في الأوليات، لأن سلطان العرف يصرفه عن هذا التفكير — ولا تقول إن الذي يصرفه عن ذلك هو التحريم أو الشرائع الدينية — لأن التشريع والتحريم لم يكونا في يوم من الأيام ما نعين من غشيان المحرمات. ولولا هذا العرف وهذا الصرف — أي لو أنه وجد مجالاً للتفكير — لما وجد فرقاً بين الأم والبنات والأخت وبين سواهن. فإن هذا الفرق ليس

طبيعياً . ولو قدمت إلى رجل أخته أو أمه أو بنته بدون أن يعلم ذلك لنظر إليها نظره إلى الغربيات الأجنبية ، ولو قدمت إليه الغربيات الأجنبية على اعتبار أنهن إخوانه أو بناته أو أمه فحسب ذلك صدقاً لنظر إليهن كما ينظر إلى الأخوات والبنات والأمهات الحقيقيات . فالمسألة إذن ليست طبيعية وإنما هي وليدة العرف والاعتقاد . فعلياً إذن أن نجهد جهدنا على إبعاد هذا التفكير وعلى تناسيه . وهذا إنما يكون بمحو الفروق التكلفة المكذوبة ، وعلينا أن نقضى على فكرة الحيولة بين الجنسين من أجل خيرها معاً وخير الإنسانية أجمع .

قالوا : وإنما لسنا ممن يحاولون أن يحجبوا ضوء النهار بأكفهم ، إذ لا ندعى أن الاختلاط مبرأ من العيوب والذنوب ، ولا أنه ليست له عواقب قد تكون أليمة ، كلا ، فإن كل شيء في هذا الوجود — مهما كان حسناً جميلاً — لابد أن توجد أحياناً في أعقابه وثناياه أضراراً وشروراً . وما من شيء يمكن أن يكون خالصاً وخيراً محضاً في أوله وآخره ، ووسيلته ونتيجته ، وبدايته ونهايته . وأعظم وأجمل ما في هذه الحياة — كالصحة والجمال والشباب والعلم والقوة والشجاعة — لم يخلص الخلاص كله ، ولم يبرأ كل البراءة من الذنوب والعيوب والعواقب المؤسفة . فطلب هذا الخير المحض هو من طلب المحال ، ومن ظن أن كل ما قد يحمل في طوابعه ما ليس بالحسن وجب رفضه واعتباره قبيحاً محرماً لزمه ألا يرى في الدنيا حسناً ولا جميلاً ولا مباحاً ... أو ليس التلاقح نفسه — الذي هو أصل وجود الحياة ووجود الإنسان — قد يجلب شروراً وآلاماً ومفاسد ومظالم ؟ بل إن كل ما في هذا الوجود من الجرائم البشرية إنما تسبب عن هذا التلاقح والتزاوج . فالخير إذن ليس هو الذي لا شرف فيه ، وكذلك الشر ليس هو الذي لا خير فيه . إذ هذا النوع من الخير والشر لا وجود له في عالم الواقع . وفعل الحكيم القادر النزه عن كل نقص وعب قد ترتب عليه وجود الأشقياء والسعداء ، والمؤمنين والكافرين ، والخير والشر ، والجنة والنار ، وكل ما نراه من المتضادات . ولكن يراد بالخير أو بالحسن ما غلب خيره شره ، وحسنه قبحه ، أو ما غلب حسنه وخيره خير ضده وحسنه . ويراد بالشر ما غلب شره خيره وقبحه حسنه ، أو ما غلب شره وقبحه قبح ضده وشره ... فكل الأمور مأخوذة بالموازنة والمقارنة : فإذا وجدنا امرأة له وجهان واحتملان أو نتيجتان أحدهما ما يسمى خيراً وثانيهما ما يدعى شراً ، وجب علينا أن ننظر أي الاحتمالين أو الوجهين أو النتيجتين أعظم ، فإذا وجدنا الخير هو الأعظم قلنا إن هذا الأمر حسن وجميل ، وإن وجدنا العكس قلنا بالعكس ، وهكذا . والوجود كله قائم على هذه الحقيقة

والاعتبار . وإذن فهذه المسألة التي هي اختلاط النساء بالرجال يجب أن يشملها هذا القانون . ومن غير المستطاع أن يقال إنها خير صرف أو شر صرف . بل فيها خير وفيها شر كما سبق . ومن شرها أنها قد توقع في الفساد الخلقى — ولاسيما في أول تجاربها وبداية الأخذ بها . وهذا ما لا ينكر . ولكن الخطر لا يتق بالإبعاد والفرار منه ، وإنما يتق بالتعلم كيف يتق وكيف يراض ويوجه إلى الخير والفائدة . وإلا فإن هذا العلاج يشبه الفرار من الطبيعة ومن ظواهرها ومن الوجود كله خيفة ضرره وأذاه . ومن حاول أن ينجو من خطر الفيضان الذي ترمى به الأنهار ، ومن خطر الأمطار التي تجود بها السماء بالهرب والبعد عن المنطقة كان معناه في الجهل والغباء ، وكان كمن حاول أن ينجو من مخازن البارود والقنابل وسائر المتفجرات بالفرار من المدن التي توجد فيها هذى المخازن، وكان حاول النجاة من الفساد المرتقب من اجتماع الرجل والمرأة بالحيولة والتفريق بينهما . . . والشعوب والأفراد البدائية الجاهلة لا تجد وسيلة للنجاة مما تخاف وترهب إلا بالهرب : فهي تولى مذعورة جافلة من كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون : من البروق والرعود والعواصف والقواصف والسيول واليران والأمراض والوحوش والأعداء المعيرين ، ومن اللصوص وغيرهم ، ومن اختلاط النساء بالرجال ، لا تجد حيلة سوى هذا . أما الشعوب والأفراد المتعلمون فإنهم لا يفرون أمام شيء من هذا ، بل يقفون له ويروضونه ويصرفونه وفق المصلحة والفائدة كما تراض الوحوش العاتية . وهكذا يجب أن يكون علاج هذى القضية . ولاشك في أن محاولة حبس المرأة في دارها كل حياتها خشية الفساد تشبه شها كبيراً أن يلزم العلمان منازلهم ، وأن يمنعوا الذهاب إلى المدارس ، والاجتماع بالرجال وغشيان الأماكن العامة بحجة أن خروجهم ودخولهم المدارس ووجودهم في المواضع العامة قد يحدث منه أحياناً ضرر خلقى !! بل إن اجتماع الرجال بالرجال والنساء بالنساء قد يحدث منه المؤامرات والعيية والتميمة والإغراء والإغواء والتضليل وغير ذلك من أنواع الفساد الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض . فهل يمنع هذا الاختلاط بين الجنس وجنسه خيفة العاقبة المكروهة المرقوبة ؟ وقد مرّ بالإنسانية زمان كانت تلجأ فيه إلى فعل أشياء تعد اليوم من أشنع ضروب الوحشية والهمجية . وكانت تفعل هذى الأشياء بسبب الحرص على الفضيلة وحراسة الأخلاق ودافع العيرة على حسب ماظنت وقالت . . . من ذلك عملية الحصاء التي كانت إلى عهد قريب جداً شائعة ومستحسنة . ولعل إلزام المرأة البيت للأسباب المذكورة لا يقل جهالة وسخفاً عن هذه العملية الوحشية الشنيعة للأسباب

الذكورة أيضاً . والإسراف في التخوف من عواقب الأشياء المحتملة يوقع لاحتمال في أشد
ضروب الحرج والضيق ، ويحمل على الحذر والإحجام عن كل شيء أو عن أشياء كثيرة
لا ريب في فائدتها وحسنها ولزومها . فإن جميع الأمور — كما سبق — قد تحمل
في طواياها وعواقبها بعض ما يكره ، فهل يجتنب كل شيء من أجل هذا ؟
هذا بعض ما لقناه ونقلناه عن الآخذين بالاختلاط ، الذين يقولون إنهم وجدوا
نفعه . وعلينا نحن أن نقرأ ونفكر ونوازن .

وقد جعل الله الإمساك في البيوت عقوبة على الزنا في طور من أطوار التشريع :
«واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن
في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً » .

وهذا يدل على شيئين : أحدهما أنه لم يكن يمساك في البيوت من النساء إلا اللواتي
يأتين هذه الفاحشة ، وثانيهما أن الإمساك في البيوت ما هو إلا عقوبة على جريمة من الجرائم
الكبرى . فمن عاقب هذه العقوبة بدون جرمها كان من الظالمين في نظر الدين الإسلامي ..
وقد وصف الله النساء اللواتي سيختارهن أزواجاً لرسوله بالسياحة فقال : « عسى ربه
أن يطلعكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات
ساجدات .. » وأين الساجدات من القاعدات في المنازل ؟

وأما قولهم : إن المرأة إذا علمت نظرت إلى الرجل نظرة المساوي فتكبرت
وطغت وأن مثل هذا خليق بأن يفسد الوداد والحياة بينهما ، فقول لاحمجة له أيضاً لأن
العلم الصحيح الناضج يهذب الأخلاق ويشدبها ويمنع الغرور والكبر . لأن الغرور والكبر
إمما يصدران في الحقيقة عن الجهل بالنفس وعن الجهل بالعواقب والجهل بالقوانين
الاجتماعية والخلقية والنفسية . لأن المتكبر حينما تكبر إنما أراد بكبره أن يرفع من نفسه
وقيمته وحقيقته ولم يرد أن يضعها . ولو كان علماً متعلماً لعلم أن التكبر على الناس يصيبه
بعكس ما أراد لنفسه . فإن من طلب من الناس أن يرفعوه خفضوه لا محالة ! ومن حاول
أن يفرض على الآخرين احترامهم له لم ينل منهم إلا الاحترار والاشمئزاز — ولو في الباطن —
إن كانوا عاجزين عن أن يظهروا احتقارهم وشمئزازهم . وأما من تواضع وتودد إلى الناس
وتجنب ما استطاع لمس شعورهم وإحساسهم بما يؤذي ولم يقابلهم إلا بما يرضون ويحبون
فإنهم يحترمونه ويوقرونه في مشهده ومغيبه ظاهراً وباطناً ... هذه مسألة نفسية خلقية
اجتماعية لا شك فيها .

فالعلم إذن يهدي إلى التواضع وحسن الأدب ، والجهل يهدي إلى الغرور وسوء الخلق . فالواقع خلاف ما ذكروا .

على أن هذا الاحتجاج إذا كان لدى هؤلاء القوم صحيحاً لزم أن يحرم التعليم على الرجل أيضاً لأنه من المستطاع أن يقال : إن الرجل إذا تعلم تكبر وشاه خلقه وأدبه وساءت معاملته ولقاؤه للناس مثل ما قالوا في المرأة المتعلمة . ولكن هذه كلها أوهاام لا يسوغ أن تلتق في طريق الحقائق لو كانوا يعلمون .

وليعلم أنه لا يوجد حرف واحد صحيح في الدين ينهى عن تعليم المرأة ويأمر بتركها فريسة للجهل والغباء . بل الأوامر الدينية — روحها ونصوصها — كلها قواطع في وجوب تعليم الناس جميعاً رجالاً ونساءً ، وكلها قواطع في ذم الجهالة والغباوة سواء أكانتا صفتين في الرجل أم صفتين في المرأة .

وكلنا نعلم أن الدين بجملمته بل الأديان كلها عبارة عن تعاليم وإرشادات وأوامر ونواهي ، وكلنا نعلم أن الدين موجه إلى الرجال والنساء وإلى الناس جميعاً . فالفرقان ملازمان مكلفان بعلمه وتعلمه . فهما ملازمان مكلفان بالتعلم وبتحصيل العلوم التي جاءت بها الأديان ، وهي أنواع بل وهي تتناول إجمالاً كل علوم الإنسان . وقد كان الناس في زمن الرسول وزمن خلفائه متساوين رجالاً ونساءً في طلب العلم وفي العلوم التي تطلب ويؤمر بطلبها . فما كان هناك علوم يعلمها الرجل دون المرأة ، ولا كانت المرأة تؤمر بجهل شيء كان الرجل يؤمر بتعلمه ، فلا فرق من هذه الناحية . وكانوا — الرجال والنساء — يشتركون ويجمعون في تلقي هذه العلوم وتعلمها من الرسول ومن غيره من الواعظين والمعلمين . وقد شككت النساء مرة إلى النبي الكريم وقلن : إن الرجال غلبونا عليك وزاحمونا فزحمونا فأجعل لنا من نفسك يا رسول الله أيما معلومة فأجابهن إلى ذلك . وقد كان من نساء الرسول علمات معلمات ، ومن أشهرهن عائشة ، وكذلك كان غيرهن من نساء المهاجرين والأنصار .

بل إننا نضع أمام القارئ البرهان الديني على وجوب أن تكون المرأة معلمة لامتعملة فقط ، أي على وجوب أن تعلم المرأة نفسها ثم على وجوب أن تعلم سواها من الرجال والنساء . وذلك قوله تعالى من سورة الأحزاب موجهاً الخطاب إلى أزواج الرسول : « وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس

أهل البيت ويظهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة . إن الله كان لطيفاً خبيراً » . فهذا أمر القرآن لزوجات الرسول بأن يذكرن للناس — أى يعلمنهم — ما يتلى في بيوت الرسول من الآيات ومن الأحاديث ومن الحكمة . وكم تحت لفظ الحكمة من المعاني والعلوم . فقد أمرن أمراً صريحاً منزماً بأن يعلمن الناس كل المعارف الموجودة في بيوت النبوة — القرآن والحديث والأخلاق والآداب والترسية والسياسة والاجتماع وكل العلوم الإسلامية والعلوم التي جاء بها الرسول . وقد عملت هذه الزوجات وغيرهن من النساء المسلمات بهذا الأمر والإلزام ، فكن معلمات مهنديات ومربيات وواعظات ، وكان منهن خطيبات وأديبات ومؤرخات ... فالحرمون للتعليم عليهن محرمون لشيء أزم به القرآن وكلف به تكليفاً .

لا ندرى كيف تقول ولا كيف نصرّف الدلائل على وجوب التعليم والتعلم . وإننا نعلم أن الدين الإسلامي لن يهجي ولن ينال منه بأبلغ وأنكى من اتهامه بأنه ينهى عن تعليم المرأة ويأمر بإبقائها — وهى نصف الأمة الإسلامية أو أكثر — غيبة جاهلة . وأى دين هذا الذى يمكن أن يجيء بمثل هذا ؟

إن الإنسان — وسواء في ذلك الرجل والمرأة — ابن هذا الوجود ، وأحد أجزائه ولبناته — وهو مضطر لأن يعيش فيه ويعايشه . وليس من الممكن أن يعيش فيه ومعه عيشة صحيحة مقبولة معقولة إلا إذا كان موضوعاً فيه وضعاً سليماً ، وكان مؤتلفاً ، وكان موجوداً في مكانه اللائق به المناسب له ، وكان آخذاً ومعطياً على مقتضى الحكمة والصواب ، وكان عارفاً بطباع وخصائص ما هو جزء ولبنة منه وابن له ، وعارفاً كيف يأخذه وكيف يتناوله وكيف يتصل به وكيف يباشره ويعاشره ... وهذا كله لن يكون ممكناً إلا لمن تعلم وعلم خصائص هذا الوجود وقوانين هذه الحياة بمن فيها وما فيها ، عالماً بقوانينها الطبيعية والأدبية والخلقية . ومعنى هذا تحصيل كل العلوم البشرية ، وإلا فإن من حاول أن يتصل بشيء وأن يعاشره وهو لا يدري طبيعته ولا حقيقته ولا ما هو ولا كيف يؤخذ ولا كيف يترك هلك لا محالة . فالمرء الذى يوجد في هذا الوجود وهو جاهل به هالك وقاتل نفسه وهو يظن أنه يحييها ، ومفسد لها ولغيرها وهو يظن أنه يصلح ، مثله كمثل من يضع النفط على النار حامساً أنه يطفئها بذلك كالماء ، وكمثل من يتناول المركبات السامة ظاناً أنه يتناول أدوية ... وهكذا . فالمرأة الجاهلة جهلاً مطلقاً بجميع المعارف

العامة لا تصلح لشيء . ومن أراد منها أن ترعى له بيته وتربى أولاده تربية مرضية ، وأن تؤلف بين نزعاتهم وأغراضهم وغرائزهم المختلفة المتباينة وبين حاجات أجسامهم وحاجات أرواحهم ، وأن تؤلف لهم الأغذية النافعة وأن تفعل سوى ذلك ، كان مثله كرجل طلب من هذه المرأة الجاهلة نفسها أن تؤلف كتاباً قيماً في الطبيعة أو في الكيمياء أو في الرياضة أو الفلك أو في الفلسفة أو في الشعر أو في الأدب أو الفنون الجميلة أو في الدين أو في أحد العلوم العليا ومن تمنى هذه الأمنية كان مثله كمثل من طلب هذه الأغراض من الحيوانات والعجوات ! . ومن صار هذا المصير كان خليقاً بالمرحة والثناء .

ليفكر هؤلاء المناصرون للجهالة ، ولجهالة المرأة خاصة ، في هذه الشعوب والأمم التي غلبتنا واعتصبت منا كل شيء ، وفي مكان المرأة منها وفي المناصب التي تشغلها والأعمال التي تؤديها في الحرب وغيرها وفي كل الميادين — ليفكروا في إحدى هذه الأمم كالأمة البريطانية مثلاً ، هل كان من الممكن أن تبلغ في تأدية هذه الحرب وسواها هذا المكان الذي بلغت ، وأن تظفر بما به ظفرت لو أنها فقدت هذا العنصر العجيب وفقدت وجوده في الميدان العام لجهله ، ولأنه كان لا يستطيع أن يخرج من ظلمات البيت لأنه غير لائق به الخروج ، لأنه غير متعلم ، وغير صالح للعمل في الخارج — وهل كان من الممكن أن تجد هذه الأمة حينئذ من يسد سداد هذا الجنس ، ومن يقوم بالأعمال التي قام بها ، ومن ينفث الروح التي نقشها ، ومن يشيع الحماسة والقوى المعنوية التي أشاعها ، ومن يمنح الثقة والاطمئنان للذين منحهما — وهل كان من المستطاع أن يصنع هذا أو شيئاً منه لو لم يكن قد أخذ النصيب الأوفر من الثقافة التعليمية ؟ ثم هل كان في الإمكان أن يفعل الشعب العجائب والمعجزات ، وأن يجعل العالم كله يرتو إليه بصره إعجاباً وإكباراً لما يأتيه من ضروب البطولة لو كانت الزوجات والأمهات والأخوات والبنات جاهلات ؟ إنهن حينئذ يكن بلا شك معاول هدامة يهدمن الرجال : الأزواج والأبناء والآباء والأخوة ، ويهدمن فيهم كل بطولة ، ويملأن نفوسهم جنناً وضعفاً وهلعاً وتقصاً دون أن يضعن فيها شيئاً من البطولة والشجاعة والقوة والكمال .

إنه لاخلاف بين طوائف الباحثين في أن الرجال إنما يلهمون أرواحهم ويوهبونها — أو كثيراً منها — في البيوت : أمام الزوجات والأمهات والأخوات والبنات ويصنعون

هنالك . فإن كانت هؤلاء الملهمات لا يجدن في أرواحهن ولا في أنفسهن سوى الجهالة وما تولده الجهالة من خور العزيمة وسقوط الهمة وقصر النظر والخوف من كل مجد فلن يلهمن سوى ذلك ، وسيأخذ رجالهن عنهن هذا كله أو جله ... وإن كن متعلمات ممتلئات همماً وعزائم وآمالاً وحياتة كان إلهامهن من هذا النوع ، فكان صنعهن لرجالهن صنعاً عجيباً ! فأى الإلهامين والصنعين يريد هؤلاء لأنفسهم ولأمتهم ؟

إن كثيرين من أبطال التاريخ السياسيين والعسكريين وغيرهم إنما أوجدتهم نسأؤهم ، وإن كثيرين من أقطاب هذا العصر في أوروبا وأمريكا وغيرها - ساسة وقوادا - إنما بلغوا ما بلغوا من ضخامة المجد وذهاب الصيت بتوجيه نسأؤهم وإرشادهم وتشجيعهم وعونهم ، وإنهم ليعترفون بذلك بل يفاخرون به .

والأمم الراقية في هذا العصر تشترط في زوجات بعض رجالها الرسميين أن يكن بصفات معينة معلومة من الثقافة وسمو المدارك والأفكار .

ولو أن هؤلاء الرجال الذين فرضوا مجدهم وسلطانهم على الزمن ، والذين قيل وقالوا : إن الفضل يرجع في كثير من ذلك إلى زوجاتهم لم يوقفوا إلى هذه النساء المثقفات المستنيرات ، وسقطوا على نساء جاهلات غيبات ، لما كان من المنتظر أن يصيروا إلى ما صاروا إليه ، وأن ينالوا من الزمان ما نالوا ! بل أليس من المنظور أو المقطوع به أن يعبرن مجرى تاريخهم وأن يوجدن منهم رجالاً آخرين ؟

ومن المستحسن أن يقال لهؤلاء - ولا سيما المتدينين منهم أو من يزعمون متدينين - : إذا لم تعلم المرأة تعليماً كافياً لأن يوجد عندها ملكة علمية حقيقية تفهم بها حقائق الأمور فهماً عالياً صحيحاً ، فهل من الممكن أن تصل إلى فهم حقائق الدين وفهم مراميه وأغراضه وأصوله العالية ، وأن تبلغ منه الغاية المنشودة ، وأن تعصم من الوقوع تحت سلطان المخرفين والخرافات ، وتعصم من الدينونة للأوهام الدينية والبدع المنبوذة النكراء ؟

إن الإنسانية تحمل في جوانبها وفي طيات وجودها جميع الخرافات والسخافات التي مرت بها في تاريخها الطويل ، وفي تعاقب أجيالها الجاهلة ... وإن سلطان هذه الخرافات والسخافات متمكن راسخ ، وإن كل مولود يولد وهو يحمل معه جذورها وبدورها بين لفائفه ليستبته في بيئته ... ولا يوجد شيء يقدر على إبادة هذه الجذور ويمنع نباتها واستنباتها سوى التعليم العالى ، وسوى العقل الذى يصنعه العلم .

لقد جرب التلقين اللفظي لمن لم يوهبوا الملكة العلمية — أي لمن لم يتعلموا حتى يملكوا هذه الملكة — فوجد غير مجد ولا نافع ... إن كل تلقين — إن لم يكن للملقن ملكة ناضجة — لقليل الجدوى بل قد يكون ضاراً . أي إنه يشترط أولاً وجود المحل ، والمحل هنا هو النضج الفكري والملكة الفكرية التي تكتسب بالتعليم .

حاول أن تشرح لإنسان غير متعلم نظرية فلسفية عالية ، أو فكرة اجتماعية أو اقتصادية ، أو مسألة علمية تحتاج في فهمها إلى مقدمات وإلى مبادئ أولية — أو حتى مسألة نحوية أو صرفية ... وانظر هل يستطيع هذا الإنسان الذي لم يتعلم أن يفهم عنك وأن يدرك حقيقة الموضوع إدراكاً صحيحاً ! وكذلك حاول أن تفهم إنساناً غير متعلم وغير مالك الملكة العلمية أصلاً من أصول الدين العليا كمسألة التوحيد مثلاً — أعني به التوحيد المبرأ من كل شائبة — وأسمعه ما شئت من النصوص القواطع والبراهين العقلية المنقعة ! ثم انظر بعد هل يستطيع هذا الإنسان أن يدرك التوحيد وأن يؤمن به كما تريد وكما تحب ، وهل يقدر أن يهضمه الهضم النافع ، وأن يتكيف به التكيف المطلوب ، وهل يصل إلى الحقيقة التوحيدية المطلقة المجردة ؟ من المشاهد الواقع أن يقبل هذا التوحيد مبدئياً وأن يطيب به وأن يتخلص من بعض مظاهر الشرك وأن يأخذ بعض مظاهر التوحيد ، بل كثيراً منها . ولكنه يبقى بعد ذلك يحمل جرائم الشرك ، ويحمل جذوره وبذوره ، بل يحمل كثيراً من صورته . وقد ينتقل من مظهر إلى مظهر ويترك صورة لصورة أخرى لأنه عاجز عن أن يخرج من جميع صورته ومظاهره لفقده الملكة الناضجة ... وكذلك البدع ، فإن من لم يتعلم تعليماً كافياً فلن يخلص منها مهما بذلت المحاولات والجهود ، ومهما بولغ في التلقين والتحفيظ . وهذا كله مشاهد مجرب معلوم .

وكما أن الإنسان عند ملاحظته مشهداً كونياً أو ظاهرة طبيعية لا يبلغ من فهمه أو فهمها إلا بقدر ملكته العلمية والعقلية ، فكذلك هو عند سماعه كلاماً ما في مسألة ما — أي إنه لا يأخذ مما يسمع ومما يرى إلا بقدر استعداده . وقد كنت أتعجب دائماً من قول النبي :

ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

يعني أن الآذان إنما تأخذ وتستفيد مما تسمع على قدر استعداد عقلها وعلمها وعلى قدر ما بلغها من نضج .. ومن المستحيل أن تتخلص امرأة من جميع صور الشرك

وضروبه ، ومن جميع البدع والخرافات إذا كانت غير متعلمة . وقد لوحظ أن بعض النساء الجاهلات أو المتعلمات تعليماً ناقصاً قد تقبل ما يطلب إليها من توحيد ومن هجر للأوهام والخرافات ، ولكنها تبقى مستعدة للرجوع وللمعاودة شركها القديم وأوهامها الأولى لأهون سبب وأضعف مناسبة .

كل هذا صحيح والسبب فيه — أو من الأسباب فيه — أن الخرافات والجاهلات قديمة عريقة في الإنسان . وقد ورث من أجداده وآبائه في دمائه فهم كل شيء على غير وجهه وصوابه ، فجاء الخطأ والضلال فيه موروثاً بل شبه طبيعي ... وكما ورث عن أسلافه القدماء الأخلاق والطباع الوحشية المعتدية — كما يلاحظ على الأطفال وعلى الشعوب الهمجية ، فإنه لا حد لظلمها وعدوانها ولا قانون له ، كما ترى هذا في الأطفال إذا أعطوا حرية التصرف ، فإنهم حينئذ يأتون بأقبح وأشنع أنواع الظلم والعدوان : يفعلون ذلك في الإنسان والحيوان وفي كل ما يقع في أيديهم — كذلك ورث أيضاً منهم الوهم في كل شيء والضلال في كل أمر : ورث الشرك وعبادة غير الله ، وورث الأوهام في كل صلاته واتصالاته بالله وبغيره . ولا علاج لهذه الموارث الثقيلة وللخلاص منها غير التعليم والتهديب والتربية ... ومن أراد أن يخلص من الأوهام وأن يدرك الأمور على وجهها بدون تعليم وبدون ملكة عقلية تعليمية كان كمن أراد أن يكون رساماً أو خطاطاً من غير أن يكون له يد ! ولقد أحسن الشاعر جداً في قوله :

فقر الجهول بلا عقل إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

يريد أن غير العاقل لا يمكن أن يكون أديباً ولا مؤدباً ولا فاهماً ولا مبرهنياً بين الحسن وغيره ولا مدركاً للحقائق كما هي ، كما أن الحمار من غير رأس لا يمكن أن يكون له رسن ولا أن يقاد برسن .

فالشرط الأول لنجاة الأمم من خرافاتها هو التعليم العالى وإلا فإن الأمة ستظل ضحية للدجل والدجالين ، وستبقى تحت دينوتها لكل ما هي فيه اليوم من هذه المفاسد الاعتقادية الخزية ، وستبقى سوقاً عظيمة لصنوف المحتالين والمضللين ... وما استطاعت أمة من الأمم أن تنجو من ذلك إلا بعد أن عظم نصيبها من المعارف .

ومن أجل هذا فلا ريب في وجوب تعلم الشعب كله رجاله ونسائه وجوباً دينياً ، لأن أكبر أغراض الدين تخلص أهله من الجهالات الاعتقادية — من الشرك وأعراضه

ومن فهم الحياة فهما باطلا ، وقد علم أنه لا يستطيع الحصول على هذا الغرض الأعظم إلا بالعلم فكان العلم واجباً بحكم الدين .

والعلم في الحقيقة هو مانع السقوط ومانع الفساد الديني وغير الديني ! إن كان في الإمكان منع هذا . وليسمع هؤلاء مثلاً واحداً : ماتا رجلان كانا يكسبان القوت يوماً فيوماً ، فترك أحدهما وراءه جمعاً من النساء والبنات المتعلات ، وترك الآخر جمعاً ممنهن جاهلات لا يدرين شيئاً في الحياة . وليس لإحدى المجموعتين كاسب ولا مورد للرزق بعد وفاة الرجلين . فما الذي حصل ، أو ما الذي يمكن أن يحصل ؟ أما المجموعة الأولى المتعلمة فإن تعليمها مكنها من أن تجد مكانها في الحياة ، وأن ترى طريقها في النور . أما المجموعة الجاهلة فما الذي يمكن أن تصنع إذا لم ترزق أزواجاً صالحين ؟ وهذا بعيد . ليفكر لمن أنصار الجهل وأعداء العلم وليقولوا بعد هذا إن شاءوا : إن الدين يحرم التعليم على المرأة وينهى عن تعلمها الكتابة .

إن هنالك فرقاً عظيماً بين المتعلمة والجاهلة في كل شيء حتى في السقوط الأدبي وفي الزلل الخلقى إذا قدر . فالتعلمة إذا سقطت وزلت قدمها سقطت سقوطاً محتشماً محترماً — إن كان في هذا ما هو محترم محتشم — وزلت زللاً نفضياً أو جزئياً يرجي بعده القيام والنهوض والحياة . أما الجاهلة فإن سقوطها يكون سقوطاً جاهلاً ، أي مدمراً مخرباً لا ينتظر بعده حياة ولا وجود ولا علاج .

من المحقق الذي لاخلاف فيه بين علماء النفس أن الجاهلة الساذجة التي فرغ رأسها من المعارف ومن التفكير الجدى ، وفرغت أوقاتها من الأعمال الجسيمة المجدية ، أقرب جداً من المتعلمة المثقفة ذات الأفكار والآمال إلى الركوع أمام سلطان الشهوات والغرائز الصغيرة . فالشهووات الجنسية تستبد جداً بالجاهلين الفارغين المنطوين على أنفسهم لجهلهم وضآلة تفكيرهم ، وتنتأى بقدر ما عرف المتعلمين المفكرين ، ذوى الطموح الإصلاحى الإنسانى البعيد ، وذوى الآمال العظيمة الجليلة التي يولدها العلم الواسع ويخلقها الخيال الممتاز الوثاب .

وذلك أن لكل إنسان قدراً معلوماً معيناً من القوى المادية والقوى الذهنية . وهذه القوى يتوزعها ويتنازعها فيه ميول وطبائع مختلفة كثيرة ، كل من هذه الميول

والطبائع يريد أن ينفق كل هذه القوى على حسابه وفي مصلحته . فمن الجائز أن تذهب القوى كلها في إرضاء غريزة واحدة كالغريزة الجنسية ، ومن الجائز أن تذهب في غريزة حب الاطلاع فيكون المرء حينئذ بحاثة عالماً مشغولاً بالاستزادة من العلم والعرفان ، ومن الجائز أن تنفق في غريزة الطموح . ومظاهر الطموح كثيرة متعددة ، فقد يكون طموحاً إلى جمع المال والثراء الكثير ، وقد يكون طموحاً إلى المجد السياسي أو المجد العسكري أو المجد الصناعي أو غيره من ضروب الأحماد . وقد تبذل هذه القوى كلها أو جلها في ميول رياضية أو ميول إلى المغامرة والمخاطرة أو ميول أخرى ، أحياناً تكون طيبة في تيجتها ، وأحياناً تكون غير ذلك ... إلى غير هذا من الاتجاهات الإنسانية التي تصرف فيها قوى الإنسان الذهنية والجسدية كلها أو بعضها . ومن هنا اختلفت وتعددت وجوه الناس ومذاهبهم في الحياة على حسب هذا التوزع بين هذه الغرائز وال ميول . ومن المعلوم قطعاً أن للتوزع بين هذه الأشياء المسيطرة على الإنسان أسباباً وعوامل تكسب وتدرج بالاجتهاد والتوجيه . فالإنسان — وكذا الإنسنة — الجاهل من المعروف أن مذاهب الطموح تضيق به وتسمو على تفكيره وتشرذ عن خياله ، ويعلم أنه أقل وأعجز عن أن ينصرف إليها وأن يرصد نفسه وقواه في سبيلها ، فيتضاءل في نفسه وينطوى على قدره الصغير ، أو ينطوى عليه قدره . فتبرز فيه حينئذ الغرائز وال ميول التافهة الضارة إذا تركت وطريقها — كالمسألة الجنسية — وتعصف به الأحقاد وعوامل الحسد الخبيثة والغيرة القاتلة من الآخرين ، ويسيطر عليه التشاؤم والكآبة والكرهية والبغضاء ، ويصبح ويمسى تنقسمه هذه الآفات النفسية ، فينفق كل قواه البدنية والفكرية في الاتصال الجنسي خيالا وعملا ، وفي الحقد والحسد والبغض والكره والتشاؤم والكآبة . فيقضى حياته كلها ، ويبذل ما وهبه الخلاق في المعاصي والجرائم الدينية والقانونية والحلقية . فيكون نكبة على نفسه وعلى الأمة التي هو أحد أبنائها . والأمة التي يكثر فيها هذا النوع من الناس أمة مقضى عليها بالحياة والمهلك وضالة الشأن — وهي أمة متخاذلة متنازدة لا يرضى فيها أحد عن أحد معها أحسن وأفاد ونفع .

أما المتعلم المثقف فإن آفاقه تتسع وآماله تتعظم ويصير سبيل المجد والطموح تترأى له مبهودة مفتوحة ، فينطلق فيها ، فيشيد لنفسه ولقومه وللإنسانية قاطبة المجد الضخم ، ويشغل بذلك عن تلك المعاني الأخرى الصغيرة ، بل لا يجد لها وقتاً ولا مكاناً عنده . فيصرف عنها وتتصرف عنه . ويندر جداً خروج مثل هذا الإنسان عن القانون الطبيعي

أو الاجتماعي أو الشرعي . وقد فهم أحد الشعراء — وهو الأخطل — هذه النظرية قديماً فقال يمدح أحد الخلفاء المشغولين بحسيات الأمور هو وقومه :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

وفي أوصاف الرسول الكريم أنه كان إذا دخلت العشر الأواخر من شهر رمضان شغل بالعبادة وانصرف إليها وشد المززر — كناية عن مجانبة النساء واعتزال المسألة الجنسية . ومن المعلوم أن عظماء الأمم الذين توكل إليهم الأمور الجسيمة ينصرفون البتة — أو بعض الانصراف — عن هذه المسألة ، وقد ينسونها بحيث لا تخطر على بال أحدهم . وقد تمر أمام أحدهم أجمل مخلوقة تشيع الفتنة وتثير الخيال كما يمر أمامه أحد الأشياء العادية . ولا يلتفت إلى هذه المسألة إلا اهتمام المرضى والفارغين المعرضين عن رسالة الحياة . ومن هنا كان مسيئاً إلى مصلح الإنسانية عليه السلام من ذهبوا — وقائدهم الغباء — يجمعون الروايات المزعوم فيها أنه عليه السلام كان يعطى هذه المسألة — أى مسألة الوصال الجنسي — جانباً كبيراً من نفسه ووقته بل أعظم جانب ، حتى إنهم ادعوا أنه كان يجامع في ليلة واحدة إحدى عشرة امرأة ثم يغتسل لذلك كله غسلًا واحداً بدون فاصل ! وقد وهووا جداً في فهم حديث الطواف على نسائه ، فالطواف غير الاتصال الذي يذهبون إليه (١)

والذين وصفوا الرسول الكريم بهذا ، وظنوا أنهم يمدحونه به ويبالغون في وصف قواه البدنية بما قالوا ، قوم كانت المسألة الجنسية أكبر شيء عندهم ، وأكبر ما يشغل خيالهم لفراغهم وضآلة رسالتهم في الوجود وقلة طموحهم واهتمامهم بمسائل الإنسان الكبرى . ومن ثم حاولوا وصف الرسول بما أحبوا أن يوصفوا به وبما به اهتموا وله عظموا . ولو أن أحد الرجال — أرباب الرسالات الكبرى والآمال الجسيمة — أراد أن يصف النبي الكريم المبعوث لهداية الناس ولبعث العرب ولإيجاد دولتهم الفتية الغالبة لما خطر على باله أن يصفه بالانصراف إلى هذه المسألة ، ولما قبل ذلك البتة ، لأنه هو غير منصرف إليها

(١) ومن خطرات الهوس الجنسي ما زعمه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري مستدلاً بروايات لفقها من أنه عليه السلام قد أعطى في الجماع وفي شهوة الجماع قوة أربعة آلاف رجل ! وروى ابن سعد في الطبقات وغير ابن سعد أن جبريل نزل على الرسول بقدر فيها طعام فأكل منه فأعطى هذه المقدرة على الجماع . ويشير كلام ابن حجر إلى أن قوة الأربعة الآلاف التي أعطيها ليست في الجماع فقط بل فيه وفي الأكل والشرب والشهوة ! ويراجع كتاب الغسل في فتح الباري شرح صحيح البخاري .

ولا معنى بها . والعادة أن الواصفين يحاولون أبدأً أن يصفوا من يحبون ومن يريدون إظهار مزاياهم بما حسبه مدحاً وثناءً وإن كان في الواقع غير ذلك ، وقد يصفونهم بما يحبون أن يوصفوا هم به .

ولكن الرسول الكريم أعظم جداً وأسمى مما توهموا وظنوا ومدحوا . ولن يستطيع وصفه إلا من قرب منه ومن سمى نفسه ومعانيه بحيث صار يبصره عليه السلام متألقاً في سماواته ، مجللاً بكالاته .

وليس هذا الذي نقوله شعراً ولا خيلاً وإنما هو حقيقة يقرها علم النفس ويضمن صحتها الواقع والمشاهدة الأولية البسيطة . وعلم النفس يسمى هذا التوزيع بين الغرائز بالطريقة التي ذكرناها (التصعيد) .

أن مقداراً معيناً من الفحم مثلاً تكمن فيه طاقة معينة أيضاً ، يمكن أن تكون حرارة ، وأن تكون ضوءاً ، وأن تكون حركة ، وأن تحرق وتدفئ وتهدي ، ويمكن غير ذلك . وكذلك القوة البدنية والعقلية الموجودة في الإنسان يمكن أن تصرف في الفساد والدمار ، ويمكن أن توجه إلى الإصلاح والتعمير والبناء — وهكذا كل قوة في الحياة وهكذا كل قوة مادية . ولا سبيل إلى هذا غير التسامى ، ولاتسامى حقيق عند الجاهلين . وعلى هذا فلن ينتظر من المرأة الجاهلة — وكذا الرجل الجاهل — سوى الاستغراق في الخيالات الجنسية ، وسوى التطلع للمهوف إليها ، وسوى الانصراف إلى الأحقاد والحسد والغيرة المشقية وكل تلك المعاني الحقيرة النميمية التي تملأ أوقات الجاهلين وأفكارهم — وسوى الانقطاع إلى فن السائس للأزواج والأقارب والآخرين أيضاً — وسوى الذهاب مع الخيالات والخرافات بلا رجعة .

فإذا أردنا أن نعمل على تجنب المرأة هذه المهام إلى حد ما وبقدر ما يجب علينا تمكينها من الأخذ بأوفر نصيب من المعرفة بل يجب علينا دفعها إلى ذلك دفعاً ... فتعليمها إذن يقرها من الله ويجنبها معاصيه ، وجهلها ينأى بها ويطوح بها مع المالكين في كل واد من أودية الهلاك .

والمسألة الجنسية هي كسواها من المسائل التي يأتيها الإنسان والتي تتصل به ، يصلحها العلم ويفسدها الجهل . فما من غريزة ولا طبيعة ولا عمل يجعله المرء إلا وهو محتاج إلى العلم وإلى هيمنته عليه ليقه التخبط والزلل والخروج عن الطريق . وما من شيء

من ذلك ترك طبيعته بدون أن يراعى العلم وتحرسه المعرفة إلا كان ميئداً مدمراً ،
وما من شيء قام عليه هذا الحارس الأمين وحفره خفارة صحيحة إلا جاء أدنى إلى الاستقامة
والكمال وأبعد عن التهور والتهوك والضلال .

والناس كلهم — حتى العوام والهمج — إنما يتعايشون بالمعرفة والعلم والآداب
التي يتوارثونها جيلاً بعد جيل والتي يتلقونها بطرق التلقين المعروفة . أما لو تركوا
وزعاتهم دون أن يأخذوا عن البيئة وعن البيت وعن المدرسة علومها وأخلاقها وتقاليدها
وتربيتها وقوانينها القائمة على التعليم — سواء أكانت تعاليم صحيحة أم كانت باطلة —
لكانوا وحوشاً ضارية بل لكانوا شراً من الوحوش بأعمالهم وأحقادهم وغرائهم المتفجرة
بالجبروت ، ولما أمكن أن يتعايشوا تعايشاً يبقى على العمران ويرعى القوانين ، ولظلوا
كذلك إلى أن تنهض العقول من جديد فتضع التعاليم والقوانين والأخلاق والآداب
والتقاليد ... ولا ريب في أن الإنسانية لو تخلت عن هذا كله لكانت مضحكة في كل أعمالها
ولكان إماء الغريزة الجنسية عليها متحللاً من كل قيد أدبي أو خلقى ، ولا ترتفع هذا البرقع
الشفاف الذى يحلل هذه الميول والنزعات بشيء من الحياء والاعتدال والتصد .

فالعلم إذن هو المذهب المنظم لأعمال الإنسان وغرائزه ، وكلما عظم سلطان هذا
المذهب المنظم عظم التهذيب والتنظيم ، وكلما ضعف هذا ضعف ذلك . فالمرأة والرجل محتاجان
إلى العلم بكل ألوانه وضروبه لثلايضلا في متاهات الغرائز احتياجاً يجب ألا يكون فيه
خلاف إلا إذا صح أن يزعم أن هناك عملاً من أعمال الإنسان يصلح بدون العلم ويستغنى عنه .
والغرائز البشرية لا يصلحها الردع والكبت وإنما يصلحها التصريف والتنقيس .
وكل شيء يكون منطلقاً مندفعاً أمام طبيعته يراى وقفه بالضبط والردع دون التصريف
والتنقيس يحدث ضرراً محققاً . قف في وجه قذيفة منطلقة والنظر ماذا يكون ! أو حاول
أن تقيم حاجزاً في طريق ماء جار جارف لا ينقطع بدون أن توجد له منصرفاً آخر
وانظر ماذا يكون ! اقصد إلى غريزة جنسية ملتبهة مندفة إلى غايتها واعمل على منعها
بالضغط لا بالتوجيه والتوزيع والعلاج ثم اسأل علماء النفس ما الذى يمكن أن يكون !
إنهم ينبئونك أنه لا بد أن يحدث حينئذ إما أمراض جسمية أو أمراض عصبية أو نفسية
أو خلقية خبيثة ، أو غير ذلك من الأضرار المحققة .. فإذا كان الذين يأبون تعليم المرأة
إنما حملهم على هذا الإباء هو خشيتهم غوايتها وانطلاقها مع داعى الغرائز وتصريفها إياها

تصريفاً ضاراً سيئاً فليعلموا أنهم واهمون أكبر وهم ، وليعلموا ثانياً أن الخوف يجب أن يكون من الجهل والغباء اللذين يقضيان على المرء بأن ينطوى على نفسه وأن يعجز عن السير في غير سبيل النزعات البدائية الأولية المدمرة . فالعلم واتساع أفق المعرفة هو الكفيل بتنظيم هذه النزعات وتوجيهها الجهات الحسنة النافعة على حسب إرشاد علم النفس . وهو الكفيل بالتسامي بها واستخدامها في أحسن الأشياء وأجداها على الهيئة الاجتماعية .

من الضروري أن نسأل هؤلاء : ماهى وظيفة المرأة وما مكانها الطبيعي الذى يجب أن يضعها فيه استعدادها وأعمالها المطلوبة منها والذى تضعها فيه الشرائع ؟ أهى لا تعدو أن تكون أرض إخصاب وموضع بذر ثم لا شىء بعد ذلك ؟ أم إنها يجب أن تكون مخلوقاً مفكراً عاقلاً فاعلاً بالارادة والاختيار ؟ أما الاحتمال الأول فلا يمكن القول به ولا الذهاب إليه . وأما الثانى فهو الذى لا بد من المصير إليه . وإذا كان ذلك كذلك فهل من المستطاع أن تؤدى هذه الوظيفة وهى جاهلة ؟ قد يقال إن من الممكن أن يعهد إلى جاهل جهلاً مطلقاً بكل شىء باستنبات نباتات غريبة ويعهد إليه بزراعتها واختيار الأرض لها وحماتها من جميع الآفات ، ومقاومة هذه الآفات إذا نزلت بها ، والعلم بها إذا حدثت ، وتقديم ما ينزم لها من الماء ومن المقويات الخصبات ، وبالقيام عليها قياماً صحيحاً كفيلاً باستنباتها على أحسن وجه وأكمله — نعم قد يقول جاهل بإمكان هذا ولكن هذا الجاهل لا يمكنه أن يدعى أن من المستطاع أن تقوم امرأة جاهلة على تكوين أولادها قياماً صحيحاً كفيلاً بأن يكونوا كما يجب أو قريباً مما يجب . وذلك أن النبات إذا كان محتاجاً إلى رعاية شىء واحد فيه ، وهو الجانب المادى ، فإن الأطفال محتاجون إلى رعاية جوانب كثيرة فيهم أحدها الجانب المادى ، وهو أبدانهم وبنائهم وبنائهم قوياً وتكوينها تكويناً سليماً . وأبدان الأطفال تحتاج فى بنائها وتكوينها إلى أكثر جداً مما يحتاجه النبات لأنها معقدة أكثر منه ، ولأن هندستها أدق من هندسته ، ولأن فيها من العدد والآلات أعظم مما فيه . والفرق بينهما ليس أقل من الفرق بين بارجة حديثة وسفينة شراعية بدائية . هذا من الناحية المادية فقط وهى الأجسام — دع الأرواح والأخلاق والتقاليد والنزعات والعقول وكل ما يمتاز به الإنسان عن النباتات . فهل يقول إنسان إن المرأة الجاهلة تستطيع أن ترمى جانباً واحداً من هذه الجوانب رعاية صحيحة وأن تقوم عليه قياماً صحيحاً يقربه من النجاح وهل هناك جناية اجتماعية قانونية أكبر من أن يترك الأطفال ضحايا بريئة فى أيدي الجاهلات ؟

الأميات : يدمرن أجسامهم وأخلاقهم وعقولهم وكل شيء فيهم ، وينمين فيهم الميول الأولية والحرافات الموروثة عن عصور الإنسان الأولى الجاهلة ، ويبعثن فيهم الضعف والخور والأوهام والفساد الاعتقادي والعقلي العام ، ويصغهن بقواهن المعنوية والمادية المتتوية للشوشة ويخلقن في خيالاتهم العوالم والأشباح والأرواح التي لا وجود لها !!

ماذا تصنع هذه الجاهلة في حالة واحدة من حالات الحياة تواجهها وتفرض عليها حلها ومواجهتها فرضاً ! ليفكر هؤلاء في هذا تفكيراً عميقاً ولينظروا كيف يكون الجواب ! إننا نعتقد بحق أن الإسلام دين خالد عام ، فهل من الممكن أن يكون كذلك إذا كان يحرم تعليم المرأة ويقضى عليها بالجهالة الأبدية .

ونحن حينما نذكر العلم تزيد العلم الناضج لا الناقص ، فإن هذا العلم النصفى أو الجزئى قد يكون عاجزاً عن أن يوصل إلى الأغراض المنشودة من التعليم ، بل قد يكون صاحبه شراً من الجاهل أحياناً .

ولسنا بعد هذا في حاجة إلى التوكيد بأن كل الروايات الدائمة لنوع من أنواع العلم أو الناهية عنه روايات باطلة مكذوبة . فجميع الروايات الواردة في أول هذا البحث كذب ، ورواية النهى عن إزال النساء العرف وعن تعليمهن الكتابة هي رواية — على رغم تصحيح بعض الرواة لها — منكرة . وكذلك الرواية التي فيها إنكار على بن أبي طالب تعليمها الكتابة ، وكذلك جميع الروايات السابقة .

ولهؤلاء الناس الذين فرضوا علينا وفرضت علينا إمامتهم آراء عجيبة ، وفروق لا يؤيدها شيء من مراجع الحقيقة يذكرونها بين الرجل والمرأة : في التعليم وفي الكتابة وفي غيرها ، مثل ما ذكروه في البخل والشجاعة والعى والفصاحة . فقد زعموا أن الفصاحة والشجاعة والكرم صفات محمودة في الرجل مذمومة في المرأة ، وزعموا أن تقائضها محمودة في المرأة مذمومة في الرجل ! وهذا هراء كله . فإن المحمود في الرجل محمود في المرأة ، والمذموم فيها مذموم فيه . فهذه الأمور المذكورة هي محمودة في الرجل والمرأة معاً ، وتقائضها مذمومة فيهما .

وقد تصاغ هذه الحجة بالأسلوب الآتى : هل العلم خير وفضيلة ، أم شر ورذيلة ! فإن كان الحق هو الأول فلماذا يحرم على المرأة ، وإن كان الحق هو الثانى فلماذا يباح للرجل ؟ ولا جواب عن هذا .

وليس من شك في أن من يقدمون لأمتهم نساء جاهلات : بنات وأخوات وقريبات
ليسوا بأقل إثماً ممن يقدمون إليها الشرور والمفاسد الخلقية والجرائم الشرعية — كلا بل
إن الشرور والمفاسد والآثام هي بعض أفعال النساء الجاهلات .

وإننا نعلم أن الأجيال الآتية ستتعجب وتسخر منا إن قدر لها أن تقرأ أو تعلم
خلافنا في هذه المسألة ومحاولتنا التدليل على جواز أحد الجانبين منها ، والتدليل على بيان
فضيلة العلم وبيان جواز أخذه والاتصاف به ، وتقول : أفي مثل هذا يختلف المختلفون
ويتنازع المتنازعون ، ويحتاجون إلى حشد الحجج والبراهين !! ولكن لا تعب ولا لوم!
فلولا سير الماضين في طرقهم المظلمة أكثر الأحيان المضيئة أقلها — ولولا تعثرهم — ولولا
تنازعهم وخلافهم في ما هو من الضرورات المسلمة اليوم — بل ردهم وإنكارهم لذلك —
لما استطاع إنسان هذا العصر أن يسير في طريقه التي يسير فيها .

كراهة الحياة الدنيا : امتداح الجوع والفقر والمرصه

الدعابة الواسعة للزهدي المحرر ، هل جاء الدين لمحاربة العمراء ؟

اللهم من آمن بي وصدقني وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأقلل ماله وولده وحبب إليه لقاءك وعجل له القضاء ، ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطل عمره .

[زعموه حديثاً نبوياً صحيحاً]

نزل على جبريل بأحسن ما كان يأتيني صورة فقال إن السلام يقرئك السلام يا محمد ويقول إنى أوحيت إلى الدنيا أن تمررى وتنكدى وتضيقي وتشددى على أوليائى حتى يحبوا لقائى ... وتوسعى وتسهلى وتطيبى لأعدائى حتى يكرهوا لقائى فإنى جعلتها سجنأ لأوليائى وجنة لأعدائى .

[زعموه أيضاً حديثاً نبوياً]

جاء رجل فقال يا رسول الله إنى لأحبك ، فقال انظر ما تقول ! فقال والله إنى لأحبك ثلاث مرات ، فقال إن كنت تحبى فأعد للفقر تجفافاً فإن الفقر أسرع إلى من يحبى من السيل إلى منتهاه . وعن أنس قال جاء رجل إلى النبي فقال إنى أحبك فقال استعد للفاقة . وفي حديث آخر : اصبر أبا سعيد فإن الفقر إلى من يحبى منكم أسرع من السيل من أعلى الوادى ومن أعلى الجبل إلى أسفله .

[زعموها أحاديث نبوية]

كانت العرب فى جاهليتهم — ولا سيما قريش — تنظر إلى الحياة الدنيا بعين المشوق المتيم ، وكانوا يحبون المال حباً جماً وياً كلون التراث أكلالما ، كما أخبر القرآن عنهم ، وكانوا يحبون الطيبات ويستمتعون بكل ما استطاعوا الاستمتاع به منها ، وكانوا يفاخرون ويكاثرون بذلك ، كما كانوا يمتنون بالفقر والفاقة وكل ألوان الشقاء والعوز ويرونها من النقائص والعيوب والعجز كالبيخل والجبن وفقدان المروءة . ومن أمثالهم السائرة فى هذا (القبر ولا الفقر) . وكانوا من أجل هذه الروح المالية الدنيوية

الاستمتاعية تجاراً كلهم ، ولاسيما أشرفهم وساداتهم . وكانوا يعظمون من شأن التجارة كل التعظيم ويرون المهارة فيها والحذق والقدرة برهان الرجولة ودليل الشرف وعنوان السيادة . وفي دلائل النبوة : (كانت قريش قوماً تجاراً ومن لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيء) ، حتى لقد قيل إن كلمة قريش معناها التاجر .

ومن أعظم الدلائل على شأن التجارة عند قريش وشأن المال في أنفسهم أن أم المؤمنين خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله — وهي في مكان عظيم من الجسد وشرف البيت والأرومة في قومها — كانت في حياة أبيها خويلد تتاجر وتستأجر الرجال من قومها ليقوموا على تجارتها في الشام وغيرها . وكان قومها ينظرون إليها من أجل هذا نظرات الإعجاب والإجلال ، ويتمنى كثيرون من ساداتهم أن يظفروا بها زوجاً . وقد استأجرت محمداً عليه السلام وعمره خمس وعشرون سنة للخروج بتجاراتها قبل زواجه بها . فلما رأت ما رأت من نجاحه عليه السلام ، ورأت تضاعف أرباحه وأرباحها أحبته حباً شديداً ثم رغبت في الزواج منه . وقد سافر به عليه السلام — وهو غلام صغير — عمه أبو طالب إلى الشام ليرويه على أساليب التجارة ، وليجيب إليه الرحلات والأسفار في سبيلها ، وليربته على الكسب وعلى الاتجاه نحو الثراء .

ومن الدلائل على تمكن هذه الروح فيهم — أي روح الاحتيايل على الكسب والمال — أنه عليه السلام في طفولته قد أجر نفسه لقريش ليرعى لهم أعنامهم . حدث بهذا عن نفسه الزكية وقال : (ما من نبى إلا رعى الغنم) قالوا له وأنت يا رسول الله قال : (وأنا ، كنت أرها على قراريط لأهل مكة) .

وقد كان لأهل مكة رحلات سنوية إلى الشام واليمن وإلى جهات أخرى متاجرين مصدريين وموردين : كانوا يجمعون حاصلات بلاد العرب وتجاراتها فيحملونها إلى الشام والبلاد الأخرى فيبيعونها هناك ، راجحين أرباحاً طائلة مغرية ، ثم يرجعون بحاصلات الشام وبما في الشام من ألوان التجارات وألوان العروض المطلوبة في الحجاز وفي أنحاء البلاد العربية فيبيعونها على أهل الحجاز وعلى غيرهم من أهل الجزيرة ، ويخرجون بالأثمان الطيبة الكثيرة ... فكانت مكة بذلك محطة تجارية هائلة بالنسبة لذلك العهد ، وكانت ملتقى الصادرات والواردات من بلاد العرب وإليها . وكان لهذه الرحلات ولهذا التصدير والتوريد ولهذا الوضع شأن عظيم في نفوس القرشيين ونفوس العرب أجمعين ...

وكانت قريش ترى أن هذه الحالة إحدى فضائلها وخصائصها التي امتازت بها وفضلت بها من أجل البيت ومن أجل سداتها له .

ولا أدل على منزلة هذه الرحلات التجارية من أن الله أنزل في شأنها سورة كاملة تدعى سورة قريش وهي قوله تعالى «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» أي إن هذه الرحلات في الشتاء وفي الصيف من النعم العظمى التي تستوجب الشكر وتستوجب عبادة من وفق إليها ومن هياً الأسباب لها وهو رب هذا البيت الذي كان لوجوده في هذه البطحاء وفي هذا الوادي الأجرد الضيق فضل كبير ، بل الفضل كله في إتمام هذه التجارات وتنظيم تلك الرحلات . وقد أطعمهم بها من الجوع ، فكان الناس من حولهم يجوعون وهم آمنون من هذا المرض الاجتماعي الخيف لمكانتهم التجارية الممتازة ، وآمنهم من خوف الكساد وخوف الفقر والفاقة وسائر ألوان الخوف لأنهم كانوا أقوياء وأغنياء ، والأقوياء الأغنياء يكونون دائماً مرهوبين محروسين لأنهم يستطيعون بقوتهم المالية — والمال مصدر القوات — أن ينالوا ممن يحاولون الاعتداء والبغى عليهم . فكانوا في ضمان وأمان من هذه الناحية ... بل كان الناس في الجزيرة وغيرها ينظرون إليهم بأبصار ملأى بالاحترام والحب والعبطة الظاهرة ، وقد يشوب هذا شيء كثير من الحسد الذي ينشأ عادة من وجود الامتياز والتفوق في أحد الأمور . وقد عرضت هذه الحالة التي كان أهل مكة بها يتمتعون في قوله : « ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

ومما يشهد شهادة ظاهرة لحب القوم التجارة ما حكاه الله عنهم قاصاً موقفاً من مواقفهم الدالة على أنهم يذهبون كل مذهب في هذا الحب ، وذلك قوله تعالى من سورة الجمعة : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوا قائماً » وذلك أن الرسول عليه السلام كان يخطب أصحابه يوماً خطبة الجمعة فقدمت إلى المدينة قافلة تحمل تجارات مختلفة فعماموا بها فخرجوا إليها وتركوا الرسول يخطب ولم يبق معه إلا القليل ، وجاء في الرواية أن الذين بقوا معه كانوا اثني عشر رجلاً .

ولما أثبت الله في الكتاب على جماعة من المؤمنين أثني عليهم بأن التجارة والبيع لم يلهيهم عن الله وعن الصلاة فقال « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » . ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من الدلائل على حبهم البيع والتجارة والمال .

وقد كانوا يعتقدون — وهكذا يعتقد كل جماعة صبغت بالروح التجارية — أن الكسب والقدرة عليه والحظ فيه برهان النبوغ والعبقرية والذكاء والسيادة . وكانوا يرون ماحكي الله في كتابه عنهم « ولئن أذقناه رحمة من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي » وقال « ثم إذا حولناه نعمة من أوتيته على علم ... » إلى آيات أخرى في هذا المعنى ... يريدون بهذا أن الغنى إنما ينال الغنى بعلمه وذكائه واستحقاقه لصفاته الذاتية . وهذا غير ما يراه الكسالى والعاجزون من أن المسألة لاتعدو أن تكون حظوظاً عمياء . وما من عبارة تبلغ مبلغ هذه الآيات في مدح القادرين على الكسب وذم العاجزين عنه : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً . هل يستوون ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » . والله إنما يخاطب القوم ويحتج عليهم ويضرب لهم الأمثال بما استقر في نفوسهم وبما عرفوه وصدقوه .

وقد أراد الله أن يعدد منناً امتن بها على رسوله فعد منها مئة الغنى بعد الفقر كما عد مئة الهداية بعد الضلالة ومئة الإيواء بعد اليتيم والشتات فقال : « ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى . » فالامتنان بالغنى قرن بالامتنان بالهدى . وأى برهان يساوى هذا في أن العرب كانوا ينظرون إلى الغنى وتحصيل المال مثل ما ينظرون إلى سائر الكمالات كالصحة واليكرم والشجاعة والتبلى والمروءة والعلم وغيرها ، وأنهم كانوا ينظرون إلى الفقر مثل نظرهم إلى سائر العيوب والنقائص كالمرض والعجز والضعف والجبن والبخل والدناءة والجهالة والضلالة وسواها . ولا ريب في صدق هذه النظرات، فإن الغنى المكسوب يدل على صدق الذكاء وصدق الإرادة وصدق التصرف في الحياة وعلى النشاط والدأب وعلى حب الجمال . وهذه كلها كمالات إنسانية ... أما الفقر فإنه يدل على تقيض هذه السمائل : على العناء وضعف الإرادة والعجز عن التصرف وعلى الكسل والهوان والرضا بالتبجح ... وهذه جمعاء من شر الحلال . والثراء المكسوب مما يدخل تحت الطاقة الإنسانية بدليل أن من يعملون له بقوة وصدق وذكاء ينالونه . فمن عجز عنه ورضى بالفاقة واستسلم لها كان معنى هذا أنه قد فرط في استخدام قواه القادرة رغبة منه في الكسل وركوناً إلى الضعف . ومن كان كذلك كان حرياً بالملامة .

وقد كانوا يرون أن من الدلائل على قرب الإنسان من الله وجدارته بحمل رسالته

وكما في آيات أخرى معروفة . ومعنى هذا أن الحياة قد شغلت وجودهم كله وملأته
بأسباب طلبها .

وقد كان حب الجمال دائماً هو مبدأ حب الحياة — ومن الممكن أن يقال على نحو
آخر إن حب الحياة بداية حب الجمال — فأنت صادق إن قلت : أحب الجمال فأحب الحياة
أو قلت : أحب الحياة فأحب الجمال ... وقد بلغ العرب — أيام الجاهلية — في حب
الجمال مبلغاً جعلهم يكادون يصيرونه — أى الجمال — ويصيرون التغنى به موضوع شعرهم
وأدبهم وخيالهم المشبوب ومنطقهم الدفاق ... ونحن لو جمعنا كل ما خلفوه من شعر
وأدب وقصص ثم قسمناه أقساماً لوجدنا أن ما قالوه في الجمال وحده وفي أوصاف الجميل
الجسدية والروحية أضعاف ما قالوه في كل مواضيع الحياة الأخرى ... وقد كانت المرأة
عندهم — وهى كذلك عند الأمم كلها — محلى هذا الجمال ورمزه ومبعثه وصورته البارعة
الفاتنة ، فأكثروا من القول فيها وفي أوصافها وأوصاف أجزائها ، ولم يجدوا غضاضة
— لاسوقتهم ولا أشرافهم — فى ذلك ، بل لم يجدوا غضاضة فى أن يتقدم أحدهم ليمدح
ملكاً من الملوك فيبدأ مديحه بالمرأة وبجمالها ومحاسنها الظاهرة والباطنة ، بل اتفقوا
— المادح والممدوح — على أن ذلك هو ما يجب أن يصنع حتى قالوا فى هذا : « إذا
كان مدح فالنسب مقدم » . وقد أبدعوا كل الإبداع — أو أغرقوا أجمل الإغراق —
فى تحديد صفات الجميل المادية والمعنوية ، وأنجدهم فى إبداعهم وإعراقهم خيال وثاب ،
فسموا بالحب والمحبوب بل والمحبة سموها لا يزال حتى اليوم — وقد يبقى الأبد كله كذلك —
فوق المتناول . فألهموا خيال أمتهم ، وحلقوا بها فوق كل سماء وكل وجود ، وطافوا بها
فى عوالم كلها النور والبهجة والسرور . فكان هذا كله إعداداً لها لأن تثب وثبتها التاريخية
الكبرى ، يدفعها ذلك الخيال المشبوب المرهف ، وذلك التصور للجمال الذى أبدعوه
وابتدعوه . وشعر العرب خليق من أجل ما ذكر بأن يسمى شعر الجمال ... وقد ثبت
فى تاريخ كل الأمم التى أوجدت التاريخ أنها كانت تذهب هذا المذهب فى حب الجمال
وتصوره — على درجات متفاوتة — فالمصريون والهنود والإغريق والرومان والعرب
— وكذلك الغربيون اليوم — كانوا هكذا . وقد يدلنا على هذى الحقيقة ما تركته لنا هذه
الأمم من آثار وبنائيات ورسوم وتمائيل وأشعار وآداب — كما ثبت من جهة أخرى أن
الأمم التى لا تكون كذلك تعجز عن أن تبدع فى الحياة وعن أن توجد لها بين سطور
التاريخ حديثاً يقرأ فيشوق . ومن الواجب أن نعتقد أن الأمم أجمع إنما هى صنع خيالها ،

وأن خيالها إنما هو هبة رجالها الذين استطاعوا أن يسبقوها في التصور والتصوير وأن يحدوا لها على أنغام المثل العليا . فإن الأمة تتخيل فتفكر ثم تعمل .

ولكن كل أسلوب وكل كلام في محاولة التدليل على فضل المال وفضل القدرة على كسبه عند العرب لا يبلغ مبلغ هذين المثليين اللذين نثبتهما هنا : أحدهما ماجاء في حديث بدء الوحي ، وذلك أن الرسول عليه السلام لما أن تجلى له الملك أول ما تجلى وأمره بالقراءة ونزل عليه ببعض القرآن رجع إلى زوجته خديجة مدعوراً وهو يقول (زملوني زملوني) ثم قص عليها الخبر وقال لها (لقد خشيت على نفسي) فقالت له خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً — وفي رواية لا يخزئك الله أبداً — إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق . والمثل الثاني أن أذى المشركين حينما ألح على المسلمين خرج أبو بكر قاصداً المهجرة كما خرج غيره فلقبه أحد أشرف قريش وهو في طريقه مهاجراً ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي . فقال له ذلك الشريف المشرك : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج . إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق . فأنا لك جار .

والشاهد في الرويتين قوله (تكسب المعدوم) أى تكسب الشيء الذى لا يستطيع سواك أن يكسبه لبعده مناله ، ولأن كسبه يحتاج إلى وسائل قوية وأعمال بارعة حاذقة وأساليب هى القوة والمهارة ، وإلى نفس متوثبة طموح ... وهذا يساوى أن يقال (كلا والله لا يخزيك الله ، إنك لرجل تاجر ماهر) ، وأن يقال (إن مثلك لا يخرج ولا يخرج الناس لأنك رجل تفوق الرجال جميعاً في القدرة على كسب المال وعلى النجاح في التجارات) وهذا آية في أن قريشاً كانت ترى القدرة على كسب المال وعلى الثراء الممتاز من فضائل الرجال النادرة المعدودة .

وقد ألهمت هذه الروح عمرو بن العاص قولته المشهورة : (اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً) ذكرها عنه الجاحظ في كتاب البخلاء — وقد رويت حديثاً أيضاً . ويعنى بذلك أن الواجب على العاقل أن يدأب في طلب الدنيا دأب من يظن أنه لن يموت وأن حاجاته ومآربه لن تموت ولن تنتهى . ومعنى هذا بذل كل ما في طوق القوة العقلية والبدنية رجاء الظفر بأئمن ما في هذا الوجود من جمال . ومثل هذا القول لن يوجد

إلا لدى أمة استطاعت أن تفهم الحياة وأن تستمتع بها استمتاعاً بريئاً من العقد النفسية ومن العلل الاجتماعية ، ومن العقائد الصوفية الزهدية ... وقد تلفت المنافسة اليهودية العنيفة إلى هذا المجتمع الاقتصادي ، فلم تر لأقدامها هناك موضعاً ، فرجعت مشيحةً بوجهها تتلسس الأماكن الضعيفة في الجهة التجارية العالمية ، فوثبت على المدينة المنورة وعلى ماحولها من القرى والواحات ، فأنشأت لها ثمة مراكز عديدة حصينة لأن أهل المدينة كان وجههم واهتمامهم إلى الزراعة دون التجارة . أما مكة ، وقد كانت أعظم سوق تجارية في البلاد العربية كلها ، فقد كانت بمنجاة من هذا الحضم الشديد المنافسة القوى الضغط على من يحاول مجاراته ومناوئته . وهذا لأن القرشيين كانت لديهم حينذاك مناعة اقتصادية تفوقت على البراعة اليهودية . ومثل هذا يقل أن يوجد في شعب من الشعوب معها علاشأنه وسمت روحه المالية ، لأن اليهودى قد استطاع بمهارته وبأساليبه التجارية الرائعة الخفية المدارك والمسالك أن يهاجم المعقل الأوربية والأمريكية وأن ينال منها ما يريد — هجومياً ودفاعاً — وحسبك بالأوربي والأمريكي منافساً .

وقد يطيب للقارىء هنا أن يسأل : ما السر في تمتع قريش ومن معهم بهذه الروح الاقتصادية القوية ، وما العوامل الحقيقية العاملة على تنميتها وعلى حفظها من الانهيار والدمار وقد يطيب لنا نحن أن نحاول الجواب على هذا السؤال فنقول :

إن الشعوب والأمم لها دائماً حالتان : حالة طبيعية سليمة ، وحالة أخرى تتوابع وتتوافر عليها الأمراض الاجتماعية والنفسية والاعتقادية .. أما الشعوب والأمم التي تكون في الحالة الأولى ، أى الحالة الطبيعية فإنها تنظر إلى الحياة نظرات صحيحة سليمة وتتناولها تناولاً صحيحاً سليماً ، وتأخذ بها أخذاً صحيحاً سليماً ... وهذه النظرات والتناول والاستمتاع توجب أن تتناول الحياة بأجمل وأحسن صورها وبأبرع وأقوى احتمالاتها وتقبلاتها . لأن الحياة لها جوانب مريضة وجوانب أخرى سليمة — أى جوانب عادية طبيعية وجوانب أخرى تكيفها الأمراض والأسقام . والشعوب السليمة أو القرية من السلامة إنما تقبل من الحياة جانبها السليم ووجهها المشرق بالاسم . أما المريض فإنها ترفضه وتكرهه بقوة مزاجها وتفكيرها وصحتها لأنه غريب عن طبيعتها ... وأما الشعوب التي تكون في الحالة الثانية — أى حالة الاعتلال والانحلال — فإنها تحرم هذه النظرات الصحيحة للحياة وهذا التناول والاستمتاع الصحيحين السليمين ... وحينئذ تصوغ فلسفتها

النظرية والعملية أيضاً صياغة فاسدة ، فتهب تنشد الفقر والمرض والجوع والنذل والموت
الاجتماعى وكل ضروب الشقاء بكلامها وأعمالها ، كالذى حدث عند كثير من الأمم الشرقية
وعند المسلمين فى عصور انحلالهم .

وقد كان العرب — ولاسيا قريش — متمتعين بالحالة الأولى أو القريب منها —
وهذا مقصود به جانب التفكير والفهم للحياة لأن الجوانب الأخرى كانوا فيها كغيرهم
مرضى . والسبب فى تجماع العرب فى هذا الوجه من وجوه الحياة أن أسباب فساد النظر
إلى الوجود تتلخص فى أمور : منها الحرمان والفاقة الناشئة من فساد الحكم وظلمه وطمعانه .
ومنها الظلم الأدبى الذى ينصب على الشعوب بغزارة باسم الدين أو على حساب النظم
الاجتماعية أو التقاليد البالية الجائرة . ومنها الاضطرابات التصويرية التى تتولد فى العادة
عن حالات خاصة تصيب المجتمع المضطرب وتصيب أهله بألوان كثيرة من الشذوذ . ومنها
شيوع المذاهب الفلسفية والدينية المختلة . ومنها جور الطبيعة الجغرافية — أى بأن تكون
طبيعة البلاد غير مستقرة ولا ثابتة ولا مأمونة المفاجآت . فإن مثل هذه الطبيعة توحى
إلى أهلها بالكثير من الأفكار التى لا تكون فى العادة عادية ولا سليمة من ناحية التصور
والتصوير إلا إذا كان أهل مثل هذه الطبيعة قد اجتازوا جميع مراحل الطفولة الإنسانية
وبلغوا سن النضج والاستواء .. والكائنات الحية بل والجمادة هى بالاربع أبناء طبيعتها
والأبناء على رغم كل خلاف فى سنن الوراثة وقانونها لا بد من أن يأخذوا من آبائهم
شيئاً بل أشياء . ومنها غير ذلك مما يعميه الظلم أو فقد العلم ، مما يجعل النظر إلى الحياة
نظراً غير صحيح وغير سليم .

والعرب كانوا فى جاهليتهم وفى جزيرتهم بعيدين عن جميع هذه الأسباب ، فكانوا
ينظرون إلى الأشياء بعين الصحيح السوى فى تفكيره وعقيدته وجزيرته ، فكانوا
يستمتعون بها بكل الأساليب استمتاع من عداه المرض بكل أشكاله وصوره : بحياته وقواه .
هكذا كان العرب فى جزيرتهم وجاهليتهم بينما كان العالم كله شرقيه وغريبه تنوء
كواهله الواهنة المحطمة بالمذاهب الصوفية ، وبالآراء الباطلة الفلسفية ، وبالتقاليد والقوانين
المستبدية وبكل ما يوهى ويوهن . . . حالة لو أن أحد علماء النفس والاجتماع التفت إليها
بعين علمه لرأى العرب فى جزيرتهم بين الأمم يشبهون واحة خضبة خضراء ، وسط صحارى
لا حدود لها جذباء . وهذا كما لا يخفى إذا استطاع ألا يتخذعه المظاهر المزيفة ، ولا السمعة

القديمة المكذوبة ، ولا السلطان الواسع المهلهل ، ولا الضعف الجلل بالدعايات ، ولا غير ذلك
كما يصرف عن الحقائق .

كما يجب أن يلاحظ هنا — ولا أدري ألاحظه أحد أم لا — أن الأمم حول جزيرة
العرب كانت إذ ذاك تتلوى تحت أعباء الملكية المستبدة الطاغية التي كانت تأخذ كل شيء
من الشعب ثم لا تعطيه شيئاً . ولكن العرب قد استطاعوا بأخلاقهم العجيبة الأبية
وتربيتهم التي لم يمسهما النذل المعيت أن يرتفعوا فوق هذا النظام وأن ينجوا منه ويأبوه .
فلم تستطع الملكية — وكل الملكيات في تلك العهود ملكيات طغيان واستبداد — أن تجد
لها بينهم مكاناً . وقد عد المؤرخون الجاهلون الذين تولوا الكتابة والتأليف عن العرب
وأحوال العرب هذا من دلائل انحطاطهم وطبعهم على الفوضى وبغض النظام . غير أن علماء
النفس والاجتماع لا يشكون اليوم — لو سئلوا — في أنه من براهين سموهم وسمو تربيتهم
وتحليقتهم فوق ما يجلب الهون والاستعباد . وقد رأينا الأمم في العصر الحديث لما أن بلغت
الرشد الخلق والقانوني والاجتماعي — أو كادت — تعصف بتلك الملكيات الجائرة ، وتنطلق
بسرعة وشغف إلى النظام الجمهوري . ولم تبق من الملكيات إلا ما كان اسماً فقط ، وما مجرد
الملوك من الملك ، وما يسلمهم كل سلطة سوى سلطة الموافقة والتوقيع . وقد عد هذا من
حسنة العصر الحديث وفضائله وتسامي عقله . وقد أبى الرسول الكريم وخلفاؤه الأولون
أن يكونوا ملوكاً ، وما استطاع العرب أن يصبحوا ملوكاً حقيقيين إلا في دمشق وبغداد
والقاهرة وغيرها من العواصم خارج بلاد العرب . وقد أشار الله إلى هذه الفكرة بقوله :
« إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . وكذلك يفعلون »
فالملوك إذن كانوا يفسدون ، وكانوا يذلون الأعداء . وهذا ما ياباه العرب وما يرفضونه .
ومن هنا جانبوا النظام الملكي .

ومن رأى جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية ، ورأى
ترفعه على أخلاق الملوك وعلى كبريائهم ، وشاهد تواضعه وقربه من الشعب وقرب الشعب
منه علم كيف تنأى أخلاق العرب — جبلة وطبعاً — عن جبروت الملوك وعن مراسيمهم
التقليدية العقدة التي تزرع الأحقاد والعداوات في الصدور — وعلم أنها عند العرب إمامة
أصدق منها ملكية . وقد قيل إن بين العرب وبين الإنجليز توافقاً في الأخلاق ، ولو قيل
إن أظهر دليل على هذا هو نظام الملكية عند الأمتين وتجردها من الطغيان والاستبداد

واختصاصها بالحب المشترك المتبادل بين الشعب والملك ورفع التكلف ، لكان قولاً صادقاً .
ومن حضر مجلساً من مجالس جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود آمن بصدق هذا كله .

وليس بعث محمد صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية لمجرد الصدفة أو لمجرد الاختصاص أو حب الاختصاص الذي لا سبب له ، أو بمجرد القضاء والقدر اللذين يتصورهما العامة وأشباههم من الخاصة ، أو لنسب وانسجام بين القدرة الإلهية وبين هذه الجزيرة وأهلها . كلا لا شيء من ذلك . ولكنها الشمس إنما تشرق في مكانها وأوانها ، والنجوم إنما تدور في مداراتها وتطلع في أوقاتها . الله أعلم حيث يجعل رسالته . وهذه قضية في حكم البدهيات عند علماء الاجتماع لا يختلفون فيها وإنما يختلفون في أسبابها وعللها . ولو أن العرب لم يكونوا كذلك لما استطاعوا أن يحملوا هذه الرسالة ولا أن يقوموا بحققها لو أنها فرضت عليهم فرضاً .

والنهضات والقيادات الدينية تشبه من وجوه كثيرة النهضات والقيادات السياسية من حيث وجوب التهيؤ والاستعداد والصلاحية لها . ولن يبعث الله رسالته إلى أمة فاقدة لعناصر النهوض والاستعداد للنهوض بها ، كما أنه لن يسود شعباً على الشعوب وهو أقل منها علماً وعقلاً وأخلاقاً وصفات بل ولا وهو مثلها . بل لا بد من الامتياز ليكون سبباً للسيادة ومقتضياً للتفوق ... بل القيادة الدينية بمعناها الصحيح العام تنزّمها القيادة السياسية والإدارة العامة وكل ما هنالك ... وهذه الكفايات لا يمكن أن تهبط على الشعوب من السماء : فالسماء كما أنها لا تمطر ذهباً ولا فضة فإنها لا تمطر أيضاً سيادة ولا مجداً ... ولا يمكن أن توجد فيهم طفرة بدون أسباب وعلل ... كل هذا صحيح ولكن ما الذي حدث ؟

حدث أن أرسل الله إلى عبده ورسوله محمد عليه السلام في الأوان المهيأ المعلوم وعند استجاع الشروط ، يأمره بأن يبعث قومه العرب وبعث العالم معهم بعد أن علم أنهم قد تهيأوا لهذا البعث والانبعث . فوثبوا وثبتهم فدخلت الأمم والشعوب برمتها في دينهم ودولتهم ... ولكن من سوء حظ الإنسانية — والحظ مهما نطقه تقصد به غير الحظ عند العوام ونظرأهم — أن كل حادث مهما كان سعيداً لا بد أن يحمل معه نتائج ... هذه الحضارة والكشوف العلمية الحديثة وفوائدها تجل عن الإحصاء قد جرت معها نتائجها — أو على الأصح ما عد نتائجها — حملت معها هذا التدمير المروع وهذه

الحروب العلمية المهلكة ، وكذلك هذان البعث والانبعث العريبان قد حملهما تتأججهما
وذلك أن الشرق كان - وهو لا يزال كما كان - يتناقل تحت هياكل الأديان والمذاهب وتحت
بقاياها المحطمة - والأديان كلها كما هو معلوم كان مهبطها الشرق وحده . فهناك أديان
الهند والصين وسائر أجزاء الشرق الأقصى . وهذه الأديان والمذاهب كلها تقدر الأمم
والعذاب والحرمان والتجرد من اللذائذ المادية ، وتقدر الاستسلام والمسكنة والهوان
والذل وسائر هاتيك المعاني ، ذاكرة أن العناية بالروح والروحانيات هي السبيل إلى الكمال
وإلى السعادة الأبدية . وما فتئت الهند وسواها حتى اليوم تتمزق تحت سيطرة هذه
المذاهب وتئن تحت أثقالها ... وهناك بقايا الديانة المسيحية المحرفة الملققة وما تدعو إليه
من الرهبانية ومن الانقطاع والانفصال عن الدنيا ومن الحث لأتباعها وللمؤمنين بها على
أن يعملوا لأن تكون أموالهم وتجاراتهم ومنازلهم وأجران قبحهم وكل ما يطلبون في
السماء ، حيث لا سوس ولا لصوص ، على تعبير الإنجيل ، وحيث لا فساد ولا كساد - ثم
ما تنادى به من الخضوع للظالمين المعتدين وإعطائهم ما يريدون من ضرب الحدود والجلود
وأخذ الأردية والأزر ، وغير ذلك من فروض السخرة ، حتى إن من سخر للسير ميلا
وجب عليه أن يسير ميلين - كما تقول نصوص هذه الديانة .

ومن المعقول المفروض أن يكون كل هذا مما يدعو إليه هذا الدين ، لأنه نشأ في
كنف قسوة أعدائه الأقوياء على أيدي أهله وحوارييه الضعفاء . ولا بد من استسلام
الضعيف الآتي بالمبادئ الجديدة لمن يسوده ويحكمه ، ولا بد أن يحض الرؤساء من أهل
هذه المبادئ أتباعهم على الخنوع وأن يكون شعارهم : « أعطوا ما لقيصر لقيصر
وما لله لله » أي أعطوا إله الأرض كل ما يطلبه منكم كما تعطون إله السماء ذلك . ولو لم
يدعوا إلى ذلك لدمروا .

وهناك الديانة اليهودية والمجوسية وسواها من الديانات الفارسية - وهناك ديانة
الصابئة ... إلى أديان أخرى كثيرة يمجج بها الشرق إذ ذاك موجا ونبوء بأعبائها نوءا .

وكانت هذه الديانات والمذاهب تكاليف باهظة تدفع ثمنها رجولة هذا الشرق
وسعادته وقوته وحياته . وكانت الحالة الاجتماعية والقوانين الاجتماعية تعمل بدأب
وإخلاص على تنمية هذه الآراء والتعاليم عملاً حثيثاً متواصلاً . فالحكومات ورجال الدين
وغيرهم وما فرضوه وخلفوه ونشروه من يأس وقنوط وحرمان وإذلال وجهل وظلم

وأشياء أخرى كانت إحدى نتائجها فساد التصور وفساد الذوق وفساد الحكم على الأشياء .
بل كان إحدى نتائجها المرض الأدبي العام ... وكان كل ما يرى ويعلم هناك حينذاك
يوحى لهذا الفساد بالبقاء والاستمرار .

ولكن بينما كان كل شيء في هذا الشرق ، بل وفي الغرب ، كما ذكرنا وفوق ما صورنا
إذا بالخيول العربية تنساب في سهول هذا الشرق انسياب النور بعد ليل اشتد ظلامه
وطال مقامه . وإذا بهذه الشعوب والأمم تنفلت من تلك الأصفاد والأغلال أو على الأصح
تحاول أن تنفلت . ثم تعلن مختارة راضية دينوتها لدين العرب ودخولها في دولتهم . ولكن
كان ما ذا ؟ دخلت هذه الشعوب والأمم في الدولة العربية والديانة العربية والثقافة العربية
تحمل معها بقايا أصفادها وأغلالها وتصوفها وزهداها ورهانيتها واستسلامها وكل
ما كانت فيه . فوجدت العرب الأحرار — أبناء الحرية وأبناء الصحراء الحرة ، الحر
ما فيها — لا يعرفون سوى التساهل والإخلاص وسلامة الضمير وحسن الظن والسرور
بكل من يفد عليهم معلناً قبوله ما جاءوا به ... وهناك في تلك البيئة العربية الحرة
المتساهلة راح أبناء هذه الشعوب والأمم ينفثون تلك الآراء والعقائد والجرائم الاعتقادية
على حساب الإسلام وعلى أنها لباب الديانة الإسلامية — وراحوا يؤلفون ويقصون
ويعظون ويرشدون ويفسرون ويحدثون ويتصوفون ويزهدون ... فامتلاً الجو بالدخان
وغامت السماء الصافية الصحراوية ، واحتجبت بالغيوم التي يعطر الشقاء والعذاب ، وأخذ
يتلاشى ذلك النور المشرق من فوق جبال مكة وأخذ يخالطه الظلام ويغطي عليه ... فتمت
المصيبة وأطبق الظلام ثم رجعت هذه الشعوب إلى ما كانت عليه تتخبط في دياجيرها
وتهاوى في عذابها ، ولكنها هذه المرة راحت تتخبط ومعها قسم كبير من العرب أنفسهم
الذين رفعوا المشاعل ، فكان الخطب أفدح .

احترف هؤلاء الأبناء صناعة الدين والعلم ، وصار أكثر من يدعون العلماء
والشيوخ منهم . وأسباب هذا معقولة طبيعية . فعمدوا إلى القرآن والسنة وإلى مبادئ
الإسلام يحاولون فهمها أو يحاولون الكلام فيها ، وراحوا يفسرونها بالروح التي دخلوا
بها . وكانوا عاجزين عن أن يدركوا إدراكاً صحيحاً شرائع الإسلام وأوامره ونواهيها
ونصومه وأهدافه لأمر : منها أنهم كانوا لا يعرفون اللغة العربية معرفة صحيحة كاملة
لأنهم غرباء عنها ، ومن تعلمها منهم لم يستطع النفوذ إلى أسرارها نفوذ الخير . ومن جهل
اللغة جهل ما أنزل فيها بلاشك . ومنها أنهم دخلوا يحملون في نفوسهم وعقائدهم جرائم

ذلك المجتمع الفاسد الذي خرجوا منه : يحملون مبادئ خبيثة ورثوها عن عهود الاستبداد والحرمان والظلم ، وعن العبودية لغير الله ، وعن تلك الشياطين التي كانت تتلهب على ظهورهم ، وتنزع جلودهم ، وتعلو وجوههم ، وعن ذلك الكذب والدجل الكهنوتي ، وعن تلك العقدة والعلل النفسية التي ولدها ذلك الشر الشامل المستطير في تلك العهود وعن تلك النزغات الصوفية الزهدية المخدرة ... فكان من العسير أن يتخلصوا منها لمجرد أن أعلنوا الدخول في الديانة الجديدة ، وكان من العسير ألا تكون تلك البقايا والمخلفات مسيطرة على ما يكتبون ويقولون . بل كانوا يلفظونها زاعمين أنها الإسلام حاملين عليها مؤولين ما لا يمكن حمله عليها من نصوصه ، مختلفين الروايات والأحاديث والأقاصيص ليؤيدوا بها ذلك الباطل .

وقد حاول هؤلاء أن يتقربوا إلى أصحاب الدين الجديد وأن ينالوا رضاهم والخطوة لديهم ، فوجدوا بدون عناء كبير من التفكير أن أعظم وأضمن وسيلة إلى ذلك هو التدين والتظاهر بالدين والعكوف على التأليف والكتابة وعلى نشر الغرائب ونشر ما لم يسمع به أهل هذا الدين من أعاجيب الكلام في الزهد والرفائق وامتداح الآلام وصنوف العذاب بل وامتداح النذل والمهانة وضالة القدر وشمول الشأن ، بل وامتداح الأمراض والأسقام بل وامتداح الجهل والعباء ، بل وامتداح الجنون والعتة والحبل !!

وقد يذهب بعض الباحثين المفكرين إلى أن طوائف من أولئك الأبناء إنما حملهم على ما فعلوا وكتبوا وقالوا هو سوء القصد وإرادة الكيد لهذا الدين وأهله المنتصرين .. من الممكن أن يكون هذا المذهب والاحتمال صحيحاً في نفسه وأن يكون غير ذلك ، فهذا محل للخلاف . ولكن الذي لاخلاف فيه هو أنهم أضرقوا العالم الإسلامي بطوفان من الكتب والمقالات المخدرة المدمرة التي تدعو بلا حياء إلى كل هذه الآفات والتي تمتدحها وتدعوها أسمى ما في الأديان من مبادئ .

وإني أستطيع أن أقول هنا — ولست أشك في صدق ما أريد أن أقول — إننا لو حشدنا جميع المؤلفات التي تركها هؤلاء لنا ثم جهدنا على أن نخرج منها كتاباً واحداً أو رسالة واحدة لاتمدح الفقر والشقاء ولا تدم الحياة والجمال لأعوزنا هذا الكتاب ، ولما وجدنا تلك الرسالة .

وقد أطلوا الكلام جداً ولونوا الحجج والأساليب في الثناء على هذه الآفة ومشتقاتها

— أعنى الفقر — وقد ذكروا أن أعمال الخير كلها تنطوى تحت هذه اللفظة ، وأنه
أى الفقر هو كل شيء ! فحكوا عن البسطاى — أحد شيوخهم المعبودين — قال
أوقفنى الله بين يديه وقال لى : بم جئت يا أبا يزيد ؟ فقلت يارب جئتك بما ليس فى خزائنك
منه شيء ! فقال وما هو يا أبا يزيد ؟ قلت : الفقر والإفلاس ! فقال جئتنى بكل شيء !!
وقد زوروا هنا روايات لا يحصيها المحصون . والروايات التى ذكرت فى بداية هذا الفصل
هى نموذج صغير لما زوروا فى هذه المسألة . ومما ذكروا أن الرسول قال لبلال : (القى
الله فقيراً ولا تلقه غنياً وإلا فالنار) . وقيل يارسول الله أى أمتك شر ؟ قال (الأغنياء) .
وقال (لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا) . وحكوا أنه عليه السلام دعى مرة للصلاة على رجل
من أصحابه فقال (انظروا هل ترك وراءه شيئاً) فقالوا نعم ترك دينارين أو درهمين فقال
عليه السلام (كيتان فى النار أو جمرتان) . وقيل له فى رجل آخر إنه ترك ثلاثة دنائير
فقال عليه السلام (ثلاث كيات) وأنه قال (من ترك ديناراً فهو له كية) . وحكوا أن رجلاً
من أهل الصفة توفى فوجد فى مئزره دينار فقال عليه السلام (كية) ثم توفى آخر فوجد
أيضاً فى مئزره دينار فقال (كية) كما حكوا أنه عليه السلام أبى أن يصلى على من ترك
شيئاً . ورووا أنه قال : (إن الله إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه
الماء) . ورووا أنه قال (الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له) وأنه قال
(اللهم أحبنى مسكيناً وأمتى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين) . والمساكين هم الفقراء
البائسون اليأسون ، كما دلت موارد هذه الكلمة كلها فى القرآن . وأنه قال (الدنيا ملعونة
ملعون ما فيها) وقال (الدنيا جيفة وطلابها كلاب) ، (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح
بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء) وأنه قال مرة لأحد أصحابه (أما ترى أن تكون
لهم — يعنى الكفار — الدنيا ولنا الآخرة) فقال الصحابى بلى ، فقال (فإنه كذلك)
(ما ذئبان جائعان ضاريان أرسلا فى غنم بأسرع فساداً فيها من امرىء فى دينه يحب الشرف
والمال) . بل رووا أنه عليه السلام قال (المؤمن لا يخلو من ذلة وقلة وعلة) — ذكره
العجلونى وابن علان حديثاً ، وذكره الغزالى فى الإحياء على أنه من كلامه .

والروايات فى مدح الفقر والفاقة وذم الدنيا والغنى كثيرة جداً لا يخلو منها كتاب !
بل ادعى جماعات من هؤلاء أن غاية الدين وجملة أربع كلمات : إحداهما كلمة : (ازهد
فى الدنيا يحبك الله) ونظموا ذلك شعراً قائلين :

غاية الدين عندنا كلمات مسندات من قول خير البرية

ثم عدوا الكلمات الأربع وذكروا منها الزهد . ولهذا قال الشيخ الغزالي في كتابه
مكاشفة القلوب وفي غيره من كتبه : إن الأنبياء ما جاءوا إلا للدود الناس عن الدنيا !
ومثل قوله هذا قال سائرهم .

ومن السهل أن يأخذ القارئ ما شاء من الكتب ثم يفتحه ثم يقرأ الأبواب فسيجد
في كل كتاب من هذه الكتب قولهم مثلاً : (باب مدح الفقر) ، (باب مدح الفقراء) ،
(باب مدح الزهد) ، (باب مدح الزاهدين) ، (باب ذم الدنيا) ، (باب ذم أهل الدنيا)
(باب ذم الغنى) ، (باب ذم الأغنياء) ، (باب الترغيب في ترك الدنيا) ، (باب الترهيب
من الدنيا) ، (باب فضل الحاملين والساقطين) ... وحتى كتب الحديث الصحيحة تجد
فيها هذه الأبواب ولا تجد ما يخالفها . وهذا أمر قد وقع عليه إجماعهم .

وهذا الشيخ النووي ألف كتابه (رياض الصالحين) لهذا الغرض — أى غرض
الدود عن الدنيا والتفكير منها — وقد صدر الكتاب بأبيات من الشعر المبت جاء فيه :

إن لله رجلاً فظناً	طلقوا الدنيا وخافوا الفتناً
نظروا إليها فلما علموا	أنها ليست لحي سكيناً
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفناً

ولا يخفى على القارئ ما يرمي إليه هذا الشعر الذى بقى منذ قيل إلى اليوم أنشودة
النشدين ، وترنمة الواعظين ، وخرمة الشارين ! ولا يدري هؤلاء القائلون لئى هذا أن
الرجال الفظناء إذا طلقوا الدنيا تزوجها بعدهم الأشرار والأغنياء فكما بها عليهم وعلى
فطانتهم وقادوا العالم — وفيه هؤلاء الفظناء — إلى ما يريدون ويحبون ، وأنهم إذا
ما طلقوها فقد هلكوا ولا بد .

وقد وجدنا كتباً كاملة قد وضعت لهذه الأغراض ، فوجدنا ابن أبى الدنيا
— وهو أحد الحادين بالفقراء — يؤلف كتاباً يسميه — من غير أن يشعر أنه أخطأ
أو أنه يمكن أن يعد مخطئاً — (ذم الدنيا) ! ووجدنا كتباً كثيرة تسمى كتب الزهد .
وهذا كله معلوم لافائدة من الإطناب فيه .

ومما لانزال نذكره بكثير من الألم والأسف أننا قرأنا في كتاب قيم لإمام من أئمة
الإسلام الأعلام أجلنا عن ذكر اسمه فى هذا المقام قال فيه : سئل أحد أئمة التابعين
— وهو الحسن البصرى — عن رجلين : أحدهما عمل فى الدنيا بقصد أن يصيب منها

ليصرف ما يصيب في مصارف البر ووجوه الخير وفي الطاعات وضروب الإحسان ... فأصاب منها ما أصاب فوضع كل ما أصاب كما أمر الله أن يوضع بإخلاص وصدق نية ... هذا رجل ، ورجل آخر أعرض عن الدنيا إعراضاً كاملاً ، فلم يعمل فيها شيئاً وأصبح كلاً على المجتمع ... أى الرجلين أفضل ! فقال : بعيد والله ما بينهما : بينهما كما بين المشرق والمغرب — الذى ترك الدنيا أفضل ! وقد ثقل هذه الرواية والحكاية والفتوى الغزالي في إحيائه مسروراً بها .

الغزالي

ولما أن كان رأى هؤلاء الشيوخ هو ذم الدنيا بكل وجوهها وفروضها ، وذم كل الأغنياء : من كانوا وكيف كانوا ! فقد ارتكبوا إثمًا عظيمًا هنا لما قيل لهم : إن كثيرين من الصحابة كانوا أغنياء وأنهم لم يحاولوا أن يطلقوا الدنيا — أمثال عبد الرحمن ابن عوف والزيير وطلحة بن عبيد الله وآخرين كثيرين — فقد ذهبوا يخلقون روايات في ذم هؤلاء الصحابة الأغنياء ! وثلبهم ! وقد ذكر بعض هذه الروايات الحارث بن أسد المحاسبي والشيخ الغزالي وصاحب مجمع الزوائد وسواهم .

ولقد تطورت هذه الأعراض الجنونية عند هؤلاء تطوراً مخيفاً ، فذهبوا — مدفوعين أمام هذه الأعراض والأمراض — كل مذهب في طرق السخف والعمية : فلم يقفوا عند مدح الفقر والفاقة بل تجاوزوا ذلك وقاموا يمدحون الأمراض والأستقام ! وقد جدوا أبلغ الجذ في خلق الروايات ونسبتها إلى من جاء لشفاء الإنسانية من جميع أمراضها ! ومن أفصح ما رويها هنا ما نقله الغزالي في الإحياء وما نقله غيره أيضاً ، قال : جاءت امرأة إلى الرسول فقالت : يا رسول الله إن عندي فتاة جميلة أحببت أن أهديتها لك زوجة ، فقال (قبلتها) ثم قالت يا رسول الله إلا أنها لم تمرض فقال عليه السلام (إذن لا حاجة لي بها !) وذكر أيضاً أن رجلاً بايع رسول الله على الإسلام ثم قال إني لم أشك ولم أدر ما الشك فأشار إليه رسول الله قائلاً : (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فليتنظر إلى هذا) ! وحكى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها ! وذكر الروايتين الأوليين صاحب (مجمع الزوائد) في كتاب الجنائز ... وذكر روايات كثيرة جاء فيها أن الرسول دعا الله بأن يخص أصحابه والمؤمنين به بالحلمى وسائر العلل وأن يهلكهم بالظن والطعن ! وأنه سأل الله أن ينقل الحلمى من أماكنها البعيدة والقريبة وأن

يجمعها على أصحابه المخلصين في المدينة ... وروايات أخرى في إمساك الحمى في المدينة وإرسال الطاعون إلى الشام ! ومن المصائب أنهم صححوا هذه الروايات ولم يشكوا في أنها من كلام محمد عليه السلام .

ولكن كل هذا لا يبلغ في الشناعة مبلغ ما رواه الطبراني عن أنس بن مالك قال لقد رأيت أصحاب النبي عليه السلام حوله يتباكون يريدون أن تذهب أبصارهم وأن يصبخوا عمياناً ! وأى قوم هؤلاء الذين يكون لأن الله خلقهم مبصرين ولم يخلقهم عمياناً ! .. ! وقد ساقوا أكاذيب متعددة جاء فيها أن الطاعون لما وقع في الشام أخذ كبار أصحاب الرسول يسألون الله أن يصيهم به ! وأن من أصيب به منهم خفق قلبه سروراً .

وإن أعظم برهان نضعه في يد القارئ على أن الجنون قد بلغ بهؤلاء الشيوخ كل مبلغ أن تذكر أن الشيخ الأسيوطي ألف كتاباً عنوانه هكذا (كشف العمى في فضائل الحمى) وأن الشيخ ابن حجر العسقلاني - وهو من الحفاظ المشهورين - وضع كتاباً أسماه (بذل الماعون في فضل الطاعون) ، وللسيوطي كتاب آخر اسمه (الخبر الموثق في فضل البرغوث) ولمؤلف آخر كتاب اسمه (الطرثوث في فضل البرغوث) . وقد أكثروا جداً من الروايات التي قيل فيها إن المؤمنين والأتقياء الصالحين ينجسهم الله بالأمراض والمصائب وأنه على قدر إيمان المرء ودينه يكون بلاؤه وعذابه ، وأن من يرد الله به خيراً يصبه ويصب منه ! والروايات في هذا مشهورة يلوكها كل لسان وتكذب فوق جميع المنابر . وهذه الروايات على قسمين : قسم صحيح ولكن معناه غير ما ذهبوا إليه ، بل المراد منه أن الذين يقومون بوظيفة الإصلاح الكبرى محاولين هداية الناس وإتقاذهم من الفساد والجهل والظلم والضلال الذي لا يخلو منه جيل من الأجيال لا بد أن يشقوا وأن ينصبوا وأن يبتلوا ... لأن الهمم الكبيرة والنفوس التواقفة إلى الإصلاح تشقى ، ولأن الناس يتألبون عادة على من يريدون إخراجهم مما ألفوا واعتقدوا ... وقسم آخر منها غير صحيح . وعند هؤلاء القتلة أن الفقر الذي مدحوه هو الفقر في كل شيء . ومن ثمة جاءوا بأحاديث وروايات تنعى نهياً عاماً شاملاً عن العمران وعن البناء وتأمر بهدم كل ما بنى معها كانت الأغراض والمقاصد ! وقد سدوا إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام طعنة نجلاء يوم تقلوا أن رسول الله خرج ذات يوم فرأى بناء مشرفاً فقال (ما هذا؟) فقيل هذا بناء لرجل من الأنصار ، فسكت وحملها في نفسه حتى جاء صاحب البناء فسلم عليه فأعرض عنه ولم يرد عليه السلام ، صنع ذلك مراراً حتى عرف الغضب في وجهه والإعراض عنه !

فشكا ذلك إلى أصحابه فقالوا له إن رسول الله خرج فرأى بناءك... فرجع الرجل إلى بنايته فهدمه وسواه بالأرض ثم خرج رسول الله فلم ير البناء فسأل عنه فأخبر أن صاحبه هدمه فقال (إن كل بناء وبال على صاحبه) ورووا أن رسول الله رأى عبد الله بن عمرو يصلح كوخاً قد وهى فقال (إن الأمر أسرع من ذلك) — يعني بهذا أن الدنيا أقصر عمراً وأقل شأناً من أن يحاول العاقل إصلاح شيء فيها... ورووا أنه عليه السلام قال (يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب والبناء فلا خير فيه) ! وأنه قال (إذا أراد الله بعبد شراً حسن له البناء) ! وفي حديث آخر : (إذا أراد الله بعبد سوءاً أنفق ماله في البنيان) ! وتقولوا أنه عليه السلام قال : (من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة على عنقه) . ورووا أن العباس بن عبد المطلب بنى غرفة فقال له النبي (اهدمها) فقال العباس أهدمها أو أبيعها وأتصدق بشئها؟ فقال (بل اهدمها) ! وأنه عليه السلام نهى إطلاقاً عن البناء . ورووا أنه قال : (إذا بنى الرجل المسلم سبعة أذرع ناداه مناد من السماء : أين تذهب يا أفسق الفاسقين) ! ورووا في روايات كثيرة أن البناء إحدى أمارات الفساد والنسوق والهلاك . وحكوا عند تفسير قول الله « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسامون في غوطة دمشق من البنيان ونصب الأشجار قام في مسجدهم خطيباً ونادى : يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه ! فحمد الله ثم قال : ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون ، وتبتون ما لا تسكنون ، وتأمون ما لا تدركون ! إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطلبون... فأصبح أممهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ! ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين ! ورووا عن عبد الله بن عمر أنه قال — شاكرًا الله على ما فعل — : والله ما وضعت لينة على لينة ولا غرست نخلة منذ قبض النبي .

ثم لم يتصرفوا عند هذا بل ذهبوا بعيداً فادعوا أنه عليه السلام قال — وهذه إحدى الطامات — : (إنما بعثت بخراب العالم ولم أبعث بعمارته) ! نقله صاحب مجمع الزوائد من رواية الطبراني .. هذا بعض ما رووا من الأحاديث والروايات في النهي عن العمران والبناء .

ثم حاولوا أن يتناولوا جانباً آخر من جوانب الحياة بالتدمير والمهدم ، فراحوا كالمجانين ينقلون روايات في النهي عن الزراعة وفي ذم الزارعين : فنقلوا أنه عليه السلام

قال : (ما من أهل بيت يعدو عليهم فدان — أى ثور الزراعة أو آلة الزراعة — إلا ذلوا) وأنه رأى يوماً آلة الزراعة أمام بيت رجل من الأنصار فأشار إليها وقال : (إن هذه لا تدخل بيتاً إلا أدخل الله فيه الذل إلى يوم القيامة) كما ذكروا أنه عليه السلام نهى عن المزارعة وعن كراء الأرض ، وأن جماعة من الصحابة كانوا يكرون أرضهم فتركوا إكراءها من أجل هذا الحديث تاركها بوراً — إلى روايات كثيرة .

ثم أخذت هذه الأمراض أشكالا أخرى حينما قاموا ينقلون لنا روايات وأخباراً وآراء في مدح القذاررة ووساخة المظهر وفي ذم النظافة ومحبي النظافة ! من ذلك أنهم نقلوا في شمائل مصلح الإنسانية الأكبر عليه السلام أن ثوبه كان كأنه ثوب زيات ، وأنه قال : (إن العى والبذاعة من الإيمان !) والبذاعة هى قذاررة المظهر وسوء الحال . ونقلوا أنه عليه السلام علم أصحابه أن ييصبوا وأن يخرجوا ما فى أنوفهم وأن يضعوه فى أكمامهم وأرديتهم ! وحكى الغزالي فى إحيائه — أو على الأصح فى إيمانه — أن المسلم إذا كان ممن يميلون إلى النظافة فى البدن والثوب رباه شيخه ، وأن أحسن ضروب التربية لمثل هذا أن يئزم بكسح المجرى والاتصال بالقاذورات ليعتاد اتساخ المظهر فلا يعنى بنظافة بدنه وثوبه ... وما من شىء يذكر فى هذا يمكن أن يكون برهانا على عظم إساءة هؤلاء إلى الإسلام مثل ما نقلوا عن الحسن بن على أنه أصاب لقمة فى مجرى الغائط والبول فأخذها وغسلها ثم دفعها إلى غلامه فلما توضعاً قال للغلام : ناولنى اللقمة ، فقال الغلام أكلتها ، فقال اذهب فأنت حر لوجه الله ! فقال الغلام يا مولاي لأى شىء أعتقتنى ؟ قال لأنى سمعت فاطمة بنت رسول الله تذكر عن أبيها أنه قال : (من أخذ لقمة أو كسرة من مجرى الغائط والبول فغسلها ثم أكلها لم تستقر فى بطنه حتى يغفر له) ! فما كنت لأستخدم رجلا من أهل الجنة ! قال الحافظ الهيثمى : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات ... وذكروا أنه عليه السلام ذكر مرة حوضه ومن يرد عليه أول الناس فقام عمر بن الخطاب وقال يا رسول الله من هم ؟ قال : (هم الشعث الرؤوس ، الدنس الثياب ، الذين لا ينكحون المنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد) قال فقال عمر بن عبد العزيز أنا والله قد نكحت المتنعمة فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى السدد ! لا جرم والله لا أدهن رأسى حتى يشعث ولا أغسل ثوبى الذى يلى جلدى حتى يتسخ .

ومما يقرب من هذا ، وإن كان ليس منه ، ما ذكره فقهاء الشافعية قالوا : إذا وجد جماعة من المسلمين ماء لا يكفيهم للوضوء لزمهم أن يبولوا فيه ثم يتوضأوا منه ! وذكر صاحب القاموس في مادة (قمل) قال : خذ قملة رأس ثم ضعها في ثقبه فولة ثم أعطها المريض يشف . 'جرب' هذا !!! ويذكر داود الأنطاكي في تذكروته الشهيرة أشياء كثيرة من هذا ! وكثيراً ما يوصى بأكل القمل والحشرات وهي حية .

هذه نماذج قليلة صغيرة لما يرويه هؤلاء ولما يروونه من سوء الحال ومن الشقاء الذي كان عليه رسول الله وأصحابه على حسب زعمهم ، مما يجب أن يدعى إليه المؤمنون بالرسالة الحمديّة ، وأن يلزموه وأن يأخذوا به ليكونوا مؤمنين حقاً .
وجملة هذه الآراء أن المطلوب من المسلم أن يموت أنواع الموت كلها بكل معانيه ومظاهره وغرائزه ولذاته ليحيا في الآخرة ! وأنه بقدر موته في الحياة تكون حياته في الآخرة ، وبقدر حياته في الدنيا يكون موته في الآخرة ! وقد صرحوا بهذا تصريحاً ونظموه شعراً فقالوا — ولهم الويل : —

موت النفوس حياتها من شاء أن يحيا يموت

فالواجب على المسلم عند هؤلاء الهدامين المخربين أن يموت في مظهره وفي ملبسه وفي بطنه وفي صحته وفي ماله وفي صناعته وزراعته وتجارته وفي كل أعماله وأموره وإلا فلن يكون مسلماً حقاً ولا مقتدياً بالرسول وبالسلف الصالحين الأولين الزاهدين !
وقد بالغوا جداً في وصف الرسول ومن معه بالفاقة والشقاء والفقر وبموت الشهوات والغرائز الدافعة إلى العمل ، المتدفقة بالابتكار ، المنشطة المبدعة والجوع وبسوء المظهر والحال وشظف العيش ! وبالغوا في وصف تطلّبهم هذه الأشياء قصداً وعملهم على أن يتصفوا بها عمداً ، حتى صار فقر الرسول ومن معه مضرب الأمثال على كل لسان . فالخطباء والواعظون والصوفية وسائر أصناف المتكلمين والمؤلفين بل والعامّة والشعراء يضربون الأمثال إذا شاءوا أن يحيئوا بأبلغها وأعظمها بفقر محمد عليه السلام وبفقر من معه من الصحابة وققر من كان قبله من الأنبياء والمرسلين ، حتى جرى على السنة العامة والنساء : (الفقر على باب النبي) ! وراح أحد الشعراء وهو البحترى يصف فقر نفسه وشقاءها ذاهباً كل مذهب في المبالغة فقال :

فقر كفقّر الأنبياء وغربة وصباة ؛ ليس البلاء بواحد

وليس القارىء فى حاجة إلى أن نؤكد له بأن هذا كله كذب وجهل وخلاف للواقع ، وأنه من الهون والهوان بالإسلام والمسلمين أن يحكى هذا على أنه من الشريعة المحمدية ... ولسنا هنا بصد من هذا وإنما غرضنا أن نذكر الأسباب والعوامل الهدامة الحقيقية التى تألبت على هذه الديانة وعلى الدائنين بها كل هذه الأحقاب الطوال فأورثتهم هذا الجلود الذى تحتاج إزالته عنهم أو — إزالتهم هم عنه — إلى زلازل عنيفة وهزات متوالية متواصلة ، بل إلى من ينفخ فى الصور حتى يزلزل مضاجعهم .

إن الفقر والمرض والجهل هى أعداء الإنسان منذ وجد ، وستبقى كذلك ما بقى . وقد وجد هذا المثلث مع وجوده ، وجبا معه فى جميع مراحل تاريخه ولم يفارقه فى طور واحد من أطوار حياته . فقد لزمه حينما كان يهيم فى الغابات ويأوى إلى المغارات قبل أن يعرف المساكن والبيوت ، وحينما ترقى إلى سكنى النقر فى الصخور ثم بعد أن عرف الأكواخ ، ثم لزمه بعد أن سكن القصور وشاد العارات وناطحات السحاب ... وقد عرف الإنسان منذ عرف الحياة هذا المثلث ، وعرف شدة فتكه وما يصبه عليه من الخراب والشقاء والدمار . وقد علم وهو فى بداية تاريخه أن من الواجب عليه أن يقاوم هذا العدو وأن يوائمه ، وعلم أن مقاومته مما يقع فى الإمكان وحدود القدرة . فهب لهذه المقاومة منذ عشرات الآلاف من السنين التى لا يدرى عددها على وجه الضبط اليوم أحد من البشر فبذل من المقاومة والمناهضة ما لا تتصوره عقولنا . وإن كل ما تتمتع به فى عصرنا هذا من ثمرات الحضارة وخيرات المدنية إنما هو نهاية كل تلك الجهود التى بذلت وأنقذت لمحاربة هذا العدو اللدود ... وإن تلك الجهود لتسر وإنها لتحزن ! أما أنها تسر فلائها قد توجت بنصر الإنسان أو بما يقرب من النصر ، إذ قفزت به إلى هذه المدنية وإلى هذه الحياة الصحيحة أو التى تقرب من الصحة ، ومكنت من اجتناء هذه الثمرات . ولولاها لما فعل ولما كاد ... وأما أنها تحزن فلأن الإنسان قد لقي فى هذا الجهاد من الآلام والعذاب ما لم يلقه وما لا يمكن أن يلقاه فى شىء آخر .

ولولا محاولات الإنسان المتواصلة الحرب من الفقر ومن جميع أعراضه ونتائجه لما استطاع أن يحسن الصناعة والزراعة حتى تصبحا بهذا الشكل الرائع المبدع الذى نشهده — بل لما عرفهما ولما فكر فيهما ، ولما وجد ما يدفعه إلى هذه المعرفة وإلى هذا

التفكير ... ولولا محاولاته الفرار من الأمراض ومن بلاياها ورزاياها لما اهتدى إلى هذه الكشوف والمخترعات الطبية التي تعد من أكبر النعم التي أفيضت على الإنسانية ... ولولا هذا وهذا لما استطاع أن يرتفع على الجهالة التي كانت تعمره من كل جانب ، والتي كانت تقف له في كل مرصد ، والتي كانت تملأ عليه الفجاج بالظلام وتسد كل طريقه بالآلام .

ولو أننا فكرنا في كل حادثة من حوادث هذا الوجود الصغيرة والكبيرة ، وفكرنا في أسبابها وعللها القريبية والبعيدة ، الظاهرة والباطنة ، لما أمكن أن نتخرج عن أن تكون أحد هؤلاء الثلاثة أو أن تكونها جميعاً .

إن أعظم حادث يشغل الإنسان اليوم ، وشغله قبل اليوم ، وسوف يشغله ما بعد اليوم وسوف يبقى ماثلاً لجوانحه بالرعب والفرع والاشمزاز هو الحرب ! ولو أننا تلمسنا أسبابها من قرب ومن بعد ، وعملنا على حصرها وإحصائها ، وحرصنا على أن نجد هذه الأسباب أو بعض هذه الأسباب في غير الفقر والمرض والجهل لما وجدناها ولما أمكن أن نجدها... ولو أننا بحثنا كل مشكلة من مشاكل هذه الحياة ومشاكل هذا الإنسان وجهدنا أن نعرف كيف نشأت وكيف يمكن أن تعالج وأن تحل لعاد بنا البحث إلى هذا المثلث ولقال لنا : هنا الداء ، وهنا يجب أن تلتمس أسباب الشفاء .

لنسأل الآحاد والجماعات والأمم والأفراد : ما الذي تشكون ، وما الذي تريدون ، أو ماذا ينقصكم وماذا تحبون أن يرد إليكم ؟ إنهم حينئذ لن يذكروا لنا إذا حاولوا أن يجيبوا عن أسئلتنا هذه سوى المرض والفقر والجهل — إما بالنص وإما بالمعنى .

إن أصوات البشر المتحضرين لتنتطلق اليوم من كل مكان وبكل لسان ، منادية مبشرة بأن مواهبهم كلها وأعمالهم أجمع ستعبأ وستحشد للقضاء على هذه الشرور الثلاثة ، وأنهم سيقضون عليها أو يخففون من فعاليتها وويلاتها ما أمكن التخفيف . وقد علقوا سعادة الإنسان كلها — كما تعلق الإنسان — بهذا الفوز ... وهم لا يرون أن هنالك خيراً يمكن أن يفعل ، ولا شراً يمكن أن يقاوم أفضل من إعلان الحرب الشعواء العامة الحاشدة المطلقة على هذا المثلث ... وقد بشروا بعد الحرب الماضية ، وهم يبشرون اليوم بعد هذه الحرب بما سيقومون به في هذا السبيل وبما سيلقون من النجاح والظفر .

هذه كلها حقائق لا يسمو إلى جوها غبار من الشك ، بل هي حقائق عرفها الإنسان يوم أن كانت معارفه ضئيلة تافهة ، وعمل على قدر تلك المعارف التافهة الضئيلة .

بل هذه المعارف هي الإنسان ، أوهى الفارق بينه وبين مادونه من الكائنات الحية الأخرى .
 على أن هذا ليس على إطلاقه ، فإن أحياء أخرى هي دون الإنسان ومع هذا أدركت
 بمداركها الصغيرة أو بغرائزها الفطرية أن هذه الأعداء الثلاثة — التي هي أعداء الإنسان
 حقاً — هي أعداؤها أيضاً الفاتكة بها المذبذبة لها . فراحت بمقدرتها القليلة واستعدادها
 النزر تحاول الخلاص والفرار منها . وإن فصائل كثيرة من فصائل الحيوان لتعلم أو لتدرك
 أو لتشعر مافي المرض والفقر والجهل من عذاب وما في الخلاص منهما من سعادة !
 وإن تصرفها كله وحياتها كلها المقودة بالغرائز أو بالإلهام قائمة على مكافئتها لها ومجانبتها
 إياها ! بل إن الكائنات الميكروسكوبية لتدرك ذلك — أو على الأصح تتصرف وتحمي
 تصرف وحياة من يدركه .

وإذن فهؤلاء الذين نشروا في العالم الإسلامي ، والذين ما زالوا ينشرون ، أن الفقر
 والمرض — بل والجهل كما سبق — فضيلة من الفضائل وعبادة يطلب رضا الله بها قوم
 أقل ما يجب أن يقال فيهم أنهم أعظم من قطعوا الطريق على الإنسانية وانهم أفتك أعدائها
 وخصومها وجلاديتها . وإن الواجب أن ننظر إليهم على هذا الاعتبار وأن نحاسبهم على
 أنهم كذلك .

إن الحضارة التي يفخر بها الإنسان ، والتراث الذي ورثه عن أسلافه منذ الإنسان
 الأول حتى الإنسان الآخر لا تخرج في مجموعها عن هذا النضال الطويل القاسي الذي
 صرف في مكافحة هذا المثلث ومكافحة هذه الولايات والشروور التي قام هؤلاء الناس يؤلفون
 الكتب والمقالات ، ويزورون الخطب في امتداحها ونشر فضائلها وتبيان مافيها من القربى
 إلى الله والإزلاف لديه ... فما أعظم خطرهم وأقبح أثرهم !

لما أراد القدماء من الفلاسفة أن يعرفوا كيف نشأ هذا العالم بنظامه العجيب المبدع
 استلهموا خيالهم وعقولهم وذكاهم ومعارفهم طويلاً جداً ثم خرجوا بنتيجة رأوها صحيحة
 قيمة — هذه النتيجة هي أنهم زعموا أن العالم إنما نشأ وإنما ينشأ بدافع من العشق والغرام ا
 فقد اعتقدوا أن كل حركة في هذا الوجود سببها العشق : فالأفلاك السيارة إنما تسير بعامل
 من هذا العشق — وهكذا كل تحرك وكل سير وكل تفاعل ... وقد قسموا الوجود
 إلى عاشق ومعشوق ، فالعاشق إنما يتحرك ويسير ويتفاعل تشبهاً بالمعشوق وشوقاً إليه —
 إلى فلسفة لهم طويلاً لا طائل اليوم تحتها .

ولكن غرضهم من هذا هو تليل حدوث الحوادث ووجود الأشياء بعضها من بعض وتوالدها . وهذا لأنهم يعلمون — كما يعلم جميع العقلاء — أن كل حادث أو كل حدوث أو كل فعل وحركة لا بد له من هدف ومن دافع ، وإلا فإن الأشياء لا تحدث بدون أهداف وغايات ... لماذا تتحرك الشمس والقمر والنجوم وكل ما يرى متحركاً — ولماذا لا تبقى ساكنة بدون سير وحركة ودوران إذا لم يكن لها غاية وفائدة في سيرها وحركتها ودورانها ، فإن السير والحركة والدوران أعمال تنفق وطاقات تصرف وأعمال تؤدي ! وهل يمكن أن تبذل الجهود وتؤدي الأعمال وتبذل الطاقات بدون ثمن وبدون ربح يفيد الباذل المؤدى ؟ وهذا كله على حسب رأى القدماء .

والذى نريد أن نستفيد من هذه الفلسفة القديمة هو الإشارة إلى أن من الثابت المركز في جميع الأذهان والعقول أن الأهداف والغايات والآمال هى التى تحمل على العمل وعلى السير والحركة والدوران فى هذه الحياة . ومن فقدوا هذه الأهداف والآمال والغايات فليس من الممكن أن يكون لهم فى وجودهم اضطراب ولا حركة ولا عمل يمكن أن يحدث فى الحياة حدثاً باقياً أو حدثاً جليلاً — وكذلك من صغرت وضوّلت آمالهم وغاياتهم ... والذين ينتظر منهم ولم أن يؤدوا الأعمال الكبيرة الخالدة وأن يتكروا ويتدعوا ، وأن يتقدموا بالحياة وأهلها وبالوجود ومن فيه ، وأن يحرصوا على السير والدوران هم أصحاب الغايات والأهداف السامية العظيمة التى لا تعترف بالحدود ولا بالقيود — هم أولئك الذين ينشدون دائماً الكمال ويرون أن الكمال أمر يطلب ولكنه لا يبلغ ، إذ يعلمون أنه مامن كمال إلا وبعده كمال . فهم يطلبون أبداً الكمال فى كل شئ ؛ فى الثراء وفى الجاه ، فى العلم ، فى الصناعة ، فى الزراعة ، فى التجارة ، فى الصحة ، فى الجمال ، فى الحب ، فى القوة ، فى كل شئ يتناولونه .

وليس من الممكن أن يكون إنسان أكبر من أهدافه وآماله ولا أن تكون أمة من الأمم فوق أهدافها وآمالها . فإن من غير المعقول أن تكون أهداف المرء صغيرة ثم هو يكون كبيراً عظيماً ، أو أن تكون أهداف الأمة صغيرة تافهة ثم تصبح هذه الأمة كبيرة عظيمة ، بل لا بد أن يكون الإنسان — فرداً أو جماعة أو شعباً — إما دون أمله وغاياته ، وإما أن يكون مثلها وعلى قدرها . . . وهذا يكاد يكون نادراً أو مستحيلاً .

والأمة التى تنهض إنما تنهض لأن آمالها نهضت ، والتى تهبط وتبقى فى الرغام والتراب إنما كانت كذلك لأن آمالها لم تسم على التراب والرغام ... فالذين يدخلون فى هذه الحياة

وهم لا يقبلون لهم أهدافاً سوى الثراء المطلق أو الكمال المطلق أو الجمال المطلق ، قد يبلغون يوماً ما أهدافهم لأنهم يعملون لها لا محالة إن لم يقف في طريق العمل ما لا يمكن غلبه ، ولا شيء يغلب التصميم غالباً مطلقاً .

أما أولئك الذين لا يريدون من الحياة سوى الفقر والبؤس والضراعة والجوع والمرض وكل هاتيك النقائص فلن يرتجى لهم سواها لأنهم لن يطلبوا سواها .

ونحن لو نظرنا إلى الأفراد والجماعات وجدنا الفرق بين فرد وفرد ، وبين جماعة وجماعة هو الفرق بين هدف هذا وهدف هذا ، وبين أهداف هذه وأهداف تلك ، ووجدنا أن الأفراد الذين يسمون وينبغون ، والأمم التي تسمو وتنبع وتسود هم أفراد وأم عظمت آمالهم وغاياتهم ، وأن الأفراد والأمم التي تذلل وتهون هم أفراد وأم لاغايات ولا آمال لهم . فالآمال الكبيرة هي التي تقتحم بأصحابها الأهوال وتهون عليهم أشق الأعمال ، بل تهبهم اللذة والسرور في تناولهم الأعمال الشاقة وفي اقتحامهم المخاطر ، لأن الأمل الباسم الحار ينسى كل ألم وكل تعب ... أما الآمال الصغيرة الفقيرة فإنه ليس فيها القوة الدافعة ولا الروح الملهمة ، ولا الحرارة الملهبة ، ولا الإشعاع المضئ للطريق ، ولا الوقود اللازم للطيران أو الدوران أو للاستمرار في العمل الكبير .

فالذين يرون أن أقصى ما يبلغون هو الفقر والجوع والمرض والعري والزهد واجتتاب كل طيب وكل عظيم والازورار عن كل جمال وجميل — الذين يبلغون القناعة المطلقة — الشقاء المادى العام المطلق — الذين يبلغون ما يذكره هؤلاء الهدامون المدمرون — لا يمكن أن يكونوا أكثر ولا أكبر مما كانوا ، ولا يمكن أن يكونوا سوى هذه القطعان الآدمية التي تساس بما زعمت أنه هدفها وغايتها من الحياة — أى تساس بالفقر والجوع والمرض والجهل وكل النقائص الاجتماعية ثم لا تزداد على هذه السياسة إلا تمسكاً بأهدافها ولصوقاً بغاياتها وإيماناً بشعارها ، رافعة أيديها وأبصارها إلى السماء قائلة : (اللهم زد وبارك) مادة أعناقها النخيلة المعروقة إلى الدين يسوسونها هذه السياسة قائلة : شكراً لكم أيها السادة فإنكم أتمم الدين تبلغوننا درجات القرب والرضوان ، لما نلقى لديكم من الشقاء والحزمان !

إن أساس كل كمال ونهوض وخير في هذا الوجود هو حب الجمال — ونعني بالجمال الجمال في كل شيء . فإن الثراء جمال ، والقوة جمال ، والحب جمال ، والصناعة والزراعة

والتجارة وإتقان ذلك جمال ، وإن حسن المظهر والرواء ونخامة المسكن — وإن الشرف والجاه والعلم والجهارة : كل ذلك جمال ، وإن أصداده كلها قبح ودمامة . لأن الجمال — مهاختلف الناس في تحديده وتعريفه — لا يخرج عن أن يكون تناسق الطبيعة وانسجامها وتكافؤها — ولأن الدمامة والقباحة لا تخرج عن أن تكون تنافر الطبيعة وتناكرها وتباينها .

فمن الأمور الأساسية لخير الإنسان وسعادته وشحن مواهبه وبعث استعداداته ، ليأتي بأفضل ما أودع الله فيه من كمال كامل — هو تحبيب الجمال إليه ، بل جعل الجمال ، جزءاً منه ، بل جعله هو الحياة ، ثم صياغة التربية في المنزل وفي المدرسة وفي الشارع وفي كل ميادين البيئة بهذا التحبيب وبهذا الجمال ... ويجب أن يعلم بأن قبح الفقر أو قبح الضعف أو قبح الخمول لا يقل عن قبح الآفات البدنية المنكرة — بل لا يقل عن قبح الأخلاق الفاسدة المنبوذة في المجتمع ، والتي يعاقب عليها القانون ، وأن يعلم أن جمال الثراء والسيادة وغيرها لا يقل عن جمال المروءة والشجاعة والصدق وسائر تلك الفضائل — ولا نقول : لا يقل عن جمال الخلق والوجه ... وإنما إذا فكرنا جيداً وعلماً لماذا كانت هذه الأخلاق — كالكذب والجبن والدناءة والسرقة والقحة وسواها — تقائص وجرائم وقبائح ، ثم علماً الأسباب التي كانت بها كذلك علماً بلاشك أن هذه الدمامات الاجتماعية — تقصد الفقر والجوع والضعف والمرض وكل ما مدح هؤلاء المادحون — هي كذلك تقائص وجرائم وقبائح ، وأن مادحها لا يقل خطأ وفساداً في ذوقه عن مادح هذه الجرائم الاجتماعية والتقائص الخلقية ... ويجب ألا نجد فرقاً بين مادح الفقر وبين مادح الكذب — لا ، بل يجب أن نجد فرقاً ، وهو أن مادح الفقر أشد جرمًا وأعظم عمية لأن الكذب أحد نتائج الفقر أحياناً كثيرة !

إن الإنسانية لاتزال مثقلة بكثير من أعباء القرون الماضية وجهالات الوجود القديم الأول ، ولا تزال مصفدة مغللة بما صنع الجهل والضلال من أصفاد وأغلال . وإن الواجب علينا باعتبارنا بعض البشرية أن نتعاون على تحطيم هذه الأصفاد والأغلال .

من الأحاديث الطيبة الجميلة في هذا الباب أن رجلاً سأل النبي الكريم قال : إن أحدنا يجب أن يكون ثوبه أجمل من ثوب أخيه ونعله أجمل من نعل أخيه هل في هذا بأس أو كبر ؟ فقال عليه السلام : (إن الله جميل يحب الجمال) . كلمة تقوم على معناها

الحضارة الإنسانية كلها ، بل التاريخ الإنساني أجمع ، بل الوجود كله ... إن جميع ما كتبه علماء الاجتماع والفلسفة وغيرهم في تجميل الحياة وتجميل العمل وتجميل كل ما يتناوله الإنسان لا يبلغ مبلغ هذا الحديث في القوة وفي الحث والتحريض ... لماذا خلق الله الشمس والقمر والنجوم وسائر المجموعات الشمسية ، ما يرى منها بالعين المجردة وما لا يرى منها إلا بالآلات الدقيقة المقرية ، وما لا يرى منها البتة — لماذا خلق الله هذه كلها جميلة بارعة الجمال — ولماذا خلق الليل الجميل ، والنهار الجميل ، والألوان الجميلة ، والأصوات الجميلة ، والمناظر الجميلة ، والإنسان الجميل ، والحيوان الجميل ، وكل هذا الوجود الجميل ؟ خلقه كذلك لأنه يحب الجمال . ولماذا يحب الجمال ؟ محبه لأنه تعالى جميل والجميل يحب أن يكون كل شيء جميلاً — لأنه تعالى جميل في حكمته وفي حكمه وفي تدييره وفي قضائه وقدره وفي ذاته وفي كل صفاته ... فهذا الكون الجميل له مصدران في وجوده وفي وجوده جميلاً . أحدهما كون خالقه جميلاً ، وثانيهما أنه يحب الجمال لكونه جميلاً . فالذى يحب الجمال جميل ، والجميل يحب الجمال — كالتان وجملتان صحيحتان . ثم حذار من الاعتراض بأن تقول : إن القبيح قد يحب الجمال كما أن الجميل قد يكره الجمال ... فإن هذا الاعتراض غير وارد . وذلك أن القبيح الذى يحب الجمال هو جميل في ناحية ذوقه التى بها أدرك الجمال والتى بها أحب الجمال . والجميل الذى يكره الجمال هو قبيح في ذوقه الذى لم يدرك الجمال ولم يحبه . لأن نواحي الحسن والجمال ونواحي القبح متعددة كثيرة . فالذى يكون جميلاً في جميع نواحيه لا بد أن يحب الجمال ، والذى يكره الجمال لا يمكن أن يكون جميلاً في كل معانيه . فالقضية صحيحة صادقة . فالجمال والحب هما مصدر كل خير وكل فضيلة وكل نبوغ وعبقريّة ، وكل هناءة في الحياة ... فأساس النهضات كلها ، وأساس التقدم كله ، وأساس المدنية بكل صورها وحقائقها ، وأساس الكشوف والمخترعات هو جمال الأهداف والأغراض ثم حب هذه الأهداف والأغراض الجميلة حباً دفع إلى الإقدام والتضحية بل إلى الشعور باللذة والسرور في هذا الإقدام وهذى التضحية .

وليعلم أن الجمال المذكور هنا هو الجمال المادى . وذلك لأنه ذكر في جواب السؤال عن جمال النعل والثوب . فالله يحب جمال الثراء وجمال البيت وجمال الملبس وجمال الظاهر والباطن وجمال الصناعة والزراعة وجمال الحياة وجمال كل شيء ... والله يحب من عبده أن يحبوا هذا الجمال الذى يحب وأن يكرهوا ضده ، وهو القبح في كل لون من ألوان حياتهم ووجودهم .

ولهذا الحديث رواية أخرى ولفظها ! (إن الله كريم يحب الكرم ، جميل يحب الجمال ، نظيف يحب النظافة) . وكلمة النظافة تحمل كل معاني الرخاء وهناءة العيش ، فليس الفقر نظيفاً ولا نظافة ، وليس الجوع ولا الجائع نظيفاً ولا نظافة ، وليس شيء من صور الشقاء وعلامات الفاقة بالنظيف ولا بالنظافة ... فالنظافة التي يحبها الله كما أخبر على لسان نبيه لا تخرج بكل تفاسيرها عن الكمال المطلق — أى الكمال فى الماديات وفى المعنويات — والكمال هو بلوغ ذروة الشيء أو مقاربتها أو الحصول على أحسن فروضه ومعانيه . فلا تعد الحياة الإنسانية نظيفة وهى تتلوى تحت ضربات الفقر والجوع والمسكنة والعوز والمرض والارتباكات المادية ... ولا تعد نظيفة وهى عاجزة عن بلوغ حاجاتها الضرورية — بله الكمالية . فتكاد كلمة النظافة تكون مرادفة من حيث المعنى العام لكلمة الجمال وإن كان يبدو فى الظاهر أن بينهما فرقاً كبيراً .

ومن الروايات الجميلة أيضاً الدالة على مقدار فهم نبى الإنسانية الأكبر للحياة ولقيمة الحياة ، وعلى ذهابه فيها مذهب السمو والتسامى الذى لاحد له ولا غاية ينتهى عندها قوله عليه السلام : (إن الله يحب معالى الأمور وأشرفها ، ويكره سفاسفها) ... ولو أن أمة من الأمم التى تعبد الحياة والتى تريد أن تنتزع منها أفضل مافى طاقتها وأجمل مافى إمكانها عهدت إلى جميع فلاسفتها وشعرائها بأن يضعوا لها أجمل العبارات وأقواها على ترغيب أفرادها وجماعاتها فى الحياة وحثهم على أن يخرجوا منها بأكبر نصيب ويأخذوا منها أعظم مقدار ممكن لما استطاعوا أن يحيثوا بأعظم ولا أجمل من هذه الألفاظ الصغيرة الكبيرة . وفى حديث آخر : (إن الله يكره البؤس والتباؤس) . والبؤس والتباؤس معروفان . أعادنا الله منهما ومن دعا إليهما ... فالبؤس إذن مكروه ، والتباؤس — وهو إظهار البؤس والتخلق به وتكلفه — مكروه أيضاً ، فالمظهر والحقيقة مكروهان . فقد يكون الرجل بائساً فى نفس الأمر ثم قد يتظاهر ببؤسه وقد يخفيه ، وقد يكون متبائساً وهو فى نفس الأمر بائس أو وهو غير بائس . والرجلان يكرههما الله ويمقتهما .

وإن من استطاع أن يدرس سيرة النبى الكريم وحياته وشريعته دراسة نافذة ليستطيع أن يدرك بسهولة ويسر أنه كان قد بلغ فى إدراك الجمال وتصوره — أى جمال الحياة كلها — وفى الإيمان به مبلغاً قد يكون هو آخر ما تصل إليه الإنسانية يوم تبلغ رشدها ويوم تنجاب عنها كل هذه الغوايات والعيات التى تنقلت معها منذ وجودها حتى

يومنا هذا . وقد كان عليه السلام مثالا أعلى لجمال الرجولة ، فكان قوياً جداً حتى إن أعظم وأقوى رجل عرفته العرب — ويسمى ركانة — صارعه فصرعه النبي مرات فتعجب الناس بل تعجب ركانة نفسه ، ثم آمن به خضوعاً لقواه الجسدية والعلمية ... وقد عرضت لأصحابه يوم الخندق صخرة كبيرة شديدة فعمجزوا عن زحزحتها وعن تحطيمها فشكوها إليه عليه السلام فأخذ المعول فصر بها به فعدت كثيراً مهيلاً .

وكل الذين وصفوه وصفوه بالقوة وسلامة التكوين . والرسالة التي أداها ، والأعمال التي نهض بها وأنجزها دالة قطعاً على ذلك . فإن الأعمال الجسيمة لا يستطيع أن ينهض بها نهوضاً كافياً إلا من كمل خلقه واشتد بناؤه وعظمت قوته .

وكان رائع المنظر جميل الطلعة ، وكان كل عضو من أعضائه قد سوى تسوية لا يقال معها : ليته كان كذا أو كذا . وما من إنسان وقع بصره عليه إلا هابه وأعظمه وراعه خلقه . وكان منظره من الشفاء له وللإيمان به . ومن النادر جداً — ويمكن أن يقال : ومن المستحيل جداً — أن تؤمن الأمم والجمهير لزعامته من نقص خلقه أو شاه تركيبه ... ولو لم يأتنا نقل واحد في أوصافه لما كان لنا بد من الحكم له عليه السلام بالقوة وبالجمال والكمال ، لعلمنا أنه قد قام بهذه الرسالة وقاد تلك القيادة — لعلمنا بأن مثل هذه الرسالة وتلك القيادة لا يمكن أن يقدر على حملها إلا من كان قد أخذ من الأوصاف الكاملة من الناحيتين المادية والمعنوية ما شاء . فلسنا محتاجين لمعرفة ما قلنا عنه وعن حقيقته إلى الأخبار التي يختلف الرواة في نقلها وفي ألفاظها وصحتها .

وكان أيضاً لا يحب من الحياة إلا الجميل ولا يقبل إلا الجميل : فكان يحب الأصوات المنعمة اللحنة الجميلة ويمقت ما عداها ، فكان يحب التغنى بالقرآن ويأمر به أمراً شديداً ملازماً ويقول (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) ويقول : (ما سمع الله لشيء مثل سماعه لنبي يتغن بالقرآن) ويقول : (زينوا أصواتكم بالقرآن) ، وسمع أحد أصحابه يقرأ بصوت جميل فوقف يستمع إليه . وقد أثنى عليه .

وكان يستحسن الاسم الحسن وينكر الاسم المنكر ويغيره ويحب أن يسمع الكلمة الجميلة المتفائلة المشجعة والحاملة على التفاؤل . وقد أنزل الله عليه الأمر بغض الصوت وبإنكار الصوت الأجش القبيح الذي لا فن فيه ولا تزيين ولا مقاطع مخبراً أن أنكر الأصوات هي أصوات الحمير .

وكان يرضى جداً الطيب ويحبه أشد الحب وينفق عليه الشيء الكثير ويأمر الناس به وبأن يحبوه ويقبلوه ، بل لقد أوجبه عليهم إيجاباً أسبوعياً وأمرهم أن يصيبوا منه كل يوم جمعة . وكان لا يمر بمكان إلا عرف أنه مر لما ينفخ منه من الطيب . وكان يحب المنظر الحسن ويستعبد من كآبة المنظر كما يستعبد من الكفر والضلال والشرور .

ومن قدر له أن يطلع على أوصافه لنعيم الجنة وعلى ما فيها من جمال لم تره العيون ولم تسمع به الآذان ولم يخطر على القلوب ثم استمع إلى هذه الأوصاف التي أنزلها الله عليه في كتابه علم حقاً كيف كان يسمو في فهم الجمال سمواً يعجز عنه وعن لحاقه أروع خيال وأجمل تصور ... وقد رووا عنه هنا أنه عليه السلام قال (التمسوا الخير عند صباح الوجوه — أو عند حسان الوجوه) . وهذا الحديث روى من طرق كثيرة عن جماعة ذوى عدد من الصحابة . وقد تكلم الرواة فيه كلاماً كثيراً وصححه بعضهم وألف أحدهم فيه رسالة سماها (تحسين الطرق والوجوه ، في قوله اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه) . وكان أيضاً يحب من الطعومات ما مذاقه حسن وما عاقبته كذلك . فيحب اللحم واللبن والعسل والحلوى والطيور والفاكهة والبر والماء البارد النقي — أى يحب أطيب الطيبات — ويبغض ما خلا ذلك مما لا يحسن عاقبة أو مذاقاً أو قيمة .

وكان يحب الممس الناعم فيثني على حرير الجنة وعلى لينة وحسنه . فكان لا يقبل لحاسة من حواسه إلا الجميل الحسن ، إذن لأنه كان سليم الحواس قوبها صحيحها . ومن أوصافه التي حكها القرآن قوله « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » . والطيبات لا تخرج عن أن تكون كل ما طاب مذاقاً وعاقبة من المأكولات والمشروبات والمسموعات وجميع المحسوسات على اختلاف ألوانها ... والخبائث هي المستكرهات من ذلك . أما الإصر والأغلال التي كان عليه السلام يضعها عن أتباعه والمؤمنين به فهي تلك القيود الجهنمية التي تفرض الحرمان الأدبي والمادى على الرقاب والألباب ! ولا يمكن أن يتصور الإنسان اليوم إنسانية أرقى وأفضل من هذه الإنسانية التي وضع محمد عليه السلام حدودها وآساسها وفتح لها طريقها . وهذا كله — وسواه كثير — يدل دلالة قاطعة على أنه قد سما في إدراك الجمال وتصوره سمواً هو آخر ما ستبلغه الإنسانية .

ويشهد لنهايه في حب الجمال مذهب الكمال أنه كان دائماً يحتضن الطبيعة ويحنو

عليها ويعمل على اجتلائها وعلى الخلو بها ! ها ، إنني أراه الآن عليه السلام متسللاً من مخدعه نصف الليل أو بعده قليلاً أو قبله قليلاً بعد أن عقد الكرى على الأجنان ... وها هو ذا خارج من حجرته برفق وهون خشية أن يوقظ أهله . وها هو ذا مسرع إلى الخروج من المدينة تاركاً وراءه المباني والبيوت ، ميمم البقيع أو غيره ... ثم ها هو ذا شاخص يبصره النافذ إلى السماء الصافية وإلى ما انتظم على صفحتها من نجوم متلائية تبعث الهدوء والإشراق إلى العقل وإلى القلب ... إنه واقف في الظلام الرائع . إن النسيم اللطيف الخفيف لير على وجهه المشرق بالأمل والجمال فيلامسه ملامسة خفيفة فيخفق قلبه بالسرور والرضا وبالأمل الوضاء ... إنه في الصحراء ... إنه يناجي السكون والظلام والنسيم والسماء ... إنه يخاطب ما حوله بلغة هي فوق الحروف والألفاظ . إنها لغة تموت عندها الألفاظ والحروف . إنه يرى كل شيء جميلاً لأنه هو جميل . إنه يدرك من جمال ذلك بقدر جمال نفسه ومزاجه . إنه لا يرى هناك قبيحاً لأن نفسه ليس فيها قبيح ، والمرء إنما يرى الأشياء بنفسه وطبعه ، فيكن جميلاً تر الوجود جميلاً . إنه يرى في الكواكب فوقه الإشراق والارتفاع والنظام والدوام فتتملىء نفسه الكبيرة بهذه المعاني ويذهب تصوره لها إلى أن رسالته يجب أن تشرق إشراقها وترتفع ارتفاعها وتدوم دوامها وتنتظم انتظامها ! إنه يغمره من هذا الإشراق والارتفاع والانتظام والدوام ما يرفع عن نفسه الحدود والقيود والعوائق والموانع ... إنه يقفل من هذا المشهد الرائع معتقداً أنه لاشيء يستطيع أن يقف في طريق الجمال الذي تزود به مما شهد ورأى والذي قفل به عن أن يتم وعن أن يأخذ طريقه إلى الوجود ... إنه رأى قرأً واحداً وسع نوره الكون ، وشهد سماء واحدة قد أظلت الوجود ، وإنه الآن ليرى قلباً واحداً يستطيع أن يتسع للوجود وأن يملأه ضياءً وحرارة . إنه يشاهد إنساناً واحداً يقدر أن يحمل هذا القلب .

ها هو ذا قافل ، وها هو ذا يدخل المدينة يشرق عليها لتشرق هي على الدنيا ... إنه لا يستطيع فراق الطبيعة لأنه لا يستطيع فراق الجمال .. إن كل شيء فيها يروعه جمالا ، إن الليل والنهار والظلام والضياء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والكسوف والحسوف والرعد والبرق والغيمة والصحو والرياح والنسائم والجبال والسهول والأنهار والغدران وكل النباتات والحيوانات وكل ساكن ومتحرك ؛ إن كل شيء من هذا ليأخذ بلبه ويبصره ويلهمه الجمال ... لقد وسعت روحه الوجود كله ، وإن دعوته مستنعة للانسانية كلها لأنها جمعت فضائل الانسانية كلها .

لقد بدأ رسالته بالحلوة بالطبيعة وبمناجاتها فوق غار حراء ، وختمها بمناجاتها أيضاً وهو في حجر عائشة بينما كان يجود بأنفاسه ! فلقد كان في تلك الساعة شاخصاً يبصره إلى السماء لا يحوله عنها هول ولا أهل ويقول : (اللهم في الرفيق الأعلى) . إنه لم ير في الموت ذلك الشيء المرعب المفرق بين الأحياء المهدم لذات ! وإنما رآه رحلة سماوية ينتهي منها إلى عالم كله النور والجمال . إنه كما كان إمام النبيين فلقد كان أيضاً إمام الدالين على جمال الطبيعة المستمتعين به ، وإنه كما كان أعظم من نبهوا إلى جمال ما هو فوق المادة ووراء المادة فلقد كان أيضاً أعظم من نبهوا إلى جمال المادة وعظمة المادة ... ولا بد أن يكون القرآن النازل عليه عليه السلام في تسبيح الجمادات والأشياء كلها وفي سجودها وعبادتها لله دالاً على بلوغه الغاية في تصور جمال هذا الوجود وحب هذه الطبيعة وإدراك ما فيها من محاسن ووجوه مشرقة باسمته .

إن القلب والعقل أبدأً متصاحبان متلازمان : فصاحب العقل الكبير لا بد أن يكون قلبه كبيراً ، وذو القلب الصغير لا محالة من أن يكون عقله كذلك صغيراً ... لقد ثبت أن عظماء الرجال قاطبة كانوا يمتازون أبدأً بحواس صادقة قوية وعواطف نادرة تدرك من الجمال ما لا يدركه الآخرون العاديون ، وتذوق في إدراكها ما لا يدونون . وثبت أنهم كانوا جميعاً فوق الناس في عواطفهم كما كانوا فوقهم فيما فاقوهم به . إن رسالة كل إنسان ومقدرة ومقدر ما ينتظرها من النجاح بما يحمل ذلك الإنسان من حب للجمال ومن شعور به . والإنسانية كلها رهينة بما تتصوره من أهداف وأمانى : فإن كانت تلك الأهداف والأمانى قد صورها الخيال المبدع على أبداع وأروع ما يمكن من صور الجمال جاءت تلك الإنسانية عظيمة مبدعة ، وإن كانت أهدافاً سخيطة مظلمة قد ولدها وشوهها الخيال المظلم المضطرب فلن تكون تلك الإنسانية شيئاً ... إن إنساناً واحداً أو شعباً واحداً لو فقد هذا الإحساس بالجمال فقد تآماً لوقف مكانه ، ولما استطاع أن يعمل شيئاً وأن يؤدي رسالة ، وإنه لن يعمل ولن ينتج إلا بمقدار ما يتصور ويتخيل من الجمال وبمقدار ما يملكه من حب الجمال ... إن الفرق بين الأمم ليكاد يكون هو الفرق بينها في شعورها بالجمال وفي مذاهبها فيه . إن ذلك الإنسان التافه القانع بالعيش التافه وبالوجود التافه لإنسان قد برىء قلبه وتصوره من حب الجمال ، ولو أنه تزود بشيء منه لدفعه ذلك إلى الأمام وإلى الوجود بقدر ما فيه من طاقة وحرارة .

ولقد كان عليه السلام يعمل على تبسيط معاني الإنسانية وعلى إعطائها أعظم ما يمكن

من رغبات مباحة أملا في أن يجد كل إنسان في كل زمان في إنسانيته الجامعة الجميلة ما يرضى كل جانب إنسانى فيه وما يشبعه وما يقنع ميوله الصالحة السليمة ، لأنه عليه السلام كان يعلم — وطرق علمه غير طرق علم العاديين من أمثالنا — أنه إذا ضيق على الإنسان رحاب حياته ونزعاته ووقف في سبيلها أو في سبيل شيء منها لم يكن إنسانياً عاماً ، ولم يكن صالحاً لقيادة الإنسانية كلها في جميع مراحل وجودها المتطورة المتقدمة ... هذا من ناحية ، وناحية أخرى أن الإنسانية إذا انتقصت وضيق وحرم عليها معنى من معانيها وحقيقة من حقائقها جاءت إنسانية ناقصة مسروقة المدلول والمفهوم ! وإذا كانت كذلك كانت عاجزة عن القيام بوظيفتها الكبرى قياماً صحيحاً سويماً . وقد لوحظ — ولا يزال يلاحظ — وعلم النفس يقرر بمباحثه صدق هذه الملاحظة — أن الجماعات التي تضيق عليها رغباتها وتحرم من ميولها الطبيعية حرماناً هو العنت والإرهاق تجيء أبداً عاجزة في عقولها وقلوبها وعواطفها ومشاعرها عن اللحاق بالجماعات الأخرى التي أطلقت ميولها من الأغلال والحرمان . هذه حقيقة يقررها علم النفس والاستقراء والتاريخ .

ومن إرشاداته عليه السلام الرامية إلى وضع الإنسانية في قالبها العام الجامع غير مضيق عليها ولا محرومة الحرمان الذي يعث اليأس والقنوط والضعف ، لأنه يهدم القوى ويقف في سبيل النمو — أن عائشة زفت فتاة إلى رجل من الأنصار فقال عليه السلام : (لو بعتم معها لهواً فإن الأنصار يعجبهم اللهو — وفي رواية — هل أرسلتم معها من يغنى ؟ إن الأنصار قوم فيهم غزل) ودخل مرة على عائشة وعندها فتيات يغنين فجلس وهن يغنين فدخل أبو بكر فزجرهن فقال رسول الله (دعهن فإن لكل قوم عيداً) . ودخل يوماً آخر على امرأة فجلس وبين يديها جوار يضرب بالدف وينشدن قصائد فطفق يستمع لهن . ولما قدم المدينة قام جماعة من الأبحاش يلعبون ألعاباً حبشية فأنكر عليهم عمر فنهى عمر وأقرهم على لعبهم وأشرك زوجته عائشة في النظر إليهم وإلى ألعابهم . وقدم ذات مرة من سفرة فجاءته امرأة وقالت لقد نذرت إن ردك الله صالحاً لأضربن بين يديك بالدف فقال : (إن كنت نذرت فاضربى) . وقد كان فتيات الأنصار يتلقينه بالأنشيد مثل نشيد (طلع البدر علينا) فيسر بذلك ويقره . وكان إذا كان في سفر أمر منشداً ينشد بين يديه ... وأعجب من ذلك كله أنه سابق زوجته عائشة مرات ، ولا يدرى أين تكون حلبة السباق ! إذ ليس من العقول ولا الممكن أن تكون في حجرتها .

ومن السهل أن نفهم أنه كان كذلك وإلا لما كانت شريعته وأوامره ونواهيته وحياته كما نعلم ، ولما أمكن أن ينجح ذلك النجاح المنقطع النظير ...
فهؤلاء الذين وقفوا حياتهم على امتداح الشقاء والفاقة والبؤس والبذاعة والجوع وسوء النظر وكآبته ، وعلى امتداح الأمراض والعيوب البدنية والذهنية ، وعلى امتداح كل نقص وفساد ، وعلى امتداح الحرمان والتحریم — هم عاجزون عن فهم الإسلام وعن فهم نبي الإسلام ، وهم مناقضون لكل ما جاء به بعيدون عنه . وإن بعدهم عن ذلك لا يقل عن بعد شرك الجاهلية عن توحيد الدعوة المحمدية ، وإن التباين والمناقضة في هذا ليسا دون التباين والمناقضة في ذلك . والأمر يرجع في المسألتين إلى أن دمامة تنازع جمالا ، وانحرافاً يقاوم اعتدالا ، وشرأ يريد أن يطغى على خير .

شاعت هذه الأقاويل المحطمة بين المسامين ، وامتلات بها الكتب والمعقنات والقلوب ، وفاضت على كل الألسنة وطعم بها كل تعليم ، وصارت ركناً من أركان الديانة الإسلامية ، بل عدت أعظم أراكينها كما يزعم الجاهلون ، فأصبح لها من النتائج ما يفوت الإحصاء وإن كان يجمع هذه النتائج كلها شيء واحد ، هو هذا الاندحار العام الذي أصابهم في سائر أقطارهم . وكان أعظم هذه النتائج شيئان : أحدهما أن الهمم قد أصيبت بالفتور الشديد أو بالحدرد العام أو بالشلل الفتاك ، فصارت غير قادرة على أن تعمل شيئاً كبيراً له قيمة أو شيئاً يحتاج إلى القوة المبتكرة والنشاط البدع ... وأما الشيء الآخر فهو أن هؤلاء الذين ابتلوا بهذه التعاليم قد جاعوا كما فرض عليهم أن يجوعوا ، وكما حدثوا أن الجوع هو الإسلام ، وهو سنة الأنبياء والصالحين . ولأنهم عجزوا عن أن يكونوا غير جائعين لأنهم كانوا غير مستطيعين أن يكسبوا الثراء للشلل الذي أرهق همهم وقواهم . — وهو أيضاً أنهم قد مرضوا كما طلب إليهم أن يمرضوا وكما حدثوا أن المرض من النعم وأن الصحة من النقم — ثم هو أنهم قد أهملوا أبدانهم ، أو حاربوها وحاربوا رغباتها وحاجاتها ، فصار عاقبة هذا كله أن جاءوا خلقاً هزيلاً غير تام التكوين ولا صحيح التركيب ولا سليم البناء ، فأصبحوا عاجزين عن مساواة الإنسان القوى السوى وعن مباراته . فغلبوا على أمرهم هذا الغلب الشنيع .

أما الأول فإن الطفل يقع أول ما يقع في بيئة كلها السخبط على المال وعلى الحياة وعلى النشاط في الحياة من أجل الحياة وعلى الترف والسعادة وكلها النتم لأصحاب المال

والدنيا ، ولمن يحيون حياة صحيحة سعيدة ، ولمن ينشطون للعمل ، ولمن يصيبون الترف والعيش
الهنئ .. وكلها الشاء والمديح للفقر والإفلاس والشقاء والفاقة والكسل والعجز ، أو لما سموه
في لغتهم الزهد أو القناعة ، وللقراء والفلسين والكسالى القانعين العاجزين الزاهدين —
يعزز هذا كله تلك الحياة التافهة القذرة التي يحياها بين والديه الفقيرين التافهين ، وذلك
الشقاء المضروب على كل لون من ألوان الحياة .

يلقن هذا كله في المدرسة ، ويلقنه في البيت ، ويسمعه في المجتمعات والنوادى
والأسواق ، ويقراء في الكتب ، ويحيط به من كل جهاته .. فهو إذن لن ينجو من هذا
التلقين وهذه التعاليم كيفما كان وكيفما ذهب ، لأنه إن كان ممن دخلوا المدرسة وممن
يقرأون الكتب فسوف تعترضه وتقف في طريقه في كل الجهات التي ذكرناها : المدرسة
والبيت والمجتمعات والجمعيات والنوادى والأسواق وحيث ذهب ، وفي الكتب وفي المساجد
من أفواه الخطباء — وهذا أكثرها وأخطرها ، فهي لن يفلت منها إنسان ولا إنسانة .
لأنها من الثقافات العامة — أى إنها ثقافة شعبية بلغت كل فرد وولجت كل بيت
وخالطت كل اعتقاد ... فما كتبه الشيخ الغزالي مثلا في كتاب الإحياء قد وصل كله
أو جله إلى كل مسلم على وجه الأرض ، إما مباشرة بقراءة الكتاب ، وإما بواسطة أو بوسائط
كثيرة متعددة ، إما سماعاً من خطيب أو واعظ أو متكلم كائناً ما كان — وإما بقراءة
كتاب نقل عن الإحياء . والإحياء أردنا به هنا المثل والإفان كل كتاب من هذه الكتب
هو عندنا كالإحياء ، ومؤلفه كالشيخ الغزالي .

وقد لوحظ أن الذين يتلقون علومهم كلها في كل مراحل التعليم في المعاهد الأجنبية
التي لا تؤمن بهذه التعاليم ، بل التي تنكرها وتشيد تعليمها وتربيتها على مخالفتها : لوحظ
أن هؤلاء أيضاً لا يسمون من هذه التعاليم الويلة ، وأنهم لا يستطيعون أن يبرأوا منها
برءاً صحيحاً وأن يخلصوا وأن يتخلصوا من جميع آثارها ويتطهروا من جميع أعراضها
وأعراضها . وذلك لشيئين :

أحدهما أنهم قبل أن يدخلوا المعهد الأجنبي الذي دخلوه قد لقنوا في البيت وفي
البيئة كلها وفي كل ما يحيط بهم تلك المبادئ الحرامانية تلقيناً قد يكون غير مقصود
ولاملتفت إليه ، ولكنه قد يكون أيضاً بمثابة الغرس في التربة الهياة للانبات ، أو بمثابة
النقش على الحجر الذي يبقى ما بقي الحجر . وقد قيل إن تلك السن — وهي ما بعد

الولادة إلى بلوغ السنة العاشرة — هي أخطر مرحلة في حياة الطفل ، إذ يكون حينذاك متيقظ الحس ، شديد التكيف والانطباع بما يدور حوله وبما يراه ويسمعه ويلقنه ، حتى ليصبح ذلك كله حقائق عنده أو طبائع يعسر انفلاته وخلصه منها . وملكة التقليد في تلك السن قوية جداً مسيطرة عليه ميطرة كاملة ، بل إن كل أموره قائمة إذ ذاك على التقليد صادرة عنه مقصودة به . فكل ما يراه وما يسمعه وما يعمل حوله يؤثر فيه تأثيراً لا يمكن الماراة فيه ولا يمكن إغفاله — بل تأثيراً لا يقل عن تأثير العوامل الطبيعية في جسمه الرخص وتكوينه اللدن وبنائه الهش .

ثم إن جميع ما يمثل حوله ينتقل إلى خزانة العقل الباطن وينطبع فيها انطباعاً شديداً جداً ليلظل كل الحياة مهيمناً عليه في كل تصرف يأتيه وعمل يعمل . والعقل الباطن شديد الإحساس ، قوى الأخذ عما أمامه ، محافظ على خزائنه محافظة صادقة ليرجع إليها وقت الحاجة ، فينفقها على الأعمال والأزمان المقبلة إنفاقاً منظماً . فيكون لها دخل في كل عمل وفي كل فكرة وفي كل اتجاه . بل يكاد الإنسان بمشاعره وأعماله يكون مقوداً بها قيادة لا يفلت من سلطانها ورقابتها في حالة من حالاته ... ومن أجل هذا كله — ومن أجل غيره أيضاً — أكثر علماء النفس والتربية من النصائح والإرشادات الموضوعية لحفارة حس الأطفال وملكة التقليد فيهم ، وخفارة عقولهم الباطنة من التلوث والفساد بما يمكن أن يصنع على مرأى منهم ، وبما يمكن أن يسمعوا أو يلقنوا أو يعلموا .. وقد وضعوا في هذا كتباً كثيرة جداً أقامت فناً وعلماً خاصاً واسع الأرجاء متعدد الباحث والنظريات ... وقد علم أن كل التقاليد الصحيحة والباطلة التي تصبغ لدى الفرد ولدى الجماعة قوة غالبية لا تقاوم ولا تناقش ، مهما كان نصيبها من الضعف والخلل ، إنما تنشأ وتخلق في تلك السن أو ما يقرب منها ، متركرة تركزاً عجيباً في العقل الباطن ، هازمة في المستقبل كل برهان شعوري ، قاهرة كل حجة تقوم على بطلان تلك التقاليد وضررها وفسادها ، حتى إن أعظم عبقرى يجتاح المجتمعات والتقاليد ببرايمه وأفكاره الحرة الصارمة التي يضعها في كتبه ومقالاته ومحاضراته وكل مباحثه ، يكون في حياته العامة وفي اتجاهاته الخاصة العملية خاضعاً خضوعاً غريباً لتلك التقاليد والعادات التي ورثها من الصغر واحتزنها في منطقة اللاشعور عنده ، بحيث يصير مثل أجهل إنسان وأضعف في العجز عن التخلص منها ، بل قد يكون أمامها أضعف من الجاهلين . وهذا هو سر قوة التقاليد وسر ركوع الخاصة والعامة لها ... ولهذا فإننا نجد اختلافاً كثيراً جداً في هذه التقاليد

والعادات بين شعوب وأم لا تختلف في علومها وعقولها وبراهينها ، ولا في الكتب التي تدرسها وتدرسها . فالشعوب تتفق في العلوم والنظريات وتختلف في التقاليد والعادات . والوجه في هذا هو ما ذكرنا . هذا هو أحد الشئيين اللذين يجعلان من يأخذون علومهم وثقافتهم عن المعاهد الأجنبية غير خالصين من هذه الآراء الهدامة التي تركها لنا هؤلاء الشيوخ الهدامون .

وأما الشيء الآخر فهو أن هؤلاء الأطفال الذين يوضعون الوضع المذكور أثناء الدراسة لا ينفصلون انفصلاً تاماً عن بيئتهم المسممة الملوثة ، فيظلون بين عاملين مختلفين يتنازعانهم : عامل البيئة الموبوءة ، وعامل المدرسة السليم أو القريب من السلامة . فيأخذون من هذا ومن هذا ، وينحسعون تارة لحكم هذا العامل وتارة لحكم العامل الآخر ، فيكونون أحياناً أقرب إلى الصحة والسلامة ، وأحياناً أقرب إلى المرض والاعتلال . وربما كانوا أدنى إلى الاعتدال من الآخرين الذين لم يعلموا تعليمهم ، وربما كانوا متناقضين مضطربين مشوشين ، مثلهم في هذا مثل من وقع بين عاملين مختلفين متنازعين قواه وتفكيره ، فيذهب بعضه — أو تارة — مع أحد العاملين بدون أن يصل إلى غرضه ، ويذهب بعضه الآخر — أو تارة — مع العامل الآخر بدون أن يصل أيضاً إلى غرضه ، لأنه لن يصل إلا إذا استخدم قوته كلها وعمله كله في اتجاه واحد وعمل واحد . وقد يظهر بوضع آخر بحيث يتناع العاملان ، فإذا شاء الاتجاه مع أحدهما قام الاتجاه الآخر ممانعاً معارضاً ، وهكذا ، فيبقى المرء بينهما معلقاً متردداً حائراً ، مثله مثل ذلك المصاب الحزين الواقف بين عامل التجمل والتجلد ، وعامل الأسي والمصيبة ، الذي قيل في تصوير حاله أجمل تصوير وأبرعه :

الحزن يقلق والتجمل يردع
يتنازعان دموع عين مسهد
والدمع بينهما عصى طبع
هذا يحجى بها وهذا يرجع

وقد شاهدنا أقواماً كثيرين من هذا النوع . ومصير هؤلاء الفشل المحتوم . وإن حالتهم هذه تشبه حالة من يريد أن يذهب إلى جهة معينة ، ولكنه بدل أن يسير قسداً في الطريق الذي يوصل إلى الجهة التي يريدتها يسير كل يوم عدة أميال في جهات مختلفة ثم يرجع الى المكان الذي بدأ منه السير قبل أن يصل ودون أن يبقى في اتجاه واحد ! ومثل هذا تضيع قواه ثم لا يحصل على شيء . وهذه شر حالة يبتلى بها الإنسان .

ومن الملاحظات الصادقة في هذا الموضوع أن قوماً يولدون وينشأون في هذه البيئة التي تتوارث أفاويل هؤلاء الشيوخ ، تصادفهم ظروف غير عادية ، فيلحدون إلحاداً نظرياً صريحاً ، بحيث لا يكتفون بإنكار الأفكار الزهدية الحزمانية ، بل ينكرون فكرة الأديان جملة ، ويجاهرون بهذا الإنكار ويعتقدونه ، ولكنهم — وهذا عجيب في الظاهر — يقون متعلقين متأثرين بالشئ الكثير من هذه الخرافات في كراهة الدنيا وغيرها ، دائنين لها ، عاجزين عن الخروج من ربقها خروجاً شاملاً ! ومن ثم يصبحون غير لاحقين ولا مسيرين من هم في الجانب الآخر من الركب الإنساني المهطع إلى غايته الكبرى .

وتعليل هذه الحالة سهل يسير . وذلك أن هؤلاء إنما ألدوا وكفروا بهذه الخرافات نظرياً فقط ، أما الأعمال والتقاليد فإنها تظل خاضعة لما ورثت ولما تكيفت به في حالة الصغر والطفولة ، يمدّها العقل الباطن بالمدد تلو المدد ، مما اختزن وحفظ . فيصبحون في عقولهم وتفكيرهم غيرهم في أعمالهم واتجاهاتهم وتقاليدهم وعاداتهم ، وقد يسمون ما لقنوه في حالة الطفولة — على اعتباره مبادئ دينية بعد كفرهم — نظريات أو علميات أو مبادئ اجتماعية أو غير ذلك ! كما أن الإنسان الذي يعتقد أن النجاح والفشل إنما هما بالقضاء والقدر لا بالأعمال والاجتهاد ، قد يكفر بالقضاء والقدر ككراً تاماً ، ولكنه قد يبقى مؤمناً بهما معنى ، مثل أن يبقى معتقداً بأن النجاح والسقوط إنما هما بالخطوظ والحدود والمصادفات لا بالأعمال ولا بالاجتهاد . فيصبح التغيير عنده في الأسماء دون الحقائق ... وقد يرث إنسان عبادة القبور والأموات ثم يكفر بها لظروف ما ، ولكنه قد يبقى مؤمناً بها على اعتبار آخر ونحو آخر ، كأن يتعلق بمناجاة الأرواح وبقوة الأرواح ، معتقداً أن التجربة والبحث العلمي هما اللذان هدياه إلى ذلك . فيصير من اسم ، إلى اسم ، أما الحقيقة فباقية كما هي ! وقد يكفر إنسان بالدنيا وبالعمل الجاد لها ، مسمى كفره زهداً وورعاً ، ثم قد يلقي أموراً تجعله يكفر بهذا الزهد وبهذا الكفر ، ولكنه قد يبقى تاركا الدنيا أيضاً عاجزاً عن العمل فيها ولها ، غير راغب فيه ولا فيها ، مسمى عمله هذا قناعة وسمواً على المادة وسمواً في الروح وارتفاعاً على الأغراض الدنيا الصغيرة الحقيرة . وهكذا يفعلون في كل شئ : يتركون الأسماء ويتمسكون بالمسميات ! وهذا من أغرب ما يصاب به الإنسان في حياته وتصرفه .

أوجدت هذه الأقاويل بين المسلمين وبين الدنيا هوة عميقة ونفورا عاماً ، فصاروا لا يعملون لها وفيها بإخلاص واجتهاد وإقبال ، وصاروا يتناولونها إذا تناولوها ببعض أيديهم ، وبعض قلوبهم ، وبعض عقولهم ، وبعض جبههم ، وبعض أعمالهم ... فصاروا لا يدركون منها إذا أدركوا إلا أتفه ما فيها وأحقره وأصغره ، على قدر ما وهبوا من الإخلاص والحب والعمل والعناية وهكذا كل شيء في هذا الوجود إنما يعطى بقدر ما أخذ .

إن الإنسان العاقل لن يقبل على الشيء ولن يمنحه جده وقلبه وعمله بشغف ودأب ومثابرة ومصابرة إلا بشروط واضحة : أن يعلم أن الإقبال على هذا الشيء حسن في رأيه هو ، وحسن له ، ثم حسن في رأى المجتمع الذى هو فيه ، وفضيلة من فضائله ؛ ثم أن يعلم أن عاقبة ذلك سليمة طيبة لا لوم فيها ولا عقاب بل ولا عتاب ، ثم أن يعلم بعد هذا كله أن ترك هذا الشيء وترك العمل له ذنب من ذنوب المجتمع وتقيصة من تقائصه وجريرة من جرائره ... إن الإنسان إذا علم هذا كله أصبح من الممكن ، بل أصبح مما هو فى حكم المؤكد أن يمنح ذلك الشيء عنايته التامة ، وأن يستجمع له جميع الأسباب والوسائل ، وأن يعطيه من نفسه كل ما فيها وكل ما عندها من استعداد ومن قوى ظاهرة أو باطنة ، وأن يدأب له الدأب الواجب الناصب حتى يظفر به أجمع أو يظفر بأحسنه وأفضله ، أو حتى يعذر فيه الإعذار الصحيح .

والمسلمون الذين اعتقدوا أقاويل هؤلاء الشيوخ يرون أن العمل للدنيا بكل إخلاص واجتهاد ليس فضيلة ولا حسناً ، لا فى رأيهم ولا فى رأى المجتمع الذى يعيشون فيه ، ويرون أن عاقبة هذا العمل وهذه الدنيا ليست مأمونة ولا حميدة ، لأن الله سيؤاخذهم عليه وعليها ، بل سيحاسبهم الحساب الشديد ثم يعاقبهم على قدر ما كسبوا منها وما عملوا لها . وهم يعتقدون أن ما ينالونه منها ما هو إلا حسناتهم تعجل لهم ، ولأن الدنيا فى رأيهم وظنهم تجر إلى الشقاء والعذاب ، لأنها تطغى ، ولأنها تدفع من ظفر بها إلى الفسوق والمروق ... فعاقبتها وعاقبة العمل لها وعاقبة الحرص عليها ليست بحميدة ولا مأمونة إذن ... ثم إنهم لا يرون أن هجر الدنيا وهجر العمل لها جريمة من الجرائم أو ذليلة من الرذائل التى ينكرها المجتمع والتى يعاقب الله ويحاسب عليها . بل هم يرون أن هذا الهجر والازورار عنها والكراهة لها والتقلل منها إحدى الحسنات الاجتماعية والدينية التى يشكرها الناس والتى يجازى الله عليها ... بل هم يرون ذلك إحدى الفضائل الإنسانية

التي تدل على السمو الإنساني ... فكيف إذن يمكن أن يعملوا لها بكل قواهم وأن يبرعوا وينبغوا في طلبها وتحصيلها؟ .

إن من أقبل عليها منهم ودأب في تحصيلها ، فنجح النجاح كله أو بعضه ، صار الناس ينظرون إليه نظرات السخط والاشمئزاز والإنكار واللوم ، متهمين له بالشراسة وبالحرص النميم وعبادة الدنيا وعبادة المادة والشهوات ، زاعمين أنه إنسان مغضوب عليه ، وأنه ملوم معاقب محاسب حساباً وبيلا لحرصه على ما يفنى وإعراضه عما يبقى ، ولاهتمامه بالدنيا الملعونة الملعون ما فيها التي لا ينظر الله إليها ، ولا ينظر إليها عباده الصالحون الأبرار ! بل إن مثل هذا الإنسان قد يرى في نفسه هذا الرأي ويعتقد أنه مخطئ ملوم ، لأنه ترك الزهد الذي هو حلية الأنبياء والأولياء ، ولأنه شغل بالحياة الدنيا ، معبودة الكافرين والآثمين الذين لا خلاق لهم ... وقد يحاول التبرؤ من فعله هذا ويسأل الله أن يمن عليه بالتوبة والهداية ، لينفض يديه مما لوئهما به من الاشتغال بالحطام .

كان المفروض أن يترك المسلمون الدنيا ويتركوا العمل لها البتة ، مادام هذا هو رأيهم فيها ونظرهم إليها ، ولكن قاوم هذا الفرض شيء آخر — هذا الشيء هو أنهم وجدوا أن ضرورة الحياة والبقاء وغيرة حبهما تدفعهم إلى العمل ، إذ وجدوا بالمشاهدة والاستقراء أن من لم يعمل فلن يعيش ، وهم يريدون ويحبون بالغيرة أن يعيشوا ، فوقعوا بين عاملين مختلفين : عامل الزهد والاعتقاد أن الحرص على الدنيا جريمة وذنب وشرة محقوت ، وعامل الضرورة — ضرورة الحياة والبقاء . فحاولوا بغير شعور — أو بغير شعور كامل — أن يرضوا العاملين ، وأن يوقفوا بينهما وأن يجمعوا بين إعطاء كل منهما طلبة وحكمه . فأخذوا للحياة والبقاء بقدر الضرورة — أي إنهم قاموا بأعمال صغيرة حقيرة ، تكفي لوجودهم ولوجود الحياة فيهم ، ولتسكهم بها أو تمسكها هي بهم ، ثم أعطوا بأقيهم الزهد والإعراض عن الدنيا ، فبقوا أحياء ، وبقوا فقراء . ولم يستطيعوا بضرورة وقوعهم بين العاملين أن يميلوا إلى أحد الجانبين ويتركوا الجانب الآخر : فلم يستطيعوا أن يكونوا زهاداً فقط وأن ينفضوا أيديهم من الحياة والمادة جملة واحدة ، ولم يستطيعوا أن يكونوا أهل دنيا وأعمال كبيرة بارعة ، وأن يتبرأوا من الزهد ومن كراهة الحياة الدنيا — أي إنهم لم يستطيعوا أن يتغلبوا على أحد العاملين ويهبوا أنفسهم عاملاً واحداً ، فصاروا مقسمين بينهما ، وصاروا من أجل ذلك بهذه المكانة الوضيعة من المجتمع العالمي والهيئة العالمية .

فإذا حاول معترض أن يعترض وأن يقول : إنه — وإن كان رأيهم وقولهم في الحياة وفي طلب المادة والمال كما ذكر — إلا أن هذه الآراء والأقوال لا تأثير لها في انخراطهم وعجزهم وضعفهم ، لأنه لا يوجد منهم إنسان واحد يترك الدنيا ويأبى المال رغبة في أن يكون زاهداً وعملاً بأقوال هؤلاء الشيوخ الغابرين ، بل إنهم كلهم كما شاهدنا ليعبدون المال والمادة ، ويحاولون كسبها بكل الطرق حتى الطرق المحرمة كالغش والتزوير والسرقة وبكل الوسائل ... فلا تأثير لهذه الأفكار والآراء الميتة الموجودة في تلك الكتب الميتة : كتب أولئك الميتين في حالة المسلمين الواهنة الواهية الفقيرة : إذا قال قائل هذا واعترض هذا الاعتراض ، قيل في الجواب : ليس هناك شك في أن المسلمين ، جماهيرهم وخواصهم ، يحبون المال والدنيا ، ويحاولون ويتمنون كسبها وينيلها والاستزادة منها بكل الطرق حتى المحرمة منها ، ولكن يجب تدبر المسألة جيداً وفهمها من كل وجوها : ذلك أنهم يحبون الدنيا والمال بغرائزهم وشهواتهم ، ولكنهم يكرهونها ويذمونهما بأفكارهم وآرائهم وعقولهم وعقائدهم وأديانهم وأقوالهم ودعاواهم . فبالشهوات والغرائز يريدون ذلك ويطلبونه ، وبالاعتقاد والدين والعقل والرأى يرفضونه وينكرونه ، فتعارض القوى والعوامل فيهم ؛ فإذا وجدوا الدنيا والمادة سهلة قريبة لا تحتاج إلى عناء ولا عمل أخذوها واحتاشوها بسلطان الشهوات والغرائز والطباع بالطرق كلها والوسائل أجمع حتى المحرمة ، وهذا في الأغلب كما لا يخفى . وإذا وجدوها بعيدة المنال ، محوجة إلى الجد والدأب — وهي كذلك في كل الأوقات والحالات ما خلا النادر الشاذ — تعلقوا باعتقادهم ورأيهم وقولهم وبمذهبهم القائل : إن الحرص على المادة والدنيا جريمة وغواية ، والقائل لهم أيضاً : إن الزهد والفقر والقناعة فضيلة وهداية ؛ فيكسلون ويكلمون ويعجزون عن الطلب وعن الجهاد في سبيل ذلك ، فيخرج من هذا أن يكونوا حريصين على الدنيا التي تؤخذ بالوسائل المحرمة ، لأنها حينئذ تكون في الغالب سهلة قليلة الإغنيات والعناء ، بعيدين عنها زاهدين فيها إذا كانت تطلب وتنال بالجلاد والجلادة ! وهذا أعجب شيء على أنه هو الواقع الحاصل المشهود .

وقد شاهدنا الأقسام الذين يقومون بوظيفة الإرشاد وبوظيفة ذم الدنيا والتزهيد فيها يحرصون عليها كل الحرص من الطرق اللتوية القرية النيمية ، ولكنهم يناون عنها كل النأى إذا كانت تنحج إلى العمل الشاق المرير على من لم يروضوا أنفسهم وأخلاقهم على الأعمال وجبها .

والإنسان مركب من طابع غريبة متباينة ؛ فمن طباعه التي قد تكون أصيلة فيه ، وقد تكون عارضة متولدة من ظروف وأحوال نكراء مرت به في تاريخه الطويل الحافل بالعجائب والمتناقضات ، ومحاولته الفرار أبداً من الأعمال التي تلقى عليه تبعه والتي تلزمه الكد والنصب ... فإذا لم تحط به ظروف ومبادئ وقوانين وتقاليد وأشياء أخرى تدفعه دفعاً إلى التزام التبعات ، وتحكم عليه حكماً اضطرارياً بالأخذ بالأعمال الشاقة ، وتلجئه إليها إلهاء فإنه حينئذ ينكل عن النهوض ، ويعجز عن القيام ، ويفر من التبعات ، ويجد في الكسل والاستسلام اللذة والبغية والحياة الهائلة الهداية ... فهؤلاء الذين يعيشون في بيئة كلها الدعوة إلى ترك العمل والدعوة إلى الفرار من الحياة ومن التبعات ومن الجهود المضنية ، مزعوماً لهم أن في هذا الترك وفي هذا الفرار الأجر والثواب والحمد والشكر من الله ومن الناس ، ثم مزعوماً لهم أن في هذه الأعمال التي كلها تبعات ومشقات حساباً وعقاباً عند الله ولو ما وانتقاداً عند الناس ، كيف يمكن أن يتغلبوا على هذا كله ، وعلى طباعهم الراكنة إلى الخلاص من المشقة والنصب ، وأن يثبوا وثبات تلقى تحت أقدامهم الثراء والسعادة والحياة القوية الراضية ؟

إن الشعب الذي تصوره واثباً إلى الحياة بكل قواه هو الشعب الذي تتضافر كل آدابه : دينه وعقله ورأيه وتقاليدته وتعاليمه وفلسفته على استحسان هذا الوثوب وعلى الاشتمزاز من كل عاجز ناكل وزاهد قانع ، وعلى اعتبار هذا النوع من الناس آتماً ومقصراً ومجرماً ، وعلى أنه لا يقل في إجرامه وتقصيره وإثمه عن سائر أولئك الأقوام الذين يعملون ما تحرمه القوانين وما تأباه الشرائع ، والذين يجرون إلى قومهم ووطنهم وإلى الإنسانية أجمع الشقاء والدمار ... بل يجب أن ينظر إلى هؤلاء — من حيث الإجرام والتقصير والجريرة والحيانة — محسوبيين شراً من أولئك الذين يتركون مواضعهم في خطوط القتال المشبوب دفاعاً عن الحق وعن الخير والحرية وحرمات الوطن . فإن القتال في سبيل كسب الحياة الجميلة هو أفضل قتال يتصوره العقل . فمن أهمل واجبه في هذا القتال كان أشد الناس إثمًا وأعظمهم جريرة .

ليس مما يدخل في الإمكان أن يعتقد شعب من الشعوب اعتقاداً دينياً وفلسفياً وأديبياً — يعلمه في المدارس وفي المساجد وسائر المعابد وفي البيوت والجمعيات وفي كل مكان — بأن العمل للدنيا وللحياة بقوة وشغف أحد الآثام التي يؤاخذ الله عليها بل التي

يعاقب بسببها ، ثم يعمل هذا الشعب للدينيا بهذه القوة وبهذا الشغف ، غير متأثر باعتقاداته وفلسفاته ، وغير مبال بما يعلم علم اليقين بأن الله يأخذ به ويلوم عليه ، إلا إذا كان من الممكن الزعم بأن المعتقدات والتعاليم والتقاليد ليس لها تأثير البتة على الأعمال وعلى الاتجاه فى الحياة ... ولكن الناس يعلمون جميعاً أن مبدأ الأعمال كلها الاعتقادات ، وأن العامل إنما يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجبه له معتقده — غير أن هذا المعتقد الذى يرسم طريق العمل يجب أن يفهم أوسع وأشمل من المعتقد الدينى ، فليس المعتقد الدينى وحده هو الذى يدفع الإنسان أمامه ويهديه ويقوده ويوجهه ، بل كل المعتقدات هكذا ، سواء أكانت دينية أم وطنية أم اجتماعية أم علمية أم فلسفية أم إنسانية ... وإذا علم هذا — وهو معلوم بلا شك — وجب علينا أن نحارب بكل سلاح من أسلحة الحرب هذه الدعايات المدمرة لقوى الشعوب ولروح الأفراد والجماعات ، وهى دعايات الزهد وتفضيل الفقر والمرض والفاقة والحرمات وكل تلك السخافات والأباطيل التى بقيت مضللة ومخدرة الإنسانية ومعطلة مواهبها أحتقاراً وقروناً يعجز المحصونون عن إحصائها ... وعلينا نحن معشر المسلمين المغلوبين على أمرنا أن ننظر إلى هذه الدعايات والتعاليم على أنها أصفاد وأغلال قد مكن الجهل والعباء أعناقنا وأيدينا منها ! فليس لنا مفر من العمل على تحطيمها وتحطيم من صنعوها بلا رحمة ولا شفقة ، كما نهض محمد عليه السلام وكما نهض قبله إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، محطمين وواضعين جميع الأغلال والأصفاد والآصار التى لقوها فى طريقهم وفى طريق الإنسانية التى جاءوا لهدايتها وإيقاظها من جميع ما صنعه الشر والجهل .

أما النتيجة الأخرى لشيوع هذه الأقاويل المثنية على التربة بكل معانيها، وعلى الشقاء بكل ألوانه حتى الجوع والمسغبة ، فإن المسلمين أهملوا أبدانهم من هذه الناحية إهمالاً عجيباً ، ولا يزالون يفعلون ذلك أو يرون حسنه . وصاروا لا يرون أن للأبدان حقوقاً يجب أن تؤدى ووقوداً يجب أن يقدم . فجاءت عاجزة عن القيام بوظائفها ، عليلة هزيلة لا تدفع شراً ولا تكسب خيراً كبيراً .

وقد وضع هؤلاء الشيوخ فلسفة للجوع والحرمات الجسد من حاجاته ما أعجبها وما أكذبها ! فأحد هؤلاء يقول فى كتاب له معدود من خيرة الكتب ما معناه : إن الإنسان إذا أجاع بدنه وضره بالحرمات العام : فمنعه النوم والراحة ضمير وضؤل وخف

حسبها حقائق وكشوفاً ومعارف عليا، وحسبها لهم الآخرون كذلك، فراحوا—رغبة في المزيد—يزيدون قواهم البدنية جلدًا وإنهاكا وسهرًا وتعبًا وجوعا، فيزدادون بذلك تخيلا وتوها، أى مرضاً وضعفاً، ويتتابع الوحي الذى ينزل عليهم! ثم لا يقفون عند هذه النهاية من الإضرار بأنفسهم وعن حولهم وبالآمة التى آمنت بإمامتهم أوالتى ستؤمن، بل يذهبون يكتبون هذه الخيالات والأوهام فى كتب ورسائل لتقرأها نحن، ويقرأها من قبلنا ومن بعدنا! وليس من شك فى أن كثيراً من هذه الأفكار والفلسفات التى نواجهها فى كتابنا هذا هى إحدى ثمرات هذه الرياضات والفلسفات. فإن هؤلاء القوم ألحوا على أبدانهم بالعذاب الملون من الجوع والسهر والأعمال الشاقة العنيفة، ومنعوا حاجاتها وشهواتها الضرورية الطبيعية، فأصابت أعصابهم بالإرهاق والإجهاد ثم بالمرض والانحراف، فراحوا يتخيّلون ويخالون، حتى ظن كثيرون منهم أنهم صاروا يوحى إليهم، وأنهم يرون الملائكة عياناً ويسمعون الوحي جهاراً، وأنهم يشاهدون اللوح المحفوظ يأخذون منه بلا وسيط! بل وأنهم يرون الله ويخاطبونه ويناجونه، وأن نواميس المادة وقوى الطبيعة قد تعطلت أمامهم وأمام كشوفهم ومعارفهم اللدنية! .

وقد وقع فى هذا كثيرون جداً من هؤلاء البائسين الهائمين، وعلى رأسهم ابن عربى الطائى وابو حامد الغزالى والشعرانى وغيرهم. ولهذا فإن القارىء لكتبهم يجد فيها من الدعاوى المفزعة الباطلة ما يقف إزاءه حائراً، كدعاواهم أنهم اتصلوا بالملائكة والجان والأنبياء والحضر وإلياس والمعروفين عندهم برجال الغيب، وأنهم جالسوهم وصاحبوهم وصادقوهم وتلقوا عنهم العرفان، وأنهم رأوا اللوح والقلم جهرة! .

وقد يسرع القارىء إلى رميهم بتعمد الكذب. ولكن هذا ليس بلازم. نعم هو ممكن. ولكن الأقرب منه أن يقال: إنهم قوم مرضى، وإن هذه خيالات تطل عليهم من النوافذ التى فتحوها فى عقولهم، فيحسبونها أشياء حقيقية، فيأخذون يتحدثون عنها ويكتبونها ويعتمدون عليها! وأظهر الأسباب فى مرض هؤلاء الشيوخ هو الشقاء المادى الطويل الذى تحدوا به أجسادهم وساسوها به شر سياسة، حاسين أنهم بذلك يخدمون الروح ويتسامون بها عن أحكام المادة ودركاتها إلى عوالم الأرواح ومنازل الملائكة! ونحن إذا عرفنا هذه الحقيقة — أعنى حقيقة مرض القوم وسبب مرضهم — هان علينا أن نفهم كيف كتبوا ما كتبوا، وكيف ادعوا ما ادعوا! أمن الممكن أن يكتب

عاقل معها كان جاهلاً أو ضالاً أمثال ما كتبه الشعرا في كتابه (الطبقات الكبرى) وغيره من كتبه ، وأمثال ما كتبه آلاف من الشيوخ في ما تركوه لنا وراءهم من المؤلفات ؛ ليس من الممكن أن يكونوا مؤمنين بما كتبوه إن كانوا عاقلين ، وليس من الممكن أيضاً أن يكونوا إنما كتبوه مخادعين ومضللين ، فإن من كان يحمل معه عقلاً سليماً لا يمكن أن يحاول التضليل والإغواء بأمثال هذه الأساليب الصريحة في الجنون والجنبل ! فلا بد إذن أن نذهب في تعليل هذا إلى أن القوم كانوا مرضى ، ولا بد أن ننظر إليهم بالعين التي ننظر بها إلى محموم يهنى ، وأن نسمع كلامهم وما فيه من الادعاء والشطح ونقرأه كما نسمع من نزلء المصحات العقلية والعصية ، لا أن نجعلهم أمثنا المختارين ، ننزلهم منزلة الملهمين العصومين ... وبهذا نرحمهم لأننا نراهم على حقيقتهم ، ونرحم أنفسنا وأمثنا لأننا ننجو بها من الانحدار في هذه الدركات .

وجه الخطأ في هذه الفلسفة أنهم اعتقدوا أن الروح والجسد عالمان مستقلان متعاديان ، وأن كلامهما حرب للآخر ، وأن كلامهما أيضاً إنما ينمو ويزكو على حساب الآخر : فإذا أهين أحدهما وعذب نما الآخر وترعرع وقام بوظيفته خير قيام ، وإذا أكرم وأريح وأجم أصاب الآخر العكس ... وهذه فلسفة عقيمة لا تقف أمام الحقائق . فإن الروح — معها اختلف في حقيقتها وفي تفسيرها — تزكو وتقوى وتقدر على أداء وظيفتها إذا صح الجسم وقوى واستراح ، وتضعف وتخبو وتعجز عن القيام بعملها إذا مرض الجسم أو تعب أو عجز ... وهذه حقيقة هي اليوم فوق مذاهب الشك . وفي استطاعة الرجل العادي أن يعلم صدق هذا بالملاحظة والاستقراء ، فإنه يرى أن الجسم إذا ما أنهك وأنصب بعمل شاق أو بسهر أو مرض أو بجوع أو بشيء آخر ، مما يضرب الجسم بالإعياء ، كنت الروح أو ما يسمى بالروح أو مصدر الفهم في الإنسان ، وصار صاحب ذلك الجسم عاجزاً عن الفهم أو كلاً فيه أو ناقصاً . فإذا ما راجعت ذلك الجسم راحته وزايله تبعه ثاب إليه فهمه أو حدة فهمه ، ورجع قادراً على تناول الأمور وعلى فهمها تناولاً وفهماً صحيحين ... ويرى أيضاً أن الإنسان إذا ما كبر وتقدمت به السنون ووهنت قواه المادية ضعفت روحه ، أو ما يسمى بالروح وانطفأ ذكاؤه وخبا ذهنه ، وقد يصبح في النهاية خرفاً لا يعي شيئاً كما قال القرآن : « لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » . وهذا في الشيخ الهرم ... وكذلك هو في حالة الطفولة قبل تمام الجسم لا تكون روحه

— أو مكان الإدراك فيه — كاملة ولا تامة ولا صحيحة ... ثم يرى أيضاً أن الروح أو ما يدعى بالروح يتبع البدن في كل شيء ويتأثر بما يتأثر به : فإذا نام البدن أو خدر أو أغشى عليه أو سكر أو اتابه مرض فتاك وصل به إلى حد الهذيان ، أصيبت الروح بما أصاب الجسم : بالنوم وبالخدر وبالاغماء وبالسكر وبالهذيان وبكل ما عرا البدن ... وبهذه الملاحظة الأولية البسيطة يستطيع أن يعلم أن الروح تابعة للجسم في مرضه وصحته وفي قوته وضعفه وفي إفاقتة وسكره وفي نومه ويقظته وفي كل حالاته . بل وفي الجنون أيضاً ، فإن الجنون خلل مادي يصيب منطقة التفكير وهو المخ فيصير المرء مجنوناً . أما الروح فإنها عندهم لا تبجن . ومع هذا فإن كل شيء في الإنسان يكون مجنوناً إذا تلف مركز الفهم فيه .

لما حاققت بفرنسا الهزيمة في هذه الحرب وسامت للفاتحين الألمان ، وفرض عليها نظام البطاقات ، وكانت الأغذية التي تقدم للشعب الفرنسى بمقتضى هذه البطاقات دون ما يلزم ودون ما يكفي حاجة البدن ، قام رجال الصحة ينادون ويقولون : إن الآثار التي سيخلفها ويوجدها نقص التغذية في قوى الشعب وفي مقدرة الأجيال المقبلة على مجابهة الحياة والنهوض بأعبائها ، ستفوق كل آثار الهزائم العسكرية التي أصابت فرنسا ، والتي قد تصيبها ... وقد قيل مثل هذا القول في سائر أنحاء أوروبا لما ضرب عليها الجوع والحرب والشقاء المادى طوال سنى الحرب الست . وقيل إن الأجيال القادمة ستكون عاجزة ضعيفة واهنة لحرمانها من الغذاء الكافى . وقيل إن هذا العجز والضعف والوهن سيتناسل وسينتقل لأجيال أخرى قادمة ، لأن الجيل الضعيف يخلف أيضاً جيلاً ضعيفاً مثله .

الطاقة

ذلك أن من العلوم أن كل عمل ، حتى أقل حركة ، إنما يصدر عن القوة ، والقوة إنما تولدها الطاقة ، والطاقة إنما هي إحدى خصائص المادة . فكل عمل يصدر منا أو مما حولنا لا يصدر عن غير المادة . فالمادة إذن هي الأعمال ، وهي القوى ، وهي الشعوب والأمم . وكل شعب يفوق الشعوب الأخرى إنما يفوقها بما عنده من المادة وبما أحسن وانتفع من استخدامها ، لاشيء غير ذلك ، حتى النبوغ والدكاء والعلوم والأخلاق والآداب ، ليست سوى مظاهر للمادة المنظمة المرتبة التي سيطر عليها الانسجام والاعتدال وجمال الوضع ؛ ما هي الكهرباء ، وما هو النور ، وما المغناطيسية والجاذبية ، وما هذه

الألوان الزاهية التي تجلج الأزهار وغيرها والتي تروع منظرًا، وما هي الأصوات ذات الأنعام، بل ماهو الجمال الإنساني الذي عجز كل ما عند الناس من ألفاظ وعبارات عن نعت ما فيه من قوة وتأثير وسحر؟ ما هذا كله؟ أليس هو المادة المنسقة المحكمة وأوصافها ومعانيها وقواها؟ وما هو النبوغ والعبقرية اللذان يوجدان الشعوب ويصنعان الحضارات؟ هل هما غير ذلك الرأس الممتاز المستدير على تلك المادة النفيسة؟ إن أجمل شيء في هذه الحياة وأروعها ليفقد جماله وروعته وسحره وقوته إذا غير وضعه المادى بلون من ألوان التغيير، بالزيادة أو النقصان، بالكيف أو بالهيئة... وإن أفراد هذا الوجود — سواء في ذلك الحيوان والنبات والجماد الأصم — لكل واحد منها حد مادي معين ومقدار معلوم إذا بلغه جاء سليم التكوين، تام التركيب، صالحاً لبلوغ غايته وللقيام بوظيفته، وإذا لم يبلغه جاء فاسداً وعقياً وغير صالح لشيء كما يجب... فالحيوان والنبات — بل والصناعات السماء الجامدة — إن لم تأخذ حدها الأعلى المناسب المقدر لها كانت غير تامة، وغير مستطبعة أن تعطى ثمرتها. والإنسان إن لم يبن جسمه بناءً سوياً قوياً — ولا سيما في أعوام تكوّننه، منذ الولادة إلى أن يتم بناؤه العام — فإنه ينجى خلقاً ضعيفاً عاجزاً عن كسب معركة الوجود، هجومياً ودفاعاً، عاجزاً عن أن يبلغ ما يبلغه الإنسان القوى السوى، لا مقلداً ولا مبتكراً، محكوماً عليه بسنة الحياة العادلة بأن يظل تحت سلطان من هو أقوى منه وأسلم تكويناً، وأن يتمزق إن حاول أن يصطدم به، كما هو الشأن في كل قوى ضعيف يتصادمان.

ثم إن الإنسان أيضاً عامل متحرك حى، والعمل والحركة يحدثان احتراقاً في المتحرك العامل ويأخذان من قواه، فلا بد من التعويض وإلا هلك وبطلت حركاته وأعماله. وما من شيء يأتى بأبسط حركة وأضعف عمل إلا ولا بد له من الوقود، فإن الشيء لا يوجد من لا شيء، والموجود لا يولد المعدم. ولن تدور أو تسير أو تتحرك آلة من الآلات وصناعة من الصناعات بدون الوقود، وهي محتاجة إليه ما ظلت دائرة سائرة متحركة. فإذا نفذ وقودها بطل عملها وحركتها... وكذلك الإنسان محتاج إلى الوقود اللازم الكافى ما ظل حياً عاملاً متحركاً، ولا يستغنى عنه إلا إذا مات وأصبح غير صالح لأن يأتى بشيء. والوقود الذى يقدم إليه — وهو الغذاء — إن كان غير جيد أو غير طيب فإن عمله وحركته تجمىء كذلك، وقد يصاب بالعطب كآلة تماماً إذا نقص وقودها أو كان غير جيد... وليعلم أن التفكير حركة وعمل أيضاً، ولكنه حركة وعمل جباران

مرهقان . فلن يستطيع التفكير الجبار القوى المبتكر المبدع المنتج من لم تكمل آتته ،
ومن لم يتحصل على ما يكفيه ويلزم له من الغذاء . فالشعب لا يمكن أن يكون له قيمة
في هذه الحياة ، ولا شأن مذكور مرهوب ، ولا قوة عملية أو ذهنية عقلية إلا إذا كان
تكوينه الجسماني تاماً سليماً ، وكان غذاؤه متوفراً . فمثل هذا الشعب هو الذي قد يصلح
للحياة وقد تصلح له .

أما الشعب المريض الهزيل الجائع فإنه لن يكون شيئاً كبيراً ولن يصنع شيئاً كبيراً .
وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الشعوب القوية الأبدان ، التي نجت من الجوع والشقاء والحرمان
أقرب إلى الكمال الإنساني من الشعوب المحرومة الضعيفة الشقية : فهي أشجع وأصبر
وأصدق وأعظم مروءة ونخوة وحمية وإباء وتواضعاً ، وأذكى وأفهم للحقائق وللحياة ،
وأبعد عن الخرافات والسخافات وعن الاضطرابات العصبية والعقلية وعن العادات السقيمة
المخزية ... وأنها على وجه العموم أسلم تفكيراً ونظراً ، وأصدق عملاً ، وأضحى إنتاجاً .
ولهذا كان الرياضيون أقوى الناس أخلاقاً وأفضلهم شمائل .

نعم ، الروح حق وهي من أمر الله ، ولكن الفلسفة التي انتحلها هؤلاء في صلتها
بالبدن ومقامها منه فلسفة ليست لها قيمة برهانية ، بل البراهين متظاهرة على بطلانها .
وذلك أن اتصالها بالجسد إن كان اتصال الصفة بالموصوف فليس هناك ريب في أن الصفة
تعظم بعظمة صاحبها وتخس وتضؤل بخسته وضآلته ، بل ليس هناك قيام للصفة ولا وجود
إلا بموصوفها وبوجوده . فالصفات إنما تستمد وجودها وقيامها وحياتها وقوتها من
موصوفاتها . فكيف يصح الزعم بأن هناك عداء بين الصفة والموصوف ، وأنه كلما نقص
الموصوف وضعف وأشقى وحرم — والموصوف هنا الجسد كما هو المفروض — عظمت
الصفة وعظم فعلها وعملها — والصفة هنا هي الروح على ما هو الفرض .

وأما إن كان اتصالها من اتصال الحال بالحل والنزول بالمنزل ، فلا شك أيضاً في أن
النازل الحال يكرم ويشرف بكرم محله وبشرفه ، ويستفيد من جماله وحسنه وسعته
وقوته وسمو قيمته . ولا يمكن أن يدعى أن رداء المنزل وضعفه وضآلته وتهدمه وسوء
تركيبه وإهماله وضعف بناءه مما يشرف صاحبه ويرفع من قدره وبما يهبه القدرة والكمال .
وأما إن زعم أن هذا الاتصال بينهما هو كاتصال اللابس بالملبوس ، فالقول فيه
كالقول أيضاً في صلة الحال بالحل والنازل بالمنزل ... وعلى الاحتمالات الثلاثة ليس مما يقرب من
الصواب ولا مما يحتمله الادعاء أن بين الروح والجسد عداوة وتنافراً بالشكل الذي ذكروا .

ولا يدري ما هي نقطة الارتكاز لهذه الأوهام التي استطاعت الاستقرار في الأذهان
كل هذه العصور والأجيال .

وقد وضع ابن سينا قصيدة شهيرة ، عرفت بالعينية ، أودعها آراء غريبة في اجتماع
الروح بالجسد وهبوطها من المحل الأرفع عليه . جاء في مطلعها :

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تحجب وتمنع
محبوبة عن كل مقلة ناظر وهي التي سفرت ولم تتبرقع
هبطت على كره إليك وربما قبلت فراقك وهي ذات توجع
أنفت وما ألفت فلما جاورت ألفت مجاورة الخراب البلقع

يريد بهذا أن الروح لم تقبل الحلول في البدن ولا الهبوط عليه من سمائها
إلا مكرهة ، لأنها هي سماوية وهو أرضى ترابي ، وأليم وجيع يسكان السماء أن يقبلوا
النزول في الأرض وسكنها . ولكنها بنزولها إلى الأرض ومجاورتها لها ولأهلها ، وبحلولها
بيدنها المدد الطويلة تكيفت بالمادة وبالتراب والحضيض ، فألفت ذلك بعد أن أنفت منه ،
فصارت به آنسة وإليه مستريحة وبه قريرة ، فأضحت كارهة لفراقه بعد أن كانت كارهة
للإجتماع به والنزول إليه ... وهذا هو سر ألم الموت وشدة خروج الروح من الجسد
حين الوفاة .

وسواء أصبح هذا الذي ذكره ابن سينا أم لم يصح ، فإن الشيء الذي لا ريب في
صحته هو أن الجسد المادى هو الوسيلة التي لا وسيلة سواها للقيام بالأعمال وبوظائف
الحياة وبالخير والشر ، وللاستمتاع بالسعادة أو بالشقاء ، بالنعيم أو بالجحيم . ولهذا فإن
الأرواح لم توجد في الدنيا مجردة من المادة ومن أبدانها ، ولم تحضر في الآخرة للقاء
الجزء مجردة كذلك ، بل أحضرت بالأجسام الجميلة الكاملة ... والذين يدعون الآن
أنهم يحضرون الأرواح وأنهم يستخدمونها في بعض الأغراض والأعمال يدعون أن ذلك
غير ممكن إلا بواسطة المادة وبواسطة الوسطاء .

أفليس معنى هذا كله أنه أسبيل إلى عمل شيء ما ولا إلى الاستمتاع بشيء ما إلا
بواسطة الماديات . فالذين يدعون أنه تجب محاربة المادة ومحاربة الأبدان وتعذيبها وإهملها
من أجل الوصول إلى السكّال وإلى الخير المطلق ومن أجل الظفر بالقوى الروحية الكاملة
مجمّعة ، قوم لم يوقفوا فيما قالوا وفيما ادعوا .

وإذا كان واجباً علينا أن نغني بخدمه أرضنا ومزروعاتنا — لأننا نرغب في ثمر طيب وخيرات كثيرة — فإنه كذلك واجب علينا أن نغني بخدمه أجسامنا وتكوينها وبنائها ، إذا كنا راغبين حقاً في الحصول على عقول متمتزة وعلى أعمال جبارة كبيرة ، وعلى شعب يسود ولا يساد ، وعلى رجال يسابقون الإنسانية أو يسرون مع طليعتها في الاختراعات وإيجاد الحضارات ... ولنبتدئ من اليوم بلا تردد هذه الأفكار العقيمة والآراء المميته ، ولنزفها من قواميسنا ولغاتنا ثم لا نرجعها مرة أخرى ، ولنزهد في الزهد إن كان لا بد من الزهد . ويجب أن يعلم أن كلمة الزهد لم ترد في القرآن إلا في موضع واحد وهو قوله في قصة يوسف : « وكانوا فيه من الزاهدين » ولا شك أن المقام هنا مقام ذم . وكذلك لم ترد في الأحاديث الصحيحة هذه اللفظة .

ولنورد في آخر هذا البحث ما يعد مقارنة صغيرة يسيرة بين هذه الأقاويل التي زعمت لباب الإسلام ، وبين عبارات جاءت في التوراة حاثه على العمل من أجل الحياة وعلى الترخيب في الغنى وفي ذم الفقر والفقراء .

جاء في سفر الأمثال : العامل بيد رخوة يفتقر . أما يد المجتهد فتغني . من يجمع في الصيف فهو ابن عاقل ، ومن ينام في الحصاد فهو ابن مخز ... ثروة الغنى مدينته الحصينة . هلاك المساكين فقرهم . عمل الصديقين للحياة . ربح الشرير للخطيئة ... الأشداء يحصلون غنى ... من يشتغل بحقله يشبع خبزاً . أما تابع البطالين فهو عديم الفهم . يد المجتهدين تسود . أما الرخوة فإنها تكون تحت الجزية . الرخاوة لا تمسك صيداً . أما ثروة الإنسان الكريمة فهي الاجتهاد ... نفس الكسلان تشتهي ولا شيء لها ، ونفس المجتهدين تسمن . فدية نفس رجل غناه . حيث لا بقر فالملحف فارغ ، وكثرة الغلة بقوة الثور . في كل تعب منفعة . وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر . تاج الحكماء غناهم . لا تحب النوم لكلا تفتقر . افتح عينيك تشبع خبزاً ... نوم قليل ، نعاس قليل ، وطى اليدن قليلا للرقاد يأتيك بفقرك عداء وبعوزك غازيا .

هذه نقول قليلة من عبارات كثيرة جداً تفيض بها صفحات التوراة ... ويلاحظ في هذه الكلمات التي نقلناها أنها تعلق الثراء والفوز بطيبات الحياة بأسبابها الصحيحة ، كما تعلق الفقر والإفلاس والشقاء بأسبابها الصحيحة أيضاً : فالمجتهد العامل القوي الجاد

المكافئ ينال الثراء والمجد ويدرك أغراضه كاملة ، والكسلان الضعيف القاعد ليس له سوى الفقر والجوع والهوان الاجتماعى ، وهذا جزاء حقيقى عادل ... وهذا خلاف ما عهد وعرف فى الكتب الدينية ، فإنها تعلق كل فلاح — حتى الفوز بالدنيا وبالخيرات المادية — على الصلاح والعبادة والتقوى ، وتعلق كل شر وخيبة فى الدنيا وفى الآخرة على الفسوق والعصيان — أى إنها تعلق كل شئ تعليلاً دينياً لا تعليلاً طبيعياً ، بل إنها تنكر هذا التعليل وتراه زيفاً ومروقاً . أما هذه الأقاويل التى جاءت فى التوراة فهى — كما رأى القارىء — تعلق كل شئ بسببه الصحيح الطبيعى : فلا تقول : إن الصلاة والذكر وخوف الله تجيء بالمال ، ولا إنها تزيد فى إنبات الأرض وإخصاب الزرع ، ولا إن ترك الصلاة والعبادة يمنع مجيء المال ويمنع نبات الأرض وإخصابها إذا ما جمعت أسباب ذلك ، بل كل شئ وسببه ! وهذا لون غريب وتعليل عجيب فى كتب الدين .

أما مدح الثراء والدنيا ، ومدح العمل لها وذم التهاون فواضح جداً مما نقلنا وذكرنا ... وقد بالغت كثيراً هذه الآيات — إن كانت آيات — فى تحبيب المال إلى النفوس وفى الرفع من قيمته ، وفى تبغيض العوز والجوع إلى البشر ، متحدثة بالويل والثبور والهلاك لكل من لا يكون غنياً ، وبالسعادة والهناء لكل من كان غنياً ... ولا يوجد أشد مبالغة فى الحض على حب الحياة من قوله (عمل الصديقين للحياة) ومن قوله (من يجمع فى الصيف فهو ابن عاقل) . وهذا الضرب من التعليم غريب أيضاً فى الكتب الدينية . فالعراة فى هذه الأقوال من ناحيتين : الأولى : تعليل النجاح فى الدنيا بالعمل لها لا بالتقوى كما يقول رجال الدين ، وتعليل السقوط بترك العمل . والثانية : المبالغة فى تزيين الحياة الدنيا وتزيين العمل لها والحكم بأن من يفعل ذلك فهو العاقل الراشد المرضى عنه ، ومن لا يفعله فهو الأحمق الجاهل المغضوب عليه .

ولسنا نستطيع أن نشك فى أن هذه التعاليم قد كان لها تأثير حافز للطوائف اليهودية البارعة والمشهود لها لدى الجميع بالبراعة فى كسب المال وفى السيطرة على الموارد الاقتصادية أين وجدوا وكيف وجدوا ، حتى صار معلوماً فى كل زمان ومكان بأن من يحاول منافستهم ومقاواتهم محكوم عليه بالهزيمة — كما أن تلك التعاليم التى نقلناها عن أولئك المشايخ الهدامين قد كان لها التأثير الحاسم فى قتل همم من ابتلوا بقراءتها من المسلمين حتى أخذوا مضرب الأمثال فى العجز الاقتصادى وفى غيره من ميادين الحياة ...

فاليهود ما زالوا يقرأون هذه العبارات والترغيبات في التوراة على أنها وحى نزل إليهم من الله على أنبيائهم ، فتحدث في نفوسهم وطباعهم حب المال وحب العمل وحب الحياة على مر القرون إلى أن صاروا بهذه المكانة المالية المرموقة ، وإلى أن سلمت لهم الإمامة والتبريز في هذا الشأن .

ثم هذه الأقاويل إن كانت من الوحي النازل على الأنبياء فهي حجة دينية على فضل العمل من أجل الدنيا وفضل حب المال ، وإن كانت مما وضعوه وزادوه فهي برهان على تمكن النزعة الاقتصادية من نفوسهم وطباعهم بحيث حملتهم هذه النزعة الغالبة على أن يضعوا أقوالا وآيات في تفضيل ما يحبون ويشتهون ليدسوها في كتبهم المقدسة ، ولينحلوها الله وأنبياءه ، ولتعبدوا بها وبتلاوتها ! وسواء أصح هذا أم ذاك فالذى لا ريب فيه أن لهذه الآيات فضلا عظيماً كبيراً في تاريخهم المالى الطويل القوى .

إن ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة تعاودنى كلما مر بخاطرى عصر مشثوم قضيته مسحوراً بهذه الآراء : كنت أفر من الحياة ومما يعلى من قيمة الحياة : لقد كنت لأجد ما يحملنى على أن أرفع قدمى لو علمت أنى إذا رفعتها تكشف ما تحتهما عن أعز ما عليه يتقاتل الأحياء ! وقد ضاعت على من أجل ذلك فرص ، كان يمكن الاستفادة منها ، لا يمكن استرجاعها ! كان الغرور الدينى قد أفسد على كل شعور بالوجود وبجماله . وكنت مؤمناً بأن من فى المجتمع لو كانوا يرون رأى ويزهدون زهدى لوقفت الأعمال كلها ، ولما وجد العالم بدأ من أن يخرب ! كنت أنظر إلى من يهتمون بالحياة وبعن فيها ومن يعملون لها ويجاملون ويخالقون من أجلها بعين أقل ما فيها الاحتقار والاستصغار ! وكنت لأبألى بأحد مهما كان عظيماً ومهما كان قادراً على النفع والضر . وما كنت أفكر فى أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو للاتصال به ! وكنت لأخالق إنساناً رغبة فيما يتخالق الآخرون من أجله . وكان شعارى فى تلك الفترة قول ذلك المغرور الخدوع مثلى :

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

نعم كنت أعتقد أن الكل هين ، وأن جميع ما فوق التراب وما فى العالم من جمال وطيبات وحاجات ، ومن أقوام وأم وشعوب ، تراب ! وكنت لأبألى أن يحلولى شىء

من ذلك أو يمر ، ولا أن يرضى أو يغضب ، ولا أن يعمر أو يخرب ، كما يقول هذا الشاعر المسكين ! وكنت أرى أنى بذلك أَرْضَى الله ، وأنى إذا أرضيته فلن يضيرنى شيء ^(١) وكانت الدنيا كلها تدور من حولى من غير أن أدور معها أو أحس دورانها ! وكان يخيل إلىّ وإلى غرورى الدينى الأعمى أنه لاقوة كقوتى ، لأن الله معى — واهب القوى ! فليقو العالم كما يشاء وليجمع من الأسباب ما طاب له ، وليحاول من أجل نفسه ما يحاول ، فإن ذلك كله لاقيمة له ولا خطر بالنسبة إلى قوة من استقوى بطاعة الله ومن ترك الأسباب جملة مستمسكا بأسباب الله وحدها ، وكان يبدو لى أنه بقدر إيمان الإنسان بذلك ، وبقدر كراهته العالم والوجود والدنيا والإنسانية كلها ، وبقدر استصغاره لها واحتقاره إيها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها — بل سبها ولعنها — يكون قربه من الله ورضاه عنه ودلاله عليه ... وكانت هذه الاعتقادات أو الخيالات تهبط بى وتعلو ، وتجعل لى وجوداً خاصاً وعالملاً خاصاً ودنيا خاصة ، تدور من أجل واحد وتوجد لأجل واحد أيضاً — واحد أَرْضَى الله ووهب له كل معانيه فوهب الله له على حسب ما يظن كل ما يريد ولو كان فى جملة ما يريد إعزاز الأمم وإذلالها .

وكانت الخطب الأسبوعية التى أسمعها ، والعظات الأخرى للتجددة المتكررة المستمرة ، والكتب التى أقرأها ، لاتدع فرصة لى لتنبعث غريزة أو تنطلق طبيعة من الغرائز والطبائع الكامنة فى أعماق النفس الإنسانية وفى ثنايا الوجود الإنسانى التى تدفع إلى العمل وإلى حب الحياة ! وكانت كل تلك الغرائز والطبائع والمعانى الإنسانية عندى مُعَقَلَةً ، لا تستطيع الانبعاث ولا الانطلاق ولا العمل ... كانت الخطب أيام الجمع إحدى النكبات . وذلك أنها لتكررها كل أسبوع استطاعت أن تجعل تخديرها مستمراً مضموناً متجدداً ... فالطبيعة الإنسانية تأبى الاستمرار فى الشقاء والبؤس ، وتأبى أن تبقى مستذلة راضية مستسلمة لذلك إلا إذا أمكن أن تقعد وأن تمنع القيام بوظيفتها بأن تعمل لها عملية تخدير أو تنويم صناعى أو شىء آخر من تلك العمليات المبيدة . وكانت خطبة يوم الجمعة من أعظم وأقوى ما يقوم بهذه العملية ، لأنها لتكررها لا تترك فرصة لانطلاق معنى طيب من معانى الإنسان .

(١) يبدو على كثير من المتدينين فسوة وخشونة فى معاملة الناس ومخاطبتهم ! والسر النفسى فى هذا أنهم يمتقدون أن الاتصال بالله والايان بعظمته وكامل قوته يستلزم الاستهانة بخلقه الضعفاء فليشتموا وليهانوا لئلا يذنبوا ذلك لن يضر شيئاً ، بل إنه ينفع ، لأنه كالبرهنة على الثقة بالله وعلى أن الضر والنفع منه وحده .

ومن العجيب — بل من غير العجيب — أن البائسين الذين يخذرون بهذه الخطب كل أسبوع وتقيدها غرائزهم وطباعهم وتمنع العمل والإحساس بالحياة يجدون لذة مسكرة في سماع هذه الخطب وترديدها ! وليس هناك شك في أن شعورهم بهذه اللذة يشبه شعور مدمن المخدرات عندما يتناول منها شيئاً بعد حرمان طال أو قصر ! وذلك أن هذا التناول للمخدر ، وهذا السماع للخطبة المخدرة يؤديان عملية التسكين في الحالتين فخرمان الإنسان من الحياة الصحيحة الجميلة يؤلمه ويؤذيه لو ترك سلباً معافى ، ولن يستطيع ذلك إلا إذا خدر ، فالخطب تقوم بهذا التخدير ، فيجد البائس المسكين فيها تسكيناً لآلامه ، ويجد فيها عزاءه ، ويجد فيها آماله الضائعة المشتتة المحرومة ! فيظل مستكيناً راضياً ، وينعم عيناً بكل ألوان الشقاء ، ويظل يتدلى ويهوى في دركاته حتى يصل إلى حالة يتعجب السليم المعافى من رضاه بها وسكوته عليها وحياته معها ! وكما أن مدمنى المخدرات يبلغون حالة من الانهيار المادى والعنوى لا يتصورها العقل — مع رضاهم بها — فكذلك الذين يخذرون بهذه المواعظ المتكررة يبلغون هذه الحالة من الانهيار مع رضاهم بها ولذتهم بإعطائهم هذه النوبة الأسبوعية المخدرة .

إن القوانين تعاقب من تناول المخدرات مرة في خفية وعلى حذر ، ولكنها تبيح تخدير الآلاف ، بل مئات الآلاف ، بل مئات الملايين في المساجد والجمعيات كل أسبوع بل كل يوم أحياناً ، ثم تحت هؤلاء المخدرين على أن يخذروا ، بل وتجازيهم وتوظفهم وتقتطع لهم من أموال الدولة المكافآت الشهرية ! وهذا بلا ريب من أعجب مناقضات القوانين وغرائبها .

✓ لقد أريد أن تؤدى المنابر والمساجد أعظم المنافع للإنسانية فأدت شر ما يؤدى : أريد منها أن تحي فأماتت ، وأن تعز فأذلت ، وأن تهدي فأضلت ، وأن تبعث على العمل فبعثت على الكسل ، وأن تمتدح الحياة فامتدحت الموت ، وأن ترفع من شأن الجمال وتحببه إلى النفوس فرفعت من شأن الدمامة وجببتها إليها ، وأن تملأ الرؤوس بالحقائق فملأتها بالأوهام ، وأن تخلق شعوباً متوثبة خلقت شعوباً خاملة عاجزة — تنتظر وجودها وحياتها وحاجاتها من خارجها لا من أنفسها ، معلقة أبصارها دائماً بالسماء ، منتظرة أن تمطر عليها الذهب والفضة والسيادة والوجود والعز وكل ما يؤمل ، ولا تنتظر إلى نفسها وطبيعتها ... فأقبح بها من منابر أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل ! !

كم أرثي لهؤلاء البائسين المساكين الجائعين العارين حيناً أراهم يوم الجمعة ، وآذانهم مرهفة ، وأعينهم مشدودة بذلك الخطيب الذي عبث بجسده الناحل المشوه الجهل والشقاء وكل ضروب الحرمان ، ينتظرون منه أن يطعمهم وأن يكسوهم وأن يهيمهم الصحة والعافية ، وأن يبني لهم المنازل الجميلة ، وأن يقضى لهم كل حاجة ورغبة ، وأن يقدم إليهم الاستقلال والسيادة كهدية خالصة رخيصة ، وأن يدخلهم أخيراً الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء في صنوف الأبرار القربين ... والتمن لذلك كله لا يعدو كلمات خفيفات مبهمات مجهولات يتمنون بها ، وبعض حركات يمثلونها ، أو تمثل بهم كما هو الصحيح ، بدون أن يفقهوا لها معنى أو يدروا لها غرضاً وغاية .

وكم أرثي لهم — بل وأبكي — وهم يتمايلون تحت ذلك الخطيب ، ويهزون رءوسهم الفارغة ، ويترنحون بأعظافهم المحطمة تحت تلك الأسماك البالية الممزقة ، كلما سمعوا وعداً أو وعيداً ، وكلما سمعوا الآمال الضخمة الرخيصة تزجي إليهم ، والأهوال الرابعة المذهلة تصب عليهم ، وكلما سمعوا أن إنساناً ارتفع من حضيض الفاقة والنذل إلى أوج الثراء والعز — وأن آخر توقفت أمام إرادته قوانين الطبيعة ونواميس الوجود أو بطلت — وأن آخر أهبطت له الملائكة المقربون من سماواتها لتكون في خدمته وتحت مشيئته — وأن آخر زف إلى الجنة زفاً وبين يديه الملائكة والنبيون يحملون المشاعل والبخور ويفتحون له الطريق — بل وأن أمة استولت على الأمم وأملت على الزمان والمكان — لاشيء سوى أنهم أرادوا ذلك وطلبوه ، وأنهم تحركوا حركات ، سموها عبادات : نعم كم أرثي وأبكي لهؤلاء البائسين وهم يهتزون تحت هذه الوعود والبشارات ويتمطون شوقاً ورغبة ، ثم يخرجون وهم يندبون أنفسهم ، ثم يقضون أيامهم ويودون بآمالهم إلى نهاية الأجل القريب ، محمورين بهذه الحمرة التي لا يفيق شاربها .

لقد كان من الممكن أن تنطلق شرارة ، أو تنبعث عاصفة من الطاقة الإنسانية الأبدية الكامنة في أعماقهم ، فتضئ لهم الطريق أو ترتفع بهم عن هذه الوهدة وتنقلهم عن هذا المكان الدليل ، لو تيسر أن يثقوا من برائن هؤلاء المخدرين . ولكن هذا الاجتماع الأسبوعي مفروض فرضاً ، وهذه الخطب مفروضة على هذا الاجتماع فرضاً أيضاً ، فأين النجاة وكيف الفرار ! .

قد يجوز أن يختلف المصلحون في كثير من طرق إصلاحهم ، ولكن ليس مما يجوز الاختلاف فيه أن الواجب الديني والوطني والإنساني يلزم إما بإصلاح هؤلاء الخطباء وهذه الخطب ، وإما بالحيلولة بينهم وبين ضحاياهم وضحاياها . وإما بشيء آخر ...

وقد أراد جماعات من المتأخرين أن يجددوا في معنى الزهد وأن يجعلوه عصرياً ، فقالوا : إن الزهد محله القلب لا اليد — يعنون أن القلب هو الذي يجب أن يزهد في الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها ، أما اليد فلا بأس بأن تجمع وأن تعمل . وقد ظنوا أنهم بذلك قد وقفوا بين أقوال هؤلاء الشيوخ وبين ما تتطلبه الحياة من عمل ونشاط ... وفات هؤلاء أن هذى الفكرة مستحيلة متناقضة . وذلك أنه من غير الممكن أن يكره المرء الدنيا بقلبه — أو ألا يحبها بقلبه — ثم يعمل لها باهتمام ، صابراً على مشقات الطلب والعمل ، لأن الذي يبعث الإنسان على ذلك هو حب النتيجة التي يرجو تحصيلها وإلا لما قام بعمل شاق إلا أن يكره إكراها . بل الذي يمكن في هذه المسألة هو العكس — أي إنه من الممكن أن يحب قلبه وتزهد يده . فمن الواقع المشاهد أن تكون محباً للدنيا وللمال جداً بدون أن يمنعك هذا الحب من الإنفاق وصرف مافي اليدرءاء المثوبة أو رجاء أمر آخر أو طاعة لعاطفة نبيلة . وكل الذين يجودون بأموالهم هم من هذا النوع . وقد أشار القرآن إلى هذا في قوله « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقوله « ولكن البر من آمن بالله — إلى قوله — وآتى المال على حبه ذوى القربى ... » وقوله .. « ويطعمون الطعام على حبه » . وهذه الآيات صريحة في أن المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال . أما هؤلاء المحرومون الحارمون فيزعمون أن حب الدنيا والمال رأس كل خطيئة ! فالمرء إذن قد يحب المال ثم ينفقه ، ولكنه لن يكرهه ثم يعمل له . فهذا الرأي الجديد في الزهد يدل على أن أصحابه لا يصدرون في ما يقولون عن نظر وتفكير .

غير أن هذه المسألة قد تدرس على وجه آخر فيبدو من دراستها على هذا الوجه أن لما يقوله الزهديون وجهاً ، أو أنه هو الوجه الصحيح . ذلك أن من القضايا المتفق عليها أن الاختلاف بين الناس في وضعهم الاجتماعي وفي تفاوت درجاتهم من حيث الغنى والفقير ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والعز والنل ، وغير هذى الأمور ، لا يمكن أن يقضى عليه ، بل يوجد إلى جانب الغنى الواحد عشرات الفقراء — أو مئاتهم

أو آلافهم — ولو فقراً نسبياً — كما يوجد تحت أقدام السيد الأعلى عشرات الملايين أو مئاتهم ، يهتفون بحياته وباسمه إذا بدا ، ويخضعون لأوامره إذا غاب — وهكذا القول في كل ناحية من نواحي هذه الحياة المحكمة التعقيد .

وحينئذ فالمسألة ذات فرضين : أحدها أن الحياة يجب أن تقوم على التنافس الحر المطلق الذي لا حدود له ولا قيود ، وأن من عجز عن منافسة الآخرين ومغالبتهم في غرض من أغراضه أو شهوة من شهواته لزمه أن يعد نفسه مغبوناً محروماً ، ووجب عليه ألا يقر له قرار ولا تهدأ له نفس ولا يبطل له مسعى حتى يوفى على كل شهواته وأغراضه وحتى يرد المنهل الذي ورده الآخرون السابقون . . . وأسلحته في ذلك إتلاف جسمه وإرهاق نفسه .

وثاني الفرضين أن يرى أن الأمر دون ذلك كله ، وأن الدنيا ما هي إلا حاجة قليلة ، يكفي منها ما أمسك الحياة ، وأن التفاوت في مظهرها هو مثل التفاوت في مظهر الموت : يحمل عليها وليس منها ، ويلون بها ولكن لا يكونها ، وأن القميص الحريري يلبسه الحى بالنسبة للقميص القطنى أو لما دونه ، هو ككفن الحرير يلف به الميت بالنسبة لكفن القطن أو لما دونه ، وأن المرء ليس إلا عقله وفكره وأخلاقه — أى ليس إلا ذاته المعنوية ، وليس هو ما يتصل به اتصالاً بما ليس فيه ذاتياً .

أما الفرض الأول فهو ما لاشك في عنفه على البشرية وقسوته عليها . فإن البشر لا يستغنون في حال من الأحوال عن القرار والرضا — كله أو بعضه — بما هم فيه وإلا هلكوا وعصفت بهم الحشرات . . . وما الرضا والقرار في هذه الحياة إلا كالظل والماء والحطب بالنسبة للصحراء المجذبة المشبوبة عليها الشمس المحرقة . وإن البقاء في هذه الحياة بدون هذين الأمرين — الرضا والقرار — مستحيل استحالة الحياة في هذى الصحراء بدون الماء والظل والحطب . . . ولا شك أن هذا الفرض في الحياة ينتزع منها أسبابها . ولن يوجد شيء إذا لم توجد أسبابه .

فإذا ما قامت الفكرة الإنسانية العامة على أن وجودها لا يعدو أن يكون ملحمة مادية قاسية متواصلة ، وأن حظ كل فرد منها هو ما يعتصبه تحت غبار هذه الملحمة ، وأن سعادته وشقاءه منوطان بها ، فلا شك في أنها — الإنسانية — ستحرم حينئذ حرماناً باتاً من السعادة ومن الهدوء والاستقرار . فإن كل إنسان — بالغاً ما بلغ — سيجد

أمام عينيه من هو فوفقه فى شىء أو فى أشياء كثيرة ، وسيجد مجال التطلع والتشوف شاسعاً واسعاً دائماً ، وسيشقيه هذا الفرق أو هذه الفروق ، وسيعمر عليه أحلى ما فى حياته من طيات ، وسيقى من هذه الناحية ولأجل هذا الوجه — وإن نال أقصى ما تتطلع إليه أكثر النفوس — مثل من حرم الحرمان كله ، لأن كلا منهما يرى من هو فوفقه ومن ميز عليه فى أمر من الأمور ، ويبصر ما تعدت به عنه قواه ويده . وسوف يظل هذا الشعور والاعتبار مبعث آلام لا تنتهى ومصدر اعتداءات لا ضابط لها . فإن أكثر العدوان الذى يقع بين البشر دائماً إنما يقع للإيمان العميق بالمادية . ولا شىء يستطيع القضاء على هذا العدوان المنتشر فى كل زمان ومكان ما لم يتغير النظر إلى الحياة وإلى حقيقة الإنسان ، وما لم تهذب هذه النظرة المادية الجشعة الطاغية ...

وعلى هذا فلا مفر من إقرار مبدأ القناعة والزهد ، ولا بد من الإيمان بالاقتراض الثانى ، وفيه وحده شفاء الإنسانية المضمون من داء الجشع الذى أشقاها وأشقى معها الوجود كله . ولا ريب أن من أعظم أسباب هذه الحروب الشاملة هو هذا الإيمان بالمادية والاعتقاد لنزعاتها ونزواتها وشهواتها . ولو أنها نهت من هذا الإيمان وكفكت من غلوائه لكان فى ذلك بعض النجاة أو كلها . ولهذا فقد قامت الأديان والفلسفات القديمة على هذا الاقتراض وأمعنت فى تجميله وتحسينه والدعوة الصادقة إليه . وجاء فى الحديث النهى عن أن ينظر المرء إلى من فضل عليه فى الدنيا ، وأمر بأن ينظر إلى من هو دونه لهذا الغرض نفسه . وفى الكتاب « ولا تمدن عينك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » .

هما رجلان : أحدهما طلعة طمعة ، ممدودة عيناه وقلبه وآماله إلى أبعد الآمال والآمال وإلى ما لا تستطيع قواه البشرية أن توصله إليه : يريد كل ما يرى ، بل وما لا يرى مما قد يخطر بباله ، ويحسد كل محدود ، ويتأوه غيظاً وحسرة ، ويفور حقداً وألماً ، كلما أبصر نعمة نالها إنسان ، وكلما أبصر من هو فوفقه فى شىء من الأشياء ... ويبقى هكذا حياته جميعها ، لاقرار ولا رضا ولا سرور ولا سعادة ولا غبطة ولا التذاذب شىء مما يلتذ به الناس ! فأى إنسان هذا ! وأية حياة هذه التى يحياها ؟؟ هذا رجل ، ورجل آخر يعيش بجسمه لا بآماله ، ويعمل لحياته لا لأطماعه : فلا يطلب إلا ما طلبته الحياة ، ولا يحتاج إلى غير ما يمنحه البقاء والوجود . مثله كمثل الأزهار والأطيار وهذه المخلوقات اللطيفة الجميلة

البرأة من كل حقد وحسد وطمع وأمل يعضها بالآلام ويقض مضاجعها بالحسرات والآهات ، ويجلد أعصابها جلدًا متواصلًا حتى تصاب بما يعز الشفاء منه ، ويقضى عليها بأن تشب كل هذى الحروب الجهنمية بلا رحمة ولا إنسانية ، إجابة لآمالها وأطاعها ... فيسعد كما تسعد هذى الأزهار والأطيوار والمخلوقات الأخرى الجميلة ، ويقر قرارها ويهدأ هدوءها ، ويتناول الحياة مثل ما تتناولها هي — أى يتناولها بقدر ما يقول له وجوده وبقاؤه : تناول ، لا بقدر ما تقول له أطاعه ذلك — فيعيش هو ومن حوله في سلام أبدى ونعمة مطلقة شاملة ورضا لا يتنى ...

وهؤلاء الذين مدحوا الفقر والقناعة ، وذموا الحرص والجشع والتهاك إنما قصدوا هذه المعانى الطاهرة الخيرة . وقد أرادوا أن يسموا بالإنسانية على أطاعها المادية وأن يقربوها في معانيها وأخلاقها من الملائكة ، وأن يغسلوا من قلوبها الغل والحسد والبغضاء التى يسببها حب المادة والإسراف فى طلب المال وما يتصل به . وأرادوا أيضاً أن يعزوها . والإنسانية قد تستغنى عن أشياء كثيرة ولكن شيئاً واحداً لن تجد ما يغنيها عنه : هذا الشيء هو العزاء الذى يخلق لها الرضا .

وقد وجد إناس كثيرون فى ثنايا التاريخ المختلفة استطاعوا أن يحيا بهذه المعانى وأن يجدوا فيها لذتهم وحاجتهم ، متأثرين بهذه الدعوة الطيبة ، متممسين هذه الروح الخيرة . فكانوا ملائكة إنسانيين ، وكانوا مناراً يأوى إليه كل من ضلت به سفينته الخلقية فى خضم المطامع والأهواء المفسدة ، وكانوا هدى يجتذب كل من جارت به ضلالاته فعى عن الطريق .

كل هذا يمكن أن يقال ، وكثير منه صحيح ، ولكن لن تكون نتيجته إثبات فضيلة الفقر والقناعة ، ولن يدل بمجموعه على ذلك . وما تقدم فى هذا الفصل يكفى قضاء فى هذه القضية .

أما إن الإنسان لن يستغنى فى حياته عن العزاء الذى يهبه الرضا فمسألة تجل على الخلاف . ولو أن إنساناً ما فقد هذا العنصر النفسى فقدماً تاماً بحيث لم يبق أمامه جانب واحد يرضيه ويعزیه ، أو جانب واحد يحدث له بعض الرضا وقليل من العزاء لهلك لا محالة ، إما انتحاراً وإما أسى وحسرة . وكل إنسان إنما يعيش بقدر ما له فى وجوده

من آمال صادقة ، أو كاذبة ، تفيض على نفسه المتلهفة أواناً مختلفة من هذين العنصرين
الضروريين للحياة الإنسانية ... ولكن ليس طريق ذلك هو الفقر والبؤس والشقاء ،
وإنما طريقه أشياء أخرى : منها رياضة المرء عاطفياً وعقلياً على الشعور بالسعادة وعلى الاحتمال
الجميل وتلقى المكروه بالصبر والابتسام ، ومحاولة الخروج منه بالنصر والظفردون الاستسلام ،
وأن يكون مثله مثل الجندي المغوار ، يخوض ثبج الموت ، ويدفعه باليمين وبالشمال وهو
يهزج أهازيج الحياة — أو مثل الأمة الفتية المتوثبة ، تتلقى الهزيمة الصارمة رافعة رأسها
معتقدة أنها فترة انتقال وتجربة قاسية لا بد أن تمر بها وأن تعبرها إلى ما هو أفضل
وأعظم — وأن يعلم القدرة على الاستمتاع بكل ما يدرك من آمله وإن قل ، وأن يكون
كالحي النامي الصحيح ، ينتفع بكل ما يقدم إليه من غذاء وشراب وهواء قابلاً غيره أيضاً .
ومنها إعطاؤه الصحة الكاملة والجسم القوى السوي . فإن الاكتئاب واليأس انحراف
في الطبع ، وانحراف الطبع نتيجة طبيعية لانحراف الصحة . ولا تستبد الكتابة واليأس
المقيم إلا بضعاغ الأبدان ، أولئك الذين لم يوهبوا أجساماً طبيعية قادرة على مواجهة
الحياة العارمة بمزاج سليم وقوة فعالة . ولن يخر فريسة لهذه الانفعالات السخيفة إلا أحد
أولئك الذين جاءت أحد أجهزة أجسامهم وأجهزة الحياة فيهم ناقصة عليلة .

وإذا كان هذا حقاً — وهو حق لا ريب فيه — فإن الذي يهب الصحة والبدن
السليم القويم هو الغنى لا الفقر ، وهو السعادة المادية لا الحرمان المادي . والفقر
والحرمان هما بلا شك أحد ما يعطى الأبدان العليلة العاجزة . وهذا الرضا الذي قلنا إنه
لا بد منه للحي المرید المنفعل لا يمكن أن يحظى به الفقراء المحرومون ، بل هو أبعد
الأشياء عنهم . والفقر والحرمان يلازمهما — غالباً — السخط والحقد والشذوذ
والانفعالات الرديئة . وإذا وقع غير هذا فمن الأمور الشاذة التي لا يصح أن تكون قاعدة
من القواعد .

ومحاولة نيل الرضا والقرار والهدوء بالاستسلام للفاقة تشبه محاولة الاستسلام للجهل
والمرض وللعار الاجتماعي للاعتقاد أن التطلع إلى العلم والصحة والارتفاع فوق العار مما
يحرم الرضا والاستقرار والهدوء .

ثم إن الحياة وأهلها ليست وليسوا طوع أهوائنا ، بل هي سائرة وهم سائرون في
الطريق ، شئنا ذلك أم أبيناه . فإذا نحن رضيينا لأنفسنا القناعة واخترناها نصيباً فإن

الآخرين لن يرضوا لأنفسهم هذا الذي رضينا ، بل سيسرون في الطريق الآخر ،
وحيث لن يدعونا في هدوئنا وقرارنا وسعادتنا النفسية الخيالية ، بل سيرحمونا
ويضغطونا ويخوننا عن أما كنا ، كما حدث لنا ولأمثالنا من الواهين العاجزين الراضين
بكنز القناعة الذي لا يفنى ، كما تقول في حكمتنا التقليدية المخربة .

وأما القول بأن الجشع المادى هو الذى يوقع الحروب والشور والعداوات بين
الناس فهو قول فيه كثير من سمات الحق والصدق ، غير أنه لا مرأى في أن الفقر أو خوف
الفقر ، وأن الحاجة أو خوف الحاجة هما اللذان يوقعان بين الخلق أكثر هذه العداوات
والاعتداءات ، وأن اللصوص وأضرابهم من العادين على الأمن العام أكثرهم — ومن
الممكن أن يقال بصدق كلهم — من المفلسين المفلوكن ، وأن الحروب تقع بين الفقراء
كما تقع بين الأغنياء ، بل وأن وقوعها بسبب الفقر أكثر من وقوعها بسبب الغنى ،
وأن عهد الفاقة الإنسانية العامة لم يستطع أن يمنع هذى الحروب ، بل وأن عهد القناعة
والزهادة الدينية كان يشب الحروب على نطاق أوسع وأقطع مما تشبها عهود المادية المالية
الجشعة . كل هذا صحيح لا ريب في صحته . فالدعوة إلى القناعة والزهادة لا تعطى الخير
المرجوع منها ، ولكنها تجلب الشر الخشى منها فقط . فإن الإنسان مدفوع مسير بغرائز معينة
أصلية فيه . فإذا صادف دعوات دينية أو غير دينية تكافح في ظاهرها هذى الغرائز
الطبيعية ، كانت النتيجة أن تختفى هذى الغرائز عنها تحت مظاهر أخرى قد تكون أعظم
فتكا وإيقاعا بالإنسانية وبأصحابها . فتحسين الفقر والزهد والارتفاع على حاجات الجسم
وضرورات الحياة لن يستطيع أن يسلب الإنسان غرائزه هذه ، ولن يستطيع أن يجعله
كما يريد الداعى المزهد المحسن للزهد . بل ستكون هذه العانى لتبرز تحت قيادة مزاعم
أخرى لتؤدى فتكها وفعلها في ضراوة وفضاعة أشد مما يتصور . فأنت إذا دعوت إنساناً
إلى هذا الكنز الروحي المزعم وأفنته بأنه يجب عليه أن يزهد وأن يخلى الدنيا وأربابها
وأحابها ووراءه ، وألا تخطر أو يخطر واه على بال ، وأن يعيش بروحه ومعناه ، وأن
يرفض بدنه وغرائزه ، فلا تظن أن ذلك الإنسان قد أصبح كما تريد . إنك إذا ظننت هذا
قد بلغت في الظن . وإذن فلن يتنازل المرء عما جبل عليه من شهوات وطباع ومطامع
تصدر عنها الشور والعداوات والاعتداءات ما دام محتفظاً بطبيعته ولم يخلص منها ويصر
شيئاً غير الإنسان .

وليس هناك شك في أن إفهام كل إنسان بأن الواجب عليه أن يبلغ الغاية في طلبه

الدنيا وطلبه النجاح فيها، ثم إفهامه أن فيه القدرة النابتة على ذلك إذا أحسن المسعى والجهاد، وأن كل نجاح وفوز في الحياة إنما يرجع إلى هذا — ثم بلوغه جميع ذلك أو كثيراً أو قليلاً منه — أقول لا شك أن الإنسان الذي يفهم هذى الأمور كلها ثم يفهمها يقل جداً اشتغاله بمعادة الآخرين وحسدكم والحقدهم عليهم، ثم يقل جداً من العمل بمقتضى هذه المعادة وهذا الحقدهم والحسد. فالمكبون على طلب الدنيا بمساع صحيحة جيدة هم أبعد عن الكيد للآخرين والاشتغال بعدائهم من أولئك الضامرين المشتملين على الفقر والبؤس والحرمان، لأن هؤلاء سيلتهون عداوة وضراوة على كل ساع ناجح، وسيوقعون به إذا استطاعوا ولو باسم الدين أو باسم العدالة الاجتماعية أو باسم مقاومة الظلم والظالمين أو باسم المساواة. ولهذا فإن الغوغى من المحرومين والبائسين هم فى العادة الذين يقومون بالانقلابات الدامية المرهبة. كل هذه حقائق ترتفع على الجدال والخلاف... على أن الفقر نفسه شر من جميع الحروب، بل هو حرب تفوق فى أثرها كل حرب. فإذا خفنا من المادية ومن الإيمان بالمادية خشية أن توقعنا فى الحرب الممقوتة كنا مخطئين حقاً، لأن ما خفنا وفررنا منه أسهل وأخف جداً مما فررنا إليه ووقعنا فيه. فالحروب مع الغنى والثراء خير من السلم الدائم مع البؤس والشقاء...

وأما الحديث القائل: (انظروا إلى من دونكم ولا تنظروا إلى من فوقكم) فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية. ذلك أن الإنسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسد للمتفوقين الناجحين. والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير: بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر، ويؤذى ويظلم المحسود المنفوس عليه. وقد يترتب على هذين الأمرين شرور كثيرة وآفات اجتماعية شاملة... ويمكن تصور هذه الاحتمالات متى فكرنا فى شعب أو مجتمع كل فرد فيه يغلى غيظاً على من هو أرفع منه فى شأن من الشؤون، ثم فكرنا أن هذا الغيظ قد يتطور إلى محاولة الكيد والإيقاع ما أمكن. وأقل ما لهذه الحالة من احتمال أن يفقد الإخلاص والتعاون والحب والانسجام بين أفراد هذا الشعب. وعاقبة هذه الآفات لن تكون سوى الانحلال العام الذى لا ريب فيه. فكان لا بد من وضع علاج لهذا، وكان من المعلوم أن البشر كما يتحاسدون ويتغايرون فإنهم يتأسى بعضهم ببعض ويخفف آلام فريق منهم آلام الآخرين على حد قولهم المشهور: (إذا عمّت المصيبة هانت). أما الانفراد بالآلم وبالظلم الاجتماعى والمصيبة فهذا ما لا يطيقه الإنسان. فكان من الصواب إذن أن يلفت المصاب إلى المصابين، ويدل المتألم على مكان المتألمين

ليهون هذا من شعوره بالرزء ومن إحساسه بالبلوى . فأرشد إلى أن ينظر من هم أشد منه هولاً وخطباً ورزءاً . ولكن ليس معنى هذا الرضا والاستسلام لتلك الحالة ، كلا ، وإنما معناه التعزية مع التحريض على الخروج من المصيبة بالسرعة والقوة كلها ... وكأنه في معنى أن يقال : لا تهلك أسي وجزعا ، فإن أمامك من هم أفدح خطباً ، ومع هذا لم يهلكوا ولم يحاولوا أن يهلكوا ، بل حاولوا النجاة فنجوا ، وطلبوا الصعود فصعدوا ، فليكن لك فيهم الأسوة والافتداء ...

وأما قوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » فهو في موضع النهي عن الحسد وعن التطلع إلى ما في حوزة الآخرين ، فإن هذا هو صنيع الأطفال والنساء العاجزات . وهو صنيع لا يوصل إلى غير الألم والغيظ والحقد . ولكن العاقل اللبيب يجب عليه أن يطلب لنفسه وأن يسعى لها وأن يبلغها كل آملها إن استطاع من زهرة الحياة الدنيا وغيرها بدون أن يأكل أنامله ونفسه تشوقاً إلى ما متع به غيره من عباد الله . فالآية في معنى غير معنى الزهد والقناعة الهابطة بالمهم وبالجهود والأعمال والإنتاج الإنساني . فالواجب علينا أن نشيد ثقافتنا وتربيتنا على تحبيب الحياة وتحبيب العمل من أجلها ، وأن نتمت بكل قوانا أمثال حكمة ذلك السفيه القائل : (زيادة المرء في دنياه نقصان) وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل في تعريف معنى السعادة : (إنها هي القدرة على العمل) . نعم ، إن السعادة هي القدرة على العمل ، وليست هي العمل بدون القدرة عليه ، وليست أيضاً هي البطالة والكسل ذهاباً وراء ذلك المخدر القديم الشنيع : الزهادة أو القناعة .

كان الرسول عليه السلام يتعوذ ويقول في تعوذه : (اللهم إني أعوذ بك من الفقر والكفر) فقالوا له يارسول الله : وهل يكون الفقر عدل الكفر — أي مثله — ؟ فقال : (نعم هما عدلان) حديث صحيح .

أجل إن الفقر والكفر عدلان ، لأن الكفر انفصال عن السماء والفقر انفصال عن الأرض ، فالكافر لا مكان له هناك ، والفقير لا مكان له هنا : فهما انفصالان عن جانبي العالم ... وهما عدلان أيضاً ، لأن الكفر جحود القلب والفقر جحود الجوارح والأعضاء ... وهما عدلان أيضاً ، لأن الكفر كثيراً ما يكون مصدراً للشر والعدوان ونشر الفوضى الاجتماعية المجنونة ، وكذلك الفقر يؤدي هذه الرسالة الجيئة نفسها . وهما عدلان أيضاً

لأن الكفر مجرد من العاطفة الدينية المحسنة أحياناً ، والفقر مجرد من العاطفة الإنسانية . وهاتان العاطفتان هما الدائنتان لهذا العالم بكل ما فيه من خير وفضيلة وإحسان ... وهما عدلان أيضاً ، لأن أحدهما عذاب في أول الوجود والآخر عذاب في آخره ، ولأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ، ولأن أحدهما عجز في العاطفة والآخر عجز في الوسيلة والحيلة ... وهما عدلان أيضاً ، لأن الإيمان يقع هكذا : يتصل الإنسان بالوجود فيحسه فيدرك جماله فيؤمن بمصدر هذا الجمال الذي هو الله . والفقر عاجز عن ذلك كله ، لأنه لا يتصل بالوجود إذ هو مفصول عنه بحرمانه ، فلا يحسه ، فلا يدرك جماله ، فلا يؤمن بسبب الأسباب ... ولأن حواسه مغلقة أيضاً فلا تحس ما يقع حولها .

ثم إن هذى السلسلة المؤدية إلى الإيمان إنما تدرك بآلتها ، وآلة هذا الإدراك إنما هو الخيال والقلب والعقل والحواس القوية المفتحة ... وجميع هذى القوى الإنسانية معطلة في الفقير ، لأنها فيه مشغولة بجراح الفاقة وتباريح الفقر ... وإنما لن نرجو من إنسان يكابد أشد الآلام الجسدية والنفسية أن يستمتع بخيال مشبوب ، أو قلب فياض بالعواطف النافعة ، أو بحواس ملهمة موحية ، أو يشعر بالجمال الذي يحيط به .

ثم إنه — أى الفقير — لا يرى شيئاً من جمال هذا الوجود لأن كل ما هو فيه وما حوله من أولاد وأهل ومأوى ومطعم ومشرب وملبس قبح ودمامة ، فلن يؤمن إذن بمبدأ الجمال ، ثم لن يؤمن بمبدأ العدالة والحكمة ، إذ لا توجد العدالة والحكمة حيث لا يوجد الجمال لأنهما من أقسامه ووجوهه ، ثم لن يؤمن بوجود القدرة المختارة المنظمة المهيمنة ، إذ لن تؤمن بالحكيم المنظم المهيمن القادر إلا إذ شاهدت آثاره ودلائله ... ثم هو إذا آمن إنما يؤمن إيماناً تقليدياً أو اضطرارياً لا خير فيه ولا جمال ولا روح ولا برهان ... فيكون إيماناً كله الجفوة والقسوة والضعف والعنف ... والإيمان الذي يكون بهذه الصورة ما مثله إلا كتل المرأة الفاقدة لكل معانى الأنتى من الجمال والجسم والروح والخلق — أو كتل الأرض التي لا خصب ولا ماء ولا معدن فيها . وإذن اللهم إنا نعوذ بك ، كما عاذ رسولك ، من الفقر ومن الكفر .

هل في سنن الله محاباة — الجهرل بنواميس الحياة مانع منه التقدم

كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة

ينشئ رجل مسلم متجراً أو مصنعاً في مكان ما ، يعرض فيه نوعاً من أنواع
المصنوعات أو غير المصنوعات ، فيقضى له سوء تفكيره وتقديره بالكساد ، فيظل يموت
جزءاً جزءاً حتى يودع آخر أنفاسه ، أو يبقى عاجزاً عن الموت وعن الحياة ، بدون أن يحاول
في الأكثر الغالب العلاج أو الخلاص ، فإذا ما زرتة — أو عدته — قبل نهايته وفطنت
لحالته وقلت له : لماذا أنت هكذا ، ولماذا خصصت بالكساد دون الآخرين ، ولماذا
تصبر على هذا الموت البطيء المحقق ، ولماذا لا تحاول الخروج من هذا المأزق ، ولماذا
لا تغير المكان أو النوع أو طريقة العرض — ومن العلوم أن الأسباب الطبيعية للكساد
الصناعي أو التجاري ثلاثة أمور : مكان العرض ، فقد يكون اختيار المكان خطأ ، ونوع
المعرض : فقد يكون النوع المعروض غير مطلوب ، وطريقة العرض والمعاملة وتقدير
القيم والأسعار : فقد تكون الطريقة سقيمة منفرة — إذا ما وجهت هذه الأسئلة أو بعضها
إلى ذلك الجاهل بسنن الحياة ونظام الكون ، الجاهل بالله ، قال لك — وكله ثقة وإيمان
بما قال : إن الرزق والنجاح ليسا (بالشطرة) ولا بالجدارة ، ولا بالبراعة ولا بالمكان
ولا بالأسلوب ولا بالمعروض والعرض ... وإنما ذلك كله بالخط وبالقضاء والقدر —
والمقضى المكتوب لك سيأتيك ولو اشتدت هرباً منه ، بل ولو حاولت بكل الوسائل رده
وإقصاءه ... فلامعنى إذن للتغيير والتبديل ولا معنى للنقطة والارتجال ... ثم يستسلم لسنة
الحياة الصارمة الباطشة ، مغمضاً عينيه عما حوله وعن الوجود السائر الدائر ، فتطويه
كما طوت الملايين قبله وكما ستطوي الملايين بعده .

ومن الطرائف الخزية في هذا الموضوع أنى عاملت مرة إنساناً من هؤلاء فوجدت
معاملته للناس شاذة قاسية ، فقلت له كأنك لست حريصاً على أن يعاملوك ، وكأنك لا تريد
النجاح ولا الفوز ، فإن هذه المعاملة مما يبعد الدين ذاقوها ورأوها وشهدوها عنك ...
فتعجب من قولي ورآه جد باطل ، بل رآني بهذا قد كفرت أو كدت ، لأنني اعتقدت
أن الأرزاق والنجاح بالأسباب والمعاملات لا بالأقدار والأقضية ... وأخذ يسرد عليّ

روايات وفصولاً يزعم أنه فعلها بالناس . وذكر لي فيما ذكر أنه مرة ضرب إنساناً كبيراً
 جداً عامله وطرده من حانوته وسبه أفذع السب ، ووجه إليه ضروب الإهانات على مسمع
 من الجماهير وعلى قارعة الطريق ! ثم قال لي ! ماتظن هذا الإنسان الكبير قد صنع بعد هذا
 الهون المرير ؟ قلت : أظنه ذهب ثم لم يرجع ! قال إنه بعد هذه الحادثة بثلاثة أيام جاء
 إلى متلطفاً متخضعاً طالباً الغفران والنسيان ، كأنه المجرم الآثم ، وكأني المظلوم المغبون ..
 ثم أردف معلقاً : رأيت أن الرزق ليس بالمعاملة ولا بالحسنى ولا بالأسباب ولا بشيء مما
 تدعى وتحكى ... فغمرتني بجهله العميم ، وأخمني بسخفه فقطعت عليه الحديث وخرجت
 من عنده مفكراً في عاقبة الجهل والضلال ، ومتعجباً من استعداد الإنسان لأن يكون
 أضل من الأنعام ... وليست هذه الحكاية فريدة في الموضوع ، بل سمعنا وسمع القراء
 المثات بل الألوف من أمثالها ! ونحن نسمع هذا أينما ذهبنا وتوجهنا ! بل أكاد أقول
 إن كل الناس عندنا يقولون كما يقول هذا الرجل ، ويرون كما يري ، ويفكرون مثل
 ما فكر ، ويعاملون معاملته ... هذا رأى الرجل الجاهل بالحياة وهذا عمله .

أما الرجل الآخر الذي عرف سنن الحياة فإنه إذا ما أنشأ مصنعاً أو متجراً أو قام
 بعمل من الأعمال ، فلم يجر أمره على ما يريد ويؤمل ، فإنه يعلم كيف يتلافى أمره وكيف
 يتقى الخطر قبل وقوعه . ولا يمكن أن يستسلم للدمار والضياع قائلاً . إن المسألة مسألة
 حظ وقضاء وقدر ... ثم لا يلبث أن يخرج منتصراً وأن ينجو مما ظن خطراً مييداً
 محيطاً ... وإذا ما تصورنا هذا المثل تصوراً صحيحاً وفكرنا فيما يمكن أن تكون نهاية
 الرجلين اللذين ضربناهما مثلاً ، لم يعدر علينا كثيراً أن نفهم لماذا كان الرجل الأول فقيراً
 متأخراً ضعيفاً صغيراً في كل أمر يتعاطاه ، ولا لماذا كان الرجل الآخر غنياً قوياً كبيراً
 في كل شيء يتناوله .

قال أحد الشعراء في أحد الجائدين المجانين :

يعطى ويمنع لا عقلاً ولا سفهاً لكنها خطرات من وساوسه

وقال آخر في آخر :

ما زال يعبث بالمكارم جاهداً حتى ظننا أنه مجنون

يريد قائل هذا الشعر أن ذلك الإنسان الذي عناه بشعره يتصرف فيما يملك تصرفاً

ليس دائماً لقانون ، ولا قائماً على حكمة ولا على استحقاق ، فيعطى من يعطى ، ويمنع من يمنح ، ويعز من يعز ، ويدل من يدل ، ويكرم من يكرم ، ويهين من يهين : يفعل ذلك لا لأن أحداً من هؤلاء خليق بما صنع ، ولا لأنه أتى من الأعمال أو الأسباب ما يستحق عليه ما ناله ... ولكن لأن مشيئته العمياء المطلقة رأته أن تفعل ذلك ، ولأن إرادته المجردة من كل عقل ونظام أحبت أن تصنع ما صنعت ، ولأنه قادر وماذا يمنح القادر السفیه من أن يتصرف مثل هذا التصرف الذى قيل فيه : (حتى ظننا أنه مجنون) وقيل : (لكنها خطرات من وساوسه) ... وليس من ريب أن نظاماً من النظم يقوم على هذا الأسلوب لا يمكن أن يتعرع في كنفه سوى الجهل والفوضى والانحطاط والكسل والنفاق والملق الكريه ... ولا يمكن أن يكون مثل هذا النظام مشجعاً للعبقرية ولا مساعداً للنبوغ على البروز ، ولا شاحداً للمواهب الإنسانية الكريمة .

وقدمت عصور طويلة بالبشر كان هذا النظام القبيح المجرم هو حاكمهم وقادئهم ، فكان الناس إذ ذاك تحت أمثلة للسوء والجهل وتلاشى الكفايات وانحار الفضيلة واختفاء النبوغ ... وكل هيئة اجتماعية تسوى في حكمها وتقديرها وجزأها بين المحسن والسئى وبين فاعل الخير وفاعل الشر ، وبين النابغة والجاهل — بله تفضل الأخير — هى هيئة لا يرتجى لها بالضرورة تقدم ولا خير .

وهؤلاء الجاهلون بالله وبحكمته يرون في أفعاله وفي تصرفه في خليقته مثل رأى هؤلاء الشعراء فيمن عنوا بشعرهم : فيرون أنه تعالى لم يضع نظاماً دقيقاً لافرار منه يلقي كل جزاءه على مقتضاه ، يأخذ كل على حسب ما يعطى ، ويخصد كل إنسان على قدر ما زرع ، وينجح كل إذا درس وفهم ، ويسقط إذا هو لم يفعل ذلك ... ويرون أن هذا العالم في يد الله كلعبة في يد صبى يقذف بها ذات اليمين وذات الشمال بلا تفكير ولا تدبير : فعندهم أن الإنسان قد يستوفى كل شروط الغنى أو شروط الصحة أو الشروط اللازمة لأن يكون إنساناً محترماً ناجحاً في الحياة ، ثم لا يدرك شيئاً منها ... بل عندهم ما هو أقبح مما ذكر ، وذلك أنهم يرون أن القاعد العاجز قد يبلغ كل ما يؤمله من الفوز والنجاح بينما يهوى الجاد الحازم العامل الخليق بكل نجاح في الحضيض كل أيام حياته . ولا مقتضى لهذا سوى مشيئة الله المطلقة وقضائه الغالب . ومن أجل هذا الاعتقاد فإنهم لا يمكن أن يهبوا لأعمالهم كل ما فيهم من استعداد ولا كل ما وهبوا من حول وقوة :

فلا الزارع محتاج احتياجاً صحيحاً لأن ينفق على مزرعته كل ما يمكن من الخدمة والعناية ، ولا الصانع محتاج إلى ذلك لإخراج صناعته كما يجب أن تخرج ، ولا الطالب للعلم يعلم علماً صحيحاً بأنه لن يصل إلى ما يشتهي من الدرجات إلا بقدر ما أعطى من الاجتهاد والدرس واليقظة ، ولا التاجر يدرك أن نجاحه متوقف على ما فيه من صفات ومن إدراك لأخلاق الجماهير وقدرة على الأخذ بقياد أنفسهم ، ولا على ما في تجارته من إغراء وميزة ، بل ولا الجيش وقادته — لو كان لنا جيش وقادة — يعرفون أن النصر والهزيمة أمران يتجاذبهما أمران : الكفاية والنقص ، وأن مع الكفاية النصر ومع النقص الهزيمة ، ولا هيئة من هيئات الأمة تعتقد اعتقاداً لا يمزجه الشك أن نجاحها وفشلها مرتبطان ارتباطاً لا اضطراب ولا فوضى فيه بطريقة سلوكها بحيث تسقط سقوطاً محققاً إذا لم تصنع كل ما يجب صنعه ، وتفوز فوزاً محققاً إذا فعلت كل ما يجب مع استيفاء الأداة واستجماع الشروط ... بل المسائل كلها محكومة بالصدق وبالخطوط وبالآقدار والأقضية التي يتصورونها تصوراً أملاه الجهل وحده ... وكم تسمع من عبارات السخرية والالتهام إذا حاولت أن تقنع من يتصلون بك ومن تلقى أنهم لن يدركوا من هذه الحياة إلا بقدر ما أعطوها من عمل وعقل ، وأن قضاءهم وقدرهم وحظوظهم تأتي أبداً صورة صحيحة موافقة لأعمالهم وعقولهم ولون استعدادهم : فإن كانت الأعمال والعقول مظلمة مشوشة كانت صورتها كذلك وإن كانت مضيئة مشرقة جاءت كذلك أيضاً ، جزاء وفاقاً .

ولقد زعم كل هؤلاء حينما توالى انتصارات ألمانيا في بداية هذه الحرب أن هذه الانتصارات إنما حصلت لأن الله يريد أن يهزم أعداء ألمانيا لأن لديها من الأسلحة والجنود وخطط الهجوم ما ليس عند أعدائها ، ثم لما أن تغير مجرى الحرب وأخذت الهزائم الألمانية تتلاحق ثم هزمت في الخاتمة الهزيمة النهائية رجعوا يزعمون أن المسألة أيضاً راجعة إلى تغير مجرى القضاء والقدر والمشيئة الإلهية لا إلى تغير الأسباب واختلافها . وقد ألقى في هذا الخطب والمحاضرات وكتبت المقالات ! وهكذا يحكمون في كل قضية ، وبهذه العين يصرون جميع الأحداث والحوادث .

وهذه المسألة هي الآن حقيقة مدرجة في جداول الحقائق التي انحسر عنها كل ريب وإن كانت لا تزال عند الآخرين الذين لم يستطيعوا أن يرفعوا عن أذهانهم قناع الجهل المنسوج من خيوط التقاليد الجاهلة ضرباً من ضروب الضلال أو الكفر والمروق ...

ولفهم هذه الحقيقة الأثر البارز الفعال — كما لجهلها ذلك — في تقرير مصائر الجماعات والشعوب وفي توجيهها مختلف الوجوه والجهات .

ولسنا في حاجة إلى التوكيد بعد هذا بأن الأمة التي تضل في فهم هذه الحقائق تضل ولا محالة في سبيلها ، وأنها إن لم تعرفها حق معرفتها فلن تعرف طريقها حق معرفته . بل إن هذه الحقيقة بمثابة نقطة من عندها تبتدىء وتختلف جهود الأمم وطرقها إما إلى النجاح والفوز ، وإما إلى الفشل والدمار .

ومن اليسير علينا وعلى من يشك من القراء في هذا أن نستعمل أنفسنا وأن نتلمس وجه الصواب فيه من أخلاقنا جميعاً . فإن من العسير جداً أن نبذل في طلب أمر من الأمور أقصى الطاقة وأحسن الأعمال ، وأن نوجه إليه كل ما فينا من استعداد وحول ، ونحن نعتقد أن إدراك الأمور ليس قائماً على سنة ولا مربوطاً بنظام ، وأنا قد نحسن كل الإحسان في تناولنا الأشياء ثم يكون نصيبنا الحية ، وأنا قد نسيء كل الإساءة ثم يزرع في سبيلنا النجاح والظفر ، وأن الإساءة والإحسان هما سواء في العواقب والنتائج ، أو أن نتيجتهما ليست مترتبة عليهما كترتب المعلول على علته . فإن الإنسان ، من أجل ضمان تنشيط هممه وإفراغ كل ما فيها من قوة ، محتاج إلى إقناعه بأن مثقال ذرة واحدة من عمله لن يذهب سدى ولن يضيع في مهب الحظوظ والأقدار والفوضى الجارفة ، وأن جزاءه وعاقبته محسوبان حساباً دقيقاً بما يؤديه جسمه وعقله من نضال . فقد شوهد أن الجماعات التي يحكمها هذا النظام تفسد أخلاقها وتفتر همها بل تحمد وتعجز عن الإنتاج والتبريز في ميدان العقل وميدان العمل معاً ، بل تنتشر بين أمثال هذه الجماعات أخلاق أخرى مضادة لذلك كالكذب والدجل والغش والتزوير ... وقد رأينا أناساً في بيئات معلومة يزورون ازوراراً مزوجاً بالكراهة والمقت عن كل ما يسمى علماً وتهدياً وما يسمى عملاً وخيراً يقدم . لأنهم وجدوا بالتجربة والمشاهدة أن الوصول إلى الغاية المرجوة ليس مشروطاً بشيء من ذلك أو ليس متوقفاً عليه ، ووجدوا أن ناساً وصلوا إلى أغراضهم بدون أن يتكلفوا التضحية بمسراتهم العاجلة الصغيرة بمحاولة تحصيل شيء مما نقول ونحن ويقول العقلاء جميعاً : إنه شرط للنجاح الصحيح . ومن سنة الحياة التي نفتش عنها أن جعلت تكاليف المجد باهظة ، فلا يقدم على تقديم هذه التكاليف من رواد المجد إلا من كان الدافع المعرى له قوياً جداً . . . ومن علم أو ظن أن تضحيته قد تذهب عبثاً

أو أنه لا قيمة لها من ناحية الواقع فأني يجد من نفسه وفي نفسه ما يعرّيه بهذه التضحية وما يلزمه إياها ؟

إن هذه التضحية تحتاج دائماً إلى أمرين لكي تكون خالصة صادقة : أحدهما إزالة الموانع المادية والمعنوية ، وثانيهما الإيقان بقيمة النتيجة التي ستؤدي إليها هذه التضحية ، مع الإيمان بحسامة الحسارة التي يؤدي إليها إهمالها .

وليس من ريب في أن من ظن أن الجزء ليس ملازماً للعمل ولا مترتباً عليه وأن النتيجة ليست على قدر الوسيلة وأن الأخذ غير مساوٍ للعطاء ، فقد قامت في طريقه الموانع ، ولم يوقن بقيمة النتيجة ، ولا آمن بحسامة الحسارة التي تلحقه إذا ترك التضحية . فهو إذن فاقد للأمرين معاً . فكيف نرجو له أن يؤدي هذا الثمن الباهظ ؟ .

ومن الأمثلة السيئة للجهل بسنة الحياة ، أو بسنة الله في الحياة ، أن الناس يريدون — وهم يعتقدون أنهم سيصلون إلى ما يريدون — أن يبلغوا جميع أغراضهم المادية والمعنوية بغير وسائلها الطبيعية : فهم يريدون أن ينالوا الثراء الوفير والأولاد والصحة والقوة ، وأن تحصب أرضهم ويزكو زرعهم وتنمو أنعامهم ، وأن يحصلوا المعارف الغزيرة وأن ينجحوا في الامتحانات ، وأن ينصروا على الأعداء وعلى أسلحتهم وجيوشهم وأمواهم وعلومهم ، وأن يدركوا كل ما ييغون ويشتهون . . . بماذا ؟ إنهم يريدون أن يدركوا ذلك كله بالدعاء المجرد تارة ، وبالسكاء والضراعة تارة ، وبالصلاة تارات ، وبالصيام أخريات ، وبالإيمان حيناً بلا عمل ، وبالتقوى أحياناً ، وبقراءة القرآن ، أو بترتيب الأذكار والأوراد والأحزاب . . . ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلّاهم على هذه الحقيقة — والدين والقرآن بريئان مما يزعمون .

وإن أوغل من هذا كله في الضلال ما ذكره الغزالي في كتابه (منهاج العابدين) من أن المؤمن المشغول بعبادة الله وذكره غير محتاج إلى الطعام وإلى الشراب من أجل حفظ الحياة ، زاعماً أن التسبيح والتهليل يحفظان الحياة ويغنيان عن حاجاته المادية كحال الملائكة ، وزاعماً أيضاً أن الطين والتراب يغنيان كذلك عن ذلك ، ذاكرراً أن جماعات من السلف الأولين المشغولين بالله كانوا يستفون التراب فيصيره الله في بطونهم غذاء ، وأن جماعات أخرى كانت لا تأكل شيئاً : لا طعاماً ولا شراباً ولا طيناً ولا تراباً وكانت تعيش بالعبادة وحدها ، وأنهم كانوا يطوون الشهور بعد الشهور قال : « والله قادر

على ما يشاء» (١) . ويقرب من هذا أيضاً إغلا في الخطأ وولوعاً في الباطل ما جاء في كتاب (الحاوي للفتاوى) تأليف الشيخ السيوطي أن الصوفية ، أصحاب القلوب النقية ، يلهمون معرفة الطب الطبيعي إلهاماً من غير تعليم ولا طلب ولا دراسة ، وأنهم لا يكادون يخطئون في إلهامهم ، وأنه يجوز لهم معالجة المرض بهذا الإلهام ، ولا يجوز أن ينكر عليهم منكر ! ومن أشنع ما في هذا الكتاب رسالة (المنجلى في تطور الولي) .

وذكر الشيخ القسطلاني في شرحه على البخاري عن ابن أبي حمزة قال : « قال ولي من العارفين عن قلوبهم من السادة المقر لهم : إن صحيح البخاري ما قرىء في شدة الإفرجت ولا ركب به مركب ففرق ... »

وقد دهم الديار المصرية وباء مزعج منذ سنين فاجتمع العلماء في الجامع الأزهر وقرأوا البخاري لرفع هذا الوباء ! وقبل هذا قرأ جيش عرابي باشا البخاري رجاء النصر في معركة المدفع والبارود والرصاص والأسطول ! وهذا شيء ما زال الناس يفعلونه منذ مئات السنين ، ولا يزالون إلى اليوم يفعلونه .

(١) وكتاب (منهاج العابدين) قيل إنه آخر ما ألف الغزالي . وقد حكى في أوله أنه من الكتب التي يقع عليها إجماع الساميين ويعم بها انتفاعهم . وحكى في هذا الكتاب — وهو في صدد ما يعطاه الولي من السلطان والتصرف — قال : « الخامسة عشرة — يعني من صفات الولي — البركة العامة في كل شيء من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان ، حتى يتبرك بتراب وطئه وبمكان جلس فيه يوماً ويأمنسان بحبه ورآه حيناً . السادسة عشرة : تسخير الأرض من البر والبحر حتى إن شاء سار في الهواء أو مشى على الماء أو قطع وجه الأرض بأقل من ساعة . السابعة عشرة : ملك مفاتيح الأرض ، حينما يضرب بيده فله كثر إن أراد ، وحينما يضرب برجله فله عين ماء إن احتاج ، وأبنا نزل فله مائدة تحضره إن قصد . الثامنة عشرة : تسخير الحيوان من السباع والوحوش والهوام وغيرها ، فتجبه الوحوش وتبصبله الأسود . التاسعة عشرة : القيادة والوجهة على باب رب العزة فيبنتي الخلق الوسيلة إلى الله بخدمته ، وتستنجح الحاجات من الله بوجهته وبركته . العشرون : إجابة الدعوة من الله : فلا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولا يشفع لأحد إلا شفع . ولو أقسم على الله لأبره بما شاء ، حتى إن منهم من لو أشار إلى جبل لزال ، فلا يحتاج إلى السؤال باللسان ، ولو خطر بباله شيء لحضر ولا يحتاج إلى الإشارة باليد ... »

وحكى في موضع آخر من هذا الكتاب وهو يتكلم عن العزلة : « لا أرى مثل هذا الرجل — يعني المعتزل للناس — إلا ويمكته الله من حضور الجماعات والجمعات وسائر جموع الإسلام لكلا يفوته الحظ منها ، فإن جموع الإسلام من الله بمكان وإن تغير الناس وفسدوا . كذا سمعنا عن الأبدال أنهم يحضرون جموع الإسلام أين كانت ، ويسرون من الأرض حيث شاءوا ، وأن الأرض قدم واحدة لهم . وفي الأخبار أن الأرض تطوى لهم وينادون بالتحيات ويتحفون بالبر وأنواع الكرامات ... » هذه ألوان من علم الغزالي الذي أبى غلو الناس فيه إلا أن يدعى حجة الإسلام .

ومن المشاهد المتكررة المألوفة أن تسمع القرآن يتلى في متجر أو في بيت رجاء
زيادة الربح ونفاق السلعة وإقبال الناس ، أو رجاء النجاة من اللصوص وسائر الآفات .
ويوجد الآن في المكتبات العامة ألوان مختلفة من الكتب والرسائل التي زعم أن
قراءتها كتعاويد ، وأن حملها كتأمم ، وأن الاحتفاظ بها ككنوز ، يعنى من فقر ، ويشقى
من سقم ، ويحمى من عدوان ، ويبلغ كل مأمول ... حتى المرأة العقيم والرجل العقيم قيل
لها : إن هذه الكتب تهيك الأولاد — وحتى من يريد الزواج ، أو تريده ، يلقيان
فيها ما يرجوان .

ومن أشنع الأوهام أننا سمعنا — وسمع كثير من القراء بلا شك — خطباً تلقى
في المساجد حينما انطلقت الغارات الجوية على مصر منذ سنوات ، يندد فيها بجهل من يلجأون
حين الغارات إلى المخابىء ، مزعوماً فيها أن المخابىء والملاجىء لا تعصم من الموت ، وأن
الفرار إليها نقص في اليقين وجرح في الإيمان ، لأن الذى يعصم من ذلك هو ذكر الله
ودعاؤه والتوبة إليه والخلاص من الذنوب ... وقد نسى هؤلاء القائلون الناعقون فوق
منابرهم سنة الله في خلقه ، كما نسوا سنة مصلح الإنسانية الأكبر صلى الله عليه وسلم الذى
يخطبون باسمه ؛ فإن من أظهر وأكبر أعماله التاريخية أنه حينما اضطر إلى الخروج بدينه
ودعوته من مكة المشركة وخاف مطاردة أعدائه المشركين له لجأ إلى غار ثور التاريخي
المشهور هو وصاحبه الصديق . ولم يأخذا بما زعمه هؤلاء الخطباء من الاعتصام بالدعاء
والبكاء ، بل أخذوا بسنة الحياة ... وهكذا فعل عليه السلام في كل أفعاله وحياته ، وهكذا
فعل خلفاؤه الراشدون وأصحابه المهتدون . ولهذا نجحوا . ولو أنهم كانوا يذهبون مذاهب
هؤلاء لأخفقوا ولما بلغوا من أمرهم شيئاً ... وقد كان من أعظم الفروق بينه عليه السلام
وبين المشركين أنه كان يعلم سنة الله في خلقه ويعمل بها تاركا الأوهام جانباً . أما هم فقد
كانوا غرقى إلى الأذقان في أوهامهم التقليدية البالية . فكان عليه السلام ملتفتاً إلى
ما وضعه الله من أسباب وسنن مضبوطة ، وكانوا هم معولين على الاستقسام بالأزلام وعلى
التشاؤم والتيامن وعلى السوانح والبوارح ، وعلى نعيق الغراب وغيره مما يتشاءمون منه
أو يتيامنون ، وعلى الاحتجاج بالقضاء والقدر والحظوظ ، وكل ما هنالك من تقاليد كانت
تأخذ بالأكظام وتتحكم في الأحلام : فكان الفرق عظيماً ، وكانت العاقبة أعظم .

ومن أخرج الناس على سنة الله وسنة الحياة قوم حاولوا أحقاباً طويلة — ولا يزالون

يحاولون اليوم وسيظنون يحاولون بعد اليوم أيضاً — أن يتغلبوا على المادة وعلى خصائصها بالأرواح وعمل الأرواح ، وأن يصلوا بقوتها وعونها إلى ما يريدون ويشتهون — سواء أكانت هذه الأرواح هي أرواح الموقى أم الشياطين أم الملائكة ... وقد ظلت هذه العقيدة تتطور مسايرة تطور العقل البشرى ومسايرة تطور عقل كل شعب . وما فتئت حتى اليوم خاضعة لسنة التطور .

وقد كان الأولون ينسبون إلى الأرواح أغلب حوادث العالم المشهودة المرئية أو كلها : فالأفلاك العالوية عندهم إنما تسير بقوة الأرواح ، والأنهار إنما تجريها الأرواح ، والسحاب إنما تسوقه الأرواح ، والرعد والبرق إنما هما عملان من أعمالها ، والرياح لا يزجها سواها ، والنبات إنما ينبت بقوتها وتديريها ! بل الكلام البليغ الذى يقوله الشاعر أو الخطيب إنما تقوله الأرواح : فزعموا أن لكل شاعر شيطاناً ينطق على لسانه ويفكر بجنانه ، حتى الأمراض جعلوها مظهراً من مظاهر الأرواح ومظاهر تصرفها فى البشر ... فكان للأرواح عند تلك الأمم السلطان الشامل . وقد بقي حتى اليوم شيء كثير من هذه العقيدة عند كثير من الأمم ، بل عند الأمم كلها لا يستثنى منها أمة واحدة . وقد كان من أثر هذه العقيدة الروحانية أن أنفقت البشرية جهوداً ما أكثرها وأعظمها فى سبيل إرضاء هذه الأرواح وسبيل دفع غضبها وشرها . وقد كانوا أحياناً يلجأون إلى تعذيب المريض بالضرب والسكى بالنار والسب والإهانة ، حاسين أنهم بذلك يخرجون منه الأرواح الشريرة النازلة فى بدنه الناطقة على لسانه ! ومن الحوادث القريبة المعروفة فى هذا الصدد تلك الحادثة التى وقعت منذ شهور فى مصر وكتبت عنها الصحف وقدم المتهم فيها إلى القضاء ... والحادثة تتلخص فى أن جاهلاً من هؤلاء الجاهلين المنتشرين فى كل مكان ، الذين يعالجون الأرواح ويعرفون الخلاص والتخلص منها ، تقدم إلى أهل مريض مدعياً لهم أن روحاً خبيثة تحتل بدن مريضهم ، وأنه يستطيع إخراج هذه الروح فسلموا له المريض ، فراح يعذبه بالضرب وصنوف العذاب لتتألم الروح فتخرج ! ولكن كانت العاقبة أن هلك المريض تحت العذاب ، فأخذ هذا الطبيب الروحاني على اعتباره قاتلاً ... وهذه الحادثة ما هى إلا واحدة من مئات الحوادث أو ألوفها التى تقع . ولكن الذى يكتب عنه وفيه منها قليل نادر ... ولا يزال الملايين اليوم من الساميين الجاهلين يرون أن كثيراً من الأمراض — ولا سيما الأمراض العقلية والعصبية والصدرية — إنما هى من عمل الشياطين والأرواح المتمردة ، ولا يزالون يعالجونها على هذا الزعم

والحسبان : يعالجونها بالعزائم والطلاسم والبحور والأمر والنهي والزجر والضرب والإهانة للمريض، على زعم أن هذا كله موجه إلى الروح الالابسة له .

وقد قدم إلى القاهرة منذ سنوات من الريف المصرى إنسان مريض بمرض عقلى عصبى ، بحيث كان يخيل إليه أن أشياء تحدث فى جسمه وهى لا وجود لها ... فذهب إلى إحدى الجمعيات الدينية فى القاهرة فأفهمه رجالها أن مرضه ما هو إلا مس^ة من الجن وأذى من الأرواح ، وأن الوقاية منها تتلخص فى أن تكتب آيات من القرآن فى إناء بالمداد والزعفران ثم يغسل ذلك الإناء ثم يشرب الغسالة ، وأن الشفاء بذلك مضمون ... ! فصنع هذا كله فلم يشف ، ثم حدث عن معالج من الأرواح بالأرواح ، وهو محضر لها ، فصار إليه ففقد له ذلك المحضر عدة حفلات روحية جاء فيها تشخيص المرض ووصف العلاج اللازم ، ثم جاء فيها أن المرض قد زال نهائياً ، وأن المريض شفى ، وأنه لن يشعر بشيء مرة أخرى ، فرجع إلى بلده مؤمناً بأنه قد عوفي ... ولكن ثبت بعد هذا أن الأرواح قد كذبت فى علاجها ، وكذبت فى تشخيصها ، وكذبت فى حديثها — أو أن محضرها هو الكاذب الآفك . فعاد المرض وعاد المريض يشكو شكايته القديمة ، وصارت نهايته إلى اليأس والقنوط .

ولا يزال الناس يحاولون الاتصال بالشياطين ، بل ويزعمون أنهم قد اتصلوا بها ، ولا يزالون ينسبون إليها كثيراً من الحوادث اليومية ، ولا يزالون يخافون بطشها وإيقاعها بهم ، ولا يزالون يزعمون أنهم يستخدمونها أو أنه يمكن استخدامها ، بل وأنها قد قامت بخدمتهم فعلاً ...

ومنذ شهور قليلة قام بينى وبين إنسان عالم نزاع فى هذا . وقد زعم هو بأن العفاريت يتصرفون فى هذه الدنيا ، وأنه يعرف إنساناً كانوا يخدمونه ويحضرون له الفاكهة من بلاد أخرى فى أوقات تفقد فيها الفواكه ، وأنهم — أى العفاريت — تقلوا له البراميل من بلدة إلى بلدة ... وهكذا ! ولا يزال الجماهير بل وكثيرون من الخاصة يعلقون على هذا المعتقد آمالاً ، وتحدث لهم أوجالاً ، ولا يزال أغلب المسلمين الجاهلين يرجعون حين رغبتهم ورهبتهم إلى الأموات بل وإلى الجمادات وإلى الأحجار والأشجار ، مستغيثين بالأرواح التى لها اتصال بها على حسب ما يتصورون ، طالبين منها كل ما يرجون ، ومستدفعين بها كل ما يرهبون ، زاعمين أنها تسمع لهم وتقدر على إجابتهم ، وأنها تفعل ذلك من أجلهم

راضية مسرورة ! وقد صرفوا في هذه الغاية نقائس حجة من وقتهم وتفكيرهم وعملهم وعبوديتهم ورجولتهم وذلمهم وخضوعهم ! ... وقد فرضوا على أنفسهم بسبب هذه الخرافة ألواناً عجيبة من العبادات والفروض، وأعداداً عديدة من الأعياد والمواسم الزاخرة بالنذور والقرابين والهدايا والضحايا ! وقد أضحت عبادة الموتى وعبادة أرواحهم أعظم وأضخم مظاهر عبادات هؤلاء الجاهلين في مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها ، حتى استقر في أذهان العامة ، بل وأذهان الخاصة ، أن هذه العبادة هي أفضل فروض الإسلام وأوجبها وأزمتها ، وأضحى الخلاص منها محتاجاً إلى جهود الجبارين . والله المستعان على جهل الجاهلين .

وقد تلونت هذه الخرافة في عصرنا هذا ألواناً أخرى غير ألوانها القديمة . وقد حاول العلم هذه المرة أن يتدخل في تلوينها وتحسينها ، كدأبه في هذا الزمان إذ يتدخل في كل شيء ، لأن الزمان زمانه والميدان ميدانه ... وقد تدخلت أوروبا وأمريكا هذه المرة في هذه المسألة وبذلتا عونهما . وإذا تدخلت أوروبا وأمريكا في شيء فقد عن جانبه وعظم شأن أنصاره .

نعني بهذا استحضار الأرواح والاتصال بالميتين وهم في علمهم الأخرى . وقد طال الكلام في هذا الموضوع واشتد الجدل وألفت فيه الكتب والرسائل والمقالات التي تعجز العاد المحصي ، وانقسم الناس فيه فريقين متبارزين . ولكن الفريق المنكر النافي هو فريق العلماء المحققين الأكثرين . أما الثبوت لهذا الاتصال ولهذا الاستحضار فيكاد يذوب في الخضم ، ويكاد يجمع على حسبانته من فلول الدجالين الجاهلين ... وكل هذا لا يعنينا لأنه ليس في صدد من بحثنا ، ولكن الذي يعنينا هو أن الكثيرين من صرعى الأوهام عندنا قد صفقوا ورقصوا على أنغام هذه الخرافة الجديدة ، وراحوا يشيدون عليها القصور وذهبوا ينبشون جيف الخرافات من مدافنها في أعماق أنفسهم وأعماق الأزمنة القصية ليردوا إليها الحياة بهذا الاكسير الجديد .

وقد راحوا يحتجون بهذا الاستحضار على ما كان يزعم قديماً للأرواح من قدرة وتصرف في الكون والطبيعة بدون حدود ولا قيود ، وراحوا يصدقون ويدعون إلى تصديق ما كان ينسب إلى الموتى وإلى المشايخ والأولياء من أعمال لا يستطيعها إلا من استطاع أن يقهر خصائص المادة وقوى الطبيعة الطبيعية ، وأن يخرق كل ناموس في الوجود وأن يبطل كل سنة فيه ! وراحوا من أجل هذا يحسنون دعوة الأموات وسؤالهم الحاجات بل ويحسنون عبادة الخلوقين والاقطاع إليهم .

وقد استطاعت هذه الخرافة الجديدة أن تستهوى رجلا كان في سابق أمره يعد من الفضلاء العلماء ، وأن تفسد عليه فضله وعلمه وعقله حتى صار يتكلم في هذا الموضوع كلام من هو خليق بأن يعد في زمرة المرضى لا زمرة الفضلاء المحققين ، وراح في كل مجالسه يهدو بروايات وحكايات أقل ما توصف به أنها مما يصم مسامع العلم والعلماء ، ومما ينجل منه العقل والعقلاء ... من ذلك أنه يحكي — ويقسم على ما يحكي — أنه يعرف رجلا في الريف المصري كان إذا أراد شيئاً ما — ولك أن تقدر هذا الشيء وأن تتصوره كما تشاء وكما يشاء الغلو والخيال — لم يكن منه إلا أن يضرب على عجيزته بيده وأن يأمرها بأن توجد هذا الشيء المطلوب فيوجد في الوقت نفسه !! وقد سألته مراراً عديدة وقلت له : افرض أنه طلب من عجيزته أن تعد جيشاً كاملاً ، أيمن أن يوجد ذلك الجيش ! فكان جوابه الإيجاب بلا تردد ولا استحياء ! فسألته وقلت له : أجاد أنت أم هازل ، فأقسم أنه جاد ، وأقسم ثانية بأن من يشك فيما حكى فهو كمن يشك في المحسوسات .

ومن حكاياته ورواياته أنه ينقل عن شيخ آخر أن جماعة من أصدقاء ذلك الشيخ ذهبوا إليه في بلدته زارين ، وبعد جلسة طويلة عرض عليهم أن يأكلوا ققبلوا ، فأحضر لهم مائدة كاملة بأوانها وكراسيها وأطعمتها ولحومها وبقولها وفواكهها وكل ما يلزم لها... ولعلك تسأل هنا وتقول : من أين أحضرها فأجيبك ، كما أجابنا هذا الرجل ، بأنه قد أحضرها من الهواء والكون ومن عناصر الطبيعة اللازمة لهذه المائدة من أشات النباتات والوجودات ، فركبها تركيباً صناعياً ، فأحضر المائدة المطلوبة كاملة ! وبعد الفراغ من الأكل رفعت روحه بقايا الطعام وأدوات المائدة بسرعة وبدون عناء .

ومن حكايته أن شيخاً آخر كان يوميء بيده في الهواء فترجع إليه ملائى بالنقود التي يطلبها أو تطلب منه ، بل ذكر هذه الحكاية عن رجل آخر غير مسلم .

ومن حكاياته أن شيخاً آخر كان يقيم في بلدته وكان الناس يأتونه ويعطونه النقود طالبين إليه أن يشتري لهم بها أشياء من القاهرة ، فيأخذ نقودهم ويرسلها في الفضاء صوب القاهرة ، ثم يرسل يده مرة أخرى ثم يرجعها وفيها الشيء الذي طلب شراؤه .

ومن طرائفه أن شيخاً ذهب إلى أحد التاجر فاشترى شيئاً ، وكان لا يحمل معه عملة فبعث روحه فأحضرت الثمن من البيت في ملح البصر بين دهشة التاجر واستعظامه !! وأشنع من هذا كله أنه يذكر في مجالسه عن أحد هؤلاء الروحانيين أنه مرض

ذات مرة ولم يكن حوله طبيب يعالجه ، فأحضرت له روحه طبيباً صناعياً ألقته من الكون فقام هذا الطبيب الصناعي بالكشف وبتشخيص المرض وبالعلاج ، ثم عاد فأعدمه وفرق عناصره وردّها إلى ما كانت عليه وإلى أماكنها ، ثم أحضر الدواء أيضاً من الهواء ثم عالج نفسه .

وقد قام بيني وبين هذا الإنسان مرات حوار في هذه الحكايات ، وقد جادلني مرة زاعماً أن معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء إنما هي من عمل أرواحهم ! فقلت له : وانشفاق القمر ! وكان السؤال مفاجئاً ! فقال إلهذه .

وزعم لي مرة أمام الجماهير أن أرواح الميتين تعلم العرائض والشكايات التي تقدم إليها وتعرف ما فيها وتقدر على إعطاء ما يطلب فيها منها مهما كان إسراف الطلبات ... قال ولكننا ممنوعون من الطلب منها ومن سؤالها - لأن الرجل على رغم هذه الخرافات ينكر سؤال الموتى ودعاءهم . وهو يدعي أن الأرواح تعلم الغيب وتعلم كل شيء .

وقد افتتن بهذا الإنسان جماعة من الاخوان الفضلاء كانوا يحضرون مجالسه ، فصاروا يؤمنون بكل ما يقول .

ومن العجيب أنه هو وهؤلاء المؤمنون به يعادون من لم يؤمنوا إيمانهم وينسبونهم إلى الضلالة وإلى جحد الروح ! بل ربما زعموا أن من لم يؤمن بمثل ما آمنوا به فهو ملحد أو شبيه بالملحد .

ولهذا الرجل أخلاق ما أغربها : فهو يسب الناس الذين يحضرون مجلسه ويجلدهم أحياناً جلداً حقيقياً ! فإذا ما خوطب في ذلك قال : أنا أكبر منكم سناً وأكثر علماً ! أي إنه يحتاج لجواز الضرب والسب والإهانة بكبر السن ووفرة العلم ! والغريب في الموضوع وفي النفس البشرية أن هذا الاحتجاج يصيب استحساناً ومواقفة عند بعض هؤلاء المذرويين المجلودين بين يديه ! فيرضون ويسلمون له أبشارهم وأعراضهم يسبها ويجرحها . ولم يدر لا هو ولا هم أن كثرة العلم وتقدم السن لم يكونا قط في نظر العقلاء ولا في نظر الناس العاديين داعيين إلى العدوان وسوء الأدب والصحة ! لأن العلم فضيلة والفضيلة يجب أن تكون سبباً في الفضيلة لا في الرذيلة ، ولأن تقدم السن يجب أن يكون مقرباً من الأدب لا مبعداً عنه ... وقد كلمت مرة أحد هؤلاء المؤمنين له في هذه المسألة — وكان مكلمي هذا يرى أنه لا مانع من هذا الذي يصنعه الشيخ مادام صادراً من الأعم

إلى الأجهل ! فقلت له إذن على هذا يجوز أن يكون كل إنسان ، حتى هذا الشيخ نفسه ، ضارباً مضروباً ساباً مسبوباً ! إذ كل إنسان يوجد من هو أعلم منه ومن هو أجهل منه وكل إنسان يفعل هذا بمن هو أقل منه علماً ويفعله به من هو أكثر منه علماً ! فالشيخ المذكور له أن يهين وأن يضرب من هم دونه ، ولمن هم فوقه أن يضربوه ويهينوه ! وهل يذهب إلى هذا عاقل ؟

وقد حاول هذا الشيخ مرات أن يستدل على جواز صنيعه هذا بما جاء عن عمر ابن الخطاب أنه كان يحمل معه درة ويضرب بها من يخالفون الأوامر ومن يخرجون عن الطريق ! وهو بهذا الاستدلال يدخل عمله هذا في حدود الشريعة الإسلامية ، ويجعل جلده للناس وإهانتهم وسبهم حدوداً شرعية يقوم بها من قبل الإله نائباً عن الرسول وعن الخليفة عمر ! ونعوذ بالله من خذلان مثل هذا ومن كل خذلان . وهذه الأعمال الإجرامية هي إحدى العقوبات التي يفرضها شيوخ الطريق على مرديهم . وقد وضعوا في بيان هذه العقوبات كتباً متداولة . ولا يدري كيف يمكن أن تعز أمة تقبل في نفسها طائفة مختارة كل هذا المهوان باسم الدين وعلى حساب التأديب والتسليك ؟ هذه كلمة معترضة ، فلنرجع إلى رأس البحث .

وقد ظهر بهذا أن العقيدة القائمة على الإيمان بقدره الأرواح وتصرفها قد احتلت عندنا — وما فتئت تحتل — مكاناً واسعاً جداً ، وسرقت منا ، وما زالت تسرق ، أعمالاً وأفكاراً وخيالات الواجب علينا أن ننتفع بها ، وأضاعت علينا قوى جسدية وعقلية كان حرياً بنا أن نحتفظ بها والأناضيع منها شيئاً ، وأنها قد أفسدت علينا نظرننا إلى الحياة وحكمتنا على الأشياء وسيرتنا نحو الطريق .

وكيف يمكن أن يسير في طريقه ثابت الخطوات ، رابط الجأش ، مطمئن الجنان من يعتقد من أعماق نفسه أن الأرواح المستبدة الظالمة محيطة به من كل جانب ، مسددة إليه سهامها ، مصوبة أظافرها ، فاعرة أفواهاها لتبتلعه وتمضممه ، قادرة على أن تصنع به ما تشاء من إمراس وقتل وتخيل وغير ذلك ، لا يمنعه منها إلا رحمتها هي إن كان لها رحمة ، وإلا إن كانت لا تريد أن تصنع شيئاً ، بل كيف يمكن أن يستقيم تفكير مثل هذا الإنسان ويسلم له عقله .

وليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح وبالجان وبالملائكة وبكل ما جاء عن الله

ورسوله . ولكننا ننكر الفوضى ، وننكر أن يكون الله قد ترك خلقه بلا نظام وبلا قانون يلزمهم الحدود ويربهم السبيل ، أو أن يكون قد تخلى عنهم للفوضى وللطغيان المطلق .

ومما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية مسألة الإصابة بالعين أو النظرة أو ما يسمى عند العامة بالحسد ، فإن الحاسد عندهم إنما يصيب بروحه الخبيثة . ومسألة الإصابة بالعين مسألة ذات ذبول طويلة وحواش ضافية ، ولاعتقادها أثر جسيم في حياة الكثيرين وفي عقولهم وأفكارهم وتصرفهم العام . ولها فعل سحري في قوتهم العصبية والإرادية والعقلية . وقد تفنن الخاصة والعامة في هذه المسألة ، وأكثروا من ذكر أخطارها وشدة فتكها واتساع نطاق أعمالها ، ثم تفننوا في ذكر أساليب الوقاية والعلاج منها واتقائها ، وخذلوا على صفحات الكتب أشياء عجبية في ذلك . أما فتكها ومجال عملها فقد ذهبوا يزعمون — أو كادوا — أن جميع الأمراض التي يعرفون والتي يجهلون هي من الإصابة بالعين : فإذا مرض الإنسان أو أصيب بمحاذة أو بمصيبة مالية أو مادية أو مات ، قالوا إنها العين ! بل لم ينحسوا الإنسان بهذا ، فقد عدوه إلى الحيوان والجماد : فالعين تقتل الحيوان وتهلك الزرع بل وتغرق السفن وتسقط الطيارات ! وقد حدثني إنسان يظنه بعض الناس عالماً أن رجلاً يعرفه أغرق بارجة حرية بمجرد أن رآها وقال فيها كلمة ! وزعم آخر أن رجلاً آخر أسقط طائرة وأسر رجالها فجزته السلطات العسكرية على عينه وعلى قوة روحه ! ولو أنك زرت جماعة من هؤلاء الضعاف الأعصاب والمعرفة والعقول ، فرأيت أحد أطفالهم ثم أصيب في ذلك اليوم أو بعده بأيام لزعموا أنك القاتل ! ولو أنك دخلت متجرّاً من متاجر هؤلاء الذين تعرفهم ويعرفونك ، ثم حدث لذلك المتجر أو لأصحابه حدث لقالوا إنك صاحب الحدث وصاحب السر المشئوم ! وأنا أعرف إنساناً زعمه فريق من الناس عالماً ذهب مرة هو وابن له صغير في زيارة أحد أصدقائه ، فرض الطفل بعد رجوعه فمات ، فزعم هذا الإنسان أن الذي أمرض ولده وقتله هو ذلك الصديق الذي زاره والحكايات والروايات في هذا الباب لا يمكن إحصاؤها ولا جمعها . ولا أحسب بيتاً من بيوت هؤلاء يخلو من هذه المبالغات والمعتقدات .

وقد حاولوا أن يسموا خرافاتهم هذه بسمه الدين وأن يضيفوها إلى مصلح الإنسانية الأكبر عليه السلام ، فذهبوا ينسبون إليه روايات تصدق ما اعتقدوا ! وقد عزوا إليه أنه عليه السلام قال : (أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالعين) ، ✓

(نصف ما يحفر لأمتي من القبور من العين) ، (العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر)
وروا أنهم كانوا إذا أصابت إنساناً عين أو شيء بعثوا إلى أم سلمة — إحدى زوجات
النبي — طالبين منها أن تبعث إليهم بشعرات كانت لديها من شعر الرسول للاستشفاء
بها ! وذكروا أنه عليه السلام أمر أن تغسل عورة العائن والمواضع القذرة من بدنه ثم
تجمع الغسالة ثم تصب على العين ويسقاها ! وعزوا إليه — وهذا أكبرها — أنه عليه
السلام كان أحياناً يخاف نفسه على ما يرى — أى يخاف أن يصيبه بعينه — مع أنهم
زعموا أن الإصابة بالعين لا تكون إلا من الأنفس الشريرة الخبيثة ...

فكل عين عند هؤلاء عبارة عن موت موجه إليهم وإلى من يحبون وما يحبون !
فأين يفرون وكيف يسلمون ؟

أما ما قالوا وما ذكروا وما عملوا من أجل الوقاية والعلاج من هذا الخطر المحيط
الشامل فهو أخزى وأنكى : فقد أعدوا من الأسلحة الدفاعية لعدوهم هذا أشياء سرية
وغير سرية ، وأحياناً سحرية ! فمن هذه الأسلحة الدفاعية التأمم (أو الأحجية) . وهذه
أنواع لا يعرفها تمام المعرفة إلا الفنيون المختصون بصناعتها وتركيبها ووضع تصميماتها ،
ومصانعها سرية تحت العقل أو تحت الجهل لا يصل إليها أحد من العقلاء ... ومن هذه
الأسلحة الطلاسم والألغاز والحروف المقطعة ، ومنها حمل النجاسات والقاذورات والبعد
عن الماء والنظافة ، ومنها تعليق الجماد والأخشاب في أعناق من يخشى عليهم ... إلى آخر
هذه الأمور التي يعرفها الجاهلون .

وقد حاولوا أيضاً أن يعزوا هذه الترهات إلى الدين وإلى أهله من الصالحين :
فذكروا أن الرسول عليه السلام أمر بالجمجم أن تنصب في الزرع ! فقال الراوى : من
أجل ماذا ؟ فقيل له من أجل العين . قال في مجمع الزوائد : رواه البراز . وذكروا عن
الحليفة عثمان أنه رأى صبيّاً مليحاً فقال لأهله دسموا ذقنه — وفي رواية أنه رأى صبيّاً
تأخذه العين فقال دسموا نوته ... والتدسيم هو التسويد ... وفي كتاب (كشف الحفا)
للشيخ العجلوني قال : ومما جرب لمنع الإصابة من العين تعليق خشب السبتان ! ولذا فقد
بلغنى عن ولى الله العراقى أنه لم يكن يفارق رأسه ، واقتضت أثره فيه !!

وذعر الناس من العين بالغ ، وهو سهم في محاولة العلاج والوقاية أبلغ . ومن أعظم
ما في هذا الاعتقاد من الأضرار أن جماعات كثيرة تحاف النجاح البارز الظاهر لأنها

نحاف الإصابة بالعين ! وأعرف إنساناً رفعته هذه الحرب فنال بعض النجاح ، فأخذت تأكله الأوهام والظنون من هذه الناحية ، وصار يحسب أن عيون الناس كلهم سهام مصوبة إليه وإلى متجره ... وقد راح يتخاذل ويتظاهر بالأمراض والمصائب ، آملاً أن يدفع العيون المصبية المصوبة عنه ! وهو يقول إن من ينظر إليه الناس فلن يفلح . وصار إذا ما حدث عنده أصغر حادث يضيفه إلى أعين الناس ! ولا شك أن أقل هذه الأوهام كاف لتخذيل صاحبها وللقعود به عن التحليق في سماء النجاح اللامع . ولن يدرك الخير المرجو رجل يرى أن الناس يستطيعون قتله أو إمرضاه أو إصابته بدهاية إذا ما برز في ناحية من نواحي الحياة ... وأضرار هذه الخرافات النفسية والعقلية والعصبية والاجتماعية أكبر من أن توصف وأظهر من أن تخفى .

نعم جاء في الأحاديث التي رواها المحدثون الثقات أن العين حق ، وأنه لو كان شيء سابقاً للقدر لسبقته العين ، ولكن هل هذه الأحاديث في سبيل من جهل هؤلاء الجاهلين وفي صدد مما قالوا واعتقدوا ؟ كلا ، فإن كلام النبوة أضخم وأسمى معنى وهدفاً وغاية مما يتوهمون .

فالعين حق ، فإن الإنسان الشرير يرى بعينه ، فيحقد ويحسد بقلبه ، ثم يصيب بأعماله وكيد ... والعين حق أيضاً ، فإن في كثير من العيون قوة أمرة ناهية ، بل قاتلة أسرة وإن الرجل الموهوب هذه القوة لينظر أحياناً إلى من حوله فيخضعهم بمجرد النظر ، ويسلس لنظرته وعينه أشمس خلق وأعصى طبع ، ويبلغ من أنفسهم أقصى ما يريد وأبعد ما يرجو ، فيصبحون طوع مشيئته ورهن إشارته ، فيصبح بينهم الأمر الناهي المتصرف ، ويصير فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود أو الأستاذ المعبود : القول قوله والتفكير تفكيره والهوى هواه والدنيا دنياه .

إننا أحياناً كثيرة ليأخذنا العجب من استعباد شخص لأمة ، وعبادة أمة لشخص ، فنذهب تتلمس الأسباب والعلل بعيداً وقريباً ، مع أن الأسباب قد تكون في عين ذلك الشخص المعبود ونظراته ، وقد تكون في مظهره ، وقد تكون في صوته ونغمه ... إنها فيه على كل حال ، وإن سلطانه معه وفي ذاته افظوبى لمن رزقوا هذه النظرات ، وهذه العيون الآسرات القاهرة ، وهنئاً لهم السيادة الظاهرة والباطنة .

وقد كنت أعرف شيخاً يكاد يعد من الناحية العلمية في غمرة الجاهلين ، ومن

الناحية الدوقية الأديبة السلوكية في زمرة السفهاء المتوقحين ، وهكذا هو في كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه ، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أو لا يكاد يستطيع أن ينجو منها ويفلت من عقدها ونقشها إنسان يتسلى بالجلوس بين يديه ! إنه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان ، أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم في القالب الذي يريد ، وفي المعنى الذي يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد ... إنه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدي العاسلين ، لا يتحرك من أحد منهم عضو حتى يحركهم هو وحتى يريد منهم هو ، وفرض عليهم أن يخشعوا في حضرته خشوع الصالحين العابدين في صلواتهم ، أو ذلة الشركين أمام أصنامهم ، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله في أقرب موقف يقفونه منه تعالى : ألزمهم أن يضعوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة ، وفرض عليهم أكثر مما فرضه الله على عبيده ، ثم كتب لهم هذه الفروض في كتاب من كتبه التي زورتها يدها ، ثم أمرهم بأن يتعلموا هذه الفرائض وأن يستذكروها حفظاً من أجل أن يعملوا بها أيها كانوا .. وقد امتثلوا هذا كله ثم قالوا : هل من مزيد من هذه العبادات والفروض ! فما سر هذه القوة في هذا المخلوق ؟ إنها أسرار عديدة ، وإن أقواها أو من أقواها ما في نظراته وعينه من سحر خبيث .

والعين حق أيضاً . فإن الإنسان ينظر بعينه ، فيشتمى بقلبه ، فيملك بعمله وسعيه إن لم يمسك بزمام نفسه إمساك قوى غالب . ولهذا جاء في حديث نبوي : (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس) . وليس هنالك أحق من تلك العيون التي يحمل ضعفها أعظم قوة استبدت بالإنسان وسخرته وأذلت كبريائه وساقته إلى الخير حيناً وإلى الشر أحياناً ، وظلت ذات النفوذ التي لا يقاوم ، والسلطان الذي لا ينازع ولا يتزع ، في عصور الإنسانية كلها : في عصور البربرية والوحشية ، وعصور المدنية المهذبة الراقية ! ولهذا جاء في الأوامر الدينية نهى الجنسين معاً عن الاستسلام لسلطان هذه النظرات والعيون ، وأمروا جميعاً بالعض من أبصارهم .

وهنالك أشياء أخرى هي حق أيضاً أشار الكتاب إلى بعضها بقوله « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر » ، وهذه هي نظرات العداة والكفرة والغيظ .

والعين هي مفتاح شخصية الإنسان ، ومفتاح أسراره ، ومجتمع قواه ومعانيه المختلفة :

ففيها يتجلى الحب والبغض والعداوة والصداقة والرحمة والقسوة والذكاء والغباء والقوة والضعف والحزن والسرور والصحة والمرض والأمر والنهي والهدوء والقلق وكل تلك المعاني التي يشتمل عليها الإنسان والتي تكمن في أعماقه ووراء مظهره الخداع ... فكان الحديث عنها من أجل ذلك حديثاً يتسع ويتنوع ويتلون ، وكانت من أجل ذلك حقاً ودلالاتها حقاً . وما من شيء في الإنسان يصدق في دلالته ويجمع من المعاني فيها مثلها في صدق الدلالة وكثرتها .. وقد تتقدم دراستها في المستقبل ودراسة أسرارها حتى يصبح من اليسير الممكن معرفة كل ما يضمرة المرء وما يحول بخاطره من الصدق والكذب ومن التصديق والتكذيب وصحة التهمة الموجهة إليه وبراءته منها ، ومن الغدر والخيانة وسلامة الضمير وخبثه ونفاقه وإيمانه ، وغير ذلك مما تراد معرفته وعلمه ، ويريد المرء إخفاءه وكمثانه يساعده على هذا الكتمان طبعه ولسانه ... وحينئذ تتكشف حقائق ، كان التحقيق البارع يعجز عن كشفها وينفق ما ينفق في هذا السبيل ثم لا يظفر بشيء . فقول الرسول عليه السلام (العين حق) قول يعبر عن أصدق المعاني وأصدق الحقائق وأصدق الدلائل وأجمعها .

وإن من أعجب الأشياء السر الذي يصر صاحبه على أن يطويه في طوابعه ، فإنه يكون من أبعد الأشياء بينما هو من أقربها ! وقد استطاع العلم الإنساني أن يصعد إلى الشمس وإلى المجرات ؛ يعددها ويقدرها ويعلم كل ما هنالك ، ولكنه يقف حائراً عاجزاً عن الوصول إلى سر طفل بين يديه يأبى إلا أن يكتمه ويأبى البوح به ! فلا بد من وسيلة لمعرفة هذا التريب البعيد ... وقد تكون قراءة العيون إحدى الوسائل التي ستحقق هذه الغاية ... ولا أجمل من قول الله « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » ، فجمع بين علم السر الذي في الصدور ، وبين علم ما في العيون من خيانة ومن معان أخرى . فكأنه يشير إلى أن هذا هو مفتاح هذا ، ويشير إلى الصلة الكبيرة بينهما . فأخبار النبوة الصحيحة حق ومراميا ومعانيها أعلى وأسمى من هذه المعاني الصغيرة المفسدة للهيئة الاجتماعية والتي تنشر الفوضى والخيال المضطرب القاتل .

وهاهنا مسألة كبرى ، نشأت أيضاً من الجهل بسنة الله وسنة الحياة ومن الاعتقاد بأن هذا العالم ليس محكوماً بالنواميس والقوانين .

ذلك أن الناس ظلوا مئات السنين يعتقدون أن المسلمين لن يغلبوا ، لأن دينهم حق ،

والحق يجب أن يكون أهله منتصرين أبدأ وإن قصروا وأهملوا ونسوا أنفسهم ، وأن الإسلام لن يهزم أمام الأديان الأخرى ، لأنه الدين المرضي لله ، والله لن يترك ما يرضاه للخذلان والهزيمة ... وقد عملوا على أن يصححوا هذه الأغلوطة بالاستدلال بآيات قرآنية مطلقة مجملة نسوا قيودها وشرائطها ، فأمعنوا ضرباً في متاهات الأوهام ، واستمتعاً بأضغاث الأحلام ، وظلوا سادرين حتى نجّهم العالم ، فانتبهوا مذعورين لا يدرون من أين ولا كيف ، وقاموا يتلمسون الطريق ، وقمنا معهم ومثلهم ، تلمس الطريق أيضاً ، ولكننا وجدنا بعد هذه النومة الطويلة والأحلام الثقيلة أن أعلام الطريق قد عفت أو كادت وأن الرقاد الطويل الثقيل الذي هنتنا به قد باعد بيننا وبين الأمم اليقظى التي لم يغمض لها جفن . فكيف ومتى اللحاق ؟

إن للوهم الواحد في الحياة ثلاث نتائج : أولاها أنه يعطل عن السير إلى الغاية المطلوبة ، وثانيها أنه يوجه جهة أخرى مضادة — وهذا فيه أمران : الإبعاد عن الغاية وضياح الجهد المبذول . وثالثها إفساد العقل ، فإن الأوهام تأكل العقول ، وكل وهم يأخذ من العقل بقدره . ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التمييز وحتى يتخلى عن وظيفته ، كما شوهد ذلك في الأمم وفي الأفراد التي تكثر أوهامها .

ومن العجيب المؤلم أن أكثر المسلمين لا يزالون يدينون لهذا الوهم القاتل بعد أن فضحه الواقع حتى لم يدع لصدقه وصحته احتمالاً ، ولا يزالون يحاولون تجربته المرات بعد المرات ، ولا يزالون يرون أن التجارب الماضية كلها غير كافية ولا مغنية ، ولا يزالون مستعدين لأن يقضوا أوقاتاً أخرى ، الله أعلم بمقدارها ، مطبقين أجفانهم على هذه الأحلام جاعلين أصابعهم في آذانهم حذر أن يسمعوا صور الحقيقة يرن ذلك الإرنان الذي أفرع أهل المشارق والمغرب ، فهضوا منطلقين إلى غاياتهم هذا الانطلاق الذي لا تستطيع قوة من قوى الأرض أن تقفه .

وقد انتشرت في الأعوام الأخيرة القليلة جمعيات وهيئات دينية كثيرة ، تنادى كلها بلسان هذه الأغلوطة التاريخية الكبرى ، وراحت كلها تهيب بالمستمعين إليها وتطمع أعصابهم الجائعة المتعبة وأمانهم المحرومة بهذه الأمانى ، معللة نفوسهم الجذباء ، بأن تخطر عليهم الغيث بدون سماء ، وأن تصلهم بأضخم الآمال ، بدون أن يتكفوا أقل الأعمال ... وقد أصابت هذه الجمعيات شباناً ورجالا طالما أرهقهم الحرمان ، وطالما ذهبوا يتلمسون

في زوايا حياتهم الضيقة أشياء كان المفروض من الجهة الإنسانية أن يحدوها وأن يتمتعوا بها ككبير، وطالما أحسوا أن أموراً، لا يدرون ما هي، قد حرمت عليهم. فهم ينشدونها وإن كانوا لا يدرون ما هي، ولا يدرون أين هي، فصاروا يتلفتون حيث لا جهة، وينظرون حيث لا منظر، وكانوا في أشد الحاجة إلى من يعقدون عليه أبصارهم ويربطون به آمالهم، وينيخون عنده بحاجتهم، فما إن مرت بأسماعهم أصوات هؤلاء السعاة، زاعمين لهم أن ما فقدوه موجود لديهم حتى أصاحوا وحتى اندفعوا إليهم كأنما أصابتهم جنة.

إن المشكلة الكبرى أن النفس الإنسانية دائماً يوجد فيها فراغ واسع للآمال، وأن هذه الآمال متجددة أبداً: فهي مهما بلغت من الظفر تشعر أنها محتاجة، وأنها فاقدة، وأنها يجب أن تأخذ وأن تعطى. فكل من يضرب لها على هذا الوتر — وتر الآمال المفقودة المطلوبة — وكل من يغني لها بهذه الأنشودة الخالدة — أنشودة الحاجات التي يجب أن تؤخذ أو تعطى — يجد في جوانب النفس الإنسانية وفي فراغها مجالاً واسعاً للعمل ودولة مستعدة للاستسلام والخضوع والنزول عن الحرية! فلا عجب إذا قامت دولة هؤلاء الناعبين بالآمال، الناعقين للجواهر المضللة، ملوحين لهم بما لن ينالوا. ولا يجب أن نعجب إذا وجدنا مخجولاً يهدو، ويعنى بالمستحيلات، قد نجح وأخذ برقاب الآلاف أو مئات الآلاف أو الملايين من هذه القطعان البشرية، يقودها حيث شاء. فإنه قد هاجم أضعف جانب فيهم — وهو جانب الرجاء والأمل — فانتصر عليهم بدون عناء! وعلى هذا فمن البعيد الصعب الوقوف في سبيل هؤلاء المخادعين وفي سبيل استيلائهم على الجماعات بواسطة التلويح لها بآمالها. وعلى هذا يجب ألا يعد نجاح هؤلاء دليلاً على أن لهم قيمة بل يجب أن يعد دليلاً على ضعف النفس الإنسانية المؤملة المرجية.

قد عرف أن الفقراء والبائسين والمصابين من أسرع الناس سيراً وراء الدعوات والمذاهب والشيع القائمة على إعطاء أسخى الوعود وعلى إشباع جانب الأمانى والرغبات في النفس، وأنهم أكثرهم انخداعاً وحماسة وتضحية في سبيلها... وقد يندر إلى أذهان كثيرين أن السبب في ذلك أنهم — أي الفقراء والبائسين والمصابين — خيرون دون الأغنياء والكبراء الذين قد يجانبون أمثال هذه الدعوات والشيع وقد يناوئونها... ولكن ليس هذا هو السبب بلاريب، وإنما السبب أن الأولين أبعد من الآخرين عن تحقيق الرغبات، وعن الحصول على الحاجات، وأنهم أظماً وأسغب منهم نفوساً حرمانها

من آمالها وآثارها ، وأنهم من أجل ذلك مستعدون للاستباق وراء كل من يوصى لهم بهذه التي حرّموا منها دون أن يمكنوا عقولهم من التفكير والنظر في صحة ما يدعون إليه وفي حال الداعين وفيما ينظرون عليه ويرمون إليه ، بل وفيما يفعلونه جهاراً نهاراً ، وفي إمكان الحصول على هذا الذي يرجون ويؤمنون وعدم إمكانه ... بل إنهم يتراكمون وراءهم وكأنهم آلات صماء فقدت كل تفكير ونظر . ولهذا فإنه يقل جداً أن يسمعوا نقداً أو اعتراضاً أو نصيحة أو توجيهاً ، ويقل جداً أن يؤثر في استسلامهم لهؤلاء الدعاة ما يصنعه الدعاة مما ينافي الحق أو ما يزعمونه حقاً ومما ينافي كل منطق وذوق .

فالحرمان ، أو الشعور بالحرمان ، من أعظم ما يسرع بالناس إلى أن يكونوا آلات متحركة بلا إرادة في أيدي المخادعين والمحتالين والواعدين بالأمال جزافاً ، ومن أعظم ما يحدث الانقلابات وما يولد النحل والمذاهب ، وما يوجد لها الأنصار والمشايعين الذين يجودون بدمائهم أسخياء من أجلها أو من أجل مبتدعها .

لماذا نجد شعوباً وأممًا تضع ، راضية مختارة ، حياتها ومصيرها في يد زعيم واحد — كألمانيا مثلاً — يوجهها حيث شاء ويلقي بها حيث أراد من مواطن الموت أو مواطن الحياة ، ونجد شعوباً وأممًا أخرى — كبريطانيا أو أمريكا مثلاً — تأتي هذا النوع من القيادة والزعامة ومن الاستسلام والخضوع ؟ هل الأمر في هذا راجع إلى اختلاف في طبيعة الفريقين ، أم راجع إلى اختلاف في الظروف ؟ الرأي أنه ليس أمراً طبيعياً . ولهذا فإن الألماني في أمريكا وسويسرا وغيرها يأتي هذا الذي يآباه الإنجليزي في أمريكا وفي إنجلترا نفسها . وإنما المسألة أن الألماني محروم أو يشعر أنه محروم من أشياء يراها حقاً له ، ويرى نفسه أهلاً لها ، فهو يحاول أبداً ، ودائب أبداً في نيلها ، وهو مسرع منقاد للزعيم الذي يرحبه ويرجوه لتحقيق هذه الحقوق .

أما الإنجليزي والأمريكي فليس كذلك ولا يشعران هذا الشعور ، فهما غير محتاجين للاستسلام والطاعة العمياء . ولو أن الظروف تغيرت وتبدلت فوقع الإنجليزي والأمريكي في ظروف الألماني وشعوره ، ورجع الألماني إلى ظروف الأمريكي والإنجليزي وإلى شعورهما ، لفعل أحدهما ما فعله الآخر ولتبدل الموقف تبدلاً كاملاً .

والميل إلى الحروب راجع أيضاً إلى هذه الظروف وإلى الشعور بها ، لا إلى طبيعة لا تتحول . فلو أن الألمان الذين يميلون إلى إشعال الحروب نالوا ما ناله الآخرون من

الملك والسلطان ومن الرضاء والرضا بما هم فيه لتحولوا عن هذا الميل الذى قيل إنه فيهم أصيل ، ولو أن الآخرين حرموا حرمان الألمان وشعروا شعورهم وملكوا القوة العسكرية والعلمية التى يملكها الألمان لماوا إلى الحروب ميلهم ... فنجاح هؤلاء الدعاة وهذه الجمعيات هو نجاح طبيعى على حسب ما تقضى به النفس الإنسانية ، وإن كان نجاحاً يدعو إلى الأسف العميق عند العقلاء .

أعلن منذ سنة ونصف تقريباً فى الصحف عن خطاب سيلقيه أحد الخطباء فى إحدى الجمعيات الكبيرة المحترمة ، وكان عنوان المحاضرة (الثقة بالله) ، فذهبت إلى تلك الجمعية فى اليوم الموعود ، فوجدت الحشود هائلة ، ققام الخطيب يلقي خطابه فكانت خلاصته : إن فى أيدى المسلمين أمراً سهلاً قريباً يستطيعون أن يدركوا به كل ما فاتهم وأن يجدوا به جميع ما فقدوا ، وهو أمر لا يكلفهم شيئاً ؛ هذا الأمر السهل القريب هو أن يدعوا الله موقنين بالإجابة ، فإنهم إذا دعوا الله وأيقنوا أنه مجيبهم لا محالة فسيجيبهم وسيعطيهم ما سألوا بدون عناء وبدون عمل ... ثم ألقى على نفسه اعتراضاً مشهوراً مشهوراً وهو أن المسلمين ما زالوا يدعون الله : يسألونه النصر والقوة والاستقلال وإهلاك الأعداء ويسألونه كل خير ، ومع هذا كله فإنهم لم يظفروا بواحد من هذه الأمور ... فأجاب عن هذا الاعتراض قائلاً : إنهم دعوا الله ولكنهم لم يوقنوا بالإجابة ، ومن ثمة منعوا وحرموا !! فليجمعوا بين الأمرين ثم لينظروا كيف يصنع الله لهم وبهم ! إنه حينئذ سيهبهم كل شيء ، وسيهلك لهم أعداءهم وسيقدم لهم صك الاستقلال التام ملفوفاً بحجر مصنوع فى السماء تحت إشراف الملائكة !! ثم أخذ فى تلاوة الآيات والأحاديث التى زعمها مصدقة لظنه ... هذا مجمل تلك المحاضرة التى ألقىت فى تلك الجمعية المحترمة . وقد كان رئيس الجمعية — وهو إنسان ذكى خير — حاضراً فسمع المحاضرة كلها . وقد لاحظت أن الموجودين كلهم استحسنوا ما سمعوا واستولت على كثير منهم حمى السرور وهزة الإعجاب ، وحسبوا أن الخطيب قد ارتفع بهم إلى أحد الكنوز السماوية ، فلم يبق إلا أن يأخذوا ما شاءوا . ولا ينبغي أن يحسب القارئ أن هذا الخطيب بدع بين الخطباء ، ولا أن رأيه بدع بين الآراء ، ولا أن تلك الجمعية بدعة بين الجمعيات ، ولا أن أولئك الحاضرين المستمعين بدع فى عديد الآخرين ، بل ينبغي أن يعلم أن أكثر الناس اليوم — أو على الأشهر كلهم — يذهبون هذا المذهب ويعدون ضالاً مارقاً من لم يذهب كما ذهبوا .

كتب أحد أئمة التاريخ والحديث الكبار في القرن الثامن الهجري في تاريخ له مشهور يقول : (وفي سنة ٥٤٣ حاصر الأفرنج — وهم في سبعين ألف مقاتل — ومعهم ملك الألمان دمشق ، فخرج إليهم أهلها فاقتلوا . وأخرج مصحف عثمان إلى صحن الجامع واجتمع الناس حوله يدعون الله ، والنساء والأطفال مكشوفو الرؤوس يدعون ويتباكون ... — إلى أن قال — : ومدينة دمشق لاسبيل للأعداء من الكفرة عليها لأنها المحلة التي أخبر الرسول عنها أنها معقل الإسلام عند الملاحم والفتن ، وبها ينزل عيسى بن مريم ...) —

هذا ما قاله في التاريخ ، وله رحمه الله كتاب آخر عنوانه (الاجتهاد في طلب الجهاد) ذكر فيه أيضاً أن الكفار لن يدخلوا دمشق أبداً إلا أنه ذكر حجة أخرى غير هذه الحجة وهي أن الرسول عليه السلام قال : (وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده) قال : والقيصر هو من يملك الشام من ملوك النصارى . فهذا الشيخ — وهو محدث جليل — يرى أن الإسلام قد أعطى أهله ضماناً في صك مكتوب بأن النصارى لن يحتلوا مدينة دمشق ! ولا نعرف ماذا يقول لو أنه عاش بعد أن كتب هذا فرأى الجيوش الفرنسية ثم الإنجليزية تدخل هذه المدينة الإسلامية الجميلة غازية فاتحة منتصرة ؟ أترأه يستطيع أن يقول إن الإسلام أعطى هذا الضمان الجميل ، أم تراه يدعى أن ما أورده هنا في كتابه يصلح أن يكون برهاناً على وجود هذا الصك الإلهي المحمدي المزعوم ؟ لا ريب في أن الذي جعل مثل هذا الشيخ الجليل الحافظ يهجم هذا الوهم هو الغفلة عن سنن الله الصارمة التي لا محابة فيها ولا فوضى ولا محسوبة .

قال أحد القواد العبقريين الذين عركتهم الحروب وعركوها : إذا احترب فريقان كان الله مع أقواهما . وهذه قولة قد نظنها كفوفاً أو فسوقاً أو جهلاً إذا نظرنا إليها بشق واحد من عقولنا ، ولكنها في الواقع قولة عميقة منبئة عن حقيقة كبرى في حكمة الله . وإذا استمعنا إلى قول الله في كتابه « إن تنصروا الله ينصركم » استطعنا أن ندرك ما في قول هذا القائد من حق وصدق . فإن هذه الآية قد جعلت نصر الله لنا إنما يأتي بعد نصرنا له ، ونصرنا له تعالى هو نصرنا لأنفسنا ، وإذن فالله لا ينصرنا إلا إذا نصرنا أنفسنا . ولا يمكن أن نصر أنفسنا إلا إذا كنا أقوى . وإذن فالله مع الناصر لنفسه ، والناصر لنفسه هو الأقوى . وإذن فالله مع أقواهما . وهذا هو القانون العادل الشامل ، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل ، ومن هلك بهما فلا ناصر له .

هذا ما كان يقوله المسلمون في العصور الخالية في سيادة النصارى وانتصارهم عليهم .
أما اليوم فقد حل محل هذا الوهم وهم آخر ، وصاروا يقولون هذا القول ويهمون مثل
هذا الوهم في خطر اليهود وفي ملكهم ومحاولتهم إعادة وطن قومي لهم ... فقد أكثروا
من الادعاء بأن اليهود لا خطر ذاتي لهم ، وأنه لا يخشى منهم منفردين على المسلمين
ولا على الأوطان الإسلامية لا على فلسطين ولا غيرها . ثم زعموا كما زعموا منذ خمسمائة سنة
بأن الله قد دفع إليهم بعهد مكتوب بأن اليهود لن يكون لهم ملك ، ولن يكون لهم وطن
خاص ! ثم اتهموا كتاب الله بوجود هذا العهد فيه ، وراحوا يتلون الآيات منزلها
في غير مواضعها .

والآيات التي استدلوها بها والتي يمكن أن يستدلوا بها هي قوله في سورة البقرة :
« وضربت عليهم الذلة والمسكنة » ثم قوله من آل عمران : « ضربت عليهم الذلة أينما
تقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وبأوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة »
ثم قوله من سورة المائدة : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله » ثم قوله في الأعراف :
« وإذ تأذن ربك ليعيثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع
العقاب وإنه لغفور رحيم . وقطعناهم في الأرض أمماً ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » .

وقد حسبوا أن هذه الآيات قواطع في أن اليهود لن تقوم لهم دولة ولن تكون لهم
صولة . ولكن هذا غير صحيح لا بالنظر إلى سنة الله ولا بالنظر إلى كتاب الله ؛ أما سنة الله
فإنها قد علمت بأن من أخذ بأسباب الملك ناله ، واليهود من أعمل الناس اليوم لهذا الغرض
ومن آخذهم بالأسباب . أما قلتهم فليست بمانعة من ذلك ، فإن هنالك شعوباً أقل منهم
عديداً ومع قلتهم ملكوا بل واستعمروا شعوباً كبيرة . والمستقبل في هذا العصر ليس
لعدد وإنما هو للعلم ، فإن الحروب اليوم وغيرها ، من الوسائل التي تستولى بها على الحياة ، علمية .

وأما كتاب الله فإن هذه الآيات ليست صريحة في صدق هذه الدعوى : أما « ضربت
عليهم الذلة » في الآيات كلها فإن الذلة عند أكثر المفسرين هي الجزية ، فيكون تفسير
هذه اللفظة أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود ، وفرضها عليهم في وقت
من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم
مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم ... وإذا قدر بأن المراد بالذلة في الآيات هو المعنى
الأول السابق إلى الأفهام لم يلزم منه صدق هذا الوهم . وذلك لأن إخبار القرآن بأن

اليهود أذلة في وقت نزوله لا يقتضى أن يبقوا أبد الآبدن كذلك . وما من أمة من الأمم إلا وقد مرت بها عصور ذلة وضعف ، معها كانت اليوم عزيزة منيعة . وفي الكتاب : « ولقد نصركم الله بيدراً وأتم أذلة » . وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه ، ولكن لا يمكن الزعم بأنهم سيقون أذلة أبداً . وأما المسكنة عند أشهر المفسرين فهي الفقر . والمراد هنا الفقر القلبي لشدة حبه الممال . وقد قال الشاعر في هذا المعنى :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالتى فعل الفقر

وذلك أن الغرض من الغنى هو أن يسعد صاحبه لا أن يشقيه ، فإذا لم يسعده كان كالفقر المشقى .

وقيل إن المسكنة هي ضرب الجزية ، وقيل الحراج ... وكل هذه التفسيرات لا تنافى أن يكون لهم ملك وأن يكونوا يوماً ما خطراً مرهوباً .

أما قوله « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » فالمراد أن دسائسهم ومكائدهم التي حاكوها بإحكام واستمرار للقضاء على الرسول وعلى دعوته قد أخذها القشل من كل جانب ، وأنهم هزموا في كل حروبهم التي شبوها مرادين القضاء على الإسلام . وهذا لا ينفى أن يكونوا خطراً في المستقبل .

وأما بعث الله عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة فإنه لا ينافى الملك أيضاً . لأنه إذا كانت لهم دولة وبقية الحروب بينهم وبين الآخرين مستعرة فإن في هذا أشد أنواع العذاب وأشد سوماً لهم بالعذاب . ولا ريب أن المتحاربين كل منهم يسوم الآخر ويصليه العذاب . وأما تقطيع الله لهم في الأرض أمماً فالمراد أن الله قد شتمهم في الأزمان القصية . وهذا أيضاً لا ينفى أن يكون لهم وطن وأن يجتمعوا وأن يكونوا خطراً على من ربطوا عقولهم بالأوهام ، وأطبقوا أجنابهم على الأعلام .

فالقرآن إذن لم يقدم إلينا صكاً فيه الضمان والأمان من خطر هذا الشعب الذي الغنى الماكر ، بل قدم إلينا الأوامر الصارمة الصريحة بأن نحذر ونستيقظ ونقف .

وقد جاءت الأحاديث الصحاح بأن حروباً عظيمة ستضطرم بين المسلمين واليهود . وقد يكون في هذا ما يعطى بأن اليهود قد تكون لهم دولة وجيوش يحاربون بها ودفاعاً عنها .

وإن أشد ما يفرعنا وأشد ما حملنا على أن كتبنا هذا الذي كتبنا في هذه السألة هو أننا نحاف أن نبقي متوهمين أنفسنا وبلادنا بمنجاة من هذا الخطر الخيف الفاجر فام اليوم ، كما كنا نظن أننا بمنجاة من الخطر المسيحي حتى قضى القضاء... وحينئذ لا يجدي الندم كما لم يجدي فيما فرغ منه... وقد لاحظنا أن هذا العرور — وهو خليف بأن يسمى غروراً — مستول على تفكير إخواننا المقصودين بهذا الخطر ، الذين يكاد يحاط بهم . فهم يرون أنه لو خلى بينهم وبين اليهود — جامعة اليهود ما جمعت من الأموال والقوات ومن العلم والمكر والدهاء — لكانت الغلبة لهم ، وإن فقدوا هم كل شيء من هذه الأمور التي من ملكها فهو المنتصر ومن فاتته فلا شيء له .

ومما يجب الالتفات إليه هنا أنه لا يحسن منا أن نحكم بأن القرآن قد جهر بأن اليهود لن يكون لهم ملك في عصر من العصور . فإننا لو حكمنا هذا الحكم ثم أبطلت الأيام حكمنا هذا لحشنا أن يكون في ذلك شيء من توجيه الاتهام إلى القرآن ونصوصه وقضاياه . وقضية اليهود قضية يجب أن نهها كل حساب وتقدير . ولعل بوادر خطرهم التي تجلت لنا في هذه الأيام لا تقل عن بوادر الخطر التي كان الغرب يهدد بها الشرق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر . وقد أصبحت تلك البوادر حقائق مرة ، لا تزال نعاى كروها وسبق زماً طويلاً نعانها .

إن لمستقبل الصهيونية في فلسطين احتمالين : أحدهما أن تفتح لها الأبواب هناك بعون الغرب ، وأن تحتشد فيها وتتجمع وتتكون كيف شاءت — وهذا شر الاحتمالات . وثانيهما أن تقفل في وجهها الأبواب قفلاً محكماً أو بعض القفل . وهذا — كما لا يخفى — أفضل الاحتمالين .

أما الأول فلا شك أنه إذا أبيع للمال والذكاء والعلم اليهودي وللرؤوس اليهودية التي تجمعت فيها خلاصة الثقافات والعارف والمطامع الغربية والعالمية — : إذا أبيع لذلك كله أن يبسط سلطانه وأن يظهر مقدرته وكفايته في تلك البلاد الضعيفة العاجزة عن المنافسة فإن النتيجة حينئذ تكون معروفة — أو يجب على الأقل أن تكون معروفة . ومن ارتاب فيها فلأمله الهبل... إن النتيجة حينئذ هي تدمير العرب في فلسطين تدميراً كاملاً ، وسلبهم كل شيء مما في أيديهم وتحت أيديهم . ولو فرض في مثل هذه الحالة أنه بقي للعرب أجزاء من أراضيهم وأملأهم ، لم يستطع اليهود شراءها بوسيلة ما من وسائلهم الكثيرة ،

لم يمنع ذلك من أن يكون العرب في تلك الأراضي والأملاك الفروضة أجراء فقط ، يعملون وينتجون لسادتهم الحقيقيين ، ليس لهم من ملكهم وعملهم فيه سوى العناء المتواصل المبيد ! لأن اليهودى يعرف كيف يسلبك ثمرة ما تملك ! وكم من الناس الذين يملكون ولكنهم لا يملكون ! وضحايا البنوك والمؤسسات الأجنبية يعرفون هذا معرفة مرة المذاق .

ولهذه النتيجة نتيجة أخرى ، هى أشد هولاً وأشد إزعاجاً لمن يفكر فيها ويدبرها تلك هى الامتداد العسكرى والاقتصادى والثقافى الذى سيكون أثراً محتوماً لاحتماد هذه القوى اليهودية الخيفة فى ساحة ضيقة مثل فلسطين ... ومن المعلوم أن هذا الامتداد لن يكون إلا فى بلاد العرب . ومعنى هذا أن الآلة اليهودية لاحتمال من أن تتحدى الآلة العربية وتصطمم بها . ولا ندرى كيف تتكافأ الآلتان مع ما بينهما من الفروق العظيمة . والقول بأن العزة للكائر قول كان يصدق أحياناً لما كانت الأمم والجماعات يتنازعون ويتقاتلون بالأكف وبالجمارة والسهام والنبال وأمثال ذلك ، ولكنه لا يجب أن يصدق فى الزمان الذى يكون العلم فيه هو الفاصل والحكم والعدة .

أما الاحتمال الآخر الذى يرضينا معشر العرب ، والذى نعمل له ، والذى هو أقصى أمانينا — أعنى إيصاد الأبواب كلها فى سبيل كل يهودى يريد دخول فلسطين — فهذا الاحتمال — على أنه أفضل احتمال — ليس فى استطاعته أن يرد عنا الخطر الصهيونى الذى أنشأه أُنياه حقيقة فى جانب من جوانب هذا الوطن العربى . وذلك أن اليهود حينئذ — وهم أهل الدكاء والحيلة والتصميم والتعصب القومى العجيب — سيلجأون إلى وسائل كثيرة هينة عليهم وعلى كل من هم مثلهم ثقافة وعلماً ونشاطاً ومالاً وشأناً دولياً ملحوظاً .. من هذه الوسائل تنظيم عمليات التهريب برّاً وبحراً وجواً ، والتحايل على الوصول إلى ما زعموه وظنهم الذى لن تثنيهم عن دخوله قوة من القوى ... ومنها محاولة تكثير مواليدهم وتوالدهم بطرق فنية مبتكرة مفزعة — وهكذا حتى يصيروا عدداً جسيماً فى هذى البلاد ، وحينئذ ينطلقون فى سبيل تحقيق أغراضهم الكبرى التى أرصدوا لها أضخم الدهنيات العالمية — يمدّها ذلك الخيال اليهودى الذى ألهمته عبر التاريخ القاسية الطويلة ، ومعارف هذا العصر الفذ ، ثم تلك الشهية العتيدة التليدة التى شهر بالتمتع بها حفدة شيوك وقارون إزاء المال والحياة ، وإزاء المنافسة فى تحصيلهما . وإذن فالخطر اليهودى قد

صار حقيقة واقعة على كل الاحتمالات والحالات . فلو ظفرنا بأجمل ما يلعب بآمالنا — وهو وقف الهجرة الصهيونية نهائياً — لما كان في ذلك شيء من الضمان والأمان إلا عند من اعتادوا أن يناموا تحت مطارق الأقدار . فكيف الخلاص إذن ؟ كان من الواجب علينا جميعاً أن نسأل — ولكن هذا أمر قد غاب عنا أجمعين — لماذا يحاول اليهود أن يتركوا أوروبا — مهبط النشاط الإنساني الرائع ، ومجلى العبقرية البشرية — وأن يتحدوا كل صعب وذلول ، ليتجمعوا في هذا الوطن الشرقي العربي الذى يكاد يكون من الناحية الزراعية والصناعية والعلمية فطرياً بدائياً ، والذى لا قيمة لموارده الطبيعية بالنسبة للبلاد التى يفرون منها ؟ ليس من الحق أن يكونوا قد خدعوا فاعتقدوا بأن مجال العمل والنشاط والحياة في فلسطين أعظم منه في الأوطان التى تركوها ، كما أنه من غير الممكن أن يكون البله الدينى قد خالط رؤوسهم فاختاروا هذا المكان من الدنيا ، اقتياداً لعاطفة دينية ، وطاعة لنص وجدوه في كتبهم المقدسة . كل هذا لا يمكن أن يكون . أجل ، قد يوجد بين الجماهير المظلمة من يكون هذا هدفه وهواه . ولكن الرؤوس التى نظمت هذا الغزو وأوفت به على الغاية ليس من الممكن أن يكون قد ألم بها هذا الخبال أو الخيال . فالأمر إذن غير ذلك ، فما هو ؟ لنفترض أن بريطانيا وأمريكا — أقوى قوتين تحكمان العالم اليوم — طلبتا إلى اليهود أن يختاروا لهم أغنى وأفضل منطقة في ألمانيا أو اليابان أو إيطاليا مثلاً ليصروها لهم وطناً قومياً بقوة السلاح ، فهل من الممكن أن يرضى اليهود بهذا الوطن المفروض العروض ، وأن يقدموا على تجربته ؟ لا ريب أنهم لن يفعلوا ، ولكن لماذا لا يفعلون ؟ بالجواب عن هذا نعرف لماذا اختاروا بلداً عربياً ، وهان عليهم تحدى أهله وتحدى جيرانهم وإخوانهم !! إنهم لا يقبلون مثل هذا الوطن لأنهم يعلمون أن أهله سيدمروهم في يوم من الأيام ، أو يجلوهم على الأقل لا محالة ، هذا من جهة ، ولأنهم يعلمون من جهة أخرى أن هذه الشعوب ليست هيئة المنافسة ، ولا سهلة التضم والبلع . أما فلسطين وسواها من البلاد العربية فعلى عاجزة عن الأمرين معاً : عن تدمير اللصوص الواغليين وإجلأهم ، وعن منافستهم تجارياً وصناعياً وزراعياً ! فما أطيهم إذن مغنا ، وما أسعد من ظفروا بهم ودخلوا عليهم الأبواب ! من السهل عليك أن تبسط يدك آمناً مطمئناً ، فتجتذب الطيور المسالمة الضعيفة من أوكارها ، لتقدم لك على مائدتك طعاماً شهيماً سائغاً ! ولكن من الصعب عليك أن تفعل ذلك بعين الأسد .. ومعنى هذا أن بعض الشعوب فيها مناعة ذاتية ، تصنها الفناء والعدوان ، وبعضها ليست فيها هذه المناعة ،

فهى محتاجة إلى حماية خارجية وإلا ذهبت في الهالكين . واليهود يعملون أننا فاقدون لهذه المناعة ، ولهذا فإنهم لا يخشون وغولهم علينا ولا غزوهم إيانا .. لن يهاجم اللصوص منزلك وأنت موجود فيه يقظان إلا متى وثقوا من ضعفك وهوانك .

وإذن فالسبيل الوحيد لنجاة فلسطين وغيرها من البلدان العربية ، ولنجاتنا من جميع الغزاة والدخلاء أن نتعلم كيف توجد فينا هذه المناعة الذاتية التى يكون فى استطاعتها تدمير الغازين ومنافستهم منافسة تمنعهم من أن يتلمسوا لأقدامهم بيننا موضعاً . إنا إذا أصبحنا كذلك فسيمتتع الصهيونيون وغيرهم من الدخول علينا ، فى فلسطين وغيرها ، حتى ولو عرضنا عليهم نحن ذلك عرضاً ، وطلبناه منهم طلباً ، ورجوناهم له رجاء ، وسيقولون حينئذ متى طلب منهم الدخول مثل ما قال أسلافهم وآباؤهم لبيهم موسى — حينما قال لهم : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا تتردوا على أديباركم فتتقلبوا خاسرين ... » — : « قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون — إلى قوله — قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ... »

أما ما لم توجد فينا هذه المناعة الذاتية فنسئل عرضة لضروب الغزوات وصنوف الغازين ، ولن يمنعنا من ذلك صراخ ولا احتجاج ولا اجتماع ، ولا شيء مما نصنعه من هذا القبيل .

نؤمل اليوم أن تحميها بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط الماحق ، مع أنهما هما الحصان !! إنا نخدع أنفسنا كثيراً ونضللها حينما نظن أن فى حولنا — لو تخلت هاتان الدولتان — أن نحصى أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها ! فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية والدولية . أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك .

هذه حقائق يجب — على الأقل — أن نستذكرها دائماً ، ويجب ألا تعيب عنا طرفة عين . وبناء على هذه الحقائق يجب أن يكون من أعظم ما نفعل ، وما نتقى به الأخطار الحاضرة والمقبلة أن نعمل على الاتصاف بالمناعة الذاتية الداخلية التى ذكرناها آنفاً ، وإلا فلا نجاة ولا حياة .

يجسن أن نستطرد هنا وتنبأ بما سوف تصنعه وتختاره بريطانيا فى هذه القضية

— قضية فلسطين والصهيونية: يخيّل إلى أن هذه الدولة لن تسمح بحال من الأحوال بفتح أبواب هذا البلد العربي إطلاقاً لليهود لأمرين اثنين: أحدها خشيتها من اليهود في المستقبل.

أن الإنجليز يحشون دائماً القوى المتوثب، ويثبتون في سبيله العقبات، ويظنون يرقبونه ويتربصون به الدوائر ما بقي وبقوا. فإذا ما قام نزاع بين هذا القوى المتوثب وبين آخر ضعيف صاروا إلى جانب الضعيف، يؤيدونه وينصرونه ويسندونه. وهم لا يتخلون عن هذه الخلة إلا اضطراراً أو لعلّة — على أن يبقوا مراقبين لذلك القوى بحذر دائم! ولعل كل من كانوا في موقفهم ووضعهم يصنعون صنعهم. واليهود أقوياء متوثبون، مافي ذلك شك. فهل تسمح السياسة البريطانية التقليدية بأن يركزوا كل نشاطهم وقواهم المختلفة الهائلة في فلسطين؟

يبدو لكثيرين من الذين يلمون بدقائق سياسة هذه الدولة ودخائلها إن ذلك لن يكون.

أن الإنجليز يعلمون أنهم إذا فعلوا هذا ومكنوا الآلة اليهودية الضخمة من أن تبعد كل إبداعها وتركز جميع إنتاجها في هذه المملكة الصغيرة فستكون وبالاجسما على الصناعة الإنجليزية في أسواق شرقية كثيرة، هذا أول، ثم وبالاعلى السياسة والسيادة الإنجليزية ثانياً: فإن اليهود سينافسونهم منافسة قاصمة في الميدان الاقتصادي من كل وجوهه، بل وفي الميدان الثقافي الأدبي، ثم سينازعونهم في يوم من الأيام القرية أو البعيدة السيادة والسلطان، وستكون هذه المنافسة وتلك المنازعة فنتيتين قويتين بارعتين! فهل يجهل البريطانيون شيئاً من هذا، أو هل يستطيعون رد هذا الخطر فلا يصنعون؟.

نعم قد يقال إن الثروة الطبيعية قليلة تافهة في هذه البلاد بحيث لا يمكن أن توجد قوة صناعية اقتصادية، أو قوة حربية عسكرية تهدد بريطانيا العظمى ذات الثراء الخفيف... ولكن هذا القول لن يستطيع أن يغير من هذه الحقيقة شيئاً. وذلك أن الجذور اليهودية ضاربة في كل أنحاء المعمورة، فهي تستمد غذاءها وقواها ووجودها من كل مكان، هذا من جهة، وجهة أخرى، تلك هي أن العلم والبراعة قد يستطيعان غلب العقبات كلها، وجهة ثالثة، هي أن العالم قائم أمره اليوم على التكتل والتحالفات وجمع القوى المفرقة لتصبح قوة موحدة، وجهة رابعة، تلك هي أن أعظم أمة في العالم تمر بها أوقات تصبح فيها هدفاً لكل من يريد أن يرميها وأن يصيب منها مقتلاً.

أما الأمر الثاني فهو أن الإنجليزي تربيته الأصلية ينظر إلى المستقبل البعيد نظراً
كله الحذر واليقظة والانتباه . وإن تفكيره وحسابه لما قد يحدث بعد مائة عام أو مئات
الأعوام لا يقل عن تفكيره وحسابه لما قد يحدث بعد يوم أو بضعة أيام ... هذا وجه
من وجوه عظمة هذا الشعب التاريخي الذي استطاع أن يستغل أكثر شعوب العالم ، وأن
يدلها ويسلبها كثيراً مما كان في أيديها بأهون الأسباب وأقربها ، وأن يسخر أعظمها
وأقواها في مصالحه وأغراضه الخاصة .

والإنجليز يعلمون أن العرب اليوم ضعفاء ، لا يخشون بأسهم خشية تلزمهم بأن
يدعوا بعض ما يريدون رهبة منهم ، وتزولا عند مشيئتهم . ولكنهم يعلمون من جهة
أخرى أن الشعوب لا تبقى على حالة واحدة من القوة والضعف ، والارتفاع والهبوط ،
فيعلمون أن العرب قد يصبحون بعد عشرات الأعوام أو مئاتها قوة تخشى وترجى ،
ويحسب لها الحساب الكثير ، ويقدر أن هذا اليوم إذا جاء — ولا شك في أنه
سيجىء — فسيدكرون من أساءوا وإلهم ومن سلبوهم أحد أوطانهم العزيزة بالقوة والطغيان
وقدموه هدية سخية لمستعمري أوربا وأمريكا الصهيونيين ، وسيأخذون بسنة الانتقام
واسترداد الثأر . وقد ينسى كل شيء ولكن سلب وطن من الأوطان — سيظل ماثلاً
قائماً أمام العين والوجدان — ليس من المستطاع نسيانه . وسيظل كل عربي حافظاً لهذا
الثأر في أعماق نفسه ، مرتقباً فرصة الانتفاض والانتقام الذي لا يعرف اعتدالاً ولا هواناً .
إن الإنجليزي يعلمون هذا كله ، فهل من الممكن أن يتغافلوا عنه وأن يتناسوا حساباه ؟

هذان أمران من الراجح المعقول أن يحولا بين السياسة البريطانية وبين إهداء
فلسطين لليهودية العالمية — يضاف إليهما أمور أخرى مثل الخوف من أن يولى العرب
— عند اليأس من الإنجليزي — وجوههم صوب منافسهم ، ومثل الخشية بأن يكون
نفوذ الصهيونية في فلسطين نفوذاً أمريكياً . وهذا ما لا يسعغه الإنجليزي .

غير أنه من الممكن أن يقال إن الشعب البريطاني شعب واقعي ، يؤمن بالحقائق
ولا يستطيع تجاهلها أو الإغضاء عنها — هذه طبيعة فيه . وهو يرى أن من الحقائق
الواقعة أن الشعب اليهودي قد صار قوة عالمية حقيقية ، فهل يختار تحديدها ومعادتها
وإغضابها جهاراً وعلناً؟ ألا يخشى أن تعبى اليهودية العالمية قواها الهائلة كلها ، وتنصب
جائلها أجمع للإيقاع بالإنجليز وتدمير سلطانهم المديد العتيق؟ أو ليس تماسك بريطانيا

وعظمتها ونجاتها ونجاة امبراطوريتها ممسوكاً بحيط دقيق طويل جداً - وهو عطف العالم - ولاسيما أمريكا - عليها حين محتتها وحين تطبق عليها الأرزاء وتأخذ الهزيمة بمخترتها ، ووقوفه في صفها ، سافكاً دم أبنائه ، منفقاً لأمواله ، معرضاً بلاده للأخطار والدمار ... ولولا ذلك لموت هذه الدولة في الحربين الماضيتين ، ولأقام المنتصرون على أبقاضها ما يشاؤون من دول ؟؟ أو ليس في استطاعة اليهود أن يغيروا اتجاه أمريكا وغير أمريكا ، وأن يصرفوا الرأي العالمى العام عن الانجليز ، وأن يتركوهم لأعدائهم الأقوياء الباطشين ، زيلونهم ، وأن يكيدوا لهم كيداً قد يطيح بأعظم أمة ظفرت بأعظم مجد ؟ فهل يعضى مثل هذا الشعب - وهو شيخ السياسة العلم - عن كل هذه الحقائق ؟ أو لا يمكن أن تجتو بريطانيا على ركبتها من أجل هذا كله أمام مشيئة اليهود الغالبة ؟؟ من الممكن أن يكون هذا كله أو جله صحيحاً عند النظرات الأولى ، ولكن الاستقراء الطويل قد دل على أن الطبيعة الإنجليزية لا تسل للقبوة التي ترهبهم وتهدهم ، وإنما ينشطون للعمل على إزالتها من الطريق ، لأنهم يعرفون أنهم إذا سلموا لها لم يكن ذلك منيلاً لخطرها ، وإنما يضاعف له ، وأنهم سيكونون بعد التسليم أضعف منهم قبله ، وأن كل تسليم قد يعقبه تسليم آخر - وهكذا .

بيد أن هذه المسألة قد ينظر لها نظر آخر ، فيقال : قد يرى الإنجليز أن من الصواب احتضان اليهود وتقويتهم ليكونوا عوناً وردءاً لهم في المستقبل ، وحلفاء مخلصين أيام الشدائد . ومن المعروف أن البريطانيين - عادة - يصطنعون الحلفاء ، ويوجدون الضعفاء ليكونوا من ورأهم - بل من أمامهم - يوم تدلهم الخطوب ... ولكن يظهر أن هذا الأمل ضعيف ، وأن هذه الأمنية بعيدة التحقيق ، لأن اليهودى طموح حقود متوثب أنانى شديد التعصب لعنصره وقوميته ، لا يرمى الصداقة ولا الإحسان القديم حين القدرة . ولهذا أسباب تاريخية ونفسية معروفة .

ومن الممكن أن يقال أيضاً : لعل السياسة البريطانية البعيدة الغور ترى في إقامة دولة صهيونية في قلب البلاد العربية ضماناً لها وسلطانها من أن يجرفها ويجرفه العرب حينما يصيرون قوة تضر وتنفع ، لأن وجود اليهود بينهم يضعف دائماً من شأنهم ، ويحد من سلطانهم . غير أن هذا لا يصح لأن العرب يوم يكونون أقوياء ، ويوم يعرفون كيف يكونون كذلك سوف يطيحون باليهود ، وسوف يعصفون بهم كما يعصف الإعصار المحتاح بما يقف في طريقه من الأشياء الصغيرة .

من أجل ما ذكر — ومن أجل غيره أيضاً — نرجح أن السياسة الإنجليزية ستختار الوقوف من الوطن اليهودى فى فلسطين موقف المانع المعارض ، على رغم ما يبدو من مناوراتها ومداوراتها . ولكن يجب على كل إنسان منا ألا يثق بالانجليز ولا بغيرهم ، وألا يرجو منهم خيراً ، فما يصنعون إلا ما يظنونه مبقياً على امبراطوريتهم ، فما هم إلا حراسها ، ويجب ألا نولمهم على ذلك . وهم لن يقدموا لنا خيراً لأنهم يحبوننا ، أو لأنهم يحبون الخير للآخرين ، أو يحبون الخير لذاته ، فما هذا من طبيعة البشر !! ويجب ألا نأسى وألا نعضب من هذه الطبيعة القاسية . والدنيا كلها مسوقة بهذا الناموس الصارم — ناموس تنازع الصالح . فلنوطن أنفسنا على تقبل هذه الحقيقة وعلى الرضا بها ، وعلى الانتفاع بنتائجها ؛ ثم لنعلم أنه لاخير يمكن أن يصيبنا إلا ما تقدمه لنا أنفسنا وأيدينا وأعمالنا — تدفعنا أنانيتنا الخاصة الخاصة إليه !!

ومن لم ترضه هذه الطبيعة البشرية فليحاول أن يكون مخلوقاً آخر إن استطاع ، أو ليحاول الخروج من هذا السيار ، ليصعد إلى سيار آخر لعله يجد فيه طبائع أفضل من هذه ؟

والذى نريد أن نقوله هنا هو أنه لا محابة ولا نسب بين الله وبين أحد من خلقه . وقد وضع نواميس وسنناً وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل . فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين ، وسار معها بلا اصطدام ولاخروج فقد نال ما يبغي ، ومن عاند هذه النواميس والقوانين وعارضها وحاول الخروج عنها فقد هلك ولا محالة ، ولن ينفعه أن يقول إنه مسلم أو إنه يصلى ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه ، كما أن هذه الأقوال والدعاوى لن تجدى من ذهب يتحدى سنة الله فترك الطعام والشراب والحفاظة على الصحة والحياة ، زاعماً أنه مسلم مؤمن ، وزاعماً أن المسلم المؤمن معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الإلهية .

اخرج إلى السماء فى ليلة صافية ، ثم انظر إلى تلك المخلوقات المتلاثلة التى تملأ الفضاء التى تواجهك أينما توجهت والتى تكاد تتشابك وتتصادم وتهاوى ولكن شيئاً من ذلك لا يحدث ، والتى تكاد تزخرف بساطاً من حبات اللؤلؤ ذات الإشعاع المتوهج المتوقد الدائم الحركة الضوئية ؛ ثم استسلم إلى عقلك وعلمك وخيالك قائلاً : كم يمكن

أن يكون قد مر بهذه الخلوقات الجميلة من الأقطاب وهي محافظة على نظامها وسيرها ومداراتها بلا اضطراب ولا اختلال ولا فوضى ولا تصادم؛ ثم سل ما الذى يسكها هكذا كل هذه الدهور — تجب بأن الذى أمسكها ويسكها هو النظام الإلهى المفروض عليها، ثم سل ثانياً قائلاً: أرأيت لو أن الجن والإنس والملائكة وكل الخلائق — أولين وآخرين — وقفوا فى صعيد واحد ثم سألوا الله جاهدين أن يفسد هذا النظام أو أن يغيره أو أن يتخلى عنه، أكان من الممكن أن يحيب الله هؤلاء الداعين أو يقبل هذا الدعاء .

ثم فكر فى هذه الشمس التى لم تنزل منذ آلاف الدهور تبعث إلى هذه الأرض وإلى أهلها الحياة والضوء والحرارة والقوة، ثابتة على مواعيد مضبوطة فى ذهابها وإيابها وفى فلك مضبوط وحرارة مضبوطة ونظام مضبوط، لا تبالي بما يريد الناس منها ولا بما لا يريدونه، لا برضاهم ولا بغضبهم، لا حين يحترقون من حرارتها، ولا حين يجمدون من احتجابها وغيبها، لا يوم يريدونها طالعة ولا يوم يريدونها غائبة، لا ترحم قوماً اشتدت عليهم حتى لفتحت أجسامهم وسودت أبصارهم، ولا قوماً هانت عليهم أو هانوا هم عليها حتى قضوا حياتهم كلها مقرورين بين الثلوج وتحت عقاب الزمهرير ... ثم سل ما الذى أزمها هذه الحالة الثابتة الرتيبة تجب بأنها سنة الخلاق العليم العظيم .

ثم ارجع بفكرك إلى هذا الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه وانظر كيف حكم كل شيء فيه بقوانين صارمة لا يستطيع شيء أن يعلبها أو يبدلها أو يحولها، وإنما يستطيع أن يعلم شيئاً منها فيعمل على الانتفاع والاستخدام خاضعاً هولها محتدياً مقتدياً ... ثم صح من أعماق نفسك وصميم اعتقادك قائلاً: اللهم ضع فى أعمالى وأفكارى وآرائى النظام الذى وضعتة فى سماواتك ونجومك وشموسك وأرضك وكل خلائتك المطبوعة — اللهم علمنى الدقة والحكمة حين أفكر وأعمل، كما علمت ذرات جسمى وذرات أرضك وذرات شمسك حين تتجمع وتتفرق وحين تحيا وتموت .

من أروع الآيات القرآنية المنبئة عن هذا النظام قوله تعالى من سورة الحجر: « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » . وكلمة موزون هنا تفوق كل ما يمكن أن يقوله العلم والفلسفة فى هذا الموضوع . ثم قال من هذه السورة: « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » . وقال

من سورة القمر: «إنا كل شيء خلقناه بقدر». وفي سورة الطلاق: «قد جعل الله لكل شيء قدراً». والقدر هو النظام كله، صيغ بأجمل وأبلغ وأقل لفظ، وقدم بأبهي وأروع صورة.

ويجب أن يعلم بأن الخلاف الذي قام بين الأنبياء والمصلحين وبين جميع أصناف المخالفين هو في أمر واحد تحته أمور كثيرة، هذا الأمر هو أن الأنبياء والمصلحين كافة إنما جاءوا بالنظام وبال دعوة إلى النظام؛ النظام في كل شيء: في الاتصال بالخالق والاتصال بالخلق والاتصال بكل شيء وإلى الإيمان بهذا النظام... فسنن الله وأوامره عامة شاملة، وعدله وقضاؤه وأحكامه عامة شاملة. فالناس كلهم بل الخلائق كلها في حكم هذه السنن والأوامر والأحكام والعدل والقضاء سواء، لا محاباة ولا وساطة ولا شفاعة تنفع لديها، ولا خرافات: فلا أموات ولا أشباح ولا أرواح تدعى أو ترجى أو تخشى أو تتحكم وتتصرف في الناس وفي الطبيعة، ولا أسرار ولا ألغاز ولا طلاس، فلا بركة عند شيخ أو عند قبر أو عند أثر، ولا تائم تعلق ولا بخور يحرق، ولا طيور لا سوانح ولا بوارح يتشاءم أو يتيامن بها ومنها، ولا جبر، بل كل مختار مرید، ولا احتجاج بالقضاء والقدر، ولا مجازفة في الثواب أو في العقاب، بل الجزاء كله بالحساب وبالموازين والقسط ولا أمر بالتخلي عن الدنيا ولا بالفقر أو بالزهد ولا بسائر ما تدعو إليه الصوفية القاتلة، ولا انتظار للخوارق والمعجزات التي تطلب من وراء الأسباب ومن وراء القوانين الطبيعية... أما أعداء الأنبياء والمصلحين فقد آمنوا بكل هذه الترهات وبسواها من الغوايات، فكان الخلاف بين الفريقين عظيماً.

وقد نص الكتاب على هذه المسألة نصاً قطع كل خلاف حيث قال من سورة فاطر: «فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً». نفى أن تبدل السنة فأمكن أن يقول قائل إنها وإن كانت لا تبدل — والتبديل هو التغيير — إلا أنها تحول عن طريقها — والتحويل هو الصرف عن القصد والجهة — فنفي هذه أيضاً؛ فهي لا تغير بل تجري على وتيرة واحدة أزلاً وأبدأً، ولا تصرف عن سبيلها بل تضي فيها غير مبالية بمن هلك ولا بمن نجا. وهذا هو العدل المطلق الذي لا يقدر على تحقيقه إلا من أوتي الكمال المطلق في جميع صفاته. أما من لم يكملوا هذا الكمال فإنهم يبلغون من هذا العدل بمقدار ما بلغوا من هذا الكمال. ومن هنا جاء التفاوت والاختلاف بين الناس

في قوانينهم وفي تنفيذها وفي قضائهم وفي التسوية فيه وفي عدلهم ثم في المحافظة عليه .
ولاشك أن التسوية والعدل في القوانين وفي التنفيذ وفي القضاء فضيلة يتصف بها
المتصفون فيمدحون على كل لسان ، ويحبون في كل مكان وزمان ، وأن التفريق في ذلك
والمحاباة فيه رذيلة يمتقها الناس قاطبة .

وأعدل الناس هو الذي ينظر في أحكامه من ناحية مكانها من العدل فقط ، فيطبقتها
كذلك ويمضيها ، ولا ينظر إلى من تمضى عليهم حين إمضائها وتطبيقها — أى ينظر
إلى القضية من حيث كونها عدلاً وكونها جوراً ، ولا ينظر إلى من يتناوله هذا الحكم
أكان فلاناً أم فلاناً ، أكان من أهل هذا الدين أم من أهل ذلك . ومن نظر هذا النظر
كان ظالماً . والله أولى من ينزه عن شوائب الجور ومظاهره ، فكيف بصرائحه وقبائحها .

ومن المواقف العلمية الخالدة في بيان سنن الله وبيان أنها ثابتة لا تتغير من أجل
الأرض وأهلها ، موقف النبي عليه السلام يوم أن كسفت الشمس في اليوم الذي مات فيه
ابنه إبراهيم فقال الناس إنما كسفت الشمس لموت إبراهيم فقام فيهم خطيباً وقال :
(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته) . وهذا رد
صريح قوى للقول بأن حوادث هذا الوجود معللة بما يصيب أهل الأرض من خير وشر
وبما يحدث لهم وبما يحدثونهم ... بل هذه الموجودات لازمة سننها بلا تغيير أو تبديل
وإن تغير الناس وتبدلوا وإن صلحوا أو فسدوا وإن عاشوا أو ماتوا .

وقد أذكرني هذا الموقف النبوي الخالد بصديق تقي يحمل شهادة عالية سمعته يزعم
أن البراكين والزلازل التي تحدث في بعض البلاد إنما تحدث من فساد الناس وفسقهم
— قال هذا بمناسبة زلزال شديد أصاب بعض البلاد الإسلامية . فقلت له : هذا يشبه
الزعم أن جذب بعض البلاد وشدة الحر والبرد في جهات أخرى وغير ذلك من الفيضانات
والصواعق والأمطار الضارة معللة هذا التعليل ومقصود بها هذا الغرض .

ومن اللفتات اللطيفة الصريحة إلى هذه النواميس قصة تلقيح النخل ؛ وذلك
أن الرسول لما قدم المدينة ورأى الناس يلحقون النخل قال : (ما أظن ذلك يعني شيئاً)
فتركوا التلقيح ففسد التمر فأخبر فأمرهم بالرجوع إلى ما كانوا يفعلون . ولو كان
من الممكن الخروج عن السنن لخرج النخل عنها ولو هذه المرة ليكون ظن الرسول صدقاً
ولئلا يوجه إليه الخطأ في مسألة كهذه .

أما الآيات التي فيها أن الله يرزق من يشاء بغير حساب وما في معناها فليس المراد أنه تعالى يعطى جزافاً وبلا استحقاق ولا عدل ولا تسوية . فإن الله قد أثبت الحساب في جملة الكتاب مثل قوله « جزاء من ربك عطاء حساباً » . والآيات في هذا لا تحصى وإنما المراد أن الله يعطى بدون أن يحاسبه محاسب أعلى منه وهو في معنى قوله « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » — أو أن المرء قد يعمل عملاً له نتيجة هي من وراء حساب ، فإذا أصاب هذه النتيجة التي هي نتيجة عمله كانت بالنسبة لتفكيره بغير حساب ولكنها بالنسبة إلى جزاء الله وإلى موازينه وقوانينه محكومة بأدق حساب — أو غير ذلك من المعاني الصحيحة التي لا تنافي قضية النظام والعدل ورفع الفوضى والتخبط في العطاء والمنع . وما يصح أن تفسر به هذه الكلمة أن نتائج كثيرة لأعمال أناس آخرين قد تنفع المرء من غير أن يحتسبها أو يعلمها أو تخطر على باله ، كأن يرث إنساناً . ولكن لا ريب أن ما يقع من ذلك لا يعدو أن يكون نتيجة طبيعية أو عادية لأعمال معينة — أو تفسر بما يصنعه الله على مقتضى سننه الثابتة العامة التي لا تفرق بين أناس وأناس .

ولن يتصور حساب أدق ولا أعدل من قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره .
ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

والفوضى في الجزاء والمكافأة أعظم مخذل لقوى الإنسان وأعظم واقف في سبيله...
إننا نلاحظ عجزاً عاماً في قوى الطوائف كلها عندنا وفي أخلاقها ، ونجد كلالاً أيضاً قد هبط بكل إنسان عن مستوى من هو مثله من الأمم ؛ فزعماءنا وقوادنا وعلماؤنا وطلبتنا وموظفونا وكل صاحب عمل ، عاجزون عن بلوغ الكمال النسبي الذي بلغه أمثالهم من الشعوب الأخرى . وقد نعجب إذا رأينا العالم لدينا يتخرج من المعهد الذي درس فيه ثم يقف عند الحد الأدنى الذي انتهى إليه حينما كان طالباً ، يدأب في سبيل نيل الشهادة لا يتجاوز في دراسة ولا تفكير ، بل ثم يأخذ في النقصان والنسيان حتى يصير إنساناً عادياً لا يمتاز عن العاديين إلا بالشهادة التي يحملها إن كان يصح أن يسمى هذا امتيازاً — وكذلك سائر رجال الأمة .

وليس سبب هذا أن الناس عندنا لا يريدون الخير لأنفسهم ، بل لهذا أسباب أخرى من أعظمها أنهم يرون ويعلمون أن الجزاء والمكافأة ليست على قدر الكفاية ، بل الكفاية في الغالب لا شأن لها في هذا ، وإنما الأمر كله يرجع إلى الوساطات والشفاعات

والقربات وإلى أمور أخرى هي أقل من ذلك... فمن رزق الشفيح القوى المرهوب أو المحبوب فذلك هو المجازي بأعلى المناصب وأقواها وأضخمها وأوفرها رزقاً ، وإن كان من ناحيته العلمية والداتية والحلقية لا يستحق إلا الحرمان والطرده ، ومن حرم ذلك الشفيح فهو المنسى المجهول القصي ولم ينفعه علم ولا خلق ولا كفاية ولا عبقرية ، بل قد تكون هذه المعاني من أسباب حرمانه وتأخيرته وإقصائه لأن التقص يرهب الكمال... فقيم الجهاد والدأب إذن؟ وقيم إتعاب النفس وإرهاقها بدون ثمن؟ فالزعيم والسياسي والقائد والعالم والطالب والموظف وكل أحد عندنا يعرفون أنهم لا ينالون من الجاه والسلطان والثراء المحبوب بقدر ما قدموا من نفع وخير ونبوغ وعمل مفيد، بل يعرفون أن ما ينالونه من ذلك إنما هو مقدور بأشياء أخرى ، فيتوجهون بكل عنايتهم وتفكيرهم إليها . وكل إنسان إنما يسير في السبيل التي يظن أنها توصله إلى غايته .

أما الأمم الأخرى فإنهم يعلمون ويرون — لأن مجتمعهم قد أصبح صالحاً — أن الإنسان لا يرتفع ولا يبلغ من آماله إلا بقدر أعماله : فقيمه الذاتية هي التي بها يعاى ويهبط ، فلا يستطيع إلا أن يعمل ، لأنه لا يستطيع إلا أن يحب نفسه ويحب لها الخير . والذين يعتقدون أن الجزاء من الله في الدنيا وفي الآخرة ليس مرتباً على العمل وليست النتيجة مرتبطة بالوسيلة ارتباطاً صحيحاً لا محالة من أن يصيروا هذا المصير الشنيع في عملهم وتفكيرهم واتجاههم . فالذين يعتقدون أن الأفراد والجماعات لا يبلغون من العز والسيادة والقوة ومن الجاه والمال والمنزلة في القلوب ومن الشهرة والسمعة ومن العلم والصحة والسرور والسعادة بقدر ما بذلوا من اجتهاد وإخلاص ومثابرة وذكاء وحسن تصريف لن يقبلوا على الحياة وعلى العمل إقبالا صحيحاً ولن يأتوا بعمل جسيم عظيم . فالذين يرون أن القضاء والقدر ، أو أن الحظ ، أو أن الشفاعة والوساطة ، أو أن الإرادة المطلقة ، أو أن رضا الله وغضبه وجهه وبغضه : أن شيئاً من هذا القبيل يدخل بين المرء وعمله وبين السبب ومسببه وبين الوسيلة والنتيجة — أى يرون أن هذه الأشياء تدخل في مصير الإنسان وتحول بينه وبين النتيجة التي يجب أن يوصله إليها عمله — هم قوم لن يجدوا في أنفسهم ما يعينهم على الاندفاع إلى الأعمال الصالحة ، وعلى الانطلاق في سبيل الحياة القوية... فالمجتمع الذي يرتجى له التبريز في ميدان الأعمال هو الذي يؤمن بالعدالة المطلقة ، في السماء وفي الأرض ، وبالجزاء القائم على القوانين العادلة العامة التي لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا بالانتقام للحقد ، ولا بالإغداق للحب .

نما نشكو منه شكوى عامة مرة أننا نعامل من يسمون أجنب قنسرنا معاملتهم
إذ يصدقون القول ويحافظون على الوعد ويحسنون اللقاء ويخلصون لما يوكل إليهم ولما
يؤدون من عمل .. ثم نعامل من يدعون مسلمين ففساء من معاملتهم ، إذ نجدهم على مخالفة
لهذه الأخلاق كلها ، فما وجه هذا الاختلاف ؟ وجهه أن الأجنب يؤمنون بالسنن العامة
العادلة والسبب والمسبب إيماناً صحيحاً : فيؤمنون بأن هذى المعاملة تصير بهم إلى النجاح
لا محالة ، وأن الخروج عنها يؤول بهم إلى الفشل المحقق لارتباط المسببات بأسبابها ارتباطاً
طبيعياً ... أما المسلمون فلا يؤمنون بهذا الارتباط ، بل يرون أن طريق الفوز والمهزومة
هو القوضى . فقد يكون المرء شر الناس في معاملته وعمله ثم يسير النجاح في ركابه حيث
سار ، كما قد يكون أحسن خلق الله في ذلك ثم يطبق عليه الفشل ، إذ عندهم أن أسباب
السقوط والنهوض ليست من عمل الإنسان ولا في معاملته ، وإنما ترجع إلى أشياء عليا
لاحيلة فيها كالتضاء والقدر والإرادة والحظ والقسمة ... فلا يرون حينئذ ما يلزمهم بأن
يروضوا أخلاقهم ونفوسهم على ما يوجب عليهم التضحية بمولهم ومصالحهم الصغيرة العاجلة
التافهة ، فيسيرون طوع تلك الطباع البدائية المتوحشة التي تهيمن على أنفسهم ...
والسبيل للإصلاح هو الإيمان بالأسباب والمسببات وبالسنن العادلة الشاملة ، وبأن للأخلاق
قوانين صارمة كقوانين المادة .

فالحامل للفريقين على هذى الأخلاق المتباينة هو حب الذات ، لكن هؤلاء رأوا أن
الطريق لخدمة الذات هو الأخلاق الفضلى ، والآخرون لم يروا هذا الرأي . فالاختلاف
في هذا يرجع إلى الاختلاف في الرأي والفهم . فالغاية متحدة والوسيلة مختلفة !

وثبت هنا شيئاً يعده الناس مخزاة خلقية ونعده نحن مخزاة اعتقادية فكرية ، لأن
إثباته هنا مما يتصل بموضوع هذا الكتاب ، ولأن شرحه مما يكشف الغرض الذي نرى إليه .

ذلك أننا تقدمنا أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ تقريباً إلى وزارة التكوين نطلب
إليها أن تبين لنا ورقاً لطبع هذا الكتاب . وقد ابتداء هذا الطلب خط سيره هكذا :
مرّ بالسكترير العام ثم بالوزير ثم بالوكيل ثم ولج غرفة كل موظف له أدنى اختصاص بهذه
المسألة — مسألة الورق — ثم بعد أن انتهى إلى آخر مطاف يمكن أن ينتهي إليه كمرّ
راجعاً إلى حيث ابتداء أولاً ، متخذاً الطريق نفسه ، نازلاً من أعلى إلى أسفل أو صاعداً
من أسفل إلى أعلى ، سالكا خطأً وهمياً دائرياً ... وقد ضل في هذا الخط وعجز عن أن

يجد له نهاية ينتهي عندها أو بداية يصدر عنها... ولقد أعيانا أن نجد لهذه المسألة حلا بعد أن جربنا كل وسيلة وحيلة ورقيناها بكل رقيقة، وأعيار رجال وزارة التكوين أن يتبينوا وجه الحق فيها فيتبعوه — إما رفضاً وإما إجابة (١). وقد شبهت الوزارة ورجالها — وهم يدورون ويتحركون في المسألة — بآلة طباعة تدور وتتحرك كما تدور وتتحرك سائر المطابع، ولكنها بدل أن تخرج لنا ورقاً مطبوعاً عليه كلام مفهوم له فائدة ومعنى تخرج ورقاً مخرقاً ممزقاً، أو مطموساً بالسواد الذي لا يستبان له وجه ولا غرض.

ووجه الشبه أن كلام الوزارة وهذه الآلة للطباعة تتحرك ولكنها لا تفعل شيئاً مفيداً، ثم لا تنتهي عند هذا، بل تذهب تضيع الجهود والوقود والأوقات والأوراق والأشياء الأخرى. والشيء الذي يهمننا في هذا الحادث أو هذى المسألة هو أن نتلمس الأسباب والدوافع الحقيقية التي قضت على القوم بأن يصيروا في أمورهم على هذا النحو من الانحلال والفوضى.. وقبل ذكر هذى الأسباب نذكر أن القوم لو كانوا يسيرين على أمر مفهوم معقول لكان أمرهم من هذه المسألة ابتداء أحد أمرين: إما أن يكون لطلبنا هذا وجه مشروع فينجزوه بلا تأخير، وإما ألا يكون له وجه، فيعرفون ذلك ويعرفوننا إياه، فيريحوننا ويريحون أنفسهم.. أجل قد يظن القارئ أن العقدة في المسألة أن الورق كان غير موجود لدى الوزارة، ولكن الموظفين كلهم أفهمونا أنه موجود وأن في الاحتياطي ما يكفي إذا ما نطلبه قليل جداً... وإذن فما هي الأسباب الحقيقية التي أزمات القوم بأن يكونوا هذى النماذج البشرية المحجلة؟ الناس — عادة — يكفون في مثل هذا أن يقولوا: إنه الانحلال الخلق. ويحسبون أنهم بهذا قد أصابوا لباب الموضوع. ولا ريب أن مثل هذا الجواب لا يشفي ولا يكفي من لا يعنيه الإمام بظواهر الأشياء.

ومن المعلوم أن الذي يدفع الإنسان إلى العمل وإلى الترك في هذه الحياة هو حب ذاته وحرصه على مصلحتها الخاصة الخالصة. ومن غير الممكن أن يكون الإنسان عدواً لنفسه، صريداً ضررها بالمعنى المفهوم التبادر. بل إن أشد الناس إجراماً وفساداً وإضراراً بنفسه وإساءة لها — حتى المنتحر نفسه — إنما يدفعه إلى ذلك حب ذاته، كما أن أشد الناس ورعاً وصلاحاً وفضيلةً إنما يدفعه ذلك الدافع ذاته. فالدافع في الحالات

(١) ويشرح الغرض الذي نرمى إليه أن نقول: إن هذه المسألة التي عي حلها على معالي طه السباعي باشا المسلم، قد استطاع أن يحلها حلاً جزئياً معالي سابا حبشي باشا المسيحي حين آلت إليه الوزارة.

كلها هو شيء واحد ، حتى إن أشد الناس أثره هو مثل أشدهم إشاراً من حيث إن كلا منهما إنما يفعل ما يفعل من أجل حبه ذاته ونفسه . فحب النفس ومصالحها هو الأمر الذى تقوم عليه جميع الأفعال والحركات .

وإذن فرجال وزارة التموين حينما فعلوا بمسألتنا هذى الأفاعيل وآذونا كل هذا الأذى ليس معنى هذا أنهم لا يحبون أنفسهم ولا يحبون أن يقال : إنهم قوم منتجون مريحون فضلاء عاملون صادقون — أو لا يحبون لأنفسهم ما قد يترتب على هذا من المثوبة العاجلة الدنيوية — وليس معناه أيضاً أنهم لا يباليون أن يتهموا وأن يدموا وأن يقال إنهم مقصرون خاملون كاذبون مراوغون مضيعون على الناس مصالحهم وأوقاتهم ، متقاضون من الدولة أجوراً بدون أن يصنعوا شيئاً ... بل إنهم فى هذه المشاعر وهذى المعانى لا يقولون عن أولئك الآخرين المدعويين بالأجانب ، الذين يؤدون أعمالهم على أحسن الوجوه وأسرعها وأكملها وأفضلها ... فالعقدة ليست هنا ، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء ليس فى هذا . ولكن العقدة أو الفرق العظيم بين الفريقين هو أن قومنا — ومنهم وزارة التموين — بما فيها من رجال وأعمال — لا يؤمنون بأن بين الحوادث تلازماً طبيعياً ، وأن بين الوسيلة والنتيجة ارتباطاً حقيقياً ، وأن بين الأسباب والمسببات تماسكاً أزلياً أبدياً ... فلا يؤمنون بأن عمل السوء سيؤدى لا محالة إلى نتيجة ضارة ، وأن عمل الخير سوف يؤدى بلاريب إلى نتيجة سارة ، وأن المراوغة فى مثل هذى المسألة والمطاوله والكذب وسلوك غير الطريق سيهبط بهم فى النهاية على الفضيحة والحزى والعار والسمعة القاصمة ، وأن ذلك كله سيؤدى بهم — بدوره — إلى الحية وإلى العقاب الاجتماعى الصارم — وهو حرمانهم من التقدم والنجاح والفوز بالآمال . إنهم لا يؤمنون بهذه النتائج لهذى الأعمال ، ولو أنهم آمنوا بذلك لكان فيه أعظم زاجر لهم وأقوى مصلح مؤدب ، لأنهم ليسو قراء من حب النفس والذات ، ولكن ققرهم هو ققر المعرفة بما يجلب الخير وبما يجلب الشر . ولكن لماذا لا يؤمنون هذا الإيمان ؟ إنهم لا يؤمنون كذلك لأنهم يؤمنون بأن المشيئة المطلقة العليا أو الأحداث الكونية الغالبة هى المهيمنة على كل شيء ، على الوسائل والنتائج وعلى الأسباب والمسببات هيمنة عمياء باطشة ، فهى لا تسير سيراً حراً طبيعياً فى طريقها ولا تدع تلازمها وتماسكها أمراً مضموناً محققاً . ويرون أن الإيمان بذلك هو من الإيمان بكال الله وبحرية تصرفه . وقد يحتجون لهذا بأمثال قوله تعالى « كل يوم هو فى شأن » . وكمن من قوله حق أريد بها أشنع ضروب الباطل .

وإذن فقد تكون الوسيلة جميلة وشريفة جداً ثم تكون النتيجة عكس ذلك ، كما قد تكون الوسيلة قبيحة وآثمة وغير شريفة ثم تحيء نتيجتها باهرة رائعة — وهكذا القول في الأسباب والمسببات وفي كل شيء . هكذا علموا ، وهكذا آمنوا ، وهكذا فسدت أعمالهم وأخلاقهم ، وهكذا صنعت لنا وزارة التموين ... أما أولئك الذين يحسنون القيام بأعمالهم ويهبونها كل إخلاصهم واهتمامهم وصدقهم ووجودهم ، فقد آمنوا بهذا الذي كفر به هؤلاء ؛ آمنوا بأن هنالك ارتباطاً وثيقاً بين العمل ونتيجته وبين البداية والنهاية ، فأحسنوا في العمل لأنهم يريدون حسن النتيجة ، وأحسنوا في البداية لأنهم ينتظرون النهاية ولا فارق بين هؤلاء وهؤلاء إلا هذا ؛ لا فارق بين هؤلاء الأجانب الذين نعاملهم فتروعنا معاملتهم بنظامها وصدقها ودقتها ، فنصبح أسرى معاملتهم وأسرى متاجرهم وبنوكهم وشركاتهم — وبين هؤلاء المواطنين أو المسلمين — وعلى رأسهم موظفو وزارة التموين — الذين نلقى من معاملتهم كلما عاملناهم مثل هذا الذي لقينا من هؤلاء الموظفين حينما تقدمنا إليهم بهذا الطلب المشروع لنصدر هذا الكتاب الذي يعالج هذه القضية العامة الكبرى — والذين لا يزال نلقى من معاملتهم كل ضرر وشر وكذب ومراوغة وغش فنولى منهم مذعورين ، تمنى لو أن الله منحنا سلطانه وجبروته القاهر ساعة من الزمان لننتقم منهم أو نصلحهم إذا كان في الإمكان إصلاحهم .

لماذا نعامل بعض التجار فيحاول — لو استطاع — أن يبيع لنا شر السلع بأعلى الأثمان كأنه لا ينتظر معاملة أخرى غير هذى ، وإنما هي صفقة الدهر أو سرقة الدهر ، ثم نعامل تجاراً آخرين فنلفيهم يسرون في تجارتهم ومعاملتهم على لون واحد صادق حتى لو أنهم استطاعوا أن يبيعوا لك السلعة الرديئة بثمان السلعة الجيدة ورضيت بذلك لما رضوا هم به ، كأنهم إنما يريدون أن يكسبوا قلبك لا أن يكسبوا هذى الصفقة الواحدة معها تعاطف مكسبها ؟ لماذا نجد هذا الاختلاف وما سببه ؟ إن هذا الاختلاف وسببه يرجع إلى أن الأولين الذين هم لصوص التجار لا يؤمنون بالارتباط الذي ذكرنا ، ولا يؤمنون بأن المستقبل — في النجاح والسقوط ، والارتفاع والهبوط — ما هو إلا وليد الحاضر وزرعه وغرسه وغايته ، لا تحلف ولا اضطراب ، لأن المستقبل — على رأيهم — بيد الله يصرفه ويضعه ويصوغه كما يشاء لا كما يجب ويحسن ، لأنهم لا يعرفون لله حكمة ولا عدلاً وإنما يعرفون له مشيئة وقهراً !! وإذن فالواجب عليهم أن ينتهزوا الفرص العاجلة وأن يعتقدوا أن ما أمكن أخذه فمن الجنون تركه !! وحينئذ فما الذي يضطرهم إلى أن يفتتوا

على أنفسهم المكاسب الناجزة ، وما الذى يضطرهم إلى أن يروضوا أخلاقهم وأعمالهم على
الكمال والصدق والإخلاص — مخالفين بذلك غرائزهم البدائية الهمجية !!

أما أولئك الآخرون فقد آمنوا بهذا الارتباط أوثق إيمان ، فأمعنوا فى سبيل النجاح
وأصبحوا الأمثال المضرورة للأقوام الناجحين .

إننا نرى الأطفال وأشباههم من حواشى الناس وأوضارهم ونفائاتهم يلقون بالكذب
وبكل سوء وقيح أينما حلوا ، لا يحسبون لشيء من ذلك حساباً ولا يرون أن شيئاً منه
منكر مذموم ... ثم نرى الحكماء وذوى الشأن والخطر يتقون كل هذا ما استطاعوا
له اتقاء وإن فعلوا شيئاً منه فعلى حذر شديد وبمقدار ؟ فلماذا هذا ؟

إن الأطفال وحواشى الناس وأمثالهم — ممن لا يعرفون التبعات وممن لا يحملونها —
إنما يقدمون على هذى القبائح بهذه الجرأة التى لا تعترف بالمبالاة لأنهم يجهلون أن لما
يقولون ويفعلون عواقب لابد أن تصيبهم وأن تصيب سمعهم ومكاتبهم ، وأن ترميهم فى
النهاية بالفشل الاجتماعى وبكل الآفات الاجتماعية التى يرهبا الإنسان بطبعه .. ولو أنهم
علموا ذلك علماً صحيحاً وآمنوا به لكان فيه ما يحول بينهم وبين هذه الشناعات . ولهذا
فإن الأطفال ، كلما تقدمت بهم السن وعرفوا من سنن الاجتماع وقوانين الحياة ، يمسكون
— على قدر ذلك — بأعنة غرائزهم ويحكمون القبض على لجم شهواتهم وميوهم الطفلية
الأولية ، لأنهم يتنبهون إلى عواقب هذه الأمور ويدرون منها ما كانوا يجهلون ... فالعلم
بالعاقبة هو أعظم ضمان للأخلاق وأقوى حارس لها .

أما الحكماء وأضرابهم فإنهم يحذرون الكذب وكل ما يسوء لأنهم يعرفون من
سنن الاجتماع ونواميس الوجود وطبائع النفس البشرية ، ومن تلازم الحوادث وارتباط
المناسبات بالأسباب ما لا يعرفه الآخرون . فيتقون كل ما قد يؤدى بسمعهم ومكاتبهم ،
وكل ما قد يصيبهم بما يكرهون .

وإذن فلن تتخلى وزارة التموين عن خلائقها هذه وعن أمثال هذه المعاملة التى
أضاعت علينا الوقت الكثير والجهد الكثير — وعليها أيضاً — وجعلتنا نندب الإنسانية
ونشعر بالعار والإشمئزاز كلما رأينا واحداً من رجالها أو كلما دخلناها أو كلما رأينا من
يشبهونهم . أجل ، لن تتخلى هذى الوزارة عن شيء من هذا ، ولن تشعر أنه من
الواجب أو من الحسن لها التخلي عنه إلا إذا استطاعت أن ترتفع عن تراب غرائز الطفولة

وحواشى الناس وهم لهم ، هؤلاء الذين لا يعرفون عاقبة ولا يرهبون نتيجة ، بل ولا يفكرون فيما — إلى سماء الرجولة الكاملة الناضجة وإلى علياء العقل المفكر الذى يؤمن بالعواقب والنتائج وبالتماسك الوثيق بين أحداث الوجود ودنيا الأحداث . ووظيفتنا نحن فى هذا الكتاب أن نعرفهم ذلك وأن تقدم لهم هم وسواهم مادة الإيمان به .

وليعلم أننا لانريد هنا أن نطعن فى أحد معين ، وإنما أردنا علاج مرض عام وتعليل ظاهرة اجتماعية عامة مخيفة . فلا يجب أن يغضب بما ذكرنا أحد . وما شكواناه من هذه الطائفة تشاركها فيه جميع طوائف الأمة .

كيف فهمها وكيف يجب أن يفهما وكيف فررا مصابيح الشعوب

والسعى للرزق والأرزاق قد قسمت بغى إلا إن بغى المرء يصرعه
 جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون [ابن زريق]
 لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعى الفقى وهو محبوء له القدر [أحدهم]
 [منسوب لكعب بن زهير]

هكذا فهموا القضاء والقدر ، وهكذا اعتقدوا في أنفسهم أنهم لا يعدون أن يكونوا مخلوقات جامدة لا تتحرك وإنما تحرك ، ولا تتصرف وإنما يتصرف فيها ، ولا تفعل وإنما تنفعل ، وليست لها قوة ولكن قوة غيرها تظهر فيها ، وليس عليها أن تحاول العمل ولكن عليها أن تنتظر حتى تكون محلاً وظرفاً للأعمال الآخرين ... وهكذا فقدوا كل ثقة بأنفسهم وكل أمل بأن يكون لهم حول أو سطوة ذاتية . فانهاروا كما ينهار كل بناء فقد أساسه .

ليس من الممكن أن يقدم الإنسان على العمل إقداماً يمكنه من الأخذ بناصيته ومن قهره لإرادته حتى يعلم علماً ليس بالظن أنه قادر عليه كقوله ، وأن له قوة تتركز في ذاته يفعل بها متى شاء ويترك إذا شاء — وحتى يعلم علماً ليس بالظن أيضاً أنه ليس هنالك قوة خفية مسلطة على منعه ، مكلفة بأن تضع العقبات في طريقه ، متحكمة فيه تحكم القوى الجاهل في الضعيف العاجز ، دائبة على معاندته ومعارضته كلما حاول أن يقدم ، وكلما هم أن يحجم ، منتظرة أحياناً حتى يحرث ويزرع فإذا ما أوشك أن يجنى ويحصد عصفت بما حرث وزرع وبما كاد يظفر بجناحه وتركته محسوراً مشبوراً ... وليس من المستطاع الجمع بين اعتقاد المرء في نفسه أنه عاجز عاجراً ذاتياً لازماً عن العمل وعن إتمام ما يبدأ به من الأعمال ، وبين نجاحه في الحياة وإتيانه بأعمال تعد باهرة ... وإن الحيوان الأعجم نفسه ليأبى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن اقتحامه ، ولكنه يقتحم بيسر وسهولة ما اعتقد أنه قادر عليه . فإذا ما أردته على أن يجتاز نهراً واسعاً امتنع وحرن مهما عالجته وضربتته

وكذا إذا حملته على أن يقفز فوق حاجز شديد العلو ، ولكنه يختاز ويقفز المجارى الصغيرة والحواجز المنخفضة بلا معالجة ولا معاناة .

وأصول التربية الحديثة الموضوعية بإرشاد علم النفس والاستقراء التام الطويل قائمة اليوم على تعظيم شأن الإيحاء الذاتى وعلى العمل به — أى على إفهام كل إنسان بأنه قوى قادر على ما يراد منه أن يعمل ، وعلى أنه يستطيع أن يأتى من الأعمال بالمعجزات والحوارق ، بل على أنه لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته الإنسانية ، وعلى أن معين قدرته لا يمكن أن ينضب ، وعلى أن سلطان هذه القدرة لا حدود له ، وعلى أن ما يمكن أن يبدعه من الأعمال — إذا أحسن استخدام مواهبه وأحسن شحذها — لا يقف عند غاية ولا يعجز عن بلوغ نهاية ؛ وعلى إفهامه أنه خلق معداً مهياً لأن يتغلب على كل شيء وأن يصارع كل ما يقف فى طريقه وأن يسمو حتى يلاحق الخيال ، لا بل حتى يسبق الخيال ؛ وعلى إفهامه الاستقلال فى العمل وعلى أنه واجب عليه أن يصنع كل ما هو محتاج إليه وحده دون عون ودون رعاية ، وأن قدرته صالحة لذلك جديرة به أهل له ... وهذا ما يسمونه التربية الاستقلالية . وهذه التربية هى أعظم تربية . والأمة التى تصل إليها وتقدر عليها تضحى أقوى وأعظم أمة .

وقد ثبت أن الشعب الذى يمكن إقناعه وإيمانه — بأسلوب صحيح — بمقدرته وكفائته ، لأن يعمل ويبدع ويتكسر ويسود ، وأنه يستطيع أن يجد فى مواهبه الخاصة وقواه النفسية ما يرد به على كل عدوان وما يكبح به جماح كل متناول — لقد ثبت أن مثل هذا الشعب من العسير أن يهون وأن يذل وأن يجيء متأخراً فى حلبة السباق العالمى أو أن يعجز عن صعود قمة الأهداف الإنسانية العليا ، أو يقف دون أمل من آماله الكبرى يرنو إليها بعينه ويقصر عنها بأعماله وآماله — كما ثبت أن الشعب الذى يمكن إقناعه وإيمانه بعكس ذلك — أى بعجزه وضعفه وهوانه وأنه ليس أهلاً لشيء ولا جديراً بشيء وأنه مجرد من كل القوى التى يمكن استخدامها فى إدراك ما يراد إدراكه ، وأنه أينما يوجه لا يأت بغير من قبل ذاته ومن استعداد نفسه ، وأنه من غير الممكن أن يكون قادراً على شيء من هذه الآمال والحماجات البشرية الضرورية — نعم ثبت أن الشعب الذى يصل فى سبيل كفره بنفسه إلى هذه المكانة لا يمكن أن ينتظر له حياة صحيحة ، ولا وجود صحيح ، ولا وثبة ينتصر بها حق أو ينقمع بها باطل ، بل لا ينتظر منه إلا الاستسلام

لكل ما يفجأ به الزمان ، ولكل ما تأتبه به الحياة من ألوان الموان ، وأن يكون حملاً على الإنسانية في مراحلها كلها لا تنتفع به ولا هو ينتفع بنفسه .

وهذا كما ثبت صدقه وصدق حكمه في الشعوب ثبت أيضاً صدقه في الأفراد ، فالفرد الذى يؤمن بقدرته وقوته وكفايته ليس كالفرد الذى يكفر بذلك ، فالأول يكون مقداماً مغواراً ناجحاً في كل ما يتعاطاه ، والثانى يأتى عاجزاً رعيدياً صغيراً في كل محاولاته إن كانت له محاولات .

ونحن في هذه الحرب نشاهد ساسة المتحاربين يتبارون في تقوية هذا الإيحاء أشد مباراة ، ويعمل كل منهم بكل وسائله وأساليه على إقناع شعبه بقدرته وكفايته وشخصيته التى لا تغلب ، وإقناعه على أنه بهذه القدرة والكفاية سينتصر على كل ما يقف في طريقه ، ويحطم كل العقبات والمشكلات والأزمات . وقد عد رئيس الحكومة البريطانية في هذه الحرب من أقدر الرجال وأعظمهم لبراعته العجيبة وقوته السحرية على إقناع نفسه وإقناع الشعوب البريطانية ، بل إقناع كل الشعوب المتحالفة بالقدرة على النصر وعلى هزيمة الأعداء ...

وقد استطاع هذا الرجل العجيب الجبار بهذا الإيمان وبهذا الإيحاء أن يغير اتجاه الحرب هذا التغيير الذى كان يعسر جداً أن يوجد من ينتظره . وقد كنا نحن معشر الشرقين ننظر إليه وإلى خطبه وكلامه في سنى الحرب الأولى نظرات الاستهزاء أو السخرية أو التعجب أو الاستفهام ، لأننا نجهل سر هذه القوة وسر الإيمان بهذا الإيحاء وسر الثقة المطلقة بالنفس ... وقد استطاع الإنجليز بذلك أن يفتتوا من الدمار الذى كان محققاً في نظر الناس ، ثم استطاعوا بذلك أن يصلوا إلى النصر الذى كان يعد حلاً من الأحلام المشوشة المتعبّة .

ولا شك أيضاً في أن ألمانيا نفسها إنما استعدت لحرب العالم كله وعبأت قواها المحدودة الضئيلة لهذه الحرب بإيمان وشجاعة تملأ النفوس كلها حتى نفوس أعدائها إعجاباً ودهشاً وفرقاً ، وأنها إنما وقفت — وقد ضربت عليها الحلقة بإحكام وتضييق من كل جانب تناضل موارد بشرية وغير بشرية تفوق مواردها البشرية وغيرها عشرات المرات نضالاً هو أعظم من أن يدعى بطولة أو أن يسمى شجاعة أو أن يقال إنه انتحار الأحرار الأبطال — بهذه الثقة نفسها وبهذا الإيمان نفسه . أما اليابان

وما أعدته لمجابهة خصومها الغربيين الأتقياء ومجابهة معظم البشرية ، فأمر هو أعظم من أن توجد له الألفاظ والعبارات ... وليس هناك ريب في أن ألمانيا إنما بارزت قوى العالم كله - وكذلك اليابان - لإيمانها وثقتها المطلقة بما يمكن فيها من القوى والكفايات ، وأن الإنجليز إنما غيروا مجرى الحرب الهائل الجارف بهذا الإيمان وهذه الثقة أيضاً ، وأن أحد الفريقين لو فقد هذا الإيمان وهذه الثقة لما أمكن أن يخوض طوفان هذه الحرب بهذا التصميم وهذا العناد والإباء .

وقد راح العلاج النفساني يستخدم هذا الإيحاء الذاتي وينتفع به أعظم استخدام وأعظم انتفاع ، وصار على رأس قائمة العقاقير الطبية الطبيعية ، وقام البرهان أخيراً كما ذكر العلماء على أن أعظم ما يمكن أن يقدمه التنويم بالإيحاء للبشر من فائدة هو استخدام هذا الإيحاء في شفاء الأمراض أو تخفيفها ، وفي حل العقد النفسية المستعصى على الطب حلها - وثبت عدا ما ذكروا أن لهذا الإيحاء قوة تكاد تكون سحرية في علاج ضروب كثيرة مما تعاني الإنسانية وتشكو .

ولو أن إنساناً راح يوحى إلى نفسه ، أو أخذ يوحى إليه من يثق به ، أن أحد أعضائه غير صالح للقيام بوظيفته ولا للانتفاع به فاقنع بهذا الإيحاء وترك استعمال هذا العضو مدة طويلة لفسد ولصار غير صالح أو لصار ناقصاً .

فالإيمان بالنفس إذن وبقدرتها هو أصل التربية الصحيحة القويمة ، وهو أول السير في الطريق ، والكفر إذن بالنفس وبكفاياتها واستعدادها مؤد لا محالة إلى الدمار وإلى التخلف عن سبيل القافلة الجادة في سيرها نحو آمالها المختلفة العظمى . فالتعاليم القائمة على أن الإنسان خلق عاجزاً مجرداً من كل قوة وعاجزاً عن أن يعمل شيئاً - وإنما هو ظرف ومحل للأعمال كما يقول هؤلاء الجاهلون على حسب ما فهموا القضاء والقدر - هي تعاليم زائفة خبيثة قاطعة للطريق مهلكة لمن أخذوا بها . وليس من الممكن أن تحيا أمة تدين بهذه التعاليم . ومحاولتنا أن تنهض الأمم الإسلامية من كبوتها وأن تخرج من هذا النطاق المضروب عليها ومن هذا الحصار الذي لزمها إلى النذل والمسكنة - وهي مؤمنة بهذه التعاليم - محاوله غير مجدية ولا ريب .

ما هو القضاء والقدر عند هؤلاء القوم الذين يلقون بهذه التعاليم والأوهام بين المسلمين ، زاعمين لهم أنها مما يوجب الإيمان بهما ؟ يقولون إن معنى القضاء والقدر أشياء :

أولها — أن الله سبحانه قد سجل على الإنسان منذ الأزل كل أعماله وربطه بها ربطاً لا انفكاك منه ، بحيث لا يجدى معه الإرشاد ولا النصح ولا محاولة الخروج .

ثانيها — أن الله أوجد في الإنسان الذى يعمل الشر الاستعداد للشر فى أصل خلقته وطبيعته دون الذى يعمل الخير ، فإنه تعالى خلق فيه الاستعداد للخير دون الاستعداد للشر ، فقد فرق بينهما فى أصل الحلقة والطبيعة . فلا يستطيع أحدهما أن يخرج مما خلق مستعداً له ، كما لا يستطيع بذر القمح أن يخرج شعيراً أو بذر الشعير أن يخرج قمحاً .

ثالثها — أن الله قد أرصد ، بطرق خفية غامضة ، فى سبيل كل إنسان ما يوجهه بالقوة إلى الأعمال التى يعملها — أو التى تظهر عليه إذا اخترنا التعبير الصحيح — بأسباب خفية وبدون أسباب ؛ فالجان العاجز الضعيف مسوق إلى جنبه وعجزه وضعفه بقوة لا يمكنه الخلاص منها ، والشجاع القوى الجرىء مسوق أيضاً بنفس هذه الوسيلة والطريقة بحيث يعجز عن المخالفة — وهكذا كل إنسان بل كل مخلوق .

رابعها — أن الإنسان الذى يريد الخير أو الشر لا يريد شيئاً منهما بنفسه ، وإنما الله الغلاب هو الذى يخلق إحدى الإرادتين فيه لأسباب غير معلومة ، أو لأنه يريد أن يضل بعض الناس ويشقيهم ويدخلهم النار بمجرد أنه قادر خالق ! فإذا خلق هذه الإرادة الشريرة فى نفس إنسان لم يستطع أن يعمل غير الشر ، فيندفع إلى الأعمال الشريرة بهذه الإرادة ، فيصير شريراً ولابد .

خامسها — أن الإنسان ليس عاملاً ولا فاعلاً فى الحقيقة ، وليست له القدرة على العمل بل على شيء ما ! والإنسان عندهم على مقتضى فهمهم القضاء والقدر ليس إلا محلاً لأعمال الخلاق ؛ فكل الأعمال الحيرة والشريرة التى يعملها الإنسان فى الظاهر أو التى تعمل فيه إنما هى أعمال الله وصنعه وحده ، والعبد ليس له فيها غير المحلية — أى كونه محلاً لها . وقد زعموا أن من اعتقد أن الإنسان فاعل حقيقة أو موجد أعماله حقيقة فهو مشرك لأنه اعتقد أن مع الله موجداً وخالقاً آخر ! والإيجاد عندهم هو الخلق . وقد كفر فريق منهم المعتزلة ، وقال المعتدلون منهم إنهم ضلال فقط ، لدهابهم إلى أن الإنسان موجد أفعاله وأن فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازاً ... وهم يسمون من يقول بقدرة الإنسان بالقدرة ، أى بالمعطين للإنسان قدرة ذاتية .

ومن رأيهم أن العبد ليس علة لأعماله وليس فيه قدرة عليها . ومن قول إحدى

العقائد المنظومة المدروسة في الأزهر الذي يعلى عقائده على أربعمائة مليون مسلم — أو الذي يحاول هذا الإملاء ويسلمه له الملايين — من قول إحدى هذه العقائد في تجريد الإنسان من قواه: —

ومن يقل بالقوة المودعة فذاك بدعى فلا تلتفت

أى من يقل بأن في الإنسان قوة على أعماله أودعها الله فيه فهو مبتدع في الإسلام لا يلتفت إليه — هذا هو فهمهم للقضاء والقدر ، وهذه هي منزلة الإنسان لديهم (١) .

(١) وقد كان الناس فيما مضى يعزون أخطاءهم وتقائصهم إلى الشيطان تارة ، وإلى القضاء والقدر تارة أخرى ، فزادوا أخيراً ثالثاً هو الاستعمار . فإذا لموا على خطأ أضعف أو انحطاط وفساد قالوا إننا ملزومون بذلك مجبورون عليه ، وإن الذنب إما ذنب القضاء والقدر — أى ذنب الله ، وإما ذنب الشيطان ، وإما ذنب المستعمر ، وإما ذنب أولئك كلهم — يريدون التنصل من التبعة ويرون أنهم مصيبون في هذا التنصل ... فازدادوا بذلك إقامة على الحسف ولسوقاً بالضعف ورضاً بما يصيبهم من عدوان وهوان ... كأن القضاء إنما يقضى عليهم ولا يقضى لهم ، أو كأنما يقضى عليهم ويقضى للآخرين لحصومة بينه وبينهم وصدافة بينه وبين الآخرين ... وكأنما الشيطان مرسل عليهم وخدمهم لیسوقهم إلى ما هم فيه ويلزمهم به ، ومرسل إلى الآخرين ليجدهم ويسعدهم ويهيمهم القوة والسلطان ... وكأن المستعمر إنما غلبهم وأخضع ديارهم لا لقوة فيه وضعف فيهم وفضيلة لديه ورذيلة لديهم ، بل لاشيء سوى أنهم مسلمون وهو كافر ، وسوى أنهم قرييون من الله وهو بعيد عنه !! وكأنما المستعمر هو الذي أفسد ضمائرهم وقلوبهم وعقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم !! والواقع أن الاستعمار يجب أن يكون حافزاً إلى الحياة والقوة والكمال . وذلك أن للمستعمر جانين : جانب طغيان يصبه على من ابتلى به ، وجانب كمال هو مصدر قوته وسيادته .

أما الجانب الأول فيجب أن يكون مصدر قوة للمغلوب لضعف ، لأنه يهيج فيه الحمية ويضرهما فتولد القوة الباطشة ، وأما الجانب الثاني فيجب أن يستفاد منه على سبيل الاقتداء إذ يجب أن يأخذ الضعيف عن القوى فضائله وحسناته .

ولم يكن وجود الاستعمار يوماً ما مانعاً من الخلاص منه إلا إذا كان وجود الفقر والمرض وغيرها من الآفات والنقائص مانعاً للخلاص منها .

ويجب أن يعتقد أن فقد أمة لاستقلالها ما هو إلا بمثابة العقوبة الاجتماعية جزاء ترك واجب أو فعل محرم . والعقوبات — من حيث هي — يجب أن تؤدي إلى الإصلاح والتطهير والإقلاع عن سبب العقوبة . وإذا كان السارق إنما تقطع يده أو يسجن من أجل أن ينزع عن هذه الجريمة وأن يكون أكمل منه قبل عقابه ، فكذلك الدولة التي تمنى بسلب عزتها وسيادتها — جزاء ضعفها وتقصيرها وتفریطها — يجب أن يؤدي بها ذلك إلى تدارك ما فات وإلى النزوع عن أسباب هذى العقوبة القاسية . ولا تكون العقوبة سبباً في دوام العقوبة أو سبباً في بقاء الجريمة ، كما لا يكون الاستعمار مؤدياً إلى دوام أسبابه أو إلى تجديدها وتكررها .

فالإنسان ليس فاعلا وليست له قدرة على الفعل ! ثم اختلفوا بعد هذا هل يسمى كاسباً أو يبخل عليه بهذه التسمية وهذا التشريف ! قالت طوائف لا يسمى كاسباً وإنما هو الجبر البحت والظرفية البحتة والاضطرار المطلق في الظاهر والباطن .

وقالت الطائفة التي تدرس آراؤها وعقائدها في سائر المعاهد الإسلامية — وهي الطائفة المحسوبة على الأشعرى ، المنسوبة إليه ، السماة بأهل السنة — قالت هذه الطائفة : بل نسميه كاسباً ، ثم عادت وأعملت معاول التفسير والتأويل في معنى الكسب والكاسب فردته إلى الجبر المحض الذي لا غبار عليه ؛ فقد قيل لها : هل العبد فاعل حقيقة ؟ قالت : لا . فقيل لها : هل هو شريك في الفعل مشاركة حقيقية ؟ فقالت : لا . فقيل لها : هل هو سبب حقيق في وجود الفعل الواقع فيه ؟ فقالت : لا . فقيل لها : هل هو موجد له ؟ فقالت : لا . فقيل : وهل يستطيع أن يمتنع من فعل ما وقع عليه من الأعمال — أى هل هو مختار في حدوث الأفعال الواقعة فيه وفي عدم حدوثها — فقالت : لا فقيل لها : إذن ما معنى كونه غير مجبور ؟ قالت : هو أنه كاسب . فقيل لها : وما معنى كاسب ؟ قالت : هو كونه كاسباً ! فقيل لها : هذا له خيء ! قالت : معناه ليست لنا عقول .

فالكسب عند الأشعرية هو الجبر في المعنى عند الجبرية ، والتسمية بكاسب وكسب لا معنى لها ، بل مذهب الجبرية أوضح من هذا المذهب . وقد عُدَّ المذهب الأشعرى في هذه المسألة من المذاهب التي تقال مع تجردها من الحقيقة والمعنى ، فقيل في ذلك : مما يقال ولا حقيقة تحته معروفة تدنو إلى الأفهام الكسب عند الأشعرى والحال عند الهاشمي وطفرة النظام فأعظم معاني القدر عند هؤلاء وأظهرها أن الإنسان ليس فاعلا ولا عاملا وإنما الخالق هو الموجد الفاعل لكل شيء ، والإنسان لا يعدو أن يكون محلا لما يسمى أفعالا له . والقضاء هو الفراغ من ذلك . فالعبد عندهم مجرد من كل شيء سوى الظرفية . فهو عاجز عجزاً تاماً ، والله لم يخلق له قوة يفعل بها ! ومن قال بهذا فهو كافر في رأيهم ، وعند المعتدلين منهم فاسق فقط . وقد اشتدت المبارزة في العصور الأولى إبان نشوء الفرق والمذاهب وتكونها بين هؤلاء الذين يسمون أهل السنة وبين المعتزلة وتقاتلوا بكل سلاح استطاعوا الحصول عليه ، ولكن كانت الغلبة في النهاية لمن يسمون أهل السنة فاندحرت جيوش الاعتزال ، بل قضى عليها حتى لم يبق لهم اليوم باقية معروفة ، واختفت كتبهم

أو انقضت ، وصارت عقائدهم لاتعرف في الغالب إلا من كتب خصومهم عندما يذكرونها
لثلبها وثلبهم وللتشهير بها وبهم . فأصبح الناس كلهم إلا من شاء الله من أهل السنة
— أى من الأشعرية ومن إخوانهم المشابهين لهم في كل شيء ... وقد انتشرت هذه
الآراء والمذاهب انتشاراً عجيباً ، فتمكنت من قلوب المسلمين وعقائدهم ، وسيطرت على حياتهم
وأحاطت بهم بل طوقتهم ، وضربت أو فرضت عليهم الحصار . فلم يقدرُوا على الخروج
والإفلات ، بل لم يفكروا في ذلك ، بل لم يريدوه إذ حسبوا أن محاولة الخروج منه هي محاولة
للخروج من الإسلام ومن القضاء والقدر وهما ركنان من أركان الدين . وصارت العاقبة
أن رضوا بالاستسلام وراضوا أنفسهم عليه ، حتى أصبح طبيعة من طبائعهم وخلقاً من
أخلاقهم ؛ فإذا أصيبوا بخير — وما أقل ذلك وأندر — استسلموا وجمدوا تحت رحمة الأقدار
والأفضية على حسب فهمهم لها انتظاراً لعملها هي فيهم حتى يسلبوا هذا الخير . وإن أصابهم
شر وهوان ، وما أكثر ذلك ، ضرعوا له واستسلموا وقالوا: إنها الأقدار هي التي فعلت
وهي التي يجب أن تفعل — وقالوا إن الله هو الفاعل الضار النافع — وما أكثر كلام
الحق الذي يراد به الباطل ! وراحوا ينشدون مع المنشدين — وقد أخذتهم غاشية
من الجنون الاعتقادي :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

وراحوا يقولون كما يقول الشيخ الغزالي في أحد كتبه المشهورة : « والرزق
مقسوم لا يتبدل ولا تتغير قسمته ! فإذا علمت أنه حق لا يتغير فأية فائدة في الاهتمام
والطلب إلا اللذل والهوان في الدنيا ، والشدة والخسران في الأخرى !! ولذلك قال عليه
السلام : (مكتوب على ظهر الحوت والثور : رزق فلان بن فلان ، فلا يزداد الحريص
إلا جهداً) ولذلك يقول شيخنا : ما قدر لماضيك أن يمضغه فلا يمكن أن يمضغه غيرك » .

ومن أقبح ما قيل في هذه المسألة إنى قرأت في كتاب من كتب هؤلاء ما معناه :
انه يجب علينا أن نعتقد أن حكم الأجانب لنا واستبدادهم بنا واغتصابهم إيانا هو أمر من
أمر الله ، فلا ينبغي لنا أن نغضب منه ولا أن ننكره ، بل الواجب علينا أن نرضى ونستسلم .
وقرأت منذ أيام في كتاب محترم عبارة معناها : ان المسلمين يرون أن حكم الأجنبي
لهم من حكم الله لقوله تعالى : « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » فيرضون ويسلمون .

ولهذا فإنهم لا يحاولون الثورة بمن يحكمونهم من الأجانب كما يصنع الآخرون من غيرهم ،
ولا يحدثون القلاقل والفتن !! .

وقد تفاعلت هذه الآراء وأخذت أطواراً خطيرة على مرّ العصور حتى أُنحت من
الأدواء المتوطنة القديمة في ديار المسلمين ، وصارت كلتا القضاء والقدر هما المدد الذي
لا ينقطع لتغذية هذه الأدواء وتغذية جراثيمها حتى أصبحتا من أعظم الحقول التي تزرع
فيها هذه الجراثيم والتي تكفل لها الحياة والنمو... وصرت تسمع أيّنا ذهبت على كل شفة
ولكل مناسبة : إنه القضاء والقدر !

نادٍ في جموع المسلمين منكرّاً عليهم اختصاصهم بالنذل والاستعباد دون العالمين ، فإنهم
سيجيئونك : انه القضاء والقدر — قل لتاجر أو صانع أو زارع : لماذا أنت صغير فقير
وفلان من الأجانب يملك الضياع والمتاجر والمصانع والأموال العظيمة ، فيسجيك أيضاً :
انه القضاء والقدر — كلم من شئت لما شئت ، منكرّاً أو معاتباً أو مستفهما ، فستسمع
الجواب أيضاً : انه القضاء والقدر ... فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول ، وهما
السبب الظاهر المعقول في كل فشل ، وفي كل هوان وعبودية ، وفي كل عجز وضعف
وقفر وبؤس .

شعوب ظلت مئات السنين تعلم وتراض على أنها ليست لها قدرة ، وأنها ليست
فاعلة ، وأنه ليس في الإمكان أن تكون كذلك ، لأن الفعل والقدرة من صفات الله
الخاصة التي لا ينازعه فيها إلا الكافرون — وظلت مئات السنين تعتقد أن هذا هو
الإيمان ، وأن المخالفة فيه مخالفة فيه — وظلت مئات الأعوام تلقن بكل وسيلة هذه التعاليم
غير مسمعة سواها — شعوب هذه هي سبيل تربيتها أنى يرجى لها غير ما أصابها ! وأنى
يرجى منها غير ما هي فيه من القنوط والهبوط .

قد يقول قائلون من المشغوفين بالاعتراض والمشاكسة : إنه لا يصح أن يرفع من
شأن عقيدة القضاء والقدر ، ولا أن تحمل كل هذه الأعباء ، لأننا نرى المسلمين عامة
يعملون أو يحاولون أن يعملوا ، ولم نرهم تركوا العمل محتجين بالقضاء والقدر ، فهذه
العقيدة على حسب ما ذكر هنا — هي وإن كانت باطلة — إلا أن المسلمين لم يفهموا منها
ترك العمل أو ترك القيام بالواجبات — إذا قيل هذا قيل في الجواب : ما أعظم ما تخفى
على الإنسان نفسه وتخفى عليه حقيقته ! أجل ، إن المسلمين يأتون شيئاً كثيراً من الأعمال

الصغيرة ، تدفعهم إليها في الغالب العرائز كما تدفع المخلوقات الأخرى ، أو يدفعهم إليها الفكر القلق المشوش ، أو يندفعون إليها زاعمين أنهم مأمورون بها تعبدًا وتكليفًا فقط كما كلفوا بالصلوات والدعوات ، لا لأنها تفيد بذاتها ، أو يدفعهم غير ذلك من الأغراض الصغيرة . ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم وتشقيهم ، أو تفقرهم وتعنيهم اعتقاداً جاداً ، أو اعتقدوا أنهم أحرار مختارون في ما يأتون ويذرون ، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإلا تركوا ، أو اعتقدوا أنهم فاعلون عاملون حقيقة ، أو أن فيهم قوة ذاتية ، أو أنه ليس هناك عوامل خفية — وهي ما يدعونه بسر القدر — تعمل أبدأً على توجيههم غير الجهة التي يقصدون ويريدون ، وتعمل على منعهم نيل الثمر الذي بذروه وزرعوه ، ثم كدوا أن يجنوه ويحصوه ، بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون ، وأنها هي — أى العوامل — قدرة قوية ، أو اعتقدوا أن النتيجة تأتي على قدر الوسيلة دائماً جزاء وفاقاً — هل اعتقدوا شيئاً من هذا أو هذا كله اعتقاداً صحيحاً لا يشوبه الشك ولا يرديه الريب ؟ كلا إنهم لم يعتقدوا شيئاً من هذا ، فكيف إذن يرجى لهم أن يعملوا أعمالاً تفضي بهم إلى النجاح والظفر المبين ، أو كيف يمكن أن يقوموا بأعمال كبيرة قوية ، وكيف إذن لا تترتب كل تلك النتائج التي ذكرناها على عقيدة القضاء والقدر التي فهموها ؟؟

إن من أغرب ما جاء في هذه المسألة ما ذكره أحد العلماء في كتاب له مشهور مطبوع — وقد طويت اسمه عن هذا المقام — قال في ذلك الكتاب :

« فصل . من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقص أو طلب صحة أو فرار من سقم ، وعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير ، وأن تديره لعبده خير من تدير العبد لنفسه ، وعلم أنه أعلم بمصلحته منه وأقدر على جلبها وأنصح للعبد منه لنفسه وأرحم به منه لنفسه وأبر به منه لنفسه ، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تديره خطوة واحدة ، ولا يتأخر عن تديره له خطوة واحدة : فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر ، فألقى نفسه بين يديه ، وسلم الأمر كله إليه وانطرح بين يديه انطرح عبد ضعيف تملوك بين يدي ملك عزيز قاهر له التصرف بعبده بكل ما يشاء ، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه ... فاستراح حينئذ من الهموم والعموم والحسرات ، وحمل مصالحه وحوادثه من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكثر بها ، فتولاها دونه ، وأراه لطفه وبره ورحمته فيها من غير تعب من العبد ولا نصب

ولا اهتمام منه ، لأنه صرف اهتمامه إليه وجعله وحده همه ، فصرف اهتمامه بحوائجهم ومصالح دنياه وفراغ قلبه ... فما أطيب عيشه وأعظم سروره .

« وإن أبي إلا تديره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه خلاه وما اختار وولاه ما تولى ، فحضره الهم والنغم والحزن والخوف والتعب وكسوف البال وسوء الحال ... فلا قلب يصفو ولا عمل يزكو ولا أمل يحصل ولا راحة يفوز بها ، بل قد حيل بينه وبين مسرته وقره عينه ، فهو يكدر في الدنيا كدح الوحوش ولا يظفر منها بأمل ... والله قد أمر العبد بأمر وضمن له ضماناً ، فإن قام بأمره قام الله له بما ضمنه له من الرزق والنصر وقضاء الحوائج ... فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عبده والنصر لمن توكل عليه والكفاية لمن كان هو همه ، وقضاء الحوائج لمن صدقه ووثق به وقوى رجأؤه وطمعه في فضله وجوده ...

« ... فالظن الكيس إنما يهتم بأمره لا بضمانه . فإنه الوفي الصادق . ومن أوفى بعهده من الله . فمن علامات السعادة صرف الاهتمام إلى أمر الله دون ضمانه ، ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وخشيته والاهتمام بضمانه .. » انتهى كلامه .

وهذا كلام صريح في ترك العمل استسلاماً للقضاء والقدر ... وقد قدمنا أن ابن عطاء الله الاسكندري ألف كتاب (التنوير في إسقاط التديير) وأنه موضوع للدعوة إلى ترك العمل والاستسلام العام والسبات الذي لا إفاقة منه — إما توكلاً وإما انتظاراً لما تفعله الأفضية والمقادير ، وإما كفراناً بالأسباب .

كيف يجب أن يفهم القضاء والقدر ؟ إن كل ما ذكر هنا باطل فكيف إذن يجب أن يفهما — والإيمان بهما ركن من أركان الإيمان — وقد جاء ذكرهما في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جداً .

أما القدر فهو في مادته مأخوذ من التقدير ، أي جعل الشيء ذا مقادير ، أي ذا حدود . يقال : هذا الشيء قدر هذا ، أي محدود بحدوده كما قال : « فسالت أودية بقدرها » وقال : « قد جعل الله لكل شيء قدراً » وقال : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » وقال : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وقال : « والله يقدر الليل والنهار » وقال : « وكل شيء عنده بمقدار » وقال : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » وقال : « والقمر قدرناه منازل » . ويقال : قدرت الثوب أي جعلته على

مقاس الجسم ، أى مثله ، أى محدوداً بمحدوده . ويقال : قدر كذا كما قال : « إنه فكر وقدر ، قتل كيف قدر » ويراد التفكير والتروى فى الأمر ، وهو راجع أيضاً إلى جعل الحدود للشيء ، ولكنها قد تكون حدوداً مادية ، وقد تكون معنوية - أى قد يكون المراد تقدير الخطة العقلية وتحديداتها فكرياً بحيث تجيء وفاق الأمر المادى . وقد يكون المراد تصور الشيء بمقاييسه المادية وجعله مقدوراً ذا مثل وغايات معلومة . وقال : « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » وقال : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقال جرير :

جاء الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
أى كانت الخلافة له كفوفاً وكان هو لها كفوفاً أيضاً ، أى إن الأوصاف الموجودة فيه هى الأوصاف التى تشترط فى الخليفة وتوجد فى الخلافة الحققة ، فمن جمع هذه الصفات جاءته الخلافة فهو خليف بها وهى به خليفة ، كما قال الآخر فى هذا المعنى :

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
وكذلك مجيء موسى ربه أى على مثل ووافق فى العانى والصفات . وفى هذا المعنى قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . وليس المراد أن الخلافة جاءت المدوح بمجرد القدر أى بمجرد الشئثة والقدرة من غير استحقاق ولا أوصاف خاصة ، فإنه حينئذ يكون أقرب إلى النعم منه إلى المدح ، ولكن المقام هنا مقام مدح .
وقال شاعر آخر :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غيرة زلجا
أى هبىء فى ذهنك موضعاً محدوداً معلوماً مثل المواضع التى تليق بالأقدام وتناسبها ، أو مثل رجلك سواء .

وقال الآخر :

تقفون والفلك المدبر سائر وتقدرون فتضحك الأقدار
أى تضعون لآمالكم ولما سيحدث حدوداً وأزماناً ، ولكن الأقدار المجهولة تبطل عليكم هذه الحدود وتلك الأزمان المعدودة المحدودة ، وتقلب عليكم الأمر ، لأن الأقدار هى نظام الوجود وهى سر الحياة ، وأنتم لا تقدرون أن تتغلبوا على كل الحياة والوجود بتقديراتكم وآمالكم .

فالقدر بجملته وحجته استعماله يراد به التقدير، أى جعل الشيء ذا مقادير معلومة أى يراد به جعل الشيء منظماً فى كنهه وكيفه... فقدر الله معناه أن الله جلت قدرته قد أوجد هذا الوجود: السماويات منه والأرضيات مقدرأً بمقادير محكمة هى أدق فى ضبطها ومقاييسها ونسبها من أعظم مركب كيميائى قام بتركيبه وتقدير عناصره وضبط نسبه أربع الكيميائين، وأدق من أدق صناعة فيها آلاف الآلات التى يبدع فى وضعها أربع عقل. فما من شىء فى هذا الوجود — سواء أكان معنوياً أديباً أم مادياً — إلا وقد ضبطت مقاديره وأحكمت نسبه. وهذا الضبط فى التقدير جاء فى الأشياء بالنظر إليها مستقلة وبالنظر إليها متصلة بغيرها — أى إن ضبطها أجرى عليها على اعتبارها وحدة مستقلة، وعلى اعتبارها جزءاً من العالم. فضبطت هى فى نفسها، وضبطت مع سواها، أى إنهما مضبوطة مستقلة، ومضبوطة مشتركة مع غيرها. ولهذا جاء هذا العالم منظماً صالحاً للانتفاع والحياة وللإستقرار فيه وعليه... ولولا هذه المقادير والنسب لما كان صالحاً لذلك.

وشرح هذا أن العالم مركب من عناصر أحصى منها الآن الشىء الكثير، وكل شىء من هذه الموجودات آخذ من هذه العناصر نسباً ومقادير مخالفة للنسب والمقادير التى أخذها غيره. ومن هنا حصل الاختلاف والتباين المقصود المفيد. وهذه النسب والمقادير التى أخذها أو التى أعطىها روى فيها الدقة والضبط لتكون صالحة للغرض الذى أريد منها. ثم هذا الشىء فى نفسه قد روى فيه من ناحية الكم مقدار معين ووزن معين لأجل أن يكون اجتماعه مع غيره ممكناً ومفيداً. ولنجعل ثمرة البرتقال مثلاً. فنقول: لهذه الثمرة ناحيتان: ناحية الكيف وناحية الكم. أما ناحية الكيف فقد عينت النسب والمقادير فيها من العناصر تعييناً متقناً. وبهذا كانت برتقالاً، وكانت شهية لذيذة مستساغة وبهذا كانت أيضاً نافعة مغذية. ولو فقدت النسب والمقادير من هذه الثمرة لما أمكن أن تجمع الفوائد التى جمعت. فالقدر هنا هو الذى جعلها بهذا الكيف المحكم.

وأما الكم فإنها لو لم تحدد بكم معين أو قريب من التعيين، وكان من الممكن أن تنمو نمواً مطلقاً بحيث تصبح ضخمة جداً، لكانت غير متناسبة مع شجرتها التى تحملها ولا مقدرة بطاقة عيدانها التى تمسكها، ولكانت النتيجة حينئذ عجز هذه الشجرة وعجز أغصانها عن حمل ثمرتها، فتهدم بها حينئذ إلى الأرض. ولكن شجرة البرتقال إنما خلقت بأسقة صاعدة لا متمددة ولا مفروشة على التراب.

أما النخلة فإنها لما أن كانت قوية فإن ثمرها جاء ثقيلًا فكان التناسب صحيحًا
والتقدير مضبوطاً . وأما البطيخ فإنه لما خلق متمدداً ملقى كان من التقدير والتناسب
المقبول أن يكون ثمره أكبر وأعظم منه لأنه لا يحمله . وهكذا يقال في كل شيء يقع
تحت بصرنا وعلمنا .

وقد روى هذا التقدير البارع في سائر المواليد وسائر أنواعها ؛ فالمولود يجيء
في كفه مقدرًا بالأعضاء والأوعية التي تحمله ، ومقدرًا بقدرتها على الحمل . فإن كانت الأوعية
والأعضاء واسعة قوية كان المولود مناسباً لذلك ، وإن كانت ضعيفة ضيقة جاء المولود
على قدرها . إناكل شيء خلقناه بقدر .. ولكن الآية التي هي نص في هذا قوله تعالى :
« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار » .
وقد اضطرب المفسرون كعادتهم في تفسير الآية ، وقالوا وكتبوا كثيراً ، ولكنهم لم يأتوا
بشيء . والتفسير الصحيح هو أن الأرحام تزيد وتنقص وتكبر وتضغر على قدر ما هيء
لها أن تحمل ، وما تحمله وتضغه يزيد أيضاً وينقص ويكبر ويضغر مقدرًا بقدرها .
فتغيض وتزداد هنا يراد بهما القدر ، ولهذا حتمت الآية بقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » .

وهذا الكوكب الذي نعيش فيه قد حكمه هذا القدر من ناحية الكم وناحية الكيف
وناحية اتصاله بالخلق الأخرى ؛ فقد قدر من الناحية الأولى بقدر معين ، ومن الناحية
الثانية — أى ناحية الكيف — قد أجرى فيه هذا القدر أحسن إجراء فجعل قسمين
براً وبحراً ، وكل منهما بمقدار ، وجعل منه الحصب وغير الحصب ، وجعل فيه الجبال
والسهول والمرتفعات والمنخفضات والجوانب الصلبة القاسية والأخرى اللينة المهيلة والأودية
والآكام ، وأوجد فيه جميع المعادن الجامدة والسائلة التي يحتاج إليها الإنسان في صناعاته
وفي كل شئونه ، وفرقت هذه المعادن تفريقاً عادلاً شاملاً ، وضمن ضروب العناصر اللازمة
لإنماء النباتات وتغذيتها ، ثم طبعت هذه العناصر الأساسية لكل مخلوق وموجود بطبيعة
بديعة تجعلها تنتقل وتتطور وتوجد ضروب الصور والألوان ، ولكنها لا تتلاشى من أجل
أن تبقى أبداً قائمة بحاجة الإنسان كلها ، وأودع فيه جميع الجذور والبذور لتخرج كل
هذه الأنواع من الحبوب والأشجار والفواكه التي لا يقوم بها التعداد ، وشحن بالكثير
من فصائل الحيوان والطيور وسائر الكائنات الحية ، ثم قدرت فيه القوى المتجددة المتوالدة
ثم قدرت هذه الموجودات جميعاً وقدر كل شيء فيها بمقادير هي الإبداع والإحكام ، ثم

فرض على هذا كله ناموس صارم يكفل له البقاء والاستمرار — اضطراراً واختياراً —
ويكفل له التعاون فيما بين آحاده والتكافل والانسجام .
وأما من ناحية اتصاله بالموجودات الأخرى فالأمر في ذلك ظاهر . وقد قدر له
مدار ليس من الممكن الانزلاق عنه ولا الإفلات منه ، وقد ر بمقادير دقيقة من حيث
الأبعاد والمسافات ، وجعلت هذه الأبعاد والمسافات صالحة لبقائها — أى بقاء الأرض —
وثباتها في مدارها ومكانها ، ومناسبة لإيجاد المناخات المختلفة فيها ، وإيجاد الفصول المختلفة
الضرورية لقيام كل شيء بوظيفته ، وإيجاد سائر المناطق الحارة والباردة والمعتدلة . وكل
هذا ضروري لأخذه من الشمس وغيرها ما يحتاجه من النور والحرارة والقوة ...
ولو أنه لم تقدر له هذه الأبعاد تقديراً قائماً على الحكمة ومراعاة الفائدة لما كان صالحاً
لوجود الحياة فيه ؛ فلو أنه خرج عن مداره مائلاً إلى الشمس لكانت العاقبة الدمار ،
ولو أنه أفلت من قبضة الشمس ومن جذبها لكانت العاقبة أيضاً الهلاك . ولكنه القدر
البالغ قدر كل شيء فأحكم تقديره ! وقد أشار الكتاب إلى هذه المعاني في آيات تحمل
الروعة والإعجاز فقال : « قل أنكم لتكفرون بالنى خلق الأرض في يومين وتجعلون
له أنداداً . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها
في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا
طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء
أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم .. فقوله « وقد
فيها أقواتها » وقوله « ذلك تقدير العزيز العليم » يراد به القدر الذى ضل فيه الناس
وصيروه عامل ركود وانحطاط ، مع أنه هو القوة والوثوب والنشاط . والمراد بتقدير
الأقوات جعلها ذات مقادير ونسب كما سبق . وختم الآيات بقوله « العزيز العليم » هو
كالتدليل على أن المقصود بالتقدير وضع الأشياء في مواضعها وخلقها متناسبة متكافئة ،
وإعطاء كل شيء ما يستحقه وما يصلحه ويفيده . فإن العزيز — وهو القوى الغالب —
والعليم ، هو الذى يفعل ذلك ويقدر عليه ، لأن من لا يصنع ذلك فالمانع له إما أن يكون
عجزاً وإما أن يكون جهلاً ، وهو ليس بعاجز ولا جاهل لأنه العزيز العليم ...
ولو كان التقدير هو ما يفهمه العامة من القدر لكان المناسب أن يقال في اختتام الآية
« ذلك تقدير العزيز السفيه الظالم الشرير » — تعالى الله عن ذلك . وقوله « وبارك فيها »
إشارة إلى سر القدر ولبابه وغايته . وقوله « ائتيا طوعاً أو كرهاً » إشارة إلى فائدته

وإلى أنه سنة محتومة لا تغير ولا تبدل . وقوله « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً » إشارة إلى قانون الجاذبية العام فإنه هو الذى يحفظ هذه المخلوقات من الهوى والتصادم . وهذا هو الحفظ والترتين .. والرواسى هى الجبال — يعنى أنها ثابتة فى أماكنها لا تتمايل ولا تتطاير مع دوران الأرض ودورانها هى معها ، وكل هذا راجع إلى قانون الجاذبية والثقل . وأغلب الناس ممن ينظرون فى القرآن وفى تفسيره يقولون إن « رواسى » هنا معناها مرسية أى مثبتة للأرض لا ثابتة هى فى نفسها ! ويظنون أن الجبال هى التى تمسك الأرض وتمنعها من الميدان . وهذا خطأ فى اللغة والعلم والدين : أما اللغة فإن رواسى اسم من رسا ، لا من أرسى ورسا لازم . ولو كان المعنى ما ظنوا لقال « مرسيات » أو نحو ذلك وأما العلم فإنه لا يقرر أن الجبال هى التى تمسك الأرض ، وإنما يقرر أن الجبال والأرض وكل شئ ممسك بنظام الجاذبية ... وأما الدين فإنه يقول : « والجبال أرساها » فجعلها مرساة لا مرسية . ويقول « والجبال أوتاداً » والأوتاد هى المثبتة الثابتة فى نفسها . وأما كونها تمسك الأطناب التى تربط بها فهذا ناشئ من ثبوتها هى فى ذاتها .

وقوله « وهى دخان » صريح فى إثبات نظرية تطور المادة . فإن قوله : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » يدل على أن مادتها كانت موجودة قبل وجودها بهذه الهيئة ، وأنها كانت غازية أو سديمية أو نحو ذلك . بل القرآن قد أشار إلى تطور الإنسان بقوله : « مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً » .

وقوله : « ققضاهن سبع سماوات » القضاء هنا هو القضاء الذى يقرن مع القدر كما سيأتى . فجمع فى هذه الآيات بين القضاء والقدر لأنهما شبه متلازمين .

وكما ضبطت الأرض بالمقادير فقد ضبط كل شئ أيضاً بهذه المقادير والنسب . ويكفيها للإيمان بهذه الأقدار وبهذا الضبط أن نلقى نظرة فاحصة على هذه المجموع الهائلة من الكواكب المتلازمة فوق رؤوسنا ، المطلة علينا بإشعاعاتها القوية والضعيفة ، وأن نسأل أنفسنا : لماذا لا تتصادم هذه المجموع ، ولماذا لا تتباعد وتتفرق وتصاب بالفوضى والاضطراب ؟ إننا إذا فرضنا ميداناً من أكبر الميادين غاصاً بالسيارات وبالقطارات وبسائر المتحركات الجائية الناهبة ، أو فرضنا سماء مأمجة بالطيارات مختلفة الأحجام ، متفاوتة فى سرعة الطيران وفى بطئه ، متوازية ومتراكمة ومتراكبة ، ثم فرضنا كلاً من هذه السيارات والطيارات لازماً نظاماً معيناً ، ومكاناً معيناً ، وطريقاً معيناً ، بحيث لا تتصادم

ولا تتباعد ولا يمسها شيء من الفوضى واختلال النظام، مع فرضها خالية من الإنسان الذى يوجهها ويسيرها ويحفظها، أخذنا العجب، بل لما كدنا نصدق ذلك... أما إذا فرضناها منظمة بالإنسان مسيرة به، مضبوطاً سيرها ومرورها وتقدمها وتأخرها بإرشاداته وتعليماته فإننا حينئذ نعجب من حسن نظامه، ونعلم أن ذلك راجع إلى دقة عظيمة فى التقدير وفى إلزام كل مكانه بحساب تام وبقظة مستديمة... أما هذه الحشود الكوكبية الدائرة السائرة فإننا نعلم أن النظام الذى يحكمها والأقدار التى قدرت لأبعادها والمسافات التى تربط بعضها ببعض، نظام وأقدار لا بد من التسليم بحكمتها وبراعتها.

ماذا يحدث لو تقاربت هى أو تقاربت مداراتها؟ وماذا يكون لو تباعدت هى أو تباعدت مداراتها؟ إن ذلك قد يخفى على غير العلماء، أما العلماء فإنهم يعلمون أنه هو الفناء لا شيء غيره.

إننا إذا دفعنا شيئاً ما إلى جهة العلو فإنه لا يلبث أن يرتد إلينا نازلاً هابطاً لا يقف حتى يقفه شيء. ولكن لماذا لا تهوى هذه الأرض إلى السماء أو إلى جرم آخر؟ أو لماذا لا تهوى الأجرام الأخرى إلى الأرض كما يهوى الحجر الذى يدفع إلى السماء؟ إنه بلا شك لولا التقدير الذى ذكرناه لكان لا بد من الهوى والتصادم والتقاذف ثم لا بد من الهلاك... إذن فالأقدار هى التى أمسكت كل شيء وألزمته طريقه ومكانه، وإذن فالأقدار هى النظام وإذن فالإيمان بها هو الإيمان بالله والكفر بها هو الكفر الذى لا يفخر.

إن العالم يشبه إلى حد بعيد صناعة كبيرة فيها ملايين الآلات والعدد الدقيقة، وكل هذه العدد والآلات تسير وتدور وتحرك بدووب لا ينقضى لغاية مقصودة ولا إيجاد شيء متقن عظيم، بدون أن تقف هذه العدد والآلات، وبدون أن تتصادم أو تتعارض أو يصيبها ما يحدث الحلل... إن هذه الصناعة لا بد أن يكون كل جزء فيها وكل آلة وعدة مقدره بتقدير حكيم دقيق من ناحية حجمها وناحية موضعها وناحية كيفها. ومن كفر بهذا التقدير فى هذه الصناعة الضخمة فقد كفر بعقله. والإيمان بهذا التقدير هو الإيمان بالصناعة المذكورة، والإيمان بها هو الإيمان بصانعها. وكذلك هذا العالم إنما نظمه ونظم وجوده وبقائه وكل مافيه الأقدار المودعة فى أجزائه الصغيرة والكبيرة. ولا يمكن الإيمان بالله مع الكفر بهذا، كما لا يمكن الكفر بالله مع الإيمان بهذه الأقدار إلا أن ينأى المرء عن عقله بعيداً. ولكن الكفر بهذه الأقدار هو كفر بالإنسانية العاقلة المفكرة. فلا يكفر إذن بالله إلا من كفر بالإنسانية وبزايها العقلية والمنطقية.

ويجب أن يعلم أن الأقدار كما نظمت الماديات فقد نظمت المعنويات ؛ فمن الإيمان
بالقدر الإيمان بأن لكل عمل جزاء على قدره، لا جزاف ولا ظلم . وما أجمل قوله « جزاء
من ربك عطاء حساباً » فالجزاء بالحساب ، والحساب هو القدر . وهذا مثل قوله « فسوف
يحاسب حساباً يسيراً » ، وفي هذا قوله أيضاً : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى
فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » غير أنه
يلزم أن نفهم كلمات أعطى واتقى والحسنى وبخل واستغنى واليسرى بأوسع مما فهمه المتحكمون
في كتاب الله . فإننا حينئذ نهبط على كنوز من المعاني كانت حراماً على من ضاقوا بأفهامهم
أو ضاقت هي بهم ... هذا هو معنى القدر الذي هلك به أغلب الناس .

وقد جاءت أحاديث وآثار عن السلف تدل على أنهم كانوا يفهمون القدر على
ما ذكرناه ؛ فما جاء في ذلك حديث رجوع عمر بن الخطاب ومن معه من الصحابة والمسلمين
عن الشام لما أن قربوا منها وعلموا أن الطاعون قد وفد عليها . وقد استشار عمر الناس
في الرجوع ، فأشار مشيرون بأن يرجع وآخرون بأن يمضي ، فاختر بفضنته الثاقبة وبصيرته
النافذة — الرجوع فقيل له أفراراً من قدر الله ؟ فقال — واعجب بما قال — نفر من
قدر الله إلى قدر الله ! ثم قال للمعتز : أرأيت لو هبطت وادياً فيه مكان مخضب ومكان
مجدب ، فإن رعيت المخضب رعيته بقدر الله ، وإن رعيت المجدب رعيته بقدر الله ...
ثم حدث بنهي الرسول عن القدوم على الوباء فسر بذلك . وهذا صريح في أنهم فهموا
القدر على خلاف ما فهمه المتأخرون ، أما قوله نفر من قدر الله إلى قدر الله فإنه يريد
أن الله بسننه قد جعل للأمراض وللإصابة بها أسباباً مقدره — ومقدرة هنا بمعنى
منظمة — فالتقرب منها والاتصال بالمصابين بها يوجب الإصابة إذا كان في الإنسان استعداد
طبيعي لها وليست لديه مناعة ، والبعد عنها يقي ذلك ويحییء بالسلامة إذا لم تكن هنالك
أسباب أخرى للمرض . فمن رجع عن دخول البلد المصاب فقد فر من قدر الله الذي هو
الإصابة بالمرض ومن تقديره بأن يكون المرض عدواً للإنسان وأن يكون مصيباً له
إذا قارفه — أي فقد فر من العطب ومن وسائله . وهذا القرار مطلوب عقلاً وشرعاً
وغريزةً — إلى قدر الله — أي إلى السلامة حيث لا أمراض ولا أسباب أمراض ،
وهذا يسلم إذا لم تكن هنالك أسباب أخرى غير التي فر منها ، كما أن الذي يقدم على رعي
الأرض المخصبة يقدم على الشبع والخير ، والذي يقدم على المجدبة يقدم على المسغبة والهلاك
لأنه قد وضع نظام لهذا الوجود بأن يكون جانب منه مخصباً وجانب آخر مجدباً . وقدر الله

الذى كان في الشام والذى أبى عمر وصحبه القدوم عليه بل رأوا الهرب منه ، هو المرض لأن التقديرات والعوامل الكونية التي تحكم العالم قضت بأن يصاب الشام في وقت معين بالطاعون ، وهذا الطاعون من قدر الله ، لأن السنن التي جبل عليها الوجود — مقدره تقديراً محكماً — يلزمها حدوث هذا الوباء لزوماً طبيعياً في الحين المعلوم بلا تخلف في الموعد المهيأ ، إن لم يوجد ما يعارض ذلك من العوامل الأخرى الطبيعية التي خلقها البارئ لتحدث معلولاتها . وحدثت الأمراض والأوبئة هو كسائر حوادث هذا الوجود له أسباب وعوامل ، كما أن له موانع ومعارضات ، فإذا وجدت الأسباب والعوامل وارتفعت الموانع والمعارضات حدثت الأمراض . أما إذا لم تنهياً هذه الأسباب ، أو تهيات ولكن عارضتها الموانع ، فإنها لا يمكن أن تحدث ، كما أنك إذا وضعت البذر الصالح في التربة الصالحة وسقيته نبت ونما إن لم يعارض نباته ونموه معارض . وهكذا يقال في كل شيء من الحوادث المستمرة ومن الحوادث اليومية أو السنوية أو الدهرية أو الشهرية .

أما القدر الذي اختاروا الفرار إليه فهو النجاة ، لأن العوامل الكونية قضت إذ ذاك بأن تكون البلاد التي اختاروا الفرار إليها سليمة من الطاعون ، وقضت هذه العوامل بأن يسلم من لم يتعرض له ويدخل عليه مكانه . وليس القدر الذي فروا منه ولا الذي فروا إليه هو القدر الذي يفهمه الجماهير ، وإلا فإن هذا القدر لا يمكن الفرار منه ، ولأجل هذا أوجد شارحو الأحاديث في قول عمر هذا إشكالا قائلين : إن القدر لا يمكن الفرار منه ، وما يمكن الفرار منه ليس قدراً . لا حقيقة ولا مجازاً ... ثم راحوا يضربون في ييد من الأوهام ، ثم تاهوا في تلك البيد إلى اليوم . وكل هذا راجع إلى الوهم في المراد الشرعي منه ... ومن ثم أيضاً حاولوا أن يوجدوا رواية يزعمون فيها أن عمر ندم على قوله وعلى رجوعه ؛ فذكر ابن حجر العسقلاني في شرح البخاري قال : أخرج الطحاوي بإسناد صحيح أن عمر قال : اللهم إن الناس نحلوني ثلاثاً أنا أبرأ إليك منهم : زعموا أني فررت من الطاعون وأنا أبرأ إليك من ذلك . وساق بقية الثلاثة . وهذا يجب ألا يكون صحيحاً إذ كيف يبرأ عمر من شيء أمر به الرسول ومن شيء فعله ووافق الصحابة عليه واحتج له ذلك الاحتجاج المسكت .

وفي الحديث أنهم سألوا الرسول وقالوا يا رسول الله أرأيت أدوية تتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال (هي من قدر الله) . وقدر الله في الحديث هو ما شرحنا

لأنه جعل الأدوية من القدر أى جعلها مقدره بالأمراض وجعلها كنفواؤها ، بمعنى أنها تشفى منها وتقاومها إذا وضعت وضعاً صحيحاً كما قال فى الحديث الآخر (ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء عرفه من عرفه وجهله من جهله — وفى رواية — فإذا وافق الدواء لداء شفى بإذن الله) . ولو كان القدر فى الحديث هو الذى يعرفه الجماهير لما جعلت الأدوية نفسها قدراً لأنها على هذا ليست قدراً بالإجماع . وفى حديث مروى فى الصحاح : (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) . وقدر هنا لا يكون صحيحاً إلا إذا ذهب به ما ذهبنا إليه .

وقد احتتمل طوفان الأوهام فى طريقه الطوائف كلها حتى أولئك الذين ليس لهم اتصال خاص بالقضايا الدينية ولا بعلم الكلام ؛ فهذا البحرى الشاعر يقول :

ألا ليت القادر لم تقدر ولم تكن الأحاطى والجودود
فأنظر أينا يضحى ويمسى له هذى الموابك والعبيد

ويقصد بقوله هذا أن الأقدار هى التى وقفت له بالمرصاد ومنعته أن يملك تلك الموابك وأولئك العبيد لأنها تريد أن تختص بها قوما هم عاجزون بطبعهم وأعمالهم ، وهم دونه فى كل شىء — ولو أن هذه الأقدار والحظوظ لم تكن هى المسيطرة على هذا العالم سيطرة قائمة على القوة وحدها — ولو أنها تركت الناس أحراراً موكولين إلى نشاطهم الذهنى والبدنى ، فلم تعط هذا جزافاً عطاء حتماً ، ولم تمنع ذلك أيضاً جزافاً وظلماً ، لأنخت هذه الأموال وذلك السلطان وأولئك الحشم والخدم لى دون سواى لأنى أحق بها ... وهو يذهب فى هذا إلى أن الأقدار والحظوظ عبارة عن قوى خفية شريرة مصبوبة على هذا الوجود تحكمه حكماً جبرياً عابثاً لا يعرف العدل ولا الرحمة ولا الحق ، وتتصرف فيه تصرفاً ليس له مثيل فى طغيانه حتى ولا بين الناس الظالمين الباغين ... ومن غير المستطاع أن يثمر هذا الاعتقاد لأهله وثوباً أو نهضة ، ولن يكون ثمره سوى الكسل والجحود العقلى والبدنى .

وقد أخطأ ابن هانىء الأندلسى خطأً مركباً حينما قال فى أحد آلهته من البشر :
ما شئت لا ما شاءت الأقدار واحكم فأنت الواحد القهار

وذلك لأنه ذهب كما ذهب الجميع إلى أن الأقدار هى القوى الخفية الخبيثة الظالمة التى أرسلت على هذا الإنسان تسوسه شر سياسة ، وتطارده وتستبد به بدون أن يلقي من أحد

غوثاً وتدوده عن الوصول إلى أغراضه وعن الاستمتاع بمواهبه وأعماله — وإلى أن هناك حروباً مستعرة أبداً بين الخلوقين وبين أقدارهم ، تغلبهم أكثر الأوقات ويغلبونها أفلها ، وإلى أن هذا المدوح قد غلب أقداره غلباً نهائياً ، فأصبح الذى يكون هو الذى يشاؤه ، وأصبح الذى لا يكون هو الذى تشاؤه الأقدار ، فأصبح هو الواحد القهار ولم يدر هذا الشاعر أن الإنسان لا يحارب أقداره وإنما يحارب ، وأنه لا يمكن أن يغلبها إلا إذا أمكن أن يخرج من وجوده أو يسبق وجوده أو أن يكون أكبر من قدره وحقيقته ... وهذا لا يمكن أن يكون .

ولسنا نحاول هنا إحصاء الأخطاء فإنها لا تحصى ، ولكننا نحاول أن ندل دلالات ترشد إلى غيرها ثم تضع الحدود والقيود .

أما القضاء فإنه لا يخرج في جملة استعمالاته عن أن يكون بمعنى الفراغ من الشيء . يقال قضيت الشيء فانقضى أى فرغت منه . والانتضاء هو الانتهاء . قال الله « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا » . وقال : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » وقال : « فلما قضى موسى الأجل » وقال : « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك » وقال : « فلما قضى زيد منها وطراً » وقال : « إذا قضوا منهن وطراً » . وكلها بمعنى الفراغ وكذلك أمثال قوله « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » وقوله : « وقضينا إلى بنى إسرائيل » أى فرغ ربك من الأمر بالألأ يعبد سواه وفرغ من إنهاء ذلك إلى بنى إسرائيل . وقال الشاعر :

فلما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وقال آخر يرثى عمر :

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائق فى أحكامها لم تفتق
وفى الكلام السائر على كل لسان : (قضيت أعمالى وقضيت دينى) وهكذا ... فالقضاء يعنى به الفراغ والانتهاء . ومن النصوص فى هذه الآية السابقة وهى قوله « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات » . فقضاء السموات معناه الفراغ من خلقهن وتسويتهن ، ولهذا جاء فى غير هذا الموضع « ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » وجاء فى سائر الآيات لفظ خلق السموات مكان قضى وسوى . خلق وسوى وقضى كلها بمعنى واحد ؛ كلها بمعنى

الفراغ والانتها... فالتقضاء إذن المقرون بالقدر يراد به الفراغ والانتها . فالواجب علينا أن نؤمن بأن الله قد خلق الخلق ووضع النواميس والسنن ثم فرغ منها بحيث لا يحتاج إلى تعديل ولا مراجعة ولا تكميل أو إصلاح أو تدارك ... بل كان فراغ من يعلم كل شيء وفعل من لا يؤوده شيء ومن لا يخفى عليه شيء ... وكل الذين يقومون بتصميم الأشياء وبصنعها ثم يحتاجون إلى التعديل فيها أو النقض أو الرجوع أو الترك ، فلا بد أن يكون سبب هذا إما الخطأ أو الجهل في وضع التصميم ورسم الخطة أو العجز عن التنفيذ أو أن يظهر في الآخر أنه لافائدة من ذلك العمل ، أو نحو هذا من الأسباب التي مرجعها النقص في القوى المادية أو في القوى العلمية ... أما الكامل في ناحيته وقوته فإن كل خطة يضعها فلا بد أن ينفذها ، ثم لا بد أن يفرغ منها بدون مراجعة . وهذا أعظم فارق بين الكامل والناقص ... فإذا آمنا بالتقضاء على هذا المعنى كان إيماننا إيماناً بالكمال المطلق لله ، وإيماننا بكمال الله لا نستطيع أن ننكره ، لأننا لا نستطيع أن ننكر كمال النظام الموضوع في هذا الوجود ، لأننا لا نستطيع أن ننكر قوتنا العقلية التي دلتنا على أن التصميم الذي وضع لهذا العالم هو التصميم الذي وضع القوة العقلية في الخليقة العاقلة ...

وقد كان شقاء الإنسانية الذي ظل يتنقل معها هو أنها لم تستطع أن تصل إلى طور الكمال في الناحيتين المادية والعلمية — الكمال الذي يجعلها تضع الخطة للشيء ، ثم تفعله ثم تفرغ منه ، ثم لا تحتاج إلى النقض أو التعديل أو التغيير ... بل ظلت أعمالها كلها في أدوار تاريخها الطويل عبارة عن مجموعات تجارب ناقصة مستمرة : بناء ثم هدم ، ومدح ثم ذم ، ووضع للأساس ثم انصراف عن المضي في البناء والاطمئنان .. وهكذا دواليك ومن المظنون أن تبقى تعالج التجارب إلى أزمان قصية ، ومن المظنون أيضاً أن يبقى مذاق هذه التجارب مرّاً أليماً ، وأن تتجرع منها أضعاف ما تجرعت ... والإنسان اليوم يجني أثمره زرع شجرتها ورواها حتى تساقطت عليه !

وهو يزعم الآن على ألسنة زعمائه وآلهته أن هذه الحرب هي نتيجة لتلك التجارب الضالة التي وضعت للسلم الماضية ... وهم اليوم يملأون مسامع الوجود ومسامع البشرية وآمالها ، آماني ، واعددين بأن تجارب السلم المقبلة ستكون ناجحة ، وأن ما سيضعون من الخطط والتصميمات لمنع الحروب والتقضاء عليها سيأتي قضاء مفروراً منه ... ونحن نسأل الله أن يكون ما زعموه صحيحاً ، وأن يكونوا مقتنعين بما قالوا .

فالقضاء والقدر معناها : أن الله قد أوجد هذا العالم مقدرًا بمقادير مضبوطة ،
محكومًا بسنن لا تقبل التغيير ، وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغًا لا يعقبه تبديل
ولا تعديل ولا زيادة أو نقصان ، لأن ذلك هو شأن الضعفاء أو الجهلاء أو السفهاء —
وتعالى الله عن ذلك .

ونتيجة هذا الإيمان بالقضاء والقدر على هذا النحو أن تكون صلوات الإنسان بالله
وبالإنسان وبنفسه وبالخليقة كلها صلوات سليمة مبنية على العقل والفكر الناضج ، فإن الصلوات
بين الإنسان وبين ربه ، وبينه وبين الإنسان الآخر ، وبينه وبين نفسه إنما تفسد
لإنكار القضاء والقدر بالمعنى الذى بينا ؛ فالإنسان إنما يتعلق بالخرافات والعقائد الباطلة
ويشرك بالله ويعبد العاجزين ويضل فى اتجاهه العام ويذهب إلى غير مذهب ويتمسك
بغير سبب ، ويريد من الوجود ومن الحياة ومن نفسه أيضاً ما ليس فى الإمكان ، ويروح
يشيد قصوره وآماله الذهبية على الخيال الكاذب وعلى ما هو أوهى من ذلك — إنما يفعل
هذا كله ويفعل غيره لأنه لم يؤمن بالقضاء والقدر بمعناها الصحيح ... ولو أنه عقل
أن لكل شىء قدرًا لا يتعداه ، وسنة لا يفلت منها ، وناموساً ليس فى المستطاع الخروج
من قبضته — ثم عقل أن الله قد فرغ من هذه السنن والنواميس والأقدار ، وأنه قد
طويت الصحف وجفت الأقلام ، وأنه ليس من الممكن أن يحبى وأن يملىء وأن يرشو
أو يتملق أو يدهن — لو أنه عقل هذا كله لكان اتجاهه فى الحياة وخطواته فى الطريق
أقرب إلى الهدى وأبعد عن العثار والزلل .

فالأمر الذى لا تؤمن بالقضاء والقدر بمعنييهما الصحيحين أم لا يمكن أن تحسن
فى حياتها سوى التخبط والفوضى والارتباك فى شؤونها الخاصة والعامة ، صغيرها وكبيرها ...
ومن أجل هذا كله — ومن أجل أشياء أخرى — كان الإيمان بهما من أركان الدين ،
وكان شأنهما ومقامهما من الإيمان عظيمًا ، لأن الدين إنما جاء منظمًا ولا نظام مع الكفر
بالقضاء والقدر اللذين بينهما . فالإيمان بهما إذن أولى خطوات الأمة فى مدارج الكمال
ومعارج السمو العقلى والمادى

ولنختم هذا البحث برواية — هى وإن كانت ضعيفة الأسناد إلا أنها صحيحة المعنى
مؤيدة لما قلنا . وذلك ما رواه البزار والطبرانى عن ابن عباس وأبى قتادة قالوا قال
رسول الله : (هلاك أمتى فى ثلاث ؛ فى القدرية والعصية والرواية من غير ثبت) .
والقدرية هنا إن كان المراد بهم النكركين للقدر كان هذا واضحًا لما سبق من أن الذين

ينكرون القدر يرون أن الوجود ليس فيه نظام وليس قائماً على الأسباب والسيبات .
ومن كان رأيهم هذا فلن يكونوا هم منظمين لا في تفكيرهم ولا في أعمالهم ، ولن تكون
أفعالهم قائمة على أسبابها الصحيحة . وتبعاً لهذه الفوضى العقلية والعملية لن يكونوا شيئاً
مذكوراً في الحياة .. وأما إن كان المراد بالقدرية هم الذين يؤمنون بالقدر إيمان من
ذكرنا فواضح أيضاً . فالقدرية على الاحتمالين لن ينجحوا في الحياة ولن يبلغوا منها
شأواً عظيماً ، ولن يصيروا أهلاً للقيادة والسيادة . وقد يكون المراد بالقدرية القدر ،
جاء على وزن النسبة .

التوكل - أعطاء الناس فيه

كيف يجب أن يفهم

أراد أحد سلاطين الأتراك في أواسط القرن الثالث عشر الهجري أن يدخل النظام الجديد الغربي على الجيوش العثمانية، فهاج الشعب وهاج الانكشارية، يؤيدهم شيخ الإسلام والصدر الأعظم قائلين: إنه لا يجوز أن تكون عساكر الإسلام متشبهة بالكفار فأحدثوا شغباً عظيماً في العاصمة وغيرها، وقاموا يطالبون بقتل السلطان ومن معه من الوزراء الذين يريدون النظام الجديد، ويريدون إفساد طهارة الإيمان بأفعالهم الشنيعة. ونشروا منشوراً فيه أسماء الرجال من عطاء الدولة الذين يطالبون بقتلهم. وقد ذكر لهم أسماء أولئك الرجال شيخ الإسلام عطاء الله أفندي. فجذوا في ذلك حتى قتلوهم، ثم خرجوا في الطرقات ينادون: أيها السلطان المعشوش بهذه التعاليم، نسيت أنك أمير المؤمنين، وعوضاً عن اتكالك على الله القادر العظيم الذي يبدد في دقيقة واحدة الجيوش الكثيرة، وأردت أن تشبه الإسلام بالكفار وأغضبت الله، فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحامياً عن الدين، فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لها ثقة بك، والمملكة أضحت مضطربة، فيجب عليك أن تلاحظ وأن تفضل على كل شيء شرف الإيمان وسلامة الإسلام... ثم أصدروا استفتاء فيه: السلطان الذي يخالف القرآن هل يترك على تحت السلطنة! وكانت الفتوى: كلا. ثم صاحوا: قد صار معلوماً عندكم أنه يتحتم عزل السلطان، فما قولكم الآن! هل تسلمون له أن يفعل ما يخل بالإسلام! فصاحت العساكر: كلا. كلا. لا تقبله سلطاناً فليعزل... وفي نهاية الأمر خلعوا هذا السلطان ثم قتلوه وألزموا من جاء بعده برد النظام الجديد الذي أريد إدخاله على جيوش الدولة.

[مصادر التاريخ الإسلامية]

هذه حادثة واحدة سقناها لندل بها على الهوة السحيقة التي سقط فيها الناس من جراء فهمهم التوكل بحيث صار أحد الأمراض الاجتماعية النفسية الاعتقادية التي تألبت عليهم حتى سلبوا الحول والقوة.

وقد اختلف الصوفية والمتزهدون والفقهاء — كعادتهم — في تحديد معنى التوكل
اختلافاً كبيراً ، وكتبوا فيه كلاماً كثيراً ، وأوردوا تعريفات لمعنى هذه الكلمة الاصطلاحى
لا يمكن حصرها ولكن يمكن تلخيصها فى كلمة أو كلمت :

فَعندهم أن من اهتم لشيء فى هذه الدنيا أو عمل له أو اعتقد أن شيئاً فيها يوصل
إلى شيء آخر ، أو أن شيئاً من الأشياء لا يمكن بلوغه إلا بأسبابه ، أو أنه يستطيع أن
ينفع نفسه أو يضرها ، أو أن أحداً كائناً ما كان يقدر أن ينفعه أو يضره ، أو أن أمراً
متوقف وجوده على أمر آخر ، أو أن أمراً معلل بأمر ، فقد خرج من جميع حدود
التوكل ومن كل أبوابه ... وعندهم وعند الذين أخذوا عنهم أن الواجب على المؤمن
التوكل أن يستسلم وأن يطرح أعباءه وأثقاله كلها على الله ، مسلماً نفسه للهدوء والراحة
وللكسل النهنى والجسدى ، معتقداً أن الله سيفعل له كل شيء بأسباب يوجددها هو
أو بلا أسباب ... ومن رأيهم أنهم كلما غالوا فى هذا الاستسلام وهذا التخلي عن العمل
والتفكير فى المصير والعاقبة لله التفت الله إليهم وسارع إلى قضاء حاجهم وإعطائهم ما يشاءون
وأن إيمان المرء وإسلامه مقيسان مقدوران بهذا الاستسلام والتخلي ؛ فكلمة تخلى التاجر
والمزارع والصانع وكل عامل ومفكر عن عمله وتفكيره لله زاد الله تجارته وصناعته
وزراعته وعمله وتفكيره نماء وبركة وسداداً ورشاداً — وعلى حسب اهتمامهم والتفاتهم
إلى أعمالهم يكون تخلى الله عنها وعنهم — وعلى قدر تخلى الله تكون المصيبة والخسران ..
ومن مذهبهم أنه يجب أن يتفرد الله لهم بتدبير الرزق والحياة وكل ما يحتاجون إليه ، كما
انفرد بإيجادهم — وأن من حاول أن يوجد رزقه بنفسه أو أن يشارك الله فى إيجاد
فهو كمن حاول أن يوجد حياته أو أن يشارك الله فى إيجادها ، أو كمن زعم أنه يوجد
أو شريك يوجددها .

وقد ذهبوا إلى أن التوكل هنا مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس وهى أن
الموكل يذهب إلى بيته ويترك لوكيله كل عمل وتفكير فى تدبير ما وكل إليه ، وأنه كلما
تنحى صاحب الشأن عن الاهتمام والتفكير فى شأنه ، معتمداً على وكيله وعلى إخلاصه وعمله
واجتهاده كان ذلك التنحى أدعى إلى رضا الوكيل وإلى إخلاصه ... ونحن هنا نثبت
بعض ما ذكروا من عبارات .

فرأى بعضهم أن التوكل لا يكون متوكلاً حتى يفقد التمييز بين الأشياء ! قال أحدهم

لأبي يزيد ما التوكل ؟ فقال ما تقول أنت ؟ فقال إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن يمينك وشمالك ما تحرك لذلك سرك ! فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ! ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتعممون ، وأهل النار فى النار يعذبون ، ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل .

ورأى بعضهم أن التوكل ترك الاضطراب جملة ! سئل ذو النون المصرى عن التوكل فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب . وسئل أبو عبد الله القرشى فقال هو ترك كل سبب يوصل إلى سبب ! وهذا كثير عنهم جداً .

وقال بعضهم إن أعلى درجات التوكل هو الموت جوعاً — ذكره الغزالي فى الإحياء ! قال : ان الموت جوعاً قربى إلى الله إذا كان الميت قد مات لأنه توكل على الله فترك العمل فلم يرزقه القوت وإنما رزقه الموت !! قال وموت المتوكل جوعاً يجب أن يعد رزقاً وغنيمة فى الآخرة .

ومن رأى فريق أن التوكل ألا يدخر المتوكل شيئاً ، فإذا أصاب مالا أو شيئاً فرقه فى الحال — قاله أبو يعقوب الزيات وعبد الله ابن الجلاء والغزالي فى الإحياء وآخرون كثيرون .

وقال أبو سليمان الداراني لو توكلنا على الله ما بنينا الحيطان ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص ! وقال ذو النون سافرت سنين وما صح لى التوكل إلا وقتاً واحداً : ركبت البحر فكسر المركب فتعلقت بحشبة من خشب المركب فقالت لى نفسى : إن حكم الله عليك بالغرق فما تنفك هذه الحشبة ! فخلت الحشبة فطفوت على الماء فوقعت على الساحل — حكى ذلك عنهما ابن الجوزى فى تلبس إبليس .

ومن قول طائفة أخرى أن التوكل هو ترك التداوى ! وهذا مذهب خلائق . ورى ابن الجوزى فى تلبس إبليس عن سفيان بن عيينة أن تفسير التوكل أن يرضى بما يفعل به . وقال ابن الأثير فى شرح غريب الحديث : معنى كون الله الوكيل أنه هو القيم الكفيل بأرزاق العباد . وحقيقته أن يستقل بأمر الموكل إليه ... وفى قواميس اللغة : توكل على الله واتكل استسلم ... وكلامهم فى هذا الباب كثير جداً .

تطابرت هذه الآراء والأقوال فى الكتب التى خلفها هؤلاء تطايراً لم يستطع وقفه

ولا تحديد مداه ، ثم فاضت من الكتب على الألسنة والعقول والأوهام وزخرت بها البيئات والمجتمعات الإسلامية ، وشدا بها كل لسان وأشرها كل قلب ، فأفسدت روح العمل وحبه والاعتداد بالنفس والتعويل عليها ، ثم انجلت في النهاية عن أم اتكالية عاجزة لا تستطيع أن تستقل بأمر من أمورها الصغيرة أو الكبيرة ، فهزمت هزأًم ساحقة في كل الميادين ، وصاروا أتباعاً في كل شيء ، محتاجين في أقل شئونهم إلى من يكون إليه القيام به وإلى من يتوكلون عليه ، مستسلمين لما يقوله ذلك الغير ولما يفعله ، معترفين له بالعجز والضعف .

إن الشعوب التي تلقن منذ وجودها أنه لا يصح لها أن تعتمد فيما تحتاج إليه على قواها وسواعدها ، وتلقن أن هناك قوة عليا مستعدة أبدأً للقيام بكل ما يراد منها استقلالاً ، ثماً عليها إلا الضعف والاستسلام والانتظار — وتلقن أنها عاجزة عن أن تعمل أو أن تستقل بالعمل لنفسها — وتلقن وجوب الاتكال بالمعنى السخيف الذي فهموه — : إن الشعوب التي يقضى عليها بأن تلقن هذه الحرافات والحالات لمهي شعوب غير جديرة بالحياة ولا بالاستقلال في جانب واحد من جوانبها ، بل إن هذه الشعوب تخرج مطبوعة بروح الاتكال على الآخرين والاتباع لهم والانتظار منهم .. ولكن الأمم الجديرة بالكرامة والحياة هي الأمم التي تلقن منذ تستطيع الفهم أنها إنما وجدت في الأرض مجردة من كل ما يملك ، مسلحة بكل أسلحة الجهاد والنضال ، لتوجد حياتها هي بنفسها ولتعمل كل ما يلزم لبقائها وسلامتها وسعادتها — وتلقن أن الإنسانية بمجموعها هي التي أوجدت هذه الحياة وبنيت هذا المجتمع وسخرت كل هذه الطبيعة بعقولها وكواهلها ، دون أن يعينها معين ويشاركها مشارك — وأن هذه الإنسانية لو أنها انتحت هذا المنحى في الاتكال وراحت تلتمس من تتكل عليه ومن تكل إلى قوته القيام بما تريد وبما لا تستغنى عنه لظلت حتى اليوم — أي من يوم وجودها — منتظرة مرتقبة ما لا سبيل إلى حصوله ، ولبقيت كاحدى هذه الفصائل الحيوانية ، أو لاقترضت كما اقترضت في سالف الدهور الأحياء التي عجزت عن مغالبة الحياة ومجاهاة الطبيعة العاتية .

إن المعاني الإنسانية تُنمى وتوجه وتمرن كما تنمى وتوجه وتمرن المادة : فإذا مرّن عقل الإنسان على أن يباشر شؤونه بنفسه ويقوم بها هو ويخضعها لإرادته استقلالاً وبلا مساعد ، نما عقله واشتد وارتاض على مغالبة الأهوال والشدائد وعلى غلبها واتجه إلى ذلك اتجاهها طبيعياً ، وصار قادراً على حل ما يوكل إليه وعلى إتمامه . أما إذا لم يُمرّن عقله

ولا فكره ولا أخلاقه على شيء من ذلك فإنه يبقى غير مستطيع لشيء غير صالح لشيء ، كما أن جسمه إذا لم يمرن على العمل لم يستطع أن يعمل ، وإذا لم ينم لم ينم بل يبقى هزليلا عاجزاً . ومن ذا يستطيع الكتابة أو السباحة أو ضرباً من ضروب الرياضة البدنية والأعمال اليدوية إذا لم يتعلم ويتمرن... إنك إذا عمدت إلى نوع من أنواع المادة النامية ووجهته غير جهته الطبيعية ، وعالجته على ذلك فإنه يتجه غير جهته ويتحول إلى غير سبيله ، ثم يأخذ ينمو على الوضع الجديد الذي وضعته فيه ، ويصبح رجوعه إلى طبيعته الأولى محتاجاً إلى قوة غير ذاتية ترجعه وتضعه فيه . وهكذا تفكير الإنسانية وفهمها للحياة إذا غير وضعه وأفسد اتجاهه وصرف عن طريقه ، فإنه يقبل ذلك ويأخذ يعتاده ويرتاض عليه حتى يتكيف به ويصير له طبيعة — أى إنه يفسد فساداً يمنع النجاح ويوجهه إلى الفشل ... فهؤلاء الذين يربون منذ الساعة الأولى ، مفهمين بأن الذي عليهم هو أن يسلموا أمورهم كلها ويسلموا التفكير فيها إلى الله ليفعلها لهم وليتقوا هم متمتعين بالكسل وبلذات السبات الدائم ، حالمين بأن الله مستعد لأن ينوب عنهم ويتوكل لهم ويحاجي عن قضاياهم أمام محاكم النواميس الكونية الصارمة ، قوم يربون على الدمار وعلى الموت ، وعلى أن يتجردوا من كل قوة ويتخلوا من كل سلاح ، متوهمين أن من لا يغلب يقاتل عنهم ويرد عن ساحتهم كل سنة غازية من سنن الطبيعة... ما أرخصها من معان وأضعفها من تعاليم ! وما أرخص وأضعف من يتعاملونها .

ليصور من لا يستطيع أن ينفذ إلى حقائق علم النفس الكبرى طفلاً يولد في بيئة من البيئات ، تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل بأن حوله قوة غالبية عزيزة لا تمتنع عليها شيء ، وأن هذه القوة على استعداد لأن تمهيه كل ما يشتهى في كل وقت وفي كل مكان بدون عناء ودون عمل ودون ثمن سوى أن يستسلم لها ويركن إليها ويتوكل عليها ويثق بها — ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم إيماناً خالصاً — ليتصور منا من لا يستطيع النفوذ إلى الحقائق الكبرى حالة هذا الطفل : كيف يمكن أن يكون وكيف يمكن أن يجابه الحياة ؟ هل من الجائز أن يصنع مثل هذا الطفل خيراً أو أن يقوى على شيء ؟ ثم ليعلم أن شراً منه ذلك الطفل أو الرجل الذي يعلم هذه التعاليم الانكالية ويلقن كل هذه اللقنات للاستسلام والانتظار .

مسألتان متشابهتان : إحداها أن الإنسان وجد نفسه في مجتمع ، ووجد أنه لا يقدر أن يظفر بحق من حقوقه في مجتمعه هذا إلا بالرجوع إلى الوساطات والشفاعات

الواقفة على كل باب وأمام كل حاجة ، فذهب يعتقد أنه أيضاً في طلب حقوقه وحاجاته من الله لا يمكن أن يظفر بها إلا إذا اتخذ لديه الوسطاء والشفعاء ، ذاهباً بهذه مذهب هذه — وثانيهما أن هذا الإنسان نفسه علم الاتكال وربى عليه مفروضاً في بدء الأمر في الله ، فصار هذا الإنسان اتكالياً من كل وجه ، مقدراً ومريداً أن يبلغ كل ما يشتهى من غير عمل ، تارة من الله ، وتارة من المجتمع الذي يعيش فيه أو من إنسان آخر مثله — ذاهباً في هذه مذهبه في تلك . وليس من المستبعد أن يكون مبدأ الوساطة المطلقة قائماً على مبدأ الاتكال المطلق ، أى إن الحامل للإنسان على اتخاذ الوسطاء وطلبه أغراضه من طريقهم ويعونهم هو تمكن مبدأ الاتكال من نفسه ومن عقيدته وتربيته . فإن محاولة هؤلاء الضارعين إلى الوسطاء أن يدركوا كل ما يؤملون منهم هي محاولة اتكالية خالصة . ولا يمكن أن توجد إلا في بيئة الاتكاليين السرفين في الاعتماد على الآخرين المسيئين للظن بأنفسهم وبقدرتها على أن تبلغهم ما يرجون . ولهذا فإنه لا يوجد أكسل ولا أعجز عن العمل وعن مصاولة الحياة من هذه المخلوقات العاكفة على أصنامها وأربابها ، سواء أكانت هذه الأرباب والأصنام أمواتاً أم أحياء ، وسواء أكانت حيوانات أم جمادات . وإذا أردنا أن نتقذ أمننا وننجو بها من كل ألوان هذا الضعف وجب علينا أن نتقذها من كل هذه المحاولات والاعتقادات العقيمة . فإن عوامل الضعف والسقوط في الأمم تتجاذب كالمادة نفسها . والعادة أن الضعف يولد ضعفاً آخر ، وأن الجهل يجر إلى جهل ، والخطأ يجذب خطأً آخر ، والمرض تكون إحدى مضاعفاته مرضاً ، وهكذا ، كما أن العكس أيضاً صحيح وأن القوة تولد قوة ، والعلم يجر إلى علم ، والصواب يجذب صواباً ، والصحة تهب صحة .

نعم ، التوكل جاء في أكثر سور القرآن مكرراً ، وجاءت الأديان كلها أمراً به ، واتفق المسلمون على أنه ركن من أركان دينهم . وليس الخلاف في حسنه ووجوبه ولكن في تفسيره ومعناه . فالجماهير من الخاصة والعامة أخذوه على النحو الذي قدمنا فكانت عاقبتهم وبيلة ... أما معناه على حسب رأينا وعلى حسب الدلائل المختلفة فهو ما سنذكره : إذا وكلت وكيلا لينوب عنك في أمر من أمورك ورضيت بوكالته رضاً مطلقاً واعتمدت عليه اعتماداً تاماً بلا شك منك ولا تردد في عمله ، فمعى هذا أنك معتقد بأن أعمال ذلك الوكيل وما سيقوم به من أسباب وما يضع من وسائل لإنجاح الغاية التي يراد لإنجاحها ، أعمال مؤدية إلى الغاية ، وأسباب موصلة إلى المسببات ، ووسائل مقربة إلى النتائج .

وكما ازدادت اعتقاداً بصحة أعماله وأسبابه ووسائله وبتوصيلها إلى أهدافها ازدادت عليه
توكلاً وبوكلته غبطة ، وازداد هو - أي وكيك - رضاً عنك وسروراً بإيمانك بوكالته ...
وأما إذا شككت في الوسائل والأسباب والأعمال التي يؤديها ، أو شككت في إيصالها إلى
المطلوب فإن توكلك عليه يضعف ، وإيمانك يهين ، وإنه هو حينئذ يغضب من شكك
ويساء من ريبك فيه وفيما يصنعه . فلا أنت حينئذ مؤمن به وبأنه الوكيل الناجح الجدير
بالاعتماد والثقة ، ولا هو راض عنك مسرور باعتقادك فيه ونظرك إليه ... وهكذا ننظر
إلى التوكل على الله ؛ فالتوكل الصحيح عليه هو أن تثق ثقة مطلقة في أن ما وضعه لعباده
من أسباب ووسائل لتبلغهم غاياتهم هي أسباب ووسائل مؤدية إلى مسيبتها وتناجها
بلا تخلف ... فالعلاج الصحيح الموافق من كل وجه للمرض - وهو سبب من الأسباب -
مؤد بلاريب إلى الشفاء ، ووضع البذر الصحيح السليم في التربة السليمة الصالحة لإنبات
ذلك البذر ، مؤد بلاريب إلى الإنبات ، ثم إلى الإثمار إذا ما سقى وحفظ من الآفات ،
واختلاط الذكورة القادرة على الإخصاب بالأنوثة القادرة كذلك مؤد إلى وجود الولد إلا أن
يوجد مانع من الموانع الطبيعية ، وسلوكك في الحياة سلوكاً سليماً من العثار والزلل مؤد بك
إلى النجاح إلا أن يكون هنالك عقبة طبيعية . وهكذا القول في كل ما يدعى أسباباً ووسائل .
فكلما ازدادت ثقة بهذه الأسباب التي جعلها الله كذلك ، ازدادت توكلاً عليه وثقة به بأعماله
وتصديقاً بأخباره حينما أخبر بأن الأسباب موصلة إلى غاياتها . وإذا شككت في الأسباب
والطرق التي جعلها الله ، وجوزت ألا توصل إلى شيء فقد نقص توكلك على الله وإيمانك
بنظامه وأصيب يقينك بأخباره وأضحيت من الشاكين غير المتوكلين . ولا شك أنك إذا
وكلت إلى مهندس تصمim منزل لك ، ووكلت إلى بناء القيام بذلك المنزل فقد آمنت بهما
واعتمدت على عملهما ، أما لو ارتبت فيهما وفيما يضعان من تصمim وهندسة ومن آلات رفع
وأدوات بناء لما وكلت إليهما أمر منزلك ولما أمكن أن تكون متوكلاً عليهما ، ولو جوزت
ألا يكون البيت صالحاً في النهاية للسكن وجوزت أن يخر بعد الفراغ منه - إما خطأ
في هندسته وتصمim وإما لضعف في مواد بنائه - لما عدت مؤمناً بهما ولا متوكلاً عليهما
ولا واكل إليهما الأمر وكالة صحيحة ... فكذلك لو ارتبت فيما وضعه الله من أسباب وما علم
من طرق ، وجوزت أن تتخلف النتيجة وألا تكون الأسباب موصلة ، لكنت من المرتابين
في الله وفي أعماله وفي كتبه وأنبيائه الذين جاءوا دالين على الأسباب وعلى ما لها من
قيمة ... فالتوكل الصحيح إذن هو أن تؤمن بنواميس هذا الوجود وأن تعتقد بأن

الخالق ، قد وضع له سنناً لا اضطراب فيها ، ولا محاباة ، وأنه قد ربط بين العلل والمعولات .

أما غير المتوكلين حقاً فهم أولئك الذين لا يشقون بسنة من سنن الله ، ولا بناموس من نواميسه ، ويجوزون عليهما الاختلال والاختلاف ، زاعمين أنه لا ضبط ولا حساب ولا حدود ولا رسوم يجريان عليها ولا يخرجان عنها... وإذن فهذه الأقوال التي حكيناها عن جماعات الصوفية والمتزهدين ليست بأقوال المتوكلين ، وإنما هي أقوال الفوضويين الذين مس عقولهم وأفكارهم الاضطراب المستحکم ، فظنوا الله كذلك فقدحوا فيه من حيث لا يشعرون ، وخرجوا من كل أبواب التوكل وهم يحسبون أنهم المتوكلون . وقد قال عليه السلام (من استرقى أو اكتوى فقد برىء من التوكل) رواه الترمذى . وعن عمران ابن حصين قال : قال رسول الله (يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب) قبل من هم يارسلو الله ؟ قال (الذين لا يكتنون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) رواه مسلم . وهذا لأن هذه الأمور ليست من الأسباب الطبيعية ، فكان الاعتماد عليها والرجوع إليها رجوعاً إلى غير أسباب واعتماداً على غير شيء ، فكان ذلك منافياً للتوكل ، لأن التوكل كما ذكرنا هو الإيمان بالأسباب .

لست أريد أن أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد يدخل فيها فيجعلها إن شاء أسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب ، أو مع الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب . فإن هذا هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها . ولو أنك رجوت من وكيك أن يدير وكالته على هذا النحو لكنت راجياً المحال والظلم ، ولو أنه أدارها كذلك لكان ملوماً ظلوماً... ولكن التوكل هو الإيمان بقدره الله وبعده وبمحكمته وبأخباره . فالإيمان بقدرته يوجب الإيمان بأن ما جعله سبباً لشيء فسيفي كذلك ولن تبطل سببته بحال ، ولن يوصل إلى ذلك الشيء شيء آخر غيره ، ويوجب الإيمان بأن ذلك الشيء الذي جعله مسبباً عنه لن يوصل إليه بدونه ؛ فوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد... والإيمان ببعده يوجب الإيمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر إلى الأشياء التي لاتتصل بذلك ، وبدون نظر إلى أديانهم ومذاهبهم . فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا . تلك هي العدالة الشاملة... والإيمان بمحكمته يوجب الإيمان بهذا أيضاً ، إذ لو لم يسر الأمر كذلك لوقع الناس في الفوضى الاعتقادية والعملية .

ولن ينجو بهم من هذه الفوضى إلا إيمانهم بالعدل المطلق وبالارتباط بين الأسباب والمسببات . وكذلك الإيمان بأخباره ، فإنه إذا أخبر أن شيئاً سبب لشيء وجب التصديق ووجب التكذيب لما يخالفه .

ولا شك أن الاعتقاد بأن الله يدخل في الأسباب ويدخل بينها وبين الآخذين بها : فيجعلها حيناً أسباباً لأنه راض عن الآخذ بها ، ويجعلها أحياناً أخرى غير أسباب لأنه غاضب على الآخذ بها ، ويجعلها في يد فلان أسباباً وفي يد فلان ليست أسباباً ، ويعطى أحياناً بها ويعطى أحياناً بدونها ، وقد يمنع أحياناً أخرى بها ، ويفقدها إنسان ويبلغ كل آماله ، ويأخذ بها إنسان آخر ، ثم لا يبلغ شيئاً من آماله ، وهكذا يتصرف نقضاً وبناء في نواميسه وخلائقه — على حسب رضاء وسخطه ووجه وكرهته وعلى حسب اختلاف الأديان والمذاهب ، وعلى حسب تغير مشيئته — نعم ، إن الاعتقاد بأن الله هكذا يصنع ينافي التوكل على كل احتمال . وإن حكومة تعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوى بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال ، بل تفرق بينهم وتفرق بين تناجح أسبابهم وأعمالهم ، لأنها تفرق بينهم في الحب والبغض ، لأن منهم الموافقين ومنهم المخالفين على حسب الأحزاب والمبادئ والأشياء الأخرى — إن حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات ، وهي حكومة لا يصح الاتكال عليها ولا الاعتماد على حكمها ولا الإيمان بحكمتها . فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة .

ومن الإرشادات النبوية اللطيفة الدالة على ما ذكرنا من معنى التوكل ما جاء أنه عليه السلام قضى بقضاء بين رجلين فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل فقال الرسول (ردوا على الرجل) فقال : (ما ذا قلت ؟) قال : قلت حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال عليه السلام (إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل) . وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله (إن الله يلوم على العجز فابذل من نفسك الجهد . فإن غلبت فقل توكلت على الله) . وعن أنس بن مالك قال جاء رجل إلى النبي وترك ناقته على باب المسجد فسأله الرسول عنها فقال أطلقها وتوكلت على الله فقال عليه السلام (اعقلها وتوكل) .

فقول الرجل : حسبي الله ونعم الوكيل بعد هزيمته في القضاء يوهم أنه يفهم من كون الله وكيلاً أنه يتصرف ويقضى على مقتضى أهواء الناس ومصالحهم وما يريدون لأنفسهم

لا على مقتضى الأسباب والنواميس التي وضعها وقضى بها على خلقه قضاء لا راد له . فأرشد
مرشد الإنسانية إلى خطئه ، وأفهمه أن معنى كونه تعالى وكلاماً أنه وضع الأسباب والمسببات
وربط بينها فلا انفكاك . فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الالتفات إلى ذلك والأخذ به
والاعتماد عليه . وليس هو التوهم أنه يفعل الحوارق والمعجزات محطاً الحواجز ، خارقاً
النواميس ، متجاوزاً الحدود التي حددها هو .

وقوله عليه السلام (فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل) معناه : إذا أعطيت
من نفسك المستطاع ثم غلبت وجب عليك أن تعلم أنك إنما غلبت بالحق وبالتوانين التي
لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون إليها . وإذا كان ذلك كذلك وجب عليك
الرضا بالحكم وإن كان غلباً وهزيمة لأنه عدل ، ووجب عليك الشاء على الحاكم القاضى
وإن كان قضاؤه عليك لا لك ، لأنه عادل غير محاب ، ولأنه عالم غير جاهل ، ووجب أن
تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، ثم وجب أن تخص نفسك باللوم إن كان ثم ما يدعو إلى
اللوم بعجز أو تقصير ... وهذا بمثابة قولك : نعم القاضى هذا — مشيراً إلى قاض قضى
عليك ولكنك تعرف أنه إنما قضى بالحق .

وأما قول صاحب الناقة أطلقتها وتوكلت فإنه يذهب في هذا القول وهذا العمل
إلى أن معنى التوكل هو الاستسلام وترك الحيلة والعقل ، مؤملاً أن يفعل الله له ما يشاء
وأن ينزل من أجله وأجل ناقته جبريل وميكائيل ، فيد أحدهما خطام ، وفي يد الآخر عقاب
ليحفظا له الناقة من الضياع والهرب . فرد عليه الرسول هذا قائلاً : اعقلها وتوكل ، مبيناً له
أن الاتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى إنجازها ، لأنها من خلق الله ومن
شرعه ، وشرع الله وخلقه خليقان بأن يؤديا إلى النجاح ، ومبيناً له أن من سلك الطريق
لزمه أن يطمئن وألا يخشى من وراء الأسباب جوراً وعدواناً ، كأن يهاجم ناقته المعقولة
روح من الأرواح أو عفريت من العفاريت أو شيء آخر خفي ، من الأشياء الأخرى الخفية
فيسرقها أو يضعها أو يحل عقابها كما يظن ضحايا الأرواح ، أو كأن يصنع الله بناقته بعض
الأشياء التي يزعمون أنه يصنعها — خروجاً على السنن والأسباب والعادات ، بقصد الامتحان
أو الابتلاء ، أو لأنه تعالى يحبه والمحبوب مقصود بالأذى والتحدى كما يزعمون ... وهذا
ما يشير إليه قوله (وتوكل) أى اطمئن وثق بالنتيجة إذا ما أخذت بالحيلة الكاملة .
وإذا ما فهم التوكل كهذا الذي ذكرنا كان قوة من أعظم القوى ، وكان مهمزاً

يسوق الإنسانية أعنف سوق إلى العمل وإلى إفراغ الجهد كله ، وكان قاطعاً لدابر الكسل والركود والاتكال ، انتظاراً لما وراء الأسباب ، ولما في الغيب مما لن يجيء ، ومما ليس في الحسبان ... والتوكل بهذا المعنى هو روح الإنسانية ومتى زایلها فقد حانت وفاتها . وهو بهذا المعنى أيضاً روح الأديان وروح الإسلام . ولهذا جاء ذكره في أكثر سور القرآن مأموراً به ومخبراً عنه . وقد كان بهذا المعنى إحدى القوى الكبرى التي قدمت للعرب مفاتيح البلدان ، وأخضعت لهم الممالك ، وقهرت بهم الأديان ، ووضعت في أيديهم مقاليد الدنيا — الدنيا التي كانت تعوزها هذه الروح ، والتي كانت إذ ذلك تتصور التوكل على نحو ما يتصوره المسلمون اليوم : الجمود والاستسلام ورجاء ما لا يكون .

الأسباب — أوهاام الناس فيها

كيف يجب أن تفهم

اقصد إلى تربة غنية بالعناصر اللازمة للإنبات والإماء وادفن فيها البذر الصحيح القوى في الوقت المناسب ، ثم اسقها بالماء وفاق أصول الرى العلمية الصحيحة ، ثم انظر كيف تنبت هذه التربة وكيف يحيى نباتها ! إنها سوف تنبت وإن نباتها سوف يخرج جيداً إلا أن تكون هناك آفة من الآفات الزراعية . فإذا لم تنبت أو لم يكن نباتها قوياً صحيحاً فلا ريب في وجود مانع إما في الأرض ، وإما في البذر ، وإما في طريقة الرى ، وإما في المناخ ، وإما في أحد الأشياء المعروفة ... أما أن تجتمع هذه الأمور وتتفى هذه الموانع ثم لا يخرج النبات — أو يخرج ولا يكون صحيحاً — فمحال .

ثم اقصد إلى أرض غير صالحة للإنبات وضع فيها بذراً ، أو صالحة للإنبات ثم لاتسقها بعد وضع البذر فيها مع امتناع الماء عنها ، أو إلى أرض صالحة للإنبات واسقها بالماء راجياً أن تنبت بدون أن يكون فيها البذر ، ثم انظر هل من الممكن أن تنبت هذه الأرض مهما دعوت ورجوت . وهنا يورد قول الله : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون . »

أو اقصد إلى كائن حى وامنع عنه الطعام والشراب أو امنع عنه الهواء أو أفسد فيه أحد الأعضاء التي لا تكون الحياة بدونها ، وانظر هل من المحتمل أن يبقى حياً ، أو وفر لهذا الكائن الحى ما يلزم له من طعام وشراب وهواء وادفع عنه الآفات وما تكون به الوفاة وانظر كيف يبقى حياً ... والنتيجة لهذا أنه إذا وجدت الأسباب وافية وجدت المسببات وإلا فلا . غير أنه يجب أن يلاحظ أن الأسباب نوعان سلبي وإيجابي ؛ فالإيجابي هو الذى به يحصل الشيء ويترتب عليه ، والسلبي هو الذى بزواله يحصل الشيء . فإذا توفرت أسباب أمر واندفعت موانعه حصل ذلك الأمر ، وإذا لم توجد أسبابه ووجدت موانعه ، أو وجدت أسبابه وموانعه ، أو لم توجد أسبابه ولا موانعه ، لم يقع ذلك الأمر وقد دل على هذا كل أصناف الدلائل المعروفة عند البشر — هذه مقدمة تقول بعدها :

أساء المسلمون الظن بالأسباب وأكثروا من القول في تقليل قيمتها وأثرها بل في تجريدها من كل قيمة وأثر، وملاؤا الكتب والنابر والنوادي والمجالس كتابه وخطابة بأن تحصيل السبب وافيًا ليس معناه تحصيل المطلوب، وأن فقده ليس معناه فقد المطلوب فقد تأخذ بأسباب شيء أحسن أخذ ثم لا تنال غرضك، وقد تنال كل ما ترجو بدون أن تأخذ بسبب واحد من أسباب ذلك. وقد زعموا أن القول بذلك قول بعظمة الله وبقدرته الشاملة وتصرفه المطلق! وقد قالوا في تعريف الأسباب: «إنها الذي لا يلزم من وجودها الوجود ولا يلزم من عدمها العدم» أي لا يلزم من وجود الأسباب وجود مسيبتها، ولا يلزم من عدمها — أي عدم الأسباب — العدم — أي عدم المسيبات. وقد صار الناس في هذه المسألة طائفتين: إحداهما أكبر من الأخرى ضلالاً: طائفة تنكر الأسباب والأخذ بها جملة، وتنكر أن يكون لها شيء من الأثر، وتطعن في دين من يأخذ بها ومن يراها شيئاً... وزعماء هذه الطائفة كثيرون منهم الغزالي — على تناقض فيه — ومنهم ابن عطاء الله والحارث بن أسد المحاسبي. قال الغزالي في كتاب منهاج العابدين: «فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق فاعلم أن الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه، إذ هو من فعل الله للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه. وأما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه إذ لا حاجة بالعبد إليه، وإنما حاجته إلى المضمون وهو من الله وفي ضمانه. وأما قوله «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» فالمراد به العلم والثواب... فإن قيل لكن لهذا الرزق المضمون أسباب هل يلزمنا طلبها! قيل لا يلزم ذلك إذ لا حاجة للعبد إليه إذ الله يفعل بسبب وبغير سبب، فمن أين يلزمنا طلب السبب! ثم إن الله قد ضمن لك ضماناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب قال: «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها».

ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه... فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه فلا يصح تكليفه... ثم إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقاً في الأكثر وتجردوا للعبادة، وبالإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله ولا عاصين له في ذلك. فتبين أن طلب الرزق وأسبابه ليس بأمر لازم للعبد... انتهى. وقد كرر هذه المعاني في الإحياء وجاء فيه: أصاب الربيع فالج فقيل له لو تداويت! فقال لقد هممت ولكن ذكرت عاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً، وكان فيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوي. وذكر عن الإمام أحمد أنه أشار بترك التداوي... وقد ساق هنا عدة أمور

تصرف عن التداوى : أحدها أن يكون المريض من المكاشفين فيكشف بأن أجله قد انتهى وأنه لا فائدة في العلاج والتداوى ! قال : وذلك كان عنده معلوماً تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن ، وتارة بكشف محقق !! ثم أورد أن سهلاً سئل عن الغذاء والقوت فقال لمن سأله : مالك وللجسد ؟ دع من تولاه أولاً يتولاه آخرأ . إذا دخلت عليه علة فرده إلى صانعه ! أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردت إلى صانعها حتى يصلحها !! وقال في فصل آخر من الإحياء : لقد أحسن الشاعر يوم أن قال :

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

قال وقال وهب : لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً واهتممت برزق لظننت أنى مشرك ! وقال الجنيد : الحيلة ترك الحيلة — لما سئل عن طلب الرزق والعمل له . قال والاهتمام بالرزق قبيح يؤدي الدين وهو بالعلماء أقبح .. وهذا النوع من الكلام كثير في الإحياء وغيره من كتب الغزالي وغير الغزالي .

أما ابن عطاء الله السكندري فقد ألف كتاباً في هذا سماه (التنوير في إسقاط التدبير) . وجملة هذا الكتاب هو ما جاء في أوله نقلاً عن الشاذلي : « إن كان ولا بد من التدبير فدبروا ألا تدبروا — وقوله — لا تختار من أمرك شيئاً واختار ألا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء ... » . وجاء في هذا الكتاب أن المدبر لنفسه مع الله يبنى والله يهدم ! ثم أورد قول الشاعر :

متى يبلغ البنيان يوماً تماماً إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

قال : والتدبير شجرة تسقى بسوء الظن بالله وتمرتها القطيعة عن الله ، إذ لو أحسن العبد الظن بالله لماتت شجرة التدبير من قلبه لا تقطع غذائها ! وإنما كان ثمرتها القطيعة عن الله لأن من دبر لنفسه فقد اكتفى بعقله ورضى بتدبيره واحتال على وجوده ، فعقوبته أن يحال عليه وأن يمنع واردات المنن أن تصل إليه ... وهكذا ساق الكتاب .

وجاء في كتاب عوارف المعارف للسهروردي : قال حكى عن بعضهم أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة فوقفت متعجباً منها متفكراً فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشى والرؤية ، فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض فخرج منها إناءان في أحدهما مسم وفي الآخر ماء صاف ، فأكلت وشربت ثم انشقت الأرض وغاب الإناءان . فلما رأى ذلك سقط من قلبه الاهتمام بالرزق ! قال :

فإذا أوقف الحق عبده في هذا المقام ، يزيل عن باطنه الاهتمام ، ويرى الدخول في التسكيب والتسبب رتبة العوام ، ويصير مسلوب الاختيار ، قال ومثل التستري عن علم الحال قال : هو ترك التدبير ! قال وقيل لأبي يزيد : ما نراك تشغل بكسب فمن أين معاشك ؟ فقال : مولاي يرزق الكلب والحنزير أترأه لا يرزق أبا يزيد — إلى ألوان كثيرة في الكتاب ... وقد قالوا في هذا المعنى قولهم المشهور :

لا تدبر لك أمراً فأولو التدبير هلكي
سلم الأمر تجردنا نحن أولى بك منك

ومن الإغراق في الإغراب أنهم لم يجعلوا الأسباب غير مجدية فحسب بل زعموا — وقد أبدعوا في هذا الزعم — أن الأخذ بالأسباب مما يبعد الحاجات ومما يحرم منها وأنشدوا في هذا :

تجد الرزق الذي تطلبه شبه الظل الذي يمشى معك
أنت لا تدركه مستعجلاً فإذا وليت عنه تبعك

— فأنت إذا أردت الرزق وجب عليك أن تهرب منه . أما إذا كنت لا تريده فما عليك إلا أن تطلبه وأن تأخذ بأسبابه ، فإنه حينئذ يعين في الهرب منك ، وإنك لن تدركه . وليس في الدنيا منطق أفسد ولا أعجب من هذا المنطق . ومن المؤلم أن أحد العلماء نسب هذا الشعر في كتاب له إلى المجاهد صلاح الدين الأيوبي .

أما الطائفة الأخرى فإنها لم تنكر الأسباب جملة ولكنها جردتها من التأثير وزعمت أنها مظاهر صورية يؤديها الإنسان ، لأن الله أمر بتأديتها ، أو لأن الطبيعة البشرية تطمئن بها وتستريح إليها ، لا لأنها تؤثر أو توصل . وهنا تكلموا كثيراً وتكلم علماء الكلام الذين يسمون علماء التوحيد أكثر ، وتركوا وراءهم ثروة هائلة ما أخلق وارثها بالفقر... وقد ذكروا في توجيه المسألة احتمالين كلاهما عندهم كفر : أحدهما الزعم أن الأشياء توصل إلى نتائجها بطبيعتها ، وأن الأسباب تؤدي إلى مسبباتها بقوتها . وثانيهما : الزعم أنها علل تترتب عليها العلولات . وكلا الأمرين عندهم كفر . فمن اعتقد بأن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها وأن الطعام والشراب يشبع ويروي كذلك ، وأن الكائنات الحية من طبيعتها النماء والحركة ، أو أن العمل والطلب والذكاء والعلم يوصل إلى النجاح ويعصم من النشل والإملاق ، أو اعتقد أن الأشياء المذكورة علل لما يراد منها ويطلب بها ،

هو كافر زنديق مشرك بالله على ما زعموا ! وقد نظموا هذا شعراً واستظهروه وأمروا
بإستظهاره ، فقالوا في إحدى النظومات الاعتقادية التي تحفظ وتدرس :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الله

والسألة إجماعية على حسب قول هذه العقيدة النظمية ... ورأيهم في هذا الموضوع
أن كل هذه الأشياء وكل ما يسمى في الدنيا وسيلة أو مؤثراً أو علة أو سبباً لا يعدو أن
يكون مقارناً لفعل الله فقط . فالآلة الحادة لا تقطع ولكن الله يقطع عند الإهواء بها
والنار لا تحرق ولكنه تعالى يحرق حين اتصالها بشيء يحترق ، وهكذا يقولون في كل
ما يتعاطاه الناس ويفعلونه . وقد أفسدوا على الناس بهذه الآراء حياتهم وأضاعوا عليهم
كل ثقة بالأسباب ، وصار العامة — بل والخاصة — لا يعتقدون على سبب أملا عقداً
حقيقاً . وقد أثرت هذه الأقوال في أعمال الناس تأثيراً وقع بهم على الفشل والحية .
ومن الملاحظ عليهم — وهذا أثر من آثار هذه الاعتقادات — أنهم لا يبنون أحكامهم
على الأشياء ولا يتوقعون حدوث النتائج بناء على قوة الأسباب وضعفها ، لأنها على حسب
ما قيل لهم وحسب ما اعتقدوا ، قليلة القيمة ضئيلة الأثر ... وقد كانت أحكامهم على هذه
الحرب وعلى نتائجها أحكاماً قائمة على أنهم لا يقيمون للأسباب وزناً ؛ فهؤلاء سينتصرون
وأولئك سينكسرون ، أحكاماً صارمة قاطعة يطلقونها . فإذا قلت لهم : كيف ، وأولئك
الذين جعلتم نصيبهم من الحرب الانكسار يملكون وسائل الانتصار ، وأولئك الذين
جعلتم حظهم منها النصر فاقدون لآلاته وأسبابه ، عجبا منك ونظروا إليك نظرهم إلى من
جعل مع الله شريكاً وحسبوك تتكلم بلسان الكافرين المارقين !! ومن الإغراب في الإغراب
أن كثيرين منهم قد زعموا أن نتيجة هذه الحرب قد تكون انتصار المسلمين ، وأن ثمرتها
قد تخص أفواه الشرقيين ! فإذا حاولت أن تقول لهم : وأين وسائل هذا عجبا منك
ومن وسائلك .

عقدة نفسية ، ومشكلة اجتماعية ، وشعب قست عليه الحياة بكل سلطانها يراد له
أن يخرج من قسوتها ، ولكن أشد جوانب هذه المشكلة أنه لا يدري ما سبيل الخروج
ولا ما طريقه ؛ صانع يراد له أن يتقن صناعته لأنها منحطة ولكن يمنع من إتقانها ومحاولة
إتقانها أنه لا يدري أن الاتقان سبب للنجاح وللشهرة وسعة الرزق ، وأن محاولة الاتقان
تؤدي إلى الإتقان — وزارع جاهل في زراعته يراد له أن يسمو بها بكل وسائل السمو ،

ولكن يقعد به عن هذا الغرض أنه لا يعرف ولا يعترف بأن المسببات منوطة بأسبابها — وتاجر صغير في تجارته هابطها يراد له أن يكون كبيراً وأن تكون هي كبيرة، ولكن يعجزه أنه لم يكن يدرى أن لذلك أسباباً... وهكذا القول في كل إنسان من هذه الأمة فما وجه النجاة والخلص؟ وجه هذا أن يُعَلِّمُوا وأن يَعْلَمُوا أن الله قد جعل الأسباب هي كل شيء وأنه لم يجعل شيئاً بدون سبب، وأن المرء يتوصل بالأسباب إلى كل أموره ولا يتوصل بغيرها إلى شيء. فهي مؤثرة حقيقة، بل موجودة حقيقة إيجاداً جعله الله في طبعها. وقد تقدم في صفة الرسول وصفة أبي بكر أنهما كانا يكسبان المعدوم أي يوجدانه وقد ذكر الله في كتابه الأسباب في مقام من مقامات التناء والإطراء حينما ذكر عبداً من عباده الصالحين الأقوياء وهو ذو القرنين فقال « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فاتبع سبباً... ». فامتق عليه بأن آتاه من كل شيء سبباً ثم امتق عليه مرة أخرى بأن اتبع هو سبباً، ثم مرة ومرة. وقد أعقب الإخبار عن التمكين له في الأرض بالإخبار عن إتيائه كل الأسباب. فكأنه تعالى أراد أن يعلمنا أن التمكين له في الأرض كان نتيجة طبيعية لتجمع الأسباب كلها له. فمن ملك الأسباب فقد ملك الدنيا، ومن عجز عنها عجز عن كل شيء. وقد شاهدنا أن لكل ضرب من ضروب السيادة أسباباً خاصة: فأسباب السيادة على الممالك البعيدة البحرية هي الأساطيل المائية، وأسباب السيادة على السماء هي الأساطيل الجوية، وأسباب السيادة على البر هي القوات البرية... وذو القرنين لم يستطع أن يفتح مشارق الأرض ومغاربها وأن يبلغ مغرب الشمس ومشرقها إلا بعد أن كانت لديه كل الوسائل لذلك. وقد أراد الله أن يدلنا بسياق هذه القصة على أن من طلب السيادة وليست لديه أسبابها فقد ذهب يطلب المحال، وطلب المحال مذموم مدحور. ولو لم ينزل الله على المسلمين سوى هذه الآية « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً » وعقلوها لكانت كافية وقاضية على كل ما كتبه الصوفية العطلون للأسباب وللقوى. وما أروع قوله في هذه القصة « فاتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس... » الآيات، ثم قوله « ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ مطلع الشمس » الآية، ثم قوله « ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين... » الآيات. فإن في هذا التدليل الصريح على أن اتباع الأسباب هو الذي أبلغه ما بلغ وهو الذي وصله بأطراف الدنيا. فأين ما يزعمه المخدلون؟. وقد أراد الله أن يبين عن حالة قوم سقطوا على الهلاك وققدوا كل أمل في النجاة فقال « وتقطعت بهم الأسباب ». وكأن الآية تدل

على أن من تقطعت به الأسباب وفاتته فهو الهالك لا محالة ، والعكس كذلك . وما جاء عن الله ولا عن رسوله حرف واحد في ذم الأسباب أو ذم الآخذين بها ، بل كان التاريخ الإسلامي قبل أن يرتديه هؤلاء قائماً على الاعتراف بطبائع الأشياء ، ولم ينكر طبيعة من طبائعها .

ومن أعظم ما جعلهم يسيئون الظن بالأسباب شيان : أحدهما أنهم حسبوا الإيمان بقدرة الله المطلقة في تصرفها وعملها ينافي الإيمان بالأسباب ، وحسبوا أنهم إذا آمنوا بالسبب فقد قيدوا الله به وأزموه بالأخراج عنه والأعمال بدونه ! والله عندهم غير مقيد في فعل من أفعاله بل هو يفعل ما يشاء بلا قيد ولا سبب ولا إزماء .

وثانيهما أنهم وجدوا المسببات كثيراً ما تتخلف عن أسبابها ، ووجدوا أن الإنسان قد يؤدي السبب على الوجه الأوفى الأكل في ما يبدو ثم لا يصل به ذلك إلى غرض منشود ، كما وجدوا أن العكس أيضاً صحيح ، أي وجدوا أن المرء قد ينال حاجته وغرضه بدون سبب ... هذان الأمران هما من أعظم ما صار بالقوم هذا الصير في حكمهم على الأسباب وفي تراخيهم عند الأخذ بها وفي شكهم فيها — ذلك الحكم والتراخي والشك الذي جعلهم عاجزين عن الإتيان بها صحيحة سليمة وافية موصلة إلى مسبباتها ... ومن أخذ بالسبب شاكاً فيه متراخياً في أخذه فلن ينفعه النفع المطلوب الحاسم ، لأنه لن يتقنه ولن يثابر ويصابر عليه ، ولن يبذل فيه . بل لا بد من الإيمان به مع الإصرار على هذا الإيمان وإلا فلا نجاح ، ولا بد من الإتيان والثابرة والمصابرة على العمل وإلا فلا أمل في فوز حقيق ، ولا بد من قلب الرأي على كل وجوهه بحثاً عما يمكن أن يكون قد دق من خفي الأسباب وضروب الوسائل .

وليس من ريب في أن كثيرين يسقطون دون أغراضهم لأنهم لا يجربون كل الأسباب والوسائل ، بل إنهم إذا فشلوا عند تجربة أول سبب تجربة أولى ألقوا سلاحهم ولم ينهضوا لمقاومة ولا لهجوم ، ولصقوا بالتراب والنل والمسكنة ، حاسبين أنه لم يبق لهم مكان في هذا الوجود ، وذهبوا ليكون أقدارهم وحظوظهم ، ويلعنون أيامهم وأقوامهم .. ولا شك أن نجاحهم كان مضموناً ومحققاً لو أنهم أعادوا الكرة ، وأصرروا على الوصول إلى الغاية ، وجددوا في السبب والوسيلة أو كرروها . ولا ريب أن من أخطأ الهدف في الرمية الأولى سيصيبه إذا كرر الرميات وعاودها مرات . ومن العلوم أن بلوغ قسبة

السبق لا يكون في الوثبة أو الخطوة الأولى ، وإنما يكون في تكرير الخطوات والوثبات ، وفي معاودة شد الأعصاب والعضلات ... وهذان الأمران اللذان جملا القوم لا يتقنون بالسبب كما يجب أمران يلزم إعادة النظر فيهما .

أما الإيمان بقدره الله المطلقة من القيود والحدود فإنه يقتضى الإيمان بالسبب لا الكفر به ، لأن الإيمان بالسبب هو في الواقع إيمان بمسببه وصاحبه ، والكفر به كفر به ... والشاكون في أسباب الله — وكل ما في هذى الدنيا هو من أسباب الله — هم في الحقيقة شاكون في الله وفي عمله ، فإن هذا الشك معناه الشك في قدرته تعالى على أن يجعلها أسباباً موصلة مبلغة ... وكلنا نؤمن بأن امتثال أوامر الله الشرعية سبب في دخول الجنة وفي نيل رضا الله ، وأنه سبب لا يتخلف عنه مسببه . ولم تقل غير ذلك لثلاث تقييد الله وتقييد تصرفه وعمله وقوته ... والتقييد بالكمال والخير والحكمة والعدل ليس قيدياً إلا في لغة هؤلاء ، وإن كان قيدياً فليس ذماً وإنما هو غاية المدح ... أما تخلف المسببات عن الأسباب فهذا ما لا يكون أبداً ، ولكن قوما يبذلون أسباباً ضعيفة ناقصة فلا يصلون إلى أهدافهم ، فيتهمون الأسباب ، والواقع أن الذنب ذنبهم . فكل سبب لا يوصل إلى الغرض المقصود به هو سبب ناقص ضعيف ، وإذا تم السبب وجد المسبب لا محالة . ولا يقع شيء في هذه الدنيا إلا إذا اجتمعت أسبابه ، وإذا اجتمعت أسبابه فلا بد من وقوعه على كل حال . ولا يفلت من هذا القانون أمر من الأمور حتى الموت نفسه فهو إنما يقع حيث تجتمع الأسباب — وهى إما الأمراض ، وإما عجز الخلايا بسبب الشيخوخة ، وإما عجز القلب عن تنظيم نبضه وحركته لآفة فيه ، أو لأمر داهم مفاجئ معجز .

أما الآيات التى تنص على آجال الأفراد والأمم وأنهم لا يستأخرون عنها ساعة واحدة ولا يتقدمونها ، فهى كذلك أيضاً ، لأن حلول الأجل معناه اجتماع الأسباب ، واجتماع الأسباب معناه حلول الأجل . فمن صدمته سيارة صدمة قاتلة فقد حل أجله ، وهى لم تصدمه لأن أجله حل ، ولكن أجله حل لأنها صدمته ، وهكذا يقال فى كل شيء فأجال الأفراد وآجال الأمم إنما تنتهى عندما تعجز عن البقاء وعن الحياة عجزاً ذاتياً أى من داخل ذاتها لا من خارجها ، ولكنها لا تعجز لأنه وجب أن تنتهى كما يظن كثيرون من الناس .

وتغلط طوائف كثيرة إذا تكلمت فى سقوط الأمم وفى نهوضها ، إذ ترى أن أمة

تسقط وأخرى تنهض لا لأسباب تقضى بالسقوط والنهوض ، بل لأن الواجب أن تتناوب
الأمم السلطان ، وتتداول الأيام ، وتتقاسم الحظوظ ... وهذا بمثابة الاعتقاد أن آثارها
ومعلولات تحدث بدون علل ومؤثرات ...

وآخرون يقولون : إن الأمم تشيخ كما تشيخ الأفراد — يعنون بهذا أن الأمة
التي تنهض لا بد أن تسقط ، أو لا يقال : كيف سقطت إذا سقطت ، لأن سقوطها بعد
نهوضها ، وشيخوختها بعد شبابها أمران طبيعيان لا يسأل عن أسباب حدوثهما ... وإذن
فلا بد أن تسقط الأمة التي نهضت وأن تشيخ معها استمسكت بأسباب نهوضها وشبابها ،
كما أن الفرد لا بد له من الشيخوخة ومن الموت معها حاول المحافظة على حياته وشبابه ...
وكان الواجب على هؤلاء أن يتموا تمثيلهم بأن يقولوا : وإن الأمة إذا شاخت ماتت ،
وإذا ماتت لم تبعث إلى يوم الدين ، كما هو شأن الأفراد ، بل كان المنطق يقضى عليهم بأن
يزعموا أن الإنسانية كلها تشيخ ثم تموت ثم لا تشرحق يوم النشور . وكل هذى أو هام
ليست في سبيل من العلم .

ولا توجد سنة تقضى بشيخوخة الأمم لامحالة . ولكنها تشيخ — أو تضعف وتنحل
حينما تتخلى عن أسباب شبابها وعظمتها . ولو أنها بقيت سائرة في الطريق التي أفضت بها
إلى الشباب وإلى العظمة لظلت أبداً عظيمة شابة .

وجاء في مطلع القصيدة المشهورة في بكاء الأندلس :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

وفي قول آخر : (توقع زوالاً إذا قيل تم) . وهذا كله إنكار للأسباب وقول
بأن الحوادث تقع بدون أن تكون لها علل ! . فإن تمام الشيء ليس سبباً في نقصانه ،
ولا علة من علل زواله ، فكيف تتوقع الزوال أو النقصان حين التمام ؟ بل إن أسباب
الزوال والنقصان هي غير أسباب التمام ، وهي مناقضة لها ، وما كان سبباً لأحدها لا يمكن
أن يكون سبباً للآخر ، فإذا ما أخذ شيء من الأشياء بأسباب الكمال فكمثل ثم لم يحد
عن هذه الأسباب ، فلن تتوقع له زوالاً ولا نقصاناً إلا على رأى هؤلاء الهائمين في
فيافي الأغاليط التاريخية الكبرى ! فعند هؤلاء أن كل الأمم التاريخية العظيمة التي نهضت
ثم سقطت لا يجب أن يلتمس لسقوطها علل ذاتية ! وإنما النهوض نفسه هو السبب في
السقوط ، ولأن الله يتعابث بهذا العالم وبأهمه دائماً ؛ فإذا علت أمة أسقطها بنفس علوها

وبأسباب علوها ، لأنه تعالى قوى ، والقوى من شأنه الاستبداد والتصرف الأخرق المتعابث ، ولأنه غير عاجز ، والعاجز هو الذى لا يستبد ، بل يدع الأمور تسير في سبيلها ! وقد نظموا هذه المعانى شعراً صاروا يتناقلونه على الألسنة عصوراً غير قصيرة :

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وقد ذكروا أن هذا البيت هو أحد أسباب الإيقاع بالبرامكة لأن هارون الرشيد أقدم على الفتك بهم — لما أن سمع هذا الشعر — ليثبت أنه مستبد ، وليثبت أنه غير عاجز ، إذ العاجز هو من لا يستبد — أى إنه أخذهم بغير أسباب على قول هؤلاء الرواة إلا إذا كان مجرد الاستبداد سبباً من الأسباب ... والعرب في الأندلس وغيرها لم ينحلوا ولم تهو شمسهم من أققها لأسباب سوى أنهم قد تموا وكموا في ضروب حياتهم ومجدهم ، والتمام سبب للنقصان والزوال — والإنجليز وغيرهم من الشعوب الراسخة الأصول والفروع يجب أن يسقطوا ويذلووا ، لأنهم قد تموا وأخذوا حظهم من السلطان والسيادة ، ولكل شيء إذا ماتم نقصان !! وقد قال مرة واحد من هؤلاء الذين يتصورون الله بهذه الصفات والأخلاق : إن لم تهزم بريطانيا في هذه الحرب — والإشارة إلى الحرب المنتهية قريباً — كفرت بالله !! قليل له . ولماذا ؟ قال لأن الله يقول « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » فيجب أن تخرج الأيام من أيدي الإنجليز إلى غيرهم ، ولأن الله يجب أن يسقطها لأنها قد سادت طويلاً وظامت كثيراً ! ولكنها قد خرجت — على رغمتنا — منتصرة . وما أظن صاحبنا قد كفر بالله ! وما به حاجة إلى هذا الكفر ، لأنه لم يؤمن بالله ، وإنما آمن بقوة وهمية تحكم العالم بالجبروت والجبرية ! وهذه القوة ليست هي الله العادل الحكيم الرحيم ، الذى أخص أوصافه الحب والإحسان ، لا البغض والعدوان . ومن تصور إلهه كذلك فلا محالة من أن تفسد أخلاقه وطباعه وتصوره للعدل والحياة وكل شيء !!

وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة — وهى فكرة إنكار الأسباب ، أو التهوين من شأنها ، أو الاعتقاد بأن الله يفعل بدونها أو يدخل بينها وبين مسيبتها ويحول بينها وبين نهاياتها . وابن خلدون نفسه لم يستطع أن يخلص من كل هذه الأغايط التقليدية حينما نهض لبحث هذه المسائل ودراستها .

ويحسب بعض الناس — وقد تورعنا عن أن نقول : كلهم — أن أمثال قول الله :

«أينا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة» يدل على ضعف أمر الأسباب ، وعلى أن الأخذ بالحيلة والتحصن من أسباب الموت لا يفيد شيئاً ولا يرد آتياً ، لأن الله قد حكم بأن الناس كلهم ستدركهم المنيا — مقدره لهم ومقدرين — لا محالة ولو لزموا البيوت المشيدة ... والواقع أن الآية تعطي عكس ما فهم الناس منها لأنها قضت بأن الناس كلهم مقضى عليهم بالموت مهما حاولوا الفرار منه ، وهذا صحيح على حسب المعروف المشهود ، ولكنها لم تنف أن البقاء في البروج المشيدة يطيل الأعمار ويمد من أسباب الحياة ، وأن الذي يذهب إلى الميدان قد يهلك ويقتل ، وأن الذي يهاب ويلزم منزله قد يسلم وينجو . وهذه الآية في معنى قول القائل :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جباناً

والقصد من هذا أن الحر الكريم يجب أن يخرج إلى الموت ، ويشب إلى الأخطار في أماكنها ، لأن الدين أو الوطنية أو الحرية أو غير ذلك من معاني وفضائل الإنسانية توجب هذا الخروج والثوب . ولا يصح أن يفر ويخبئ ويعيش ذليلاً مظلوماً مهيناً ، فإن ذلك لن يهبه الخلود . فالموت في مواطن العز والكرامة ألد في أفواه الأحرار من الحياة الطويلة المذلة إلا عند من مرضت فيهم معاني العظمة وغرائز الإباء لطول الإلْف وكثرة المقارفة .

أما قوله تعالى : « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ... » فالمعنى فيه أن هنالك أقواماً من أشراف العرب يوجب عليهم شرفهم ومكانهم من قومهم وفي قومهم ، وتوجب عليهم سيادتهم ذات الحقوق المعروفة المرعية ، وظروفهم القاهرة الحاكمة أن يخرجوا للقتال على أى حال ! حتى ولو كان في هذا الخروج الهلاك المحقق ، إذا ما أهاب بهم داعي المجد — وإن لم يدعهم الرسول وأصحابه إلى ذلك ، كما هو الشأن في كل الأمم ، وكما هو الشأن في الجاهلية وفي الإسلام ... وحكم هذى الظروف عليهم ، المحفوفة بالأخطاب وأسباب الهلاك هو معنى كتب القتل عليهم ، ومعنى بروزهم إلى مضاجعهم ! وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تنزّم قوماً معينين بالخروج ، لأنهم مرادون للقتل لأغراض لا تعقل ! ولنُعدّ فهمنا للأشياء كلها من جديد . -

ومما يجب فهمه أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤمنون بالأسباب في هذه المسألة إيماناً عميقاً ، وقد حكى القرآن عنهم قولهم : « يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا

ها هنا « ، يعنون أن الأمر لو كان أمرهم — أو لو كانوا مطاعين — لنهوا عن الخروج إلى القتال ، ولما عرضوا أنفسهم على الموت ، ولنجوا حينئذ ، لأن القتل إنما يقع بالتعرض له ولأسبابه . وفي آية أخرى : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ، وفي آية أخرى : « الذين قالوا لإخوانهم — وقعدوا — لو أطاعونا ما قتلوا » . فهم إذن كانوا يؤمنون بأسباب الموت والقتل وبأسباب النجاة ، إيماناً برهانه طول التجربة وصدق الاستقراء ؛ فالذين يضربون في وجوه الأرض وعلى متونها ، والذين يخرجون غزاة مقاتلين يموتون ويقتلون بأسبابهم وبمساعيمهم ، والذين يقعدون ويحيدون عن مساقط الردى ينجون ويسلمون . فالسألة — نجاة وهلاكاً — مقدره بأسبابها ووسائلها كسائر مسائل الحياة . ولم يترد العرب في الهوة التي تردى بها الآخرون والمتأخرون ، من الصوفية وسواهم ، بمن باءوا بالفشل ، وهوئُموا بالجهالة طويلاً ، فزعموا أن الموت والحياة ليسا بأسبابهما ، وإنما هما مقدران بأوقات مضرورية محدودة ، بحيث لا يفيد الفرار ولا يضر الإقدام في سلامة ولا في هلاك ! ولهذا فقد نقل شيوخ هؤلاء عن آخرين منهم بأنهم كانوا ينامون بين الصفيين المتقاتلين والسهام والنبال تتساقط من هاهنا وهاهنا — إمعاناً منهم في إنكار الأسباب وفي أن الحيطه والحذر لا يجديان ! وقد سبق أن قلنا : إن الأمة التي لا تؤمن بالأسباب إيماناً صحيحاً لا يمكن أن تكون أمة عزيزة ولا عاملة ولا منتجة . والعرب في جاهليتهم استطاعوا أن يساحلوا تجاه تلك الجرائم الاعتقادية المنتشرة التي كان يموج بها الشرق في ذلك العهد ، فلم يجدوا من أجل هذا — حيناً وجهوا التوجيه السليم — ما يمنعهم من أن يكونوا أقوى الأمم وأعملها .

وحقاً إن طبيعة بلاد العرب لتوحى بالإيمان بالسببية الصارمة القاسية ، فليس فيها شيء يؤخذ بالمجان ولا بالسهولة واليسر ، بل كل ما هناك لا يستطيع نياله إلا بالأعمال العنيفة المرهقة ، وبالأسباب القوية المحكمة — فلا مجان ولا سهل ، ولا عطاء بدون ثمن . فليست هنالك أنهار ، ولا أمطار غزيرة ، ولا غابات ، ولا مراعي لها قيمة كبرى ، ولا شيء من هذه الأشياء التي يأخذها كثير من الشعوب بالمجانبة — ثم ليست ثمة مناطق زلازل ، ولا براكين ، ولا مفاجآت طبيعية تفضي إلى الإيمان عند بعض الناس بأن وراء الأسباب والظواهر قوى خفية باطشة ، تسيطر عليها وتقف في سبيلها .

إن العربي هناك ليرى الريح الملقحة بالبخار تهب على سماءه الصافية ، فتعتقد السحابة

الثقيلة المتراكمة ، فلا تلبث أن تنهاوى وابلًا مدراراً على أرضه الجديدة اليابسة العابسة ، فتوجد الحياة ويوجد الأحياء ، ثم يكر الجذب والشمس المحرقة على تلك الأرض الخضراء العشوشبة ، فإذا كل شيء يابس عابس هامد ! وهكذا تكرر العمليات أمام بصره وبصيرته — ما بقي — بلا اختلال ولا اختلاف ، وبلا تدخل قوة ولا قوى في هذا ! فأين ما لا سبب له ! وأين السبب بدون مسببه !! وهكذا يرى ويعلم كل شيء حوله مضبوطاً محكوماً بهذه السنة وبالأسباب الآلية ، ضبطاً لا أمل في اضطرابه ولا في تغييره : هكذا الشمس طالعة غاربة ، وهكذا القمر زائداً وناقصاً ، وهكذا الكواكب والنجوم كلها ، وهكذا الحرارة والبرودة ، والصيف والشتاء ، وهكذا كل ما يشاهد ويعلم . إن له لمئات الآلهة العزيزة ، الصغيرة والكبيرة ، وإن له لعشرات الأرباب المطيفة بالكعبة ، المحتضنة لبيته المقدس ، وإنه طالما دعا هذه الآلهة والأرباب ، وطالما تمنى عليها أن تصير بلاده الجديبية الحبيبية المقدسة — موطن الآلهة المقدسين — مثل السهول التي يعرفها ، والتي رآها في الشام والعراق ومصر — تلك التي تفيض بالنبأ والماء والبركات والخيرات ، وبالأثمار والجداول ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وإنه يعلم أنه ليس في الإمكان أن تفعله ، لأن كل شيء مضبوط بأسبابه محكوم بسننه . إنه ليدرك أن هذه الآلهة يعجبها ويرضها أن يكون واديهما ووادي عبادها العاكفين عليها لا يقل عن غوطة دمشق وسهول حلب ووادي النيل وضاف دجلة والفرات بركة وفيثا وزروعا وخيرات ، ولكن ذلك لم يحصل ، لأنه لا يمكن أن يحصل ، وليس في قدرة الآلهة مجتمعة متعاونة أن تصنعه .

إن أحد هؤلاء ليخرج في جمرة الصيف ، فتلفحه الشمس ، ويأكل كبده الظمأ ، فتستبد به الآمال والأمانى ، فيأمل أن ينشق ما تحت قدميه عن نهر جار ، أو أن تنعقد فوق رأسه سحابة لتنصب في فمه المحرور اللاهث ، فيذهب يطوف بآماله هذه — في تلك الساعة القاتلة — على جميع آلهته وأربابه ، راجياً منها أن تصنع شيئاً يبقى عليه حياته ، ويذهب عنه بعدابه ! ولكن أين هي ، وأين هو مما يريد ويرجو ! إنه الحال الذي لا يكون ! فأين الخروج إذن عن الأسباب ، وأين مالا أسباب له ! ؟

إذن فكل شيء قائم على أسبابه الطبيعية وعلله الحاكمة المحكومة ، وإذن لا بد من الإيمان بالأسباب ، وإذن فالعربي تلهمه طبيعة بلاده الرتيبة الدائمة هذه الحقيقة . ومن هنا كانت قریش ومن جاورها أمة سببية ، وكانت من أجل هذا أمة عاملة منتجة غالباً

في وقت من الأوقات ! فلما قلت ثقها بالسببية ، وضعف إيمانها بالسبب صار أبناؤها وورثتها ينتظرون الحجاج ليهبهم الحياة والبقاء قطرات مرة المذاق !

ويجب أن يعلم أن القرآن يوم أن حكى هذه الآراء والأقوال عن العرب لم يرد بحكايتها الإنكار والرد ، وإنما أراد أن ينكر عليهم النتيجة التي أرادوا أن يخرجوا بها منها . فهم — لأنهم كانوا غير مؤمنين بالرسول ولا بدعوته — كانوا يعملون على تخذيل من يريدون القتال معه ، فيقولون إن هؤلاء الذين يخرجون معه يهلكون أنفسهم بخروجهم ، ولو أنهم أطاعونا فلم يخرجوا ولم يقاتلوا ولزموا منازلهم ، لما ماتوا ولما قتلوا ، وهم — طبعاً — يعنون القتل والموت الناجزين . وعلى هذا فمن الجنون بيع النفوس ببيع السماح بدون فائدة ترجى ، وأية فائدة لهم في ذلك ما داموا غير مؤمنين ؟ فرد عليهم القرآن ردوداً مختلفة ، منها قوله : « ولئن قتلتهم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » يريد أنه لا يصح أن يمتنع العاقل عن التضحية مع عظم الجزاء ، فإن الدنيا كلها ، وأمور الناس كلهم قائمة على التضحية . ومنها أن الموت لا بد منه ، وإذا كان ذلك كذلك فمن الجنون والعين الفاضح أن يعيش المرء ذليلاً مهيناً ، وأن يرفض الجزاء المعروض السخي ، إبقاء على شيء لن يبقى ، واستمساكاً بأمر لا يمكن الاستمساك به تخليداً . ومنها أن الجبانة والخوف والفرار من الأعداء قد يكون من أسباب الهلاك ، وأن الإقدام ومنازلة الحمام والزحف إلى الأخطار والأهوال قد يكون من وسائل النجاة . وهذا معروف ومشاهد ، فإن من يستسلم ويفر من كل هول يعترض طريقه يركبه الأعداء ويلهج بتحديه الزمن ، ومن يناضل ويقاوم يهرب فيسلم ويعز جانبه . وهكذا كان شأن القرآن معهم ، يسلم لهم الدعوى أحياناً — إذا كانت صادقة — ولكنه يكر عليهم وعليها برد النتيجة التي كانوا يرمون إليها — إذا كانت باطلة . وهم ما كانوا يجهلون هذه الأمور ، بل هي لديهم من المقدمات المسلمة ، ولكنهم إنما كانوا يشاغبون ، لأنهم يقصدون التخذيل والتعويق ، لأنهم كانوا غير مؤمنين برسولهم ... وفهم كل شيء على وجهه الصحيح ضروري ، وإلا فلن تبلغ هذه الحياة التي نرثها إليها بعيون حسرى كليلية .

يصادفك ، وأنت تسير في الأحياء الوطنية . الحين بعد الأحيان ، هذان البيتان من الشعر الركيك ، مكتوبين على المتاجر والمصانع :

ملك الملوك إذا وهب	لا تسألن عن السبب
فأله يعطى من يشاء	فقف على حد الأدب

وهذا تعبير بليغ صادق عن الروح الشعبية العامة ؛ وكلهم يشتركون في هذه العقيدة ، من كتبوا ذلك على متاجرهم ومصانعهم ومن لم يكتبوه . فالله إذا أعطى أحداً مالا أو جاهاً أو مجدداً أو نجاحاً لم يصح السؤال عن تلك الهبات ولا عن أسبابها ، لأن الله — وهو ملك الملوك — لا يعطى على السبب ولا على قدر السبب ، وإنما يعطى على المشيئة وعلى قدر المشيئة وقدر صاحبها ! فالسؤال عن ذلك إذن خروج على الأدب وضلال في جانب الله ، لأنه اعتقاد بأنه تعالى إنما يهب جزاء ومكافأة ، وبقيود وحدود وأسباب ، لا مشيئة وقدرة وإرادة وإطلاقاً ! وهذا اتهام لئذاته وصفاته وأفعاله ! والأدب هو الاعتقاد بأن الأسباب لا شأن لها في نجاح ولا في إخفاق ؛ فإذا رأينا نجاحاً لم يحز الاعتقاد بأن لنجاحه أسباباً وموازين وعللاً تدرس وتفهم وتحتذى ويقاس عليها ، وإذا وجدنا محققاً فكذلك لم يحز التعليل والتسبيب !! وهذا من شر ما تبتلى الأفراد والجماعات بالإيمان به . ولا ريب في أن هذين البيتين اللذين يحتلان وجوه المتاجر والمصانع شر — في دلالتها وتبجحتهما — من مئات الجيوش الغازية التي تحتل البلاد اغتصاباً واقتداراً . ولا يستطيع أن يدرك هذا إدراكاً صحيحاً إلا من علم أن أساس كل شيء في هذه الحياة هو الفكرة وأن من سمت فكرته سمت حياته وأعماله ، وأن من ضلت أفكاره وهبطت وانحرفت فلن يسمو في شيء .

أماننا لا وراونا

لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه .

[زعموه حديثاً نبوياً]

أمس خير من اليوم ، واليوم خير من غد ، وهكذا حتى قيام الساعة .

[زعموه من كلام ابن مسعود]

لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الناس إلا شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق .

[زعموه أيضاً حديثاً]

كل شيء ينقص إلا الشر فإنه يزيد .

[حديث أيضاً على ما زعموا]

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في اتباع من خلف

[كتب العقائد المقررة]

من الحقائق التي ترفع اليوم على متناول النزاع أن هذا العالم كله — حيوانه ونباته وجماده — لم يزل دارجاً في طريق التطور ، منتقلاً من طور إلى طور أفضل ومن حالة إلى حالة هي أدنى إلى الكمال بطريقة منظمة دائمة لا يعرفها توقف . وعند العلماء أن شيئاً من هذا العالم لم يوجد بحالة ثابتة دائمة ، ولا بحالة فيها الاستعداد للرجوع إلى الوراء ولا للانتقال من الكمال إلى النقص ، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هذا الوجود قد وجد وجوداً بدائياً ، وأنه قد ظل ينتقل من وجود إلى وجود ومن شكل إلى شكل وأنه قد ظل في عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الأعوام حتى بلغ الحالة التي تصلح لوجود الحياة فيه ... علم الكون — أول ما علم — في حالة غازية منتشرة في الفضاء انتشاراً متناسباً متسقاً مثل أن تبخر مقداراً من الماء في غرفة تساوى فيها ضغط الهواء ، أو مثل أن تنثر مقداراً من الدقائق في مكان ثراً متساوياً . وقد بقي كذلك ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر أن يفلت من هذه الحالة الغازية أو السديمية إلى حالة التكتل والتقلص ، فأصبح كتلة واحدة هائلة ، أو ذرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع . فبقى على هذه الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين ، وهو يتفاعل

في حقيقته تفاعلاً مستمراً استعداداً للانتقال إلى وجود آخر أفضل وأكمل . وبعد التفاعل اللازم المقدور انفجر هذا الكون المحشو المحشود في ذرته انفجاراً فجائياً في الظاهر مؤقتاً معلوماً مقدوراً في الباطن ، مثل ما تفجر قبلة مملوءة بالمواد المتفجرة . فتطارت منه الدقائق والذرات تطيراً قائماً على الحساب الدقيق ، تفرق في الفضاء كتلاهائلة غازية فبقيت هذه الكتل المتفرقة تتفاعل وتتجمع وتكتل ملايين السنين أو ملايين الملايين ، حتى أصبحت نجوماً وشموساً ، ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه وبالاستعداد الجبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع ، ليكون من كل شمس من هذه الشموس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التي يدعونها اليوم المجموعات الشمسية أو المجموعات النجمية التي إحداها مجموعتنا الشمسية التي نحن إحدى رعاياها ... وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضاً وتنفصل عنها الأتباع وتلد الأتباع لتكون — أي الأتباع — من حولها كما كانت هي من حول شمسها . وهذه العمليات الانفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والانقسامات بين الأحياء التي يكون الغرض منها إيجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعاً لسنة هذا الوجود . والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة والنواميس التي تحكمها — أي تحكم الكائنات الحية — إنما ورثتها من أصلها الذي هو المادة الجامدة . فلا غرابة إذن في كون القوانين واحدة متفقة في الحى وفي الجماد .

وبعد هذا التوزع وهذه الانقسامات في ذرة الكون الأولى الكبرى لم يكن شيء منه صالحاً للحياة أو للاستقرار ، بل لقد قدر العلماء عمر الشمس قبل أن توجد الحياة في الأرض — وهي منفصلة عنها — بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وقدروا عمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة ، وأن الحياة لم توجد فيها إلا من نحو ثلاثمائة مليون سنة ، أي إنها ظلت حوالي ألف وسبعمائة مليون سنة تهيأ لتكون صالحة لظهور الحياة عليها وقدروا عمر الإنسان في الأرض بثلاثمائة ألف سنة — وهذا إحدى التقديرات كما هو معلوم ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلاثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل أن تصلح لوجود حياة الإنسان الذي هو أرقى الموجودات فيها ، أي إنها تهيأت لوجود حياة الكائنات الدنيا فيها قبل أن تهيأ لوجود حياة الإنسان المحدود كائناً راقياً . وما من شيء في هذا الوجود وصل إلى حالته التي هو عليها إلا بعد أن سلك هذه السبيل — سبيل التطور المنظم البطيء ؛ فما جاءت الشموس ولا السيارات ولا الأتباع ولا النجمات

ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق ... وهذه الأرض التي نعيش عليها ونجد فيها كل ما نحتاجه وكل ما يلزم لحياتنا ولسعادتنا ماذا فعل بها هذا التطور؟ إنه لولاه لما وُجِدَتْ ولما وُجِدَ فيها ما وجد، ولما صلحت لظهور الحياة عليها، ولما وُجِدْنَا فيها، ولو وجدنا لما بقينا أحياء، ولو بقينا أحياء لما وجدنا ما نحتاج إليه وما يلزم لوجودنا ولصناعاتنا ولزراعاتنا ... إنه بهذا الناموس تخلت الأرض عن عهدها الجليدية، وعن عهدها النارية إلى عهد الاعتدال الذي تبقى معه حياة النبات والحيوان الذي منه الإنسان وبهذا الناموس تمهدت الأرض وتهذبت وارتفعت فيها الجبال، ونهضت الآكام، ووجدت السهول والسهوب والأودية، وانشقت الأنهار، وغاضت البحار وانحسرت عن الجزائر وعن هذه اليابسة التي عليها نحيا. وبهذا التطور أيضاً وجدت أصناف النباتات والحيوانات والمعادن المختلفة، ووجدت التربة الخصبة التي تثبت لنا كل ما نشاء، ووجدت كل هذه العناصر التي لا بد منها لبناء أجسامنا وإخصاب أرضنا ولتركيب وتركب كل ما لا بد لنا منه صناعياً وطبيعياً ... إن أنفس شيء لدينا، كالآلئء مثلاً، لا يمكن الحصول عليه لولا خضوعه لهذه العملية.

إننا نزرع الأرض حتى نزهقها بالاستغلال وحتى نسرف في امتصاصها وامتصاص قواها إلى أن تعجز عن إعطائنا ما نطلب منها، وإلى أن تكاد تضعف عن القيام بوظيفتها — كما يفعل أحدنا إذا أرهقت قواه بالأعمال الشاقة. فنتركها — لا نعطيها ولا نأخذ منها — ثم نرجع إليها مرة أخرى بعد مدة من الزمان، فإذا بها قد استرجعت قواها وعادت قادرة على أن تعطينا بسخاء، فكيف حصل هذا؟ إن يد التطور ويد الاستعداد للنمو والتحسن قد امتدت إلى هذه الأرض فرجعت إليها ما فقدت وصيرتها قادرة على تأدية عملها.

إننا نعد إلى الشجرة فنشذب أوراقها ونجور على أغصانها فندعها عارية، ولكن نرجع إليها بعد مدة فنجدها قد اكتست بأوراق وأغصان أخرى. فلماذا هذا؟ إنه الاستعداد الطبيعي للتطور، ولولاه لبقيت كما تركت عارية جرداء.

إن كل شيء أمامنا يقوم بهذه العملية قياماً بديعاً منظماً، ولولاها لما حصل شيء جديد ولا صورة جديدة. فكل ما يحدث مما يحدد الصور والمظاهر والألوان، وبما يعيد ما فقد، ما هو إلا تطور وقيام بعملية ... إن دفن الحبة في التراب أو ركز العنص فيه

ثم خروج تلك الحبة أو ذلك الغصن وارتفاعه في الفضاء ، ثم تقسّمه إلى أغصان وأوراق وسيقان وأزهار وثمار ما هو إلا لون من ألوان التطور وامتداد لهذه الألوان ، وتعبير قوى عن هذا السر الكامن ، وتدليل عمليّ على أن كل ما في هذا الوجود يحمل في ثناياه وطبيعته القدرة على التحسن والتقدم ... لقد ثبت أن كل شيء في الحياة يتحسن إذا لم يوجد ما يعوقه ، وأن طبيعة كل شيء دائبة على عملية التحسين المستمر الدائب — وثبت أن الأحياء الثلاثة — كما ثبت ذلك للجهد — في عملية متواصلة في سبيل التحسن والتحسن .

أما الإنسان فليس هنالك شك في أنه كان منذ ثلاثمائة سنة — دع أكثر من ذلك — أضعف منه اليوم أجساماً وعقولا ومعارف . وليس هناك من يرتاب في أنه في هذه الثلاث المائة السنة قد تحسن من ناحية الصورة ، ومن ناحية التفكير ، ومن ناحية القوة البدنية تحسناً عظيماً . وليس تطور الحضارة إلا تعبيراً عن تطور الإنسانية . فلو أن الإنسان لا يتطور في وجوده العام لما أمكن أن تطور حضارته . وليس ثمة شيء في الحياة يرجع إلى الوراء ويتقدم القهقري ، بل كل ما فيها لا يعرف إلا طريقاً واحدة تؤدى به إلى الأمام وإلى الأمام دائماً ... وكما دل على هذا العلم فقد دلت عليه أيضاً نصوص الدين ، فقد جاء بأن هذا الوجود كله كان دخاناً كما قال في الآية السابقة « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » . ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشمس والسيارات والأرض وكل شيء فيها . وجاء في النصوص أن الوجود كله في تغير وتغيير مستمرين في طريق الكمال . وفي الكتاب الكريم « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » . وهذا يوم القيامة . ومعلوم أنها يوم القيامة تأخذ شكلاً ووجوداً أحسن وأكمل من شكلها ووجودها الأول ، والآية مسوقة لهذا الغرض . وآيات القرآن التى تعرضت لتغيير العالم ولتغيير السموات والأرض تدل كلها على أن العملية عملية تغيير إلى أحسن وأفضل . والعالم الأخرى بمن فيه ؛ على حسب ما جاء في النصوص ، ليس إلا برهاناً على الوصول إلى طور الكمال الوجودى في كل وجه من وجوه الكمال والوجود . وفي الكتاب « مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً » . وليس من اللازم علينا أن نلتزم ما قاله بعض الشيوخ في تفسير الأطوار ، وإنما اللازم أن نطلق ما أطلقه الله وأن نحمله على أحسن الوجوه والمعاني .

أما الشيخوخة والموت — اللذان قد يحسبان من الرجوع بالوجود إلى الوراء — فهما مظهران من المظاهر المؤذنة بانقضاء دور من الأدوار التى تقوم المادة والعالم كله دائماً

بتمثيلها لتأخذنا بتمثيل دور آخر من أدوار الرواية العالمية الإلهية المستمرة . فإن العالم كله يشبه رواية ذات فصول يناسب عددها ضخامة الرواية وضخامة الغرض ، لكل فصل من فصولها مظاهر ومواقف مختلفة كثيرة ، لكل مظهر وموقف معنى ومعزى يؤديه . وكل فصول الرواية ومواقفها ومشاهدتها مقصودة ، لأنها متممة للأغراض العامة التي رمى إليها بها . وليس في فصل من فصولها ، ولا في مشهد من مشاهدتها ما يصح أن يعد دليلاً على الخروج عن السبيل المرسومة وعن الغاية المنشودة .

والإنسان في هذه الحياة — كغيره من الأشياء — وجد ليؤدي رسالة الحياة ، ثم ليسلمها بعد انتهاء دوره إلى إنسان آخر ، ثم ذلك الإنسان الآخر يقوم بالرسالة نفسها وبالذور عينه . وهذا لتبقى السلسلة متواصلة ، لتبلغ الغرض الأعلى المطلوب . ومن أدى رسالته ثم تنحى عن الطريق ، أو من قام بدوره ثم اعتزل ليقوم الآخر بدوره لا يقال إن ذلك دليل على الرجوع إلى الوراء ، أو على أن جملة القائمين بهذه الأدوار ، متعاقبين متتابعين ، يرجعون القهقري... إن الزرع والنبات إذا أخذ في النمو، ثم في الاكتمال، ثم في النضج والاستواء، ثم في الانتهاء لم يعد ذلك ضرباً من ضروب التأخر والرجوع، وإنما يعد ضرباً من ضروب السير إلى الأمام وضروب الاستمرار في أداء الرسالة العامة ومن إعطاء الثمرة في الأوان المضروب . والشيخوخة ثم الموت لا يعدوان أن يشباها بالاستواء والنضج في النباتات ثم الحصاد . وهما — الشيخوخة والموت — مثلان من أمثلة الهدم والبناء ، أو الهدم من أجل البناء . والهدم في أحيان كثيرة غرض من أغراض البناء . والبناء الذي يعقب الهدم ليس إلا سيراً في السبيل ، وإتماماً للرسالة ، وبرهاناً من براهين الاستمرار في العمل . والاستمرار في العمل بدون انقطاع دليل على أن الغاية التي يراد بلوغها لم تبلغ بعد ، وهذا معناه السير إلى الأمام لا إلى الوراء .

إن عجز الأحياء — ويدخل في ذلك الإنسان والحيوان والنبات — عن الامتداد في الحياة وعمليتها بدون انقضاء ، هو بمثابة الحجة على أن المادة التي ألفت منها أجسام هذه الأحياء ، وبنيت منها أعضاؤها ، وشيدت عليها دقائقها مادة لم تكمل الكمال الذي يعطيها قوة البقاء في صورها ومظاهرها . ولكن ليس معنى هذا أنها ليست سائرة إلى هذا الكمال وبالغته في أحد الأوقات . ونحن إذا رأينا آلة من الآلات تقوم بعملها ثم يبادر إليها العطب أدركنا من غير تردد أن مادة بنائها مادة رديئة ضعيفة ، أو أن صناعتها رديئة

ضعيفة ، أو أن طريقة استعمالها طريقة مخربة ، وأدركنا أنه إذا عولجت الأمور الثلاثة وجاءت
 وفاق الغرض أصبحت الآلة قادرة على الاستمرار في عملها . ومبادرة العطب إلى آلة من
 الآلات لا يمكن أن يتخذ دليلاً على أن المادة التي صنعت منها آخذة في سبيل الانهيار
 أو سبيل العجز والتخلي عن حقيقتها وطاقتها ، وإنما يجب أن يتخذ ذلك دليلاً على أحد
 الأمور الثلاثة المذكورة . والإنسان — بل وسائر الأحياء — حكمه حكم هذه الآلة :
 فموته وعجزه عن الامتداد في الحياة الفتية القوية دليل على أن مادة بنائه لم تبلغ الحد الذي
 يستطيع به الاستمرار في عملية الحياة بدون فساد أو ضعف ، أو دليل على أنه لم يوصل
 إلى استعمال الحياة فيه استعمالاً يمنعها البقاء والقوة المستمرة المتجددة كاستمرار حياة
 الشمس وتجدها وبقائها مع عظم ما تنفقه وتبدله في سبيل وجودها . وقد ذكر العلماء
 أن الشمس تشع يوماً ثلاثمائة وستين ألف مليون طن منذ وجدت شمساً مشرقة ، وقد
 وجدت كذلك منذ خمسة ملايين مليون سنة . ومع إنفاقها هذه المقادير الهائلة في هذه
 الأحقاب المتطاولة من أصلها ومادتها لم يلاحظ عليها نقص ، على ما ذكر العلماء . وإن شاء الله
 سيبلغ الأتقياء الأبرار في دار الخلد تلك المرتبة من الوجود التي في قوتها الاستمرار
 في البقاء وفي الحياة الفتية المتجددة . وهذا معناه بلوغ الكمال المنشود المفقود الآن .
 فالموت إذن ليس بالأمر الذي يجب أن نفرز منه وأن نحشاه وأن يرونا صرماً ،
 فإنه كما ذكر ليس إلا ترك صورة لأخذ صورة أخرى ، وترك لون من ألوان الوجود من
 أجل أخذ لون آخر من هذه الألوان الزاهية المتعاقبة . وكما لا يجب الفرز من غروب
 الشمس وغروب غيرها ، ولا من طلوعها واعتدالها ، ولا من ميلها ، ولا من الخسوف
 والكسوف — أو كما لا يجب الفرز من اجتماع السحاب ثم افتراقه ، ومن اشتعال النار
 ثم انطفائها ، ولا من إوراق الأشجار واكتسائها بالأوراق والأفنان ثم تجردها من ذلك ،
 ولا من نضج المزروعات والثمار ، ولا من مظهر من هذه المظاهر ، فكذلك لا يجب
 الفرز من الموت ؛ فما هو إلا ظاهرة من هذه الظواهر التي نراها كل وقت ثم لا تحدث
 لدينا فزعاً ولا روعاً . وكما أن الشمس تبدو من جهة في وقت ثم تختفي من جهة أخرى
 في وقت آخر بدون أن يوجد ذلك لنا هلعاً ولا إنكاراً ، فكذلك كان الواجب ألا يحدث
 عندنا خروج أحدنا في وقت من طريق ثم اختفاؤه في وقت آخر من طريق آخر هذا
 الملح والإنكار اللذين يستبدان بنا عند مشاهدة ظاهرة الموت . ولكن يظهر أن الإنسان
 لأسباب متعددة قد أفسدت عليه أكثر نظراته إلى الوجود ، وأن عوامل التضليل كانت

مسلطة عليه منذ وجد ، وأنه لم يستطع حتى اليوم أن ينجو منها كما يجب أن ينجو .
ولكن لا شك في أن الإنسان سيبلغ في يوم ما الغاية المقدورة له من حيث نضج الأفكار
والرشد العقلي ... فالمرتبة إذن ، وكذا الشيخوخة ، ليسا من مظاهر الرجوع بالوجود
إلى وراء . وإذن فلا يوجد شيء في هذا العالم يعود القهقري ، أو شيء لازم مكانه بحيث
لا يتقدم ولا يتأخر ، بل كل شيء دائم في طريقه الطويل بلا حيدة أو وقوف .

أما هؤلاء الذين قلدوا الزعامة الدينية ، واختيروا لقيادة الفكر الإسلامي في أحوال
سيئة قاسية ولأسباب ينكرها الدين والعلم ، فقد عصفت بهم نوبة من نوبات الفساد الذهني
وموجة من موجات العماية الأصيلة ، واجتاحهم إعصار من أعاصير الجهل التليد البليد ،
فقاموا — وهم يترنحون من الغباوة ويتمادون على أنعام الشيطان — ليوقعوا على
أكذوبة علمية من أعظم وأشهر الأكاذيب العلمية في التاريخ ... فقد زعم هؤلاء — بين
هتاف الغباء المتواصل — في كل كتاب كتبوه وقول قالوه أن سعادة الإنسان وطريق
تقدمه وراءه لا أمامه ، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبداً وألا يمد بصره بين يديه أبداً ،
وأن يرجع القهقري وينكس إلى الوراء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ليظفر بالسعادة وبالعلم
وبالعقل والأخلاق وبالعدالة وبالنظام الاجتماعي المبرأ من العيوب والنقائص ... وزعموا
أن كل خير هو في أعمال الماضين ، وكل شر هو في أعمال المتأخرين ، وأن كل خير
في اتباع من سلف ، وكل شر في اتباع من خلف ، وأن كل ما يمكن تصوره من الخير
قد مضى ، وكل ما يمكن تصوره من الشر فقد بقي ، وأن كل ما لم يستطع عمله الأولون
وكل ما لم يعملوه ويرتضوه من الأعمال والعلوم والأخلاق فهو شر وجهل وفساد ،
وأنه إذا كان خيراً وعجزوا عنه فلا بد أن يعجز عنه الأواخر ... إذ قد ادعوا أن الإنسان
في كل نواحيه ، العقلية والعلمية والحلقية والجسمية ، قد أخذ حظه من الكمال في الزمان
الأول ، ثم عاد يتناقص وراح ينحدر مسرعاً في سلم الرذيلة والجهل والانحطاط والضعف
في كل شيء ، وأنه لا يمكن أن يتوقف عن انحداره حتى يقضى عليه القضاء الأبدي
الأخير ... وادعوا إجمالاً أن الإنسانية — بل الخليقة كلها — تنزل ولا تعلو ، وتتأخر
ولا تتقدم ، وتفسد ولا تصلح ، وأن الخير من أجل ذلك — الخير الذي لا خير سواه —
هو في الاستمسك بخيوط الماضي والارتقاء في أحضانه والإغماض عن الحاضر والآتي
والتنوط منهما ، ثم تثبيت الأبصار والبصائر والآمال فيما سلف وفيمن سلفوا للتقليد

والاتباع ، لا للتفكير والاعتبار ... وقد حاولوا — والبلاهة تحذو لهم — أن يعزوا هذه الدعاوى بروايات وأخبار نسبوها إلى الرسول عليه السلام وإلى أصحابه وإلى الأمة المقدين ، وجدوا في نشر هذه الأخبار والروايات والآراء وفي تزويجها حتى أمكن لهم أن يصيروا لهم من هذه الخرافات ثقافة عامة يلتقي عليها وينضوي إليها أربعمائة مليون من الأجناس المختلفة ، المتباينة ، الآخذة بأعظم دين جاء لإيجاد إنسانية مهذبة عاملة على الترقى المستمر . وقد استسلم لهذه الثقافة أو لهذه الخرافة كل الطوائف ؛ فالأدباء والشعراء والمؤرخون آمنوا بها ونشروها وشهروها في شعرهم وأدبهم وتاريخهم ، كما آمن بها الفقهاء والمفسرون والمحدثون والمتصوفون بل والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام في الدين أو في الأخلاق أو في الوعظ . وقد غبروا زماناً قد يزيد على العشرة القرون وهم جادون ماضون في تركيزها في النفوس وفي المعتقدات ، حتى قام عليها من الإجماع بين الخواص والعوام ما لم يرقم على قضية أخرى ، وحتى أصبح اعتقادها والتصديق بصدقها مما يتساحى على الخلاف والجدل ... ولو أن قائلها قال إنه لم يدر على خاطر إنسان الشك فيها وفي صحتها كل هذه القرون لما كان قائلاً باطلاً ، ولو أننا سألنا عن أكبر غلطة نهض عليها الإجماع الحقيقي أكبر مدة من الزمان لذكرنا هذه القضية في أول ما نذكر ... وإن مما يدل على شدة إيمان الناس بها واتفاقهم على نبد الخلاف فيها أن رجلاً نائراً بكل ما عرف من آراء وعقائد ونظم وحقائق — بل وغرائز — مثل أبي العلاء — أراد مرة أن يمدح نفسه وأن يباليغ في مديحها ويأتي بالمستحيل الذي لا يكون ، ليكون ذلك أدل على ما يتصف به من نبوغ وعبقريّة تستطيع أن تصنع ما لا يستطيع أن يصنع وما يعلم الناس كافة أن أحداً لا يستطيعه ، فلم يجد شيئاً يقوله أعظم من أن يدعى أنه يقدر على أن يأتي بما لم يأت به الأوائل — وهو الأخير زمانه — لأنه يرى أنه إذا فعل ذلك وجاء بشيء فات الأولين فقد بلغ ما يرمى إليه من نعت نفسه بالقدرة على المستحيلات ، فقال بيته المشهور من قصيدة له مشهورة : —

وإنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

ويحكى الرواة أن الناس أنكروا على أبي العلاء هذه الدعوى وأن الإنكار كان عاماً حتى إن غلاماً — كان من جملة النكركين — تصدى لأبي العلاء متحدياً له غضباً للأوائل منتصراً لهم وقال له : إن الأوائل قد جاءوا بثانية وعشرين حرفاً من حروف

المهجاء فزدها حرفاً . وقد ذكروا أن هذا التعجيز قد أصاب من شيخ المعرة مقتلاً
فأسكت غير واجد جواباً .

وكان أقوى ما عززوا به هذه الأغلوطة أنهم قلدوها مصلح الإنسانية عليه السلام
وصحابته ، وأنهم ذهبوا يجمعون الروايات من هنا وهناك ويزعمونها من كلامهم إلى أن
استقرت في الأذهان هذا الاستقرار الذي صار من العسير التشكيك فيه وزحزحته .

من هذه الروايات الرواية التي أوردناها في مطلع البحث وهي : (لا يأتي زمان
إلا والذي بعده شر منه) . وهذه الرواية مخالفة للرواية الأخرى الصحيحة القائلة :
(لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر) لأن نسبة الشر إلى الزمان سب صريح له . والزمان
يقيناً لا يفعل خيراً ولا شراً ، ولكن أهله هم الذين يفعلون فأنى ينسب إليه الشر ؟
فإذا قيل إن المراد من هذه الرواية أن الناس يفسدون تبعاً ، وأن أهل كل زمان هم
شر من أهل الزمان الذي قبله ، وخير من أهل الزمان الذي بعده ، وهكذا ، فالتم فيها
لأهل الزمان لا للزمان — قيل أولاً : إن هذه الرواية قد نسب الشر فيها إلى الزمان
لا إلى أهل الزمان ، والرسول لا يمكن أن يقول — ولو ظاهراً — ما نهى الناس عن
قوله لأنه جاء معلماً ولم يحىء ملبساً ولا معمياً . وقد كان من الممكن أن يقول : (لا يأتي
زمان إلا وأهله شر من أهل الزمان الذي قبله) ، أو ما هذا معناه .

وقيل ثانياً : إن الذين يسبون الدهر هم أيضاً يريدون سب أهل الدهر لا الدهر
نفسه ، لأنهم يعلمون أن الدهر لا يصنع شيئاً كما قال أحدهم :

إن الجديدين مع طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

ومع أن هذا هو قصدهم فقد نهوا عن سب الدهر .

وقيل ثالثاً : كيف يصح الزعم أن أهل كل زمان يكونون شراً من الذين قبلهم ؟
إن هذه دعوى يكذبها كل شيء ؛ يكذبها الدين والحس والعقل والتاريخ . والأديان كلها
لا تخرج عن أن تكون بجملتها تكديماً لهذه الدعوى ، لأنها إنما جاءت لتقل الناس من حالة
عامة إلى أخرى مغايرة — وقد نقلتهم — وكان الناس الذين قبلوا الدين هم بلا ريب خيراً
من الذين قبلهم ممن كانوا على خلاف الدين : فكان الأنبياء والمؤمنون بهم خيراً جداً من
الذين قبلهم . ولو كانت هذه الدعوى صادقة لوجب على الأنبياء وعلى المصلحين أن يأمروا
الناس باتباع من سبقوهم من الآباء والأسلاف . بل كانت هذه هي دعوى خصوم الأنبياء

لأنهم كانوا يابون قبول ما جاء وهم به ، زاعمين أن الواجب عليهم أن يحافظوا على عهد الأولين وعلى عهد الأجداد ، ومدعين أن من الباطل أن يكون الأسلاف في ضلال وأن يكون الأنبياء وأتباعهم من الأخلاف على الهدى وعلى الحق . وقد ذكر القرآن هذه الحجة عن المشركين من العرب في مواضع كثيرة ، وقد أعلنها الله عليهم حرباً شعواء مسفهاً أحلامهم ، مطيلاً جدالهم ، ومبيناً ما في هذا الاحتجاج من غواية وجهالة . وقد حكى الله عن إبراهيم أنه قال لقومه « أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآبائكم الأقدمون » . الآية . فنص على الأقدمين ليدل على أنه لا قيمة للقدم ... فوجود الأديان إذن رد لهذا الزعم القائل : إن أهل كل زمان هم شر من أهل الزمان الذي قبله ، بل هو زعم الذين ردوا الأديان ، لأنهم استبعدوا أن يهتدى المتأخرون ويضل الأقدمون . فكأن هذه الفكرة هي فكرة أعداء الأديان والإصلاح الذين جيلوا على الجود والتقليد لمن سلفوا على زعم أنهم أعدل وأفضل وأرشد وأعظم ، لأنهم أقدم . أما الأديان ودعوات الإصلاح فإنها ثورة على الجود والتقليد لأن هدفها الأكبر تقديم الإنسانية بأفكارها وعقائدها وأعمالها إلى الأمم . وهذا لا يكون ممكناً إلا بالثورة على القديم ، وبالخروج على القدماء وعلى فكرة تقديس القديم بحجة القدم وضم الحديث بحجة الحدوث ... ولولا هذا لما قامت الأديان ، ولما قام شيء من الإصلاح ، ولما تقدمت العلوم والمعارف .

وفي الرواية قصة هي كوثيقة الجريمة التي تعلق في عنق المتهم : قالوا أتى الناس أنس ابن مالك وشكوا إليه ما يلقون من الحجاج بن يوسف فقال أنس اصبروا فإنه (لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) سمعته من نبيكم ... وإذن فالرواية إنما سبقت في مقام الأمر بالصبر على مظالم الحجاج بحجة أنه لا أمل في ما يطلبون من العدل ومن الحكم الصالح ، ولا أمل في أن يوجد أحسن من الحجاج ومن خلفته المرخي له في عنائه ، لينخوض في عدوانه ؛ لأن الناس أبداً يفسدون ولا يصلحون ، ولأنهم أبداً يجورون ولا يعدلون ، وأنهم سيظلون على ذلك يتتابعون في الإثم والفساد إلى قيام الساعة من غير أن يقوم بينهم صالح عادل ... فالحجاج وخليفته شر من الذين قبلهم ، وها خير من الذين بعدهم . فإذا ذهب الحجاج وذهب معه حكمه فلن يجيء خير منه بل شر ، لأنه بعده . وإذن فلا معنى للتبرم من حكومته ومن رجاء زوالها ، بل يجب العمل على بتأمرها والاستزادة من أيامها ، لأن بعض الشر أهون من بعض ، ولأن شر الحجاج أهون من شر من سيأتون بعده .. وقد جاء في رواية أخرى أن الحسن البصري سمع الناس يدعون

على الحجاج فنهزم قائلاً: إنى أخاف إذا ذهب الحجاج أن تتولى عليكم القردة والخنازير .
ومن الواضح عند من لم يتخلوا عن عقولهم لشيوعهم ، وعند من لم يضيعوا
صوابهم بين سطور الكتب الصفراء المظلمة البالية أن هذا وأمثاله إنما وضع
بقصد سياسى ، يراد به أن تستسلم الشعوب لقتلتها وجلاديتها ولصوصها بدون
أن تفكر فى الخلاص ، بل بدون أن تقبل هذا الخلاص لو قدم إليها هدية رخيصة، خوفاً
من العاقبة النكراء ، لأن الزمان وأهله أبداً يتتابعون إلى الشر ويتقدمون إليه ... وهذا
كما لا يخفى غرض عظيم من أغراض السياسيين الذين يستعدون الأمم ويركبوها
ويأخذون منها كل شيء ولا يهبونها شيئاً ، وينالون منها ما أرادوا ولا ينال أحد منهم
ما أراد ... وليس هنالك وسيلة أتجمع فى تلك العصور ولا أقرب إلى تحقيق هذا الهدف
ونيل هذا المطلب من أن تحمل القضية برمتها على الدين ... وقد لعبت هذه اليد السياسية
فى هذه المسألة بمهارة ونجاح ، واستخدمت لتنفيذ سياستها هذه جموعاً كبيرة من الأغراب
العالمين الذين أقيموا للناس رجال دين ، وزعموا أئمةً مصلحين وأتقياء زاهدين ...
فتكاثر الروايات الموضوعة لهذه الأغراض ، وزحمت الجوى الإسلامى أو الشرقى بها
زحماً يشهد للقوم بالبراعة ولضحاياهم بالغرارة والغباوة . وقد كان قيام هذه الروايات
بعملية التخدير التى كانت هى الحامل عليها قياماً ناجحاً ، فقد ظلت الأمم الإسلامية تعط
تحت تأثيرها وتخديرها — والسياط تأخذها من كل جانب ، ورجال الجلادين تتحكم فى
رقابها وتعلق منها ما تشاء — كل هذه القرون بدون أن تفيق أو تتألم ! وإن آثارها
لا تزال اليوم ماثلة فى كثير من البلاد مثل ما كانت منذ مئات السنين ... أما النفوس فإنها
لا تزال مأخوذة مسجورة بسحرها ، مخيمة عليها بشكل يدعو إلى الاستغراب . ومن
مظاهر ذلك هذا الذى نشهده فى كل الطوائف فى البلدان الإسلامية أو الشرقية من
الخنوع لخلفاء أولئك الجلادين الذين يحاولون اليوم أن يقوموا بتمثيل أدوار أسلافهم
من الطغاة . وقد رأينا البائسين المحرومين يجدون لذة كبيرة وسعادة نفسية ، ووجدانهم
تشرق وجوههم الكالحة الغبرة إذا أبصروا هؤلاء الذين أخذوا منهم كل شيء ولم يعطوهم
شيئاً يمرون بهم ، بل إنهم يقفون صفوفاً صفوفاً ليطمعوا برؤيتهم وليسعدوا بمشهدهم إذا
ذهبوا أو جاءوا بمواكبهم التى يجب أن تملأ النفوس حقداً وفضاضة، من غير أن يتألموا من
ذلك أو تطرف له أعينهم ، بل لعلهم يذهبون يدعون لهم من أعماق صدورهم ، يسألون الله
أن يزيدهم مما أعطاهم ، وأن يرفع من مقاماتهم فوق رؤوسهم أكثر مما رفع ! ولا شك

أن هذه الروح التي برئت من الأحقاد النافعة ، ومن الغضب والغيظ لمرأى المظالم والظالمين -
أثر من آثار هذه الروايات ، وبقية من بقايا أفعالها بالأولين المستعبدين . وهذه الروح
تكاد لا توجد اليوم في البلدان الغربية ، ولكنها لجأت باطمئنان إلى هذه الأركان التي
لجأ إليها الجمود والركود والتقليد والاستسلام للجلادين .

ومن عزا إلى أنس - أحد أصحاب الرسول - أنه أمر بالصبر والاستسلام لمظالم
الحجاج ومفسده ، بحجة أن من بعده شر منه وأنه خير ممن بعده ، فقد بالغ في الإساءة .
فهذه الرواية وغيرها من الروايات المسوقة في أول هذا البحث وسواها من النقول
الأخرى ، المزعوم فيها أن الإنسانية ترد إلى الوراء ، وأن التقدم أبداً خير من الذين
يحيئون بعدهم ، وأن الشر والفساد أبداً في ازدياد ، وأن كل شيء ينقص إلا الشر فإنه
يزيد - روايات من أصر على نسبتها للإسلام وللرسول ولصحة فقد أصر على
التقيص والاتهام .

كيف جاءت هذه الفكرة - فكرة اعتقاد الخير في الأولين والشر في الآخرين ؟
يغلب على الظن أنها إحدى الفكر الباقية من عهد الطفولة العقلية الإنسانية . ولا تزال
الفكرة برمتها مستولية على تصرف الأطفال وعلى حياتهم ومشاعرهم واتجاههم العام ؛
فإنهم يرون أن من هم أقدم منهم سنناً أكبر منهم عقولاً وأضخم اقتداراً . ولهذا فإنهم
يجهدون على محاولة تقليدهم والافتداء بهم من غير تفكير أو تردد ، وهم مخلصون في هذا
التقليد ، بل إن كل تفكيرهم وتناولهم الأمور موجه إلى هذا التقليد مقصود به ، بل
لعلمهم يرون ويعتقدون أن الكبار من الآباء والأجداد والأقارب وغيرهم يستطيعون أن
يصنعوا كل ما يريدون ، وأن قواهم غير محدودة . ومن مظاهر ذلك ودلائله أنهم يطلبون
منهم كل ما يخطر لهم على بال دون التفكير في كون المطلوب يدخل تحت القدرة البشرية
أم لا . وقد يريد الطفل من أبويه وغيرها أن يحضروا له القمر وأن يضيفوا الشمس
إلى لعبة الحشبية ... ففكرة الطفولة قائمة على أمرين : الأول : على أن الأقدم سنناً ، الأكبر
جسماً أحسن منهم تفكيراً وأقوى قوة ، والثاني : أن هذه القوة - العقلية والبدنية -
غير محدودة وغير عاجزة عن شيء ... وقد ترتب على هذين الأمرين أمران : الأول
حرص الأطفال على تقليد الكبار الذين اعتقدوا فيهم هذه العقيدة ، والثاني تركيز كل

رغباتهم فيهم وضرف جميع آمالهم وحاجاتهم إليهم ، معبرين عن ذلك بالبكاء والضراعة والطلب الصريح . وليس هناك شك في أن هذه الأفكار الطفلية الحاطئة ضرورية للأطفال أنفسهم ولل كبار وللإنسانية أجمع . فلو أنهم لم يعتقدوا هذا الاعتقاد في آبائهم وأمهاتهم وأولياء أمورهم وفي الكبار لما تربوا التربية التي تفرض عليهم ، ولما أمكن أن يكونوا بشراً بالمعنى الصحيح ، لأنهم إذا لم يروا هذا الرأي فيمن يقومون على تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم فإنهم لن يأخذوا عنهم شيئاً ، ولن يحاكونهم في شيء . وإذا كانوا كذلك فلن يقبلوا تعليماً ولا تربية ولا توجيهاً ، وإذا لم يقبلوا ذلك فلن تنمو فيهم المعاني الإنسانية والأخلاق ولا أمر من هذه الأمور التي صار بها الإنسان إنساناً مهذباً ... وأعظم روح توجه التربية وتسيطر عليها هي روح الثقة والاطمئنان والإيمان — أى ثقة المربي واطمئنانه وإيمانه بالمربي . وإذا فقدت هذه الروح أو ضعفت فلن تكون التربية أو محالها آتية بالقرض المنشود ... فهذا الاعتقاد الذي أسميناه إحدى اعتقادات الطفولة أمر لازم وخطأ لا بد منه من أجل نقل الإنسانية إلى الأمام بعلمها وأخلاقها وكل معانيها .

ولكن كيف نشأت هذه الفكرة عند الأطفال وما مصدرها ؟ يظهر أنهم حينما جاءوا الدنيا فوجدوا آباءهم والذين هم أكبر منهم يستطيعون أموراً هم لا يستطيعونها ، ورأواهم هم الذين يصنعون لهم ويعطونهم كل حاجاتهم وكل ما يهبهم البقاء ، ورأواهم يتصرفون في أملاكهم المحدودة وبيوتهم الصغيرة الخاصة تصرفاً مطلقاً ، نشأت لديهم هذه الفكرة ، وظنواهم مخصوصين بالقدر والكمال دونهم ، وحسبوا أنهم إذا تصرفوا في أملاكهم ومنازلهم تصرفاً بدون معارضة فإن لهم أيضاً التصرف المطلق ، وأنه لا فرق بين التصرف في البيت والملك الخاص وبين التصرف فيما هو خارج البيت وفي العالم كله لأنهم لا يدركون الفرق بين هذا وهذا ، والتفكير في مثل هذا الفرق بعيد جداً عن أذهانهم الصغيرة ... ثم اعتقدوا أن هذا الاختصاص الذي ظفر به الكبار مرجعه إلى أنهم كانوا أقدم وأكبر منهم ، وأن المسألة ترجع إلى القدم والكبر . ويدل على هذا أن الأطفال يصرحون به قولاً ، فإذا طلب طفل منك أمراً فقلت له افعله أنت قال معتذراً : أنا صغير أو قال أنت كبير — وهما بمعنى واحد . فالصغير لا يفعل وإنما يفعل من أجله ، والكبير هو الذي يفعل ، ويفعل من أجل الصغار .

وإذا علم هذا علم أن هذه الفكرة هي إحدى فكر الطفولة . فإذا قيل وكيف انتقلت للكبار كان الجواب أن الأطفال لما كانت هذه فكرتهم بقيت عندهم وسارت

معهم وهم يتقدمون إلى سن الشباب وسن الرجولة ، وأصبحت ملازمة لهم وهم شبان ورجال بل وهم أم وشعوب ... وكان الخلاص منها يحتاج إلى مقدرة عقلية فائقة ، ليعلموا بها كيف كان الكبار أعلم منهم وأقدر حينما كانوا صغاراً وما سبب ذلك — وهل سببه التقدم الزماني أم سببه النضج العقلي ، وأن هذا النضج يكون في الأوان للصغار كما كان في الأوان للكبار ، وأن الكبار كانوا صغاراً ، وأن الصغار سيكونون أيضاً كباراً ، وأن التقدم والتأخر الزمانيين لا شأن لهما في هذه المسألة ، وأن الشأن لتبريز العقل ، وأن زمان التبريز ليس هو القديم وليس هو ممكناً لقوم دون قوم — وربط المسببات بأسبابها ربطاً صحيحاً مفقود دائماً عند الأم التي لم تبلغ المرتقى الثقافي المطلوب . والأم المتأخرة الجاهلة مصابة بالفوضى في التسبب . فهذه الفكرة التي هي شعار للطفولة الميلادية بقيت أيضاً شعاراً للطفولة العقلية والخروج منها غير ممكن إلا بعد تخطى الطفولتين . وما استطاع الإنسان أن يعرف خطأ هذه الفكرة إلا يوم أن بلغ رشاده الوجودي .

ومن الممكن أن يقال في تعليل الاعتقاد في القدماء ان المرء حينما يفد على الدنيا ويدخل المدرسة للتعليم والتلقين ، أو يسمع تعاليم عامة خارج المدرسة ، إنما يسمع ويلقن ويدرس ويحفظ كتب الأوائل — الذين هم قبله على أقل تقدير — وآراءهم وأفكارهم وعلومهم ... وهكذا يأخذ الاعتقاد فيهم ينشأ ويعظم ويرسخ ، ويقع في ظنه أن كتب الأوائل وعلومهم هي التي تدرس وتعلم وتفرض معرفتها على من يجيئون أخيراً من أجل أنهم هم الخصوصون بالمعارف والنبوغ والمقدرة الذهنية ... ولا يدري أن مرجع هذا إلى أن علوم الإنسان تتجمع كلها أو أعظمها عند الجيل الأخير ، ويأخذها ليضيف إليها علومه هو ، وأنه إنما يعلم كتب الأولين ومعارفهم من أجل أنها علوم الإنسانية مجتمعة وأنها التجارب العلمية البشرية كلها ، وأنه لا بد من البناء على السابق ، لا من أجل أنهم أعلم وأفضل من المتأخرين . ولوجود الآثار تأثير في هذا .

ويمكن أن يقال في تعليل هذا أيضاً : ان المتأخر يقرأ للمتقدم ويقرأ عنه ، وقد ثبت أن أكثر ما يكتب ويدون إنما يقوم على المبالغة والتزديد والكذب — إما تزلفاً وإما إرادة للإغراب ، وإما لأغراض أخرى . فإذا قرأ المتأخرون كتب المتقدمين عن المتقدمين وعن فضائلهم وقواهم ومحاسنهم واتساع ممالكهم وعظمة جيوشهم ومعجزاتهم وخوارقهم وغير ذلك ، مما أكثره مكذوب أو مبالغ فيه ، أخذهم الإعجاب بأصحاب هذا التاريخ السحري وبأصحاب هذه المعجزات والكرامات والحوارق ... وهنا لا يجدون بداً من

أن يسقطوا صرعى لهذه الأكاذيب ، ولا يجدون بداً من أن يخنوا رؤوسهم تحت عروش هؤلاء القياصرة الخياليين ، ومن هنا يذهبون يقيمون القدمات مقام الآلهة المعبودين ويضعون أنفسهم موضع العبيد المسبحين . والذنب في هذا يقع على رؤوس الكاذبين والجاهليين من المؤلفين الذين لم يستطيعوا أن يصفوا النهار بأوصاف النهار ولا الليل بأوصاف الليل ... وكم لهذه المؤلفات الزورة ول هؤلاء المؤلفين المزورين من ضحايا ! وكم صرفوا طالبي الذهب عن طلبه في مناجمه وشغلوه عن ذلك بمحاولة تصيير المعادن الرخيصة ذهباً وهجاً ! وكم سحروا قراءهم المساكين ، وأطاروا ألبابهم بأساطيرهم عن الأولين ! وكم أخذوا بأبصارهم وشدوها بذلك الفردوس المفقود المنشود الذي لم يوجد إلا في كتبهم وبين سطورها المظلمة وفي عباراتها الركيكة ! إن هذه الكتب المسيحة بمحمد هؤلاء الأرباب لهي من أعظم ما حاد بالإنسان عن طريقه ، وأعظم ما صنع له هذه النظارات التي لم يقدر — وهي على عينيه — أن يبصر الضياء ، فبقى يعمه في ظلماته .

ومن الممكن أن يقال في تعليل هذا : إن الإنسان لما كان لا بد له من مثل أعلى يقدم إليه احترامه ووجهه وثنائه — والإنسان بحسب طبيعته لا يمكن أن يحيا أو يسعد بدون ذلك — وكان من غير المستطاع في أحيان كثيرة أن يجعل مثله هذا من الأحياء المعاصرين ، لأن مخازيهم وتقائصهم حية تسعى معهم ترفض بقوة هذا الاحترام والحب والثناء . فذهب يتطلع ملتمساً هذا المثل والأمل ، وهذه القبلة ليستقبلها وليُصلَّى إليها بآماله وأهوائه . فلم يجد ذلك إلا في بطن الأرض بين الرفات والأموات ، لأن حقيقتهم مدفونة معهم لا تستطيع أن تنازع فيما يدَّعونه عليها وعلى أهلها من الكمال المتحل والمجد المكذوب... وهذا من أعظم أسباب الكاف بالميتين عند هؤلاء المسحورين . ولهذا فإنهم لم يجدوا غضاضة في أن يقتلوا قوماً ثم يعكفوا على أجدانهم يعبدونهم ، ويخلعون على عظامهم البالية العارية خلع التمجيد والتقديس ، بل التنزيه والتأليه ! وهام أولاء اليوم يعبدون قبور أقوام كانوا في حياتهم لا يظفرون من إخوانهم السابقين المعاصرين لهم بالعطف اللساني ! وهام أولاء يقدمون إلى هذه القبور الأموال الطائلة ، وقد كانوا يدخلون على أربابها — يوم أن كانوا أحياء يحتاجون إلى المال ويتنفعون به — بالقبور لو طلبوه منهم . وقد قيل في هذا المعنى أو ما يشبهه :

لا ألفينك بعد الموت تعبدني وفي حياتي ما زودتني زادا

كل هذا الذي تقدم هو كالمقدمة لما نريد أن نقول — وهو أن هذه الفكرة القائلة برجوع الإنسان إلى الوراء كانت من أعظم ما وقف في سبيل القائلين بها وسبيل نموهم الوجودي ... وقد محت من أذهانهم كل ميل للتحفز وللتجديد والابتكار ومعالجة الوثوب ، وقضت على كل محاولة عقلية أو خيالية قد تتقدم بالعلم أو تسمو بالعاطفة ، بل لقد كادت تعجز العقل عن النهوض بوظيفته مرة أخرى لأنها قد ضربت عليه سباتاً طويلاً حتى كاد يفسد فساداً عاماً ويعجز عجزاً أبدياً .

كان رشد الإنسانية وأهدافها أمامها ، وهي لن تبلغها إلا إذا سارت إليها ، وهي لن تسير إليها إلا إذا اعتقدت أنها أمامها ... وهؤلاء اعتقدوا أن الرشد والأهداف وراءهم ، فلم يكن بد من شيئين : أحدهما الوقوف عن المسير إلى الأمام ، لأن المسير إلى الأمام يبعد عن الرشد والأهداف لأنها وراء ، وثاني الشيئين العمل بكل حول على الرجوع إلى الوراء طلباً لهذه الأهداف ولذاك الرشد ... فكان لهذا تيجتان : أولاهما أنهم لم يخطوا إلى الأمام خطوة واحدة ، وآخرها أنهم رجعوا القهقري أشواطاً وخطوات بعيدة ، لأنهم قهروا قواهم على الرجوع وألزموا به ، فأضاعوها في التأخر وفي السير خلفاً ، وكانوا كلما تقدمت الإنسانية إلى كمالها شوطاً تأخروا هم شوطاً ، فتضاعف الفرق ، لأنهم كانوا يسرون بالنسبة لها سيراً عكسياً .

كانت العقيدة التي حكمت هؤلاء كل هذه القرون قائمة على أمرين كما تقدم : أحدهما أن كل ما يحجز عنه الأوائل فلن يستطيعه الأواخر ، وثانيهما أن الأوائل قد فعلوا كل خير وبلغوا كل كمال .

أما الأول فقد ترتب عليه أن وقف التفكير في التجديد والابتكار وقوفاً تاماً ، وإن عدل نهائياً — على حسب ما ظنوا — عن محاولة التجربة ومحاولة مواصلة السير إذ قد فرغ من الإنسانية — على ما رأوا ، فتعطلت القوى وركب السكون والركود المواهب ، فمرت عشرات القرون على هؤلاء وهي تُعدُّ لهم من حيث الوجود والأعداد عليهم من حيث التاريخ والأعمال .

انظر ، إن الكتب التي ألفت منذ مئات السنين — بل منذ ألف عام تقريباً — في الفقه أو في التفسير أو في الحديث أو في العقائد أو في التاريخ أو في الأدب أو في النحو والصرف أو في اللغة ، بل أو في الطب ، إن كان هناك طب ، كتذكرة داود وأمثالها ، أو في الفلسفة أو في التربية إن كان ثمة تربية — إن الكتب التي ألفت منذ ذلك التاريخ

في هذه العلوم وسواها لا تزال حتى اليوم هي المرجع ، وهي التي تدرس وتطبع وتنشر وتعرف ويسرع إلى قراءتها واقتنائها في العالم الإسلامي كله ... وإن وجد شيء ضئيل من التجديد والتغيير فهو لا يعدو أن يكون نقلاً مشوشاً ونسخاً مسموحاً من هذه الكتب المعمّرة ذات الألف وذات المئين من السنين ، حتى إن المجالات الدينية التي تكاثرت في السنين الأخيرة لا يخرج مجموع ما فيها من تفسير للقرآن وشرح للحديث وتقسيم للمعتقدات وسرد لما يحل ولما يحرم في الفقه ولما اختلف الفقهاء فيه ولما اتفقوا عليه ، إن كان قد وجد اتفاق — إن مجموع ذلك لا يخرج عن أن يكون محاولة تافهة أراد بها محاولوها أن يقدموا إلى قراءهم فتاتاً متناثراً من تلك الموائد التي قام الآكلون عنها منذ ألف عام . ولقد يعجب المرء إذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة إسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام ، قد عقرت في عددها العديد ، وعمرها المديد عن أن تلد مولوداً واحداً حتى ضرب المثل بعقمها ... إن هذه الجامعة في كل هذه المدة وفي جميع هذه الأعداد الهائلة من الطلبة والأساتذة ، وفي ذلك الثراء الوفير الذي أرصده لها الواقفون ، قد عجزت عن أن تؤلف كتاباً واحداً في نوع من أنواع العلوم التي اقتصت بها وبدراستها وتدريسها ... والكتب القديمة العقيمة التي جعلت مادة للدراسة فيها ليست من وضعها ولا من تأليفها ونقلها ، وإنما هي استعارة خارجية ، وأكثرها من وضع قوم ليسوا عرباً لا في ألسنتهم ولا في أفكارهم ولا في أذواقهم ...

وهذان العقم والعجز اللذان مُضرباً على هذه الجامعة الشهيرة مُضرباً أيضاً على سائر الجامعات والجوامع والمعاهد والبيوت الإسلامية الدينية ... وإذا حاول المرء أن يحجار في فهم سبب هذا العقم فلا يجب أن تطول به الحيرة كثيراً ، فإن السبب في ذلك — أو أعظم الأسباب — لأن المفروض أن لكل علة من عللنا حشداً من الأسباب — هو ما ذكرنا من الحكم على الإنسانية بأنها قد فرغ منها وأن خيرها كله قد تقدم وأنه لم يبق إلا شرها ... فإن معنى هذا أن كل محاولة ينهض بها المتأخر فهي لا تعدو أن تكون أحد أمرين : إما خطأ وضلالاً إذا كان الأوائل لم يفعلوها ومحاولوها ، وإما صواباً وهداية إذا كانوا قد فعلوها ! وإذن فلا معنى للمحاولة ، وإذن فلا تجديد إلا في الخطأ والشر ، وإذن فقد خاب المجددون والمبتكرون ، وطوبى لمن عرف قدره فوقف عنده فسلم واستراح وأراح .

جثمت عليهم هذه الفكرة المدمرة فأذعنوا لها واستسلموا ، ووجدوا لذة في الإذعان

والاستسلام ، لأنهما أراحاهم من تكاليف الثوب ومحاولة السير ، ووجدوا في أنفسهم
ومن أنفسهم ما يشفع لهذه الفكرة وما يقنعهم بها ... فأغمضوا أجبانهم على العمى ،
وعقولهم على العماية ، وعقلوا أعضاءهم بالكسل اللذيذ ، وقضوها ليلة طويلة في السبات
والعالم كله من حولهم يدب ويسرى . ثم تبلى الصباح وقام النهار فإذا بالعالم قد سار
ألف عام ، وإذا بهم قد رقدوا ألف عام ، وإذا ما بينهم من الفرق هو تاريخ ألف عام ،
ولكنه ليس بالأعوام ، بل هو ألف يساوى عمر الإنسانية كله في الإنتاج ، بل يفوقه .
وقفت القوى المفكرة عن العمل فضاعت عليها حكمة وجودها وتخلت عن مسيرة
القوة الفكرية العاملة ، وتخلت بأربابها عن مسيرة الآخرين ، ثم أصيبت من طول
الركود وترك العمل بما يشبه الفساد الطبيعي ، كآلة لا تستعمل . ولو أن إنساناً ظل نائماً
مدة طويلة ولم يستعمل أعضائه في قيام ولا مشى ولا حركة لأصيب جسمه وقواه بما
يوشك أن يكون فساداً طبيعياً ، ولاحتاج — إذا حاول استرجاع نشاطه وأعضائه
كما هي — إلى تدريب ورياضة ، ولو أنه أغمض عينيه مدة طويلة ومنعهما النور لأتعبه
الإبصار حيناً يحاوله ، وقد يفقد بصره البتة ... فأصبح الفرق بين هؤلاء وبين الآخرين
من ناحيتين : الأولى : أن الآخرين قد استخدموا عقولهم قديمهم ، أما هم فقدوا عقولهم
وحكموا عليها بالإعدام فلم يقدروا على التقدم ، لأن التقدم إنما يكون بتقديم العقل
وإرشاده ، والعقل قد عزل عن هذه الوظيفة . والثاني : أن الآخرين بقيت عقولهم عاملة
فبقيت نشيطة سليمة لم تصب بما يشبه الركود أو الفساد ، أما هم فأصيبت عقولهم فصارت
محتاجة إلى البعث والترويض والتحرين قبل أن تصبح قادرة على العمل ، فتعاطم الفرق .
ومعلوم أن كل شيء يصلحه العمل على حسب طاقته ويفسده الإهمال والترك . والعلم
والتجربة يرشدان إلى الاستعانة على الأبدان التي تقل حركتها وعملها بالرياضة لتبقى على
سلامتها وطاقتها ووظيفتها في الحياة . فإن من المعروف أن الأبدان التي يكثر سكونها
تكون عرضة للانهييار ، وفرصة سهلة للأمراض ، وقد تصاب في الآخر بما يجعلها غير
صالحة للحياة ولا قادرة على الاستمتاع بنعمة الوجود .

وأما الأمر الثاني — وهو الاعتقاد بأن الأولين قد فعلوا الخير كله وبلغوا الكمال
المطلق ، وأن أفعالهم كلها أفعال يقتدى بها — فقد ترتب عليه أيضاً نتائج . فإن هؤلاء
الذين اعتقدوا هذه العقيدة قد صرفوا كل قواهم وأوقاتهم وعنايتهم إلى محاولة الاقتداء
بأولئك الكاملين الخيرين ومحاولة الأخذ عنهم والتشبه بهم ، بل محاولة إعادتهم ونشرهم

لو كان ذلك مستطاعاً ... وهذه الفكرة التقليدية كانت مستولية على جميع الطوائف .
فالقائد والسياسي والزعيم والملك — كل من هؤلاء يحاول — ويتمنى لو قدر — أن
يقتدى بمن خلوا قبله من القواد والسياسيين والزعماء والمبوءك ، ويرى كماله ونجاحه
مقدورين بما يحسن أخذه ونقله عن ذلك المثل الأعلى القديم الذي تخيله — والمحدث
والفقيه والمفسر والتكلم والفيلسوف والأديب والنحوي واللغوي وسواهم — كل منهم
يدأب على أن يكون كالسابقين في هذه العلوم وعلى أن يخلط نفسه بهم وأن يفهمهم ويفهم
ما قالوا وكتبوا من المؤلفات والعلوم . وكل منهم يرى أن قيمته العلمية مقدره بما يأخذ
ويفهم عن هؤلاء وعن كتبهم ، بل والزهاد والعباد وأضرابهم عملوا على أن يكونوا نسخاً
مكررة لمن تصورهم مثلهم العليا من الأقدمين في العبادة والزهادة ، وهكذا كان جميع
الناس . وقد كان لهذا نتائج عديدة :

منها أن جميع البارزين الذين اشتغلوا بالتفكير وبالبحث العلمي قد وجهوا كل
تفكيرهم وبخبرهم إلى كلام الأولين وإلى ما خلفوا من كتب وآراء ، محاولين فهمها ووضع
الشروح والتفاسير عليها دون أن يحاولوا إبداء فكرة مستقلة أو إيجاد رأى جديد
— وهكذا أضاعوا قواهم في غير ما شيء وفي غير أن يفيدوا أو يستفيدوا . فكانت
الحسارة الإنسانية في هؤلاء لا يمكن تعويضها ، كما لا يمكن تصورها ولا تقديرها لجسامتها .

وكم يأسى المرء إذا علم أن آلاف العقول الممتازة في استعدادها — أو مئات الآلاف —
أو أكثر من ذلك — تلك العقول التي عدت لأمعة في ظلمات القرون الوسطى — قد بددت
وأفترق ما في إمكانها في إيراد الاحتمالات والإمكانات التي قد تحملها كلام الشيوخ المتقدمين
وقد يكون غير محتمل لها ! وكم يأسى إذا تذكر تلك المعارك الهائلة التي أداروها بإخلاص
وتقى وعناية وبلا انقطاع ، في الخلاف على فهم كلامهم — أي كلام الأولين — وفيما أرادوا
وعنوا بما قالوا وكتبوا ، وإذا نظر إلى هذه الجبال من الكتب التي لا يمكن تعدادها
ثم رأى أن كل ما فيها لا يخرج عن تفسير لكلمة قالها أحد القدماء أو عن اختلاف عليها
أو عن إيراد الوجوه التي يمكن أن تكون مرادة بها أو عن تبيان لفضائله أو لكراماته
وخوارقه ، ونحو ذلك مما يدور هذا المدار .

إننا لو جمعنا جميع الكتب التي تزخر بها المكتبات الخاصة والعامة مما وضع في الألف
السنة الماضية ، ثم أردنا أن نخرج بكتاب واحد لم يوضع هذا الوضع ولم يقصد به هذا

القصدي ، لأعجزنا الخروج ! وأدهى من ذلك هذا الركام من المؤلفات التي وضعت خاصة بالأولياء وبتراجهم وبسرده ما كانوا يتمتعون به من سلطان روي قهر لهم الطبيعة وأذل نواميسها فجعلها طوع أهوائهم ... معنى هذا كله أن عشرات الأجيال قد تنازلوا عن كل قواهم الذهنية لتضييع وتنفق في البحث عن كمال الأولين ، وفي التدليل عليه وفي التمسح بأركانهم ، والطواف بحرمهم ، وفي الحجج الروحي الفكري الذي لا إحلال منه إلى مشاعرهم . وسبب هذا هو اعتقاد الكمال فيهم . فيالها من خسارة اتزعجت من الإنسان أجل ما فيه مدى ألف عام ، بل اتزعجت منه معناه كله بدون أن تعوضه شيئاً .

ومنها — أي من النتائج المترتبة على تصور هذا الكمال — كثرة العمل مع قلة الإنتاج ، ونشاط الحركة التأليفية مع ركود الحركة الفكرية — أي إن المؤلفين والمتكلمين والناعبين في العلوم والحقائق يكثرون جداً ولكنهم يقولون أيضاً جداً ، لأنهم لا يصنعون شيئاً ولا يأتون بشيء . وذلك أن عملهم حينئذ لا يجاوز أن يكون ترديداً وتمديداً لما قاله وكتبه الأولون ، وإيجاد نسخ متعددة بأسماء متعددة لشيء لا يتعدد . لأن الإنسان لا يريد بما يعمل سوى الكمال الذي يتصوره إذا استطاعه ولم يمنعه منه مانع ، فإذا اعتقد معتقد بأن الكمال إنما يلتمس عند الماضين وفيما ألفوا وحكوا ورووا فلا محالة من أن يقضي حياته جاثياً أمام تلك الهياكل المقدسة جثو العابد أمام صنمه المقدس ، التماساً للفيوض والإمدادات والبركات . ولو أننا نظرنا في مئات الكتب وآلافها الموضوعية في علم واحد لما ألفيناها إلا كتاباً واحداً أخذت منه صور عديدة منها الصغيرة ومنها الكبيرة ، ومنها المشوهة ومنها المقاربة ، ثم نخلت أسماء على عددها . إننا نعد في علم التاريخ مئات الكتب وألوفها — وكذا في الحديث والفقه والتفسير وفي كل علم — ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتاباً واحداً ! فإنسان ألف منذ ألف سنة مثلاً مؤلفاً في علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها ، فإذا جاء بعده ألف مؤلف في هذا العلم فإنهم جميعاً سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه بلا نظر أو تفكير . وهذا هو الشأن في جميع المؤلفات التي تعص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم والتي يفوت إحصاؤها . وعلى هذا فمن الخطأ الذي يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأياً في مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأي قد قال به ورواه هذا العدد العديدي . والصحيح أن نقول إنها أو إنه رواية أو رأي إنسان واحد في مؤلف واحد نقله عنه هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل ، فلا نتخذ ونخذع بالكثرة

وتقول: كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدقها عشرات العلماء أو مثاهم! وكيف تكون كذباً ثم يخفي حالها على كل هؤلاء! إن من السهل على الإنسان ألا يثق برواية إنسان واحد وبرأيه، ولكن من العسير عليه أن يشك في رواية العشرات ورأيهم، ولا سيما إذا كانوا ممن يحل ويحترم. وقد طارت أغلب الأباطيل في أرجاء العالم الإسلامي بهذه الوسيلة حتى صارت من الحقائق التي يرد النزاع فيها ولا يقبل.

وكثرة العمل مع قلة الإنتاج على النحو الذي ذكرناه لها مفسدات: فهي تسرق أوقات القراء كما سرت أوقات المؤلفين بلا فائدة؛ فإذا قرأ القارئ عشرة كتب من هذا النوع فهو إنما قرأ كتاباً واحداً، والوقت والجهد اللذان بذلا في قراءة التسعة إنما ذهبا في غير شيء سوى التكرار والإعادة للكتاب الأول — ثم الكتاب الأول ماذا فيه! ومن المشكوك فيه أن يكون لهذا التكرار نتيجة — وهي أيضاً تزحم المكتبات والمطابع، وفي ذلك من التكاليف ما هو معروف — وهي أيضاً تعين على نشر الأباطيل والتمكين لها لأن الباطل الذي ينشر في عدة كتب ويقول به عدة كاتبين ينتشر أكثر مما ينتشر الباطل الذي يكتب في كتاب واحد ويقول به كاتب واحد — إلى مفسدات أخرى كثيرة.

ومنها — أي من النتائج المترتبة على اعتقاد كمال الأولين — استدامة الخرافات واستدامة الإيمان بها وإباء النزوع عنها، لأن من آمن بكمال قوم وبأن كل ما يصنعون خير وحق، وبأنهم مطبوعون على الصواب والحكمة فسيأخذ عنهم كل ما بلغه ووصله، وسيصر عليه ويأبى الشك فيه وإن كان فيه ما فيه من الفساد والبطلان، بل سيكافح ويناضح عن كل ذلك، ملقياً بعقله تحت قدميه، بل غير مفكر بأن له عقلاً يجب أن يرجع إليه. ومعنى هذا أن خرافة يكتبها مخرف في عصر من العصور تبقى متنفذة مع كل العصور، مؤمناً بها في كل العصور بلا تفكير في تركها أو شك فيها، بل تصبح عقيدة جامعة لكل من يحيى بعد قائلها وكاتبها. وهكذا تظل الخرافات تتكاثر حتى تخرج من ذلك مجموعة لا شبيه لها عند أمة من الأمم سوى الأمة التي ذهبت هذا المذهب وقالت هذه المقالة. وهذا هو ما حدث؛ فإن الأباطيل التي كتبها الشعراي أو الغزالي أو غيرها من المصابين بعقولهم ومعارفهم منذ مئات السنين لا تزال اليوم يُؤمنُ بها مثل الإيمان بها يوم أن قيلت، ولا يزال الإيمان بها يحمل تلك الحرارة التي حملت مؤلفها على وضعها في كتابه مزهواً فخوراً، بل إن حرارة الإيمان بها لا تزال تتزايد وترتفع على رغم القرون

التي مرت بها ، وعلى رغم المعارف المتجددة التي اجتاحت في البلاد الأخرى أمام سلطانها وجبروتها جيوش الجهالات اجتياحا مبيداً .

إن العاقل لتأخذه الحيرة البالغة متى أتيح له أن ينظر في هذه الكتب المُسنَّة التي تخرجها المطابع تباعا ليلتهمها القراء بشره ولذته ، وأتيح له أن يرى ما تحمل من جهالات بل من جنون وخبل ومن كفور ومروق ، ثم رأى كيف يقبل عليها ويقبلها قوم قيل : إنهم عقلاء ، وقيل إنهم مؤمنون ، وقيل إنهم خيرون ، بدون أن يجدوا فرصة للشك فيها ، وبدون أن يجدوا أذناً تصيخ لنقدها والاعتراض عليها ، بل بدون أن يتركوا لغيرهم أن ينقد أو يعترض أو يشك . وقد تخف أو تتلاشى هذه الحيرة التي تأخذ بالعاقل إذا علم أن سبب هذا الاستسلام الفظيخ لهذه الكتب ولكاتبها يرجع إلى هذه العقيدة القائمة على اعتقاد الأوائل من نسل الشموس ، ومن حفدة الآلهة البرئين من الخطأ ومن الجهل ومن الضلال والخبث وإرادة السوء ومن الضعف والعجز . ولو أن شيئاً من الشك نفذ إلى هذا الاعتقاد فأوهاه وأصاب حرمة المحرم بشيء من الحروق لكان من المحقق ألا يجد هؤلاء المصلون لهم أتباعا ورعايا يسرون خلفهم وبين أيديهم كالقطعان الذعورة .

يجد المصلحون اليوم عناء وإرهاقا في محاولتهم هدم ما شاده الجهل الأول ، ويلقون إعراضاً مزعجاً وبلادة منكرة ، ويذهب كل ما يبذلونه أو أكثره في هذه المحاولة هباء : فالبراهين لا تجدى بل لا تسمع ، والعظات لا تؤثر ، وكل شيء يروح كما جاء . والعائق الأكبر هو أن هؤلاء الذين يراد إصلاحهم يرون الكمال في أولئك القدامى الذين يجدون هذه الأباطيل والخرافات في كتبهم . فمن المستحيل أن يجمعوا بين الكفر بأباطيلهم وبين اعتقاد الكمال المطلق فيهم . والسبيل التي لا سبيل سواها ، لإخراج هذه الجماعات المنكودة مما هي فيه ، أن تُعلِّم الكفرَ بهؤلاء والشك فيهم وإساءة الظن بهم وبعلمهم ، وأن تعلم أنهم كانوا تحت ظنهم بهم جدًّا ، وأنهم أبعد عن الكمال من المعاصرين ومن المتأخرين ، وأن تعلم كيف تثق بنفسها وب عقلها واستعدادها .

إنى لأنظر إلى هذا الميراث الثقيل الباهظ الملقى في طريق المسلمين ، وإلى هذه الأسفار التي تروغ أعدادها ويعجز تعدادها — وما فيها مما لا يستقيم لأمة أمرها ووجودها معه ، فأفزع وتذهب بي الأفكار في كل وجه ، ثم تؤوب بي مجتمعة مجمعة على أنه

لا خلاص إلا إذا استطعنا أن نكفر بهذا الميراث ، وعلى أنه لا يمكن الكفر به إلا إذا عرفنا كيف نزل مورثينا إياه عن هذه العروش السماوية التي صنعناها لهم على حساب قوانا العقلية والدينية ثم أجلسناهم عليها ، ثم جثونا تحتهم نسبح بحمدهم ونقدسهم ونترهبهم عن كل ما يخطر بالبال من إثم أو نقص أو ضعف ! فهل من سبيل إلى هذا ؟ على أنه لا سبيل سواه .

ومنها — أى من نتائج هذا الاعتقاد أن وقع معتدوه بين عاملين يتنازعان قواهم ويتجادبانهم . وذلك أن الإنسان — كائنا ما كان اعتقاده وتفكيره — لا يستطيع أن يكون غير لبنة في هذا الوجود المتطور المتقدم ، فهو من حيث هذا سائر مع الوجود السائر ، أراد هذا أم لم يرد ، عرفه أم لم يعرفه . فإذا كانت له أفكار واعتقادات لا تعترف بهذا التقدم والتطور ، بل تنكره وتجده وتحاول الرجوع به إلى الوراء ، فهو من حيث هذا متخلف عن الوجود السائر ، أو سائر سيراً مضاداً . فهو إذن واقع تحت حكم عاملين متضادين كل منهما يؤثر فيه ويعمل فيه عمله ، وهو حينئذ عاجز عن أن يخلص لأحد العاملين ويكون له وحده ، فلا مفر من أن يصبح متقسماً وأن تضع قواه هباء ، بل لا مفر من أن يتمزق بين هذين العاملين كما يتمزق كل شيء وقع بين أمرين قويين متنازعين . ولهذا فإن هؤلاء الذين يتلفنون إلى الوراء ويحاولون — لو أمكن — أن يرجعوا بزمانهم ومكانهم وبالوجود كله إلى ذلك العصر الذى تخيلوه وتخيلوا أهله يصبحون أهدافاً سهلة للأفكار المضطربة السوداء وللعقد النفسية والارتباكات العصبية والمشروعات الخيالية التافهة السريعة التى يولدها الإعياء والعجز والحيرة الغالبة . والحيرة والتردد لا مثيل لهما في تخذيل الشعوب وقتلها ، وفي تبديد قوى النفس وإصابتها بالعجز عن كل فعل له قيمة وأثر باق ... والذين يصابون بالحيرة والتردد من غير المنتظر أن يصنعوا شيئاً يحوز الإعجاب والخلود ، كما أنه من غير المنتظر أن يجدوا في هذه الحياة سعادة حقيقية .

والشعوب — بل والأفراد التى تصيب النجاح — هى التى ترزق القدرة على التصميم وعلى التخلّى عن كل حيرة وتردد . والتصميم ضرورى فى الحالة العادية وفى الطارئة أيضاً وفى كل حالة ، فهو ضرورى فى حالات الحروب وفى حالات السلم ؛ فلا بد من التصميم على الحرب فى أوانها ، كما أنه لا بد من التصميم على السلم فى إبانها ، وإلا فلا ظفر

لا في هذه ولا في هذه . ولو أن إنساناً حاول أن يقوم بعمل صغير ثم لم يعرف كيف
يدود كل حيرة وتردد لما كان من المأمول نجاحه .

وإذا كان هذا كله صحيحاً — وهو صحيح بلا شك — فهؤلاء الذين يقولون إنه
يجب الرجوع إلى الماضي في كل شيء ، ويجب هجر الحاضر في كل شيء ، ويقولون إن
الحير كله في الأزمان الناهبة ، والشركه في الأزمان الحاضرة والمقبلة ، ويقولون إن
قلوبهم معلقة بالماضي البعيد أبداً ، وإنهم يعملون على الرجوع إليه — هؤلاء لابد أن
يصابوا بالحيرة التي يعي الخروج منها . وذلك أنهم يقولون هذه المقالات ويعتقدونها
ويرونها حقاً ، ولكنهم من ناحية أخرى يرون الدنيا وما فيها تدور أمام أعينهم ماضية
معمنة في المضي ، مصيبة من النجاح والفوز ما لا تمكن الماراة فيه . فالواقع المشهود
المنظور للموس يقول لهم — إذا قالوا هذه المقالات — : كلا إنها غير صحيحة وغير
صادقة ، وإنى — أنا الواقع المشهود — أشهد ببطلانها وكذبها ، ثم تصيح بهم هذه
العقيدة من ناحية أخرى مؤكدة صحتها وصدقها وتأييد الأديان كلها وأهلها لها . فتركهم
الحيرة ويركهم الشك التولدان من الواقع المشهود ومن هذا الاعتقاد المكين القديم .
فيصرون نهياً متوزعاً ، وتذهب هذه الحيرة وهذا التردد يأكلان عقولهم وأفكارهم
وأعصابهم وأعمالهم ، ويعجزانهم عن أن يصنعوا شيئاً عظيماً ... وهذا كله ملاحظ على
هؤلاء الذين لا يفتأون ينادون بالماضي — وقد عجزوا عن أن يرجعوه ، وعجزوا عن أن
يعيشوا فيه ، فهو لا يستطيع الجيء إليهم ، وهم لا يستطيعون الذهاب إليه ، لأنهم ليسوا من
أبنائه . وسنة الحياة لا تقاوم . وعجزوا من الناحية الأخرى عن أن يعيشوا في هذا الزمان
الذي هم فيه لأنهم يحاولون دائماً التملص منه والخروج عنه — ولأنهم لم يهبوه جهم
وتفكيرهم وهواهم واتجاههم . فصاروا منقطعين عن هذا وعن هذا ، وأضحوا مجندين
بينهما ، ينظرون إلى هذا الجانب تارة وإلى الجانب الآخر تارة أخرى . ومن المعلوم
أن إنساناً ما لا يستطيع أن ينتزع نفسه من العصر الذي يعيش فيه انتزاعاً ، وأن ينقلها
إلى العصر الذي يحبه ويتمناه . فإن الإنسان ابن زمانه وابن نظمه وتقاليدته وتعاليمه
وعاداته وأفكاره . وهذه الأشياء تحكم على الإنسان وإن كان من الممكن أيضاً أن يحكم
عليها ، ولكن من غير الممكن أن يخرج من كل سلطان لها وتأثير . ولعل من العجب
أن البشر هم الذين يوجدون هذه الأمور ثم يتعبونهم ويصبحون من أرقائها الخاضعين
لأمرها ، بل ثم تصبح هي التي توجدهم وتصنعهم وتكيفهم .

فهؤلاء الذين يجهرون كل وقت بالدعوة إلى الإنسلاخ من عصرهم ومن علومه وأخلاقه وعاداته ونظمه، ليحملوا أنفسهم على أزمان قضية عشقوها، وليعيشوا بأخلاقها وعلومها وعاداتها، ما مثلهم إلا كانسان قد شد شدّاً محكماً لا خلاص منه بعربة متجهة بسرعة إلى جهة من الجهات، يحاول الرجوع إلى الجهة الأخرى بكل ما فيه من تحفز وتوثب واهتمام وأعصاب. إن مثل هذا الإنسان لن ينال من هذه المحاولة سوى إجهاد أعصابه وسوى عذابه النفسى المتواصل، ولكنه لن يتخلى عن عربته ولن يرجع إلى جهته.

وعلى هذا الاعتقاد — اعتقاد كمال الأولين ونقص الآخرين — قامت أكبر جهالة رضيا الإنسان لنفسه، واستعبد بها عقله ونزل بمقتضاها عن أجل ما وهب — عن الفكر الحر الباحث الناظر في الأشياء كيف شاء بلا قيد أو حرج — هذه الجهالة هي إلزامه نفسه بما سماه (التقليد) ! وقد نظم ذلك شعراً يحفظه ويدرسه في قوله: (وواجب تقليد جبر منهمو) أى من الشيوخ المتقدمين ! من العقول أو من شبه العقول أن تفرض العبودية الفكرية على أمة من الأمم أو على الأمم كلها بالقوة وبالسلطان العاقى، كما يفرضان سائر المظالم والجبروت، ولكن من غير العقول أن يفرض الإنسان ذلك على نفسه طائعاً مختاراً وأن يلزمها به إلزاماً، وألا يلتفت إلى من أراد رجوع حريته إليه وإعطائه ما سلب، بل يعد ذلك عدوه وخضمه فيصاوله وينزله.

طغت هذه الجهالة على العالم الإسلامى، واستبدت به استبداداً مبيناً، وأجهزت على كل حرية فكرية عنده، وسرقت من العقل وظيفته، فاعتاد أن يأخذ الأشياء قضية مسلمة وألا ينظر أو يفكر أو يبحث أو يشك... بل اعتاد أن يأخذها أخذ تسليم بدون فهم وبدون رغبة في الفهم وبدون أن يرى ذلك مطوباً. فأصبح من أخلاقه التى تكاد تكون طبيعية أن يصدق كل شيء وأن يقبل كل شيء وألا يحاول فهم شيء. وصار التصديق وتبديل الحاسة العقلية من الصفات المميزة له المسيطرة عليه... بالتصديق آمن بكل الحرافات التى يلقنها بدون عناء حتى صار أعجوبة فى استسلامه الخجل لكل هنة فكرية — وتبديل الحاسة العقلية وقف دون الأشياء، ودون النفوذ فيها، ودون فهمها بل ودون الرغبة فى فهمها حتى عد الشك فى الأشياء ومحاولة الفهم للأمر من خصال الكافرين والملاحدين المارقين، واعتبر سرعة التصديق وسهولته والوقوف أمام الأشياء بيلاهة وبلاهة، كوقوف الأصنام أمام عابديها، من علامات القبول والإيمان. فالشك فى المتن

أو في الشرح أو في الحاشية أو في التقرير كفر ، والإيمان بكل ذلك — فهم أم لم يفهم ، صدقه الواقع أم لم يصدقه ، ائتلف أم اختلف ، صلاح وورع وسلامة عقيدة ! والمفروض المأمور به أن يهتم الإنسان عقله ونفسه وأن يجعل أصحاب المتون والشروح والحواشي والتقارير من وراء التهم وفوق الظنون . فمن وجد في كتاب من هذه الكتب تناقضاً أو باطلاً أو كذباً أو جهلاً أو سخفاً وكفراً وجب عليه أن يعتقد أن ذلك من نقص فيه لا في المؤلف ، ومن تناقض أو باطل أو كذب أو جهل أو سخف أو عجز في فهمه هو ، أما المؤلف فالواجب تنزيهه وتقديسه وتصديقه ... وقد غبروا مدى ألف عام وهم مصلتوها سيوفاً مرهفة في وجه كل من يحاول أن يعترض أو يصحح أو يشك بل أو أن يفهم ويعقل ... وإلى اليوم لا يزالون شاهري هذا السلاح .

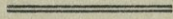
ومن الحقائق المعروفة في المعاهد الدينية الكبرى أن المفروض على الأستاذ المدرس وعلى الطالب أن يصححا عبارة الكتاب وأن يخرجها تخريجاً صحيحاً وأن يوجد لها المحمل الحسن وإن كلفهم ذلك التضحية بالعقل وباللغة وبالذوق وبكل شيء .

فجهالة التقليد من الجهالات ذات الآثار القاتلة . وأظهر آثارها كما سبق شيان : التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل ، وغل العقل عن الفهم ! ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغاً من الحضارة والمدنية ما لم تشك وما لم تفهم . فالشك والفهم شرطان ضروريان في تحصيل الحضارة والعلم والقوة . والذي لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم ، والذي لا يعرف أن يفهم لا يعرف أن ينبغ ويمتاز ، وبالنبوغ والامتياز فقط تتقدم المعارف وتخلق الشعوب وتقوم الحضارات .

ومن الواجب أن نعلم أن الوجود الإنساني كله والحضارات الإنسانية أجمع إنما قاما على فكرة التطور ، وعلى فكرة أن الإنسان مستعد دائماً للتقدم والترقي بكل معانيه ، وعلى أن ما أمامه أفضل مما وراءه ، وعلى أنه يلزمه أن يتسم للمستقبل ويبسط إليه يديه ، وأن يعبس للماضي وينقبض منه ويقبضها عنه . على هذه الأفكار الجامعة الصغيرة الكبيرة معاً سارت الإنسانية بخطاها الوئيدة الثابتة نحو هذه الحياة التي تحياها اليوم ، وستبقى سائرة في طريقها بإرشاد هذه الأفكار أيضاً وبخزنها وتخريضا حتى تصيب أهدافاً وأغراضاً أخرى تهون في سبيلها كل مشقة . ولو أن الإنسانية كلها آمنت

بهذه الفكرة — أى فكرة الرجوع إلى الوراء — كما يريد هؤلاء وعقلت قواها بها لما كان من المستطاع أن تعمل خيراً ولا أن تقضى على شيء من الشرور الموروثة عن الأزمان الأولى وعن أخلاق أهلها . ومن الواجب أن يعلم أيضاً أن نظر الأمة إلى هذه الفكرة مقدور برقيها ؛ فالأمة التي بلغت القمة في الرقي وسمو التفكير وفي الاستعداد لأخذ أسى ما في الحياة من معنى ومن فن تكون أ كفر الأمم بها وأكثرها ابتساماً إلى المستقبل وتطلعاً إليه وثقة به وعملا له . والأمة التي ينذر نصيها من الرقي تأوى إلى هذه الفكرة بعلمها وعملها بقدر ذلك . وعمل الأمم للمستقبل ولبعث وللتجديد إنما ينهض على هذه القاعدة . وقد جلت هذه الحرب ما لهذه الفكرة — قبولاً ورداً — من آثار في الشعوب ومن تقرير لمصايرها وقيادة لها : فلو أن ألمانيا أو إنجلترا أو أمريكا أو غيرها من الدول الكبرى اعتقدت بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان وبأن ما عجز عنه القدماء فلن يقدر عليه أبناؤهم وأبناء أبنائهم ، لما استطاعت أن تحسن وتجدد في أسلحتها وقواها وعلومها وفنونها وأساليبها ، ولقرت عيناً بما صنع قبل ذلك ، ولما أمكن أن تخرج القبلة النورية ولا غيرها مما دان لقدرة التأخرين ، وكان فوق قوى المتقدمين . ولعل أعجب أسرار هذه المسألة وهذه الفكرة إسقاط بريطانيا للرجل الذي أعطاه النصر وانتزعه لها من بين لهسوات الهزيمة ، إذ لا شك في أن الانجليز إنما أسقطوا تشرشل لإيمانهم بأن من الممكن أو من المحقق أن من سيخلفه سيحييهم بأفضل وأعظم مما يحييهم به واهب النصر لو أبقوه مكانه ... ولا ريب أن شعباً يعتقد هذه العقيدة في تشرشل وفي خلفه شعب يؤمن أشد الإيمان بالمستقبل وبالتطور وبأن المستقبل وأهله دائماً أفضل وأكمل من الماضى وأهله ... وإن شعباً تقوده هذه الأفكار الجميلة لعسير جداً مباراته أو إزاله عن سلطانه الضخم الواسع . ولو أن رجلاً كتشرشل كان لنا معشر المؤمنين بهذه الفكرة وأعطانا هذا الذى أعطى أمته لكان من المستيقن أن نعد من الجنون ومن الخيانة — بل ومن الكفر بالله — التفكير في إبعاده عن الحكم والقيادة ولكان من المستيقن أن هذا التفكير لا يمكن أن يصيب نجاحاً لو أريد العمل به ، ولكان من المستيقن أيضاً أن نعبده بعد وفاته عبادة تفوق عبادتنا لكل هؤلاء الأموات المتناثرين في أرجاء العالم الإسلامى ممن عبدوا مجاناً ، لأنهم لم يصنعوا شيئاً يستحقون عليه هذه العبادة التي يخصهم ويقصد هم بها ملايين المسلمين العاكفين على الأضرحة وعلى الذكريات والأسماء ، بل صنعوا ما يستحقون عليه الرجم والتدمير والكفران الأبدى .

وفكرة المغالاة في الأموات الماضين هي فكرة من هذه الفكر — أى من فكر
عجز المتأخر عن مباراة المتقدم ومساواته .
وقد اتضح لنا بعد هذا كيف يجب أن ننظر إلى الماضى وأهله ، وكيف يجب
أن ننظر إلى المستقبل وإلى أهله ، وكيف يجب أن نضع أنفسنا . والويل لمن تعد
والناس حوله قيام .



المسئلة التي لم تحل

يتبين للقارىء، إذا كان قد قرأ فصول هذا الكتاب كلها، أن أساس هذه المزالق الفكرية قائم كله على التدين الباطل، أو على الفكرة الدينية من حيث هي. فالمسئلة التي ما أظن أحداً قد درسها دراسة صحيحة وافية، هي أن فكرة التدين قائمة على الإيمان بسبب ترجع إليه جميع الأسباب، لأنه هو خالقها، المهيمن عليها، المتصرف فيها كيف شاء. وهذا السبب الذي هو سبب الأسباب — أى الله على اختلاف كبير بعيد بين أصناف المتدينين فيه وفي حقيقته — لا يحتاج هو إلى سبب في وجوده وقيامه بنفسه وفي فعله وصنعه. فإذا وصلوا إلى الإيمان بهذا السبب وإلى الإيمان بقدرته الكاملة التي لا يعجزها شيء ولا يند عن سلطانها وقبضتها أمر، شكوا في الأسباب الأخرى التي هي دونه، والتي هي من خلقه وصنعه! وإذا ما صاروا إلى هذا الشك في الأسباب تراخوا فيها وفي الأخذ بها، وفي العمل على إتقانها والتعويل عليها، وحينئذ تصاب قواهم كلها بالضعف وبالعجز عن الإبداع والتبريز وعن الإنتاج والعمل البارع العظيم. فإن الإنسان لن يكون سببياً محضاً إلا متى آمن بأن هذا الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية، تسير إلى نهاياتها وتنتائجها أيضاً سيراً آلياً طبيعياً، ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها أو أن تتحكم في نهايتها. وهو — أى الإنسان — لن ينجح النجاح المرجو إلا إذا كان سببياً محضاً؛ فالإيمان بسبب الأسباب يمنعه — على حسب ما تصور وبلغ — من أن يكون سببياً، وعدم كونه سببياً يمنعه من النجاح — هذا هو كل ما استطاعت مدارك البشر الدينية أن تبلغ وأن تعرف. تلك لعمر الله هي المسئلة الحقيقية الكبرى التي لم يوجد لها حل حتى اليوم.

فالتصور الدينى البسيط الأول يدرك بالضرورة أن هذا الإله إما أن يكون له فعل وعمل في هذا الوجود، أو لا فعل ولا عمل له؛ أما الفرض الأخير فمعناه بلا شك نفي الإله، إذ لا إله بدون عمل وأثر. أما الافتراض الأول الذى لا بد من الاقتناع به فإنه على حسب الفكرة الدينية — أو على حسب تصور المتدين — يوجب الارتباب والاستهانة بالأسباب وينزع الثقة بها منها. فإن تصرف هذا الإله حينئذ وعمله لن يكون إلا دخولا

في الأسباب وتصرفاً فيها أو عملاً بدونها، أو إيجاداً وخلقاً لها. فهو قد ابتدأ الأمور بدون أسباب، فلا محالة من افتراض قطع سلسلة الأسباب ومن الأخذ بها ابتداء، ثم هو إذا فعل وصنع فلا بد أن يكون فعله وصنعه إما وقفاً لسبب وإبطالا ومنعاً له من بلوغ غايته، وإما إعانة له وإبلاغاً للغرض والنتيجة بدونه، وإما إيجاداً وخلقاً له. والاحتمالات كلها معناها الشك في الأسباب والتهوين لشأنها.

وقد يقال بعبارة أخرى — على حسب تصور المتدين —: إن المسألة لا بد أن تفهم هكذا: الأسباب إما أن تكون كافية للآخذين بها أو غير كافية، فإن كانت كافية فأين الإله وأفعاله وألطفه؟! فهي إذن غير كافية، وإذا كانت غير كافية فهي إذن غير خليقة بأن يعول عليها المؤمن تعويلاً صحيحاً ولا أن يلتفت إليها. ومن هنا يصبح غير سببي.

وجهة أخرى، تلك هي أن المتدينين عجزوا عن أن يتصوروا إلههم تصوراً يسمو كثيراً على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين؛ فإله في تقديرهم وتصويرهم — وإن اختلفوا في هذا وتخالقوا كثيراً — لا يعدون أن يكون — في أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الأشياء وعلى الآخرين وعلى سائر عبيده ورعاياه — بشراً مقتدرأً، كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم. ولهذا فإنه — أى الإله — يعضب عندهم ويرضى وينتقم ويثيب ويحازى ويعامل على مقتضى انفعالاته وعواطفه، ويلجأ إلى المحسوبة وإلى الإعطاء والمنع على الشفاعة، ويتحكم في هذا العالم كله على ما تشير به هذه الانفعالات والتطورات عنده، وعلى مقتضى تطورها وتغيرها — لا على مقتضى نواميس شاملة ثابتة.. فإذا بلغوا هذا المكان من الإيمان هبوا يلتمسون رضا هذا الإله على ما تصوروا، وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون ما يحسبون أنه ينيلهم رضا وعطفه، وأرصدوا جل قواهم وأوقاتهم وأعمالهم لهذه السبيل، ليدركوا لديه ما يشتهون ويتبعون؛ فشغلوا بذلك عن سلوك السبيل، وعن محاولة القيام بالأعمال النافعة المجدية. لأن تصورهم للأشياء قد أصيب بالفساد، وإذا فسد التصور فسدت الأعمال لا محالة. وأصبح مثل هؤلاء كمثل أولئك الزعانف المتعلقين المنافقين الكذابين الذين يحدثنا التاريخ كيف كانوا ينالون رضا ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم، وكيف كانوا ينالون ذهبتهم وفضتهم وضياعهم وجواريرهم وكل ما يحبون بالملق والكذب والنفاق والعبودية والامتداح وكل تلك الخنازى الخلقية التي أثبتتها لنا كتب الأدب والتاريخ وأسمتها مكارم ومكافآت وأدبيات.

إننا إذا وضعنا أمامنا ملكاً أو خليفة من أولئك الملوك والخلفاء ، وتصورنا كيف كان الناس يلقون الجزاء والخير والشر عنده ، وتصورنا كيف كان يعطى ويقرب الشعراء والشفعاء ، وصنوف المتعلمين لكبريائه ، وكيف كان يحرم ويقصى أهل الجد والصدق في القول والعمل ، وكيف كان يتخرق عطاء بدون حساب ، لأنه أراد ذلك ، ولأنه رضى ، ولأنه أحب أن يمدح ؛ وكيف كان يسيل تقمة وعذاباً ، لأنه أراد ذلك ، ولأنه غضب ، ولأنه أحب أن يرهب ، ثم تصورنا كيف كان يتصرف في إقطاعياته وفي عييده ، وكيف كان يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرماً ، ولا عقلاً ولا سفهاً ، ولكنها الحطرات والسواس تلم بالرجال فتصيبهم بالخبال ، وكيف كان ينتقم ويشيب — : إننا إذا تصورنا مثل هذا الخليفة أو الملك ، ثم تصورنا كيف يمكن أن يكون فساد من يعكفون على الطواف بكعبته ومن ينقطعون إليه ، يلتمسون رضاه وهباته ، ويتعرضون لمواقع مجازفاته ، وكيف يصبحون شر الأنام طراً ، وكيف يعجزون عن أن يفعلوا الخير والصواب ، ثم تصورنا قوماً يؤمنون بقوة مطلقة علياً يسمونها إلهاً ، ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة — : إننا إذا تصورنا ذلك كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون — على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيأهم وأمزجتهم وأجناسهم — عن أن يهبوا الحياة شيئاً جديداً أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألفة .

وأمر آخر ، ذلك أن المؤمنين يرون دائماً أن الله حينما خلق العالم وخلقهم قد ضمن أرزاقهم وكفلها وتعهد بحمايتهم ورعايتهم في كل أمورهم أو جلها ، لأنهم لا يتصورون أن يتخلى الله — وهو الكريم القادر — عن صنع يديه وعن أوجدتهم اختياراً واقتداراً ... فيصيبهم هذا الاعتقاد بمثل ما يصاب به الطفل المدلل المكفول بين والدين مدلين رحيمين ثريين — أى يصاب بالتواكل والاعتماد على القوى الخارجية . وحينئذ لا يصنعون لأنفسهم ما يجب أن يصنع وما لن يظفروا به إلا إذا صنعوه هم . ولا يمكن أن يكونوا في أفكارهم وأعمالهم مثل أولئك الذين يرون أنهم متروكون موكولون لقواهم ولأنفسهم ، كما أن ذلك الطفل المدلل المكفى لا يمكن أن يكون مثل ذلك الرجل العصاى الذى يعلم بأن الواجب عليه أن يعمل ويناضل ليعيش وإلا فلا سبيل له إلى البقاء .

ثم إن المؤمن يعتقد — عادة — بأن الله إذ تفضل عليه خلقه وأوجده من صميم العدم فمن الواجب عليه أن يشغل بخدمة ذلك الرب التفضل وبالتقطاع إلى عبادته ، زاهداً في خدمة نفسه وخدمة شهوته وحاجاته وشئونه الخاصة ، وأن يصرف — إن

استطاع — كل قواه وأعماله وأوقاته — أو أكثر ذلك — إلى القيام بشكر ذلك النعم الخالق المتفضل ، وإلا فإنه عبد سوء ، لا يجزيه الله إلا الحرمان والطرده . وحينئذ يجيء عاجزاً في تناوله الأمور والحياة ، ويكون دون ذلك الذي صرف جميع قواه وأوقاته في سبيل الانتصار في معركة الوجود والبقاء . وما من شيء ينجح فيه المرء إلا على قدر انصرافه إليه وإعطائه من نفسه ووجوده . وهنا يتجلى الفرق بين الرجلين .

على أن هناك ما هو أكبر وأظهر في إيجاد الاختلاف بين المتدين وغيره في هذه القضية ؛ ذلك أن الإنسان — مهما كان تافهاً وصغيراً — لا يمكن أن يحيا بدون أمل وبدون شيء يريجه . والعادة أن الإنسان يحاول أبداً أن يجعل أمله أحسن الآمال وأفضلها إن استطاع . وإذا خیر بين أملين — أو آمال — فلا بد أن يختار أكبر هذه الآمال في رأيه وأجملها إلا أن يحول بينه وبين ذلك حائل — وهكذا هو في حياته وفي تصوره آمله وطلبه لما وسعيه وراءها . ومن هنا اختلفت الآمال واختلفت وتعددت الطرق التي تسلك إليها ، لاختلاف الناس في تصورهم وفي استعدادهم وظروفهم وقواهم وصحتهم ، وغير ذلك مما يوجه المرء ويسيطر على مسالكه . وقد يصرف الأمل الواحد عن عشرات الآمال أو عن كل الآمال التي يطلبها الآخرون ويعملون من أجل الظفر بها . وإذا وجدت الناس مختلفين فاعلم أن كل واحد منهم مشغول بأمل قد ملأ عليه آفاق نفسه ، وأن هذا الإنسان لا يعمل كما يعمل الإنسان الآخر لأن له أملاً آخر ، ألهاه عن ذلك الذي شغل الآخر ، أو لأنه تصور الطريق تصوراً لم يتصوره الآخر ، أو لأمر آخر من هذه الأمور التي تصنع الخلاف والاختلاف بين البشر في أعمالهم وسبلهم ووجهات نظرهم .

على أنه لا خلاف في أن أسمى هذه الآمال وأقواها في الاجتذاب والتوجيه والسلطان هو ذلك الأمل الضخم الأبدى في تلك الحياة الضخمة الأبدية التي ينال فيها المرء الخلود وكل ما يرجى من حاجات الجسم والنفس بدون أن يكدر ذلك شيء من المكدرات المعروفة التي تشوب لنداء هذه الحياة الأولى القصيرة ، والتي تملؤها بالخوف والاكتئاب . فإذا ما استطاع إنسان أن يتمثل هذا الأمل وأن يعنى ويتغنى به ، وأن يصرف إليه تصوره والتفكير فيه وفي لذة الظفر به والوصول إليه والحصول عليه ، فلا محالة من أن يشغله ذلك عن كل شيء في هذا الوجود ، وقد يطغى عليه وعلى وجوده حتى لا يدع منه لهذه الحياة شيئاً ، وقد يدع شيئاً قليلاً أو كثيراً . والاختلاف في هذا

راجع إلى الاختلاف في قوة اجتذاب هذا الأمل الأخرى وضعفه . وقد يفنى عن هذه الحياة ويغيب عنها مع أنه فيها لأنه ليس من أهلها ، لا ينافس ولا يعاضب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يحارب أو يسالم من أجل شيء فيها ، ويصير كذلك الرجل الورع الطيب الذي صرفه ورعه ودينه عن كل ما هنا حتى قال فيه معاوية بن أبي سفيان — وهو يضع خطوط الطريق لابنه يزيد — : « أما فلان فقد أعجزه الورع ، فدع له دينه يدع لك دنياك » — يعني أنه لا يبالي بشيء من أمور الدنيا لأن همه وأمله مصروفان إلى الآخرة وإلى الاستعداد للقائها .

فإذا لاحظنا على المتدينين — أفراداً وشعباً — عجزاً عن إيجاد الحياة وعن التحليق بالصناعة أو الزراعة أو التجارة أو العلوم المادية الإنسانية ، أو عن شيء ما من وسائل الحياة وأسبابها ، فلنعلم أن أحد أسباب هذا العجز هو هذا التصور لهذا الأمل العظيم والانصراف إليه بأكثر العقل وأكثر العمل وأعظم الاهتمام ؛ وإذا عقلنا هذا لم يطل تعجبنا إذا وجدنا على بن أبي طالب وأمثاله وجيوشهم ينهارون بلا عناء حينما نازلوا أمثال معاوية وجنودهم ورجالهم ، وإذا ألفينا الرجل التقى الورع المحافظ على فروضه وعباداته ينهزم شر هزيمة في كل عمل يتناوله أمام ذلك الذي جعل فرضه ودينه وعبادته هو التحليق بتجارته أو صناعته ، مصيراً ذلك إلهه المطاع المعبود وربّه .

فالمؤمنون إذن يشغلون بأملهم في الآخرة عن أن يصنعوا لهم في الدنيا أملاً جسيماً عظيماً ، فيأتون عادة عاجزين عن اللحاق بالآخرين الذين صنعوا لهم هذا الأمل ثم اعطوه كل نشاطهم وإبداعهم ، فأصبحوا فيها السادة الغالبين .

ومن المعلوم أن أوروبا يوم أن كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة كانت في ذلك الموهان والضعف والعجز الذي نعرفه ونقرؤه ، فلما أن مرقت من إيمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الأخرى وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية هي آلهتها التي وحدتها وأبت الإشراف بها ، سعدت بالحياة هذا الصعود الذي أعجز أبصارنا تنوره والنظر إليه . وقد قال أحد فلاسفة الإنجليز المعاصرين المدرسين اليوم في إحدى الجامعات البريطانية — وهو ملحد كما هو ظاهر — : « إن أوروبا لم تستطع أن تكون أوروبا إلا بعد أن أعتقت نفسها من ريق الإيمان بالآخرة وبالله » .

وقد كانت روسيا القيصرية المسيحية منذ أقل من ثلاثين عاماً مثلاً طيباً للفقر والضعف والسكنة والجهل ، حينما كانت مسيحية متدينة صالحة ! فلما أن مرق بها

البلشفة وصنعوا لها أرباباً آخرين وعبادة أخرى ، صارت هي روسيا اليوم ، قاهرة ألمانيا التي لم تكن تقهر ! ولعل من الطريف أن روسيا هذه قد كفت لهزيمتها وإخراجها من الحرب العالمية الأولى معركة واحدة رماها بها قائد ألمانيا العبرى . وقد لخص أحد أدباء الروس المخضرمين الذين عاصروا العهدين : القيصرى والبشقى ، أسباب الفروق بين أولئك الروس وهؤلاء ، وعوامل التحول قائلاً : « لقد شاهدت الزراع والعمال البائسين اليائسين فى الزمان القيصرى يوم أن كانوا يشكون بؤسهم وجهلهم وقصرهم وأمراضهم وسائر فسادهم الاجتماعى إلى القوى الخفية المجهولة ، فكانوا يومذاك مثلاً رائعاً فى الانحطاط ، ثم شاهدت هؤلاء أنفسهم وهم يشكون ذلك إلى المصنع والمحراث والمدرسة ، فصاروا هم الروس الذين نالوا إعجاب العالم ورضاه سنة ١٩٤٤ وما بعدها » .
وكذلك القول فى تركيا وفى كل الأمم الحديثة والقديمة .

ولعل الفرق يظهر جلياً فى دولتين شرقتين متجاورتين ، وهما اليابان الفتية المتوثبة والصين الواهنة الكسول . فاليابان ، وإن كان للدين البوذى فيها آثار وبقايا ومعابد وتماثيل ، إلا أنها قد نضت حقيقة هذا الدين فلم تدع على روحها منه شيئاً ، وإن أبت بعض تلك الأشياء على جسمها الخارجى ! والدين الشنتوى الذى تمصته الروح اليابانية هو الدين الذى يوجهها ويمثلها ، وهو دين الطبقات العليا والأشراف هناك . وهو دين يقوم على عبادة الطبيعة وعبادة مظاهر هذا الكون الجميلة المختلفة ، وعلى عبادة الجمال والقوة المادية . ولهذا فإن اليابانيين يبالغون جداً فى تصور الجمال وفى إدخاله على كل وجوه الحياة ، حتى على لعب الأطفال وأحذيتهم الحشبية وأصغر الأمور التى يعملون . وهو دين ليست له طقوس ولا فروض ولا عبادات خاصة ولا كتب ذات نصوص ، يتعبد بها ويتلاوتها ، وهو لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والعقاب والجزاء . وخلاصته أنه دين طبيعى أو أنه دين الطبيعة فى أعم معانيها ! ومن ثم كان أهله من أشد الناس اتصالاً بالطبيعة وحباً لها . أما الصينيون فقد رماهم الدين الكنفشوسى وسواه بما لم يستطيعوا القيام منه ، لكثرة ما فيه من الأوهام والخيال ، ومن التأميل بالمستحيل والتحويل على ما لا حقيقة له ، فعجزوا عن النهوض ، وعجزوا عن الإفاقة ، على رغم التوارع والمنبهات التى تطرقهم كل حين من الداخل ومن الخارج ، وعجزوا عن أن يتخلصوا من تلك الأكفان البالية الزرية التى لفهم — بمهارة فائقة — فيها كنفشوس وغيره من سحرة التنبيين ! ومن أشنع ما فى هذا الدين ، الذى يتصوره أهل الصين ، أنه يجعل السعادة والراحة والحياة

الصحيحة في هذه الحياة مستحيلة ، وأن من الواجب طلبها وتأميلها وانتظارها بعد الموت لا قبله ، ثم ما يوصى به من التلفت إلى الماضي السحيق المظلم ، ومن الاحتذاء والاعتداء بالماضين الذاهبين .

ومن أجل الاختلاف بين هذين الشعيين الشرقيين وجدت الأمة اليابانية الخفيفة — على رغم هزيمتها الحربية الأخيرة — ووجدت الأمة الصينية الفقيرة المغلوبة على جميع أمرها .

أما الهند فإنها تعد اليوم — وقد كانت كذلك قبل اليوم ، وأظنها ستبقى هكذا زماناً طويلاً — أحد الأمثال المضروبة العقيمة التي تصنعها الأوهام الدينية ، ويشوه وجودها الخيال المشوه الكذوب ، على رغم سابقة هذا الشعب المعترف بها في الحضارة القديمة والفلسفة العريقة ، التي كانت أحد الأضواء المضيئة للإنسانية يوم أن كانت تعيش تحت الظلام ... وقد عجز الهنود عن أن يجدوا لهم في هذا الوجود أملاً حاراً ملهماً ملهياً يحفزهم على النشاط وعلى الإحسان في وجودهم . وقد تقطعت أنفاسهم إعياء ، تطلعاً إلى تلك الآمال والأمانى المذكورة المذخورة لهم وراء هذا العالم ، وسعيّاً وراء تلك الخيالات الدينية الساحرة اللذيذة ، التي لم يستطع طول تناولهم لها أن يصيبهم بالإقهاء أو بالملل والسأم الذي يحدثه عادة طول الملازمة والمقاربة . ولا شك في أن من أعظم أسباب اندحار هذا الشعب العريق في التاريخ وعجزه عن حياة السيادة والاستقلال ، وعن الحياة الإنسانية المحترمة ، هو كثرة أديانه وما فيها من سخافات ومحالات ومعوقات . وليس مما تقر له عيون أنصار الأديان أن تقرأ في هذه الأيام أبناء الاختلاف الكبير المير بين الهندوس والسلمين على مصير الهند إذا تبرع الانجليز وخرجوا منه ! وهذا كما لا يخفى قبل أن يفعل الانجليز ذلك ، بل قبل أن يفكروا فيه تفكيراً جاداً ! فاعجب له من خلاف ، واعجب لهم مختلفين ! ولعل مسألة البقر المقدس ومسألة ذبحه وأكل لحمه من أعظم ما يشغل الفريقيين اليوم ، ومن أعظم ما يهيب على البريطانيين البقاء هناك والتدخل للحماية والفصل والحكومة ! والعقلاء يعلمون اليوم جميعاً أن الهند لن تظفر بالحياة المرتجاة ما لم تغير أديانها أو تغير فهمها لها أو تركها — وهكذا القول في كل الأمم والشعوب التي مثلت دورها في رواية التاريخ العامة وفرغت منه ، والتي لا تزال تؤدي دورها ، والتي لم توجد بعد . وما أبدعت أمة من الأمم إلا بقدر ما كان لديها من التأميل في هذه الحياة ومن الدوران حولها . وقد أبدع الإغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة ، لأنهم كانوا

يألعون جداً في حب مظاهر هذه الطبيعة حتى عبدوها وصيروها كل أملمهم ورجأهم المنشود، وهوت جميع الأمم التي انصرفت بأملها عما ترى وتحس وتجد، إلى ما لا تحس ولا تجد ولا ترى. حتى إن رجلاً فيلسوفاً عظيماً، هو الدكتور جستانف لوبون، لما أن لاحظ هذا قال في كتابه الموسوم « بالآراء والمعتقدات »: « إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر .. » لأنه — على ما زعم — قد وقف بالحضارة عن التقدم والسير إلى الأمام! قال: « ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا في عهود الوثنية وعبادة الأصنام (١) .. » !!

وهو طبعاً يريد بعهود الوثنية تلك العهود التي سادت فيها عبادة الطبيعة ومجالها الجميلة، كالذي كان يصنعه اليونان والرومان والهنود والمصريون، ويعنى بعهود التوحيد والإيمان، التي زعم أنها وقفت بالإنسانية، تلك العهود التي أعلن فيها الدعوة إلى عبادة الله وحده، وإلى العمل للأخرة وحدها والتأمل فيها دون الدنيا، كههود أنبياء بني إسرائيل وأسباطهم، وعهود الكنيسة في القرون الوسطى بالنسبة للمسيحيين، وعهود الغزالي والشعراني وغيرها وعهود شيوخ الطريق بالنسبة للمسلمين؛ فإن هذه العهود — على حسب ما رأى وقال — كانت نكبة على البشر أجمع، لأنها لم تستطع أن تصنع لهم شيئاً سوى التأمل في الآخرة. أما تلك العهود الوثنية فإنها — كما يرى ويقول — ناهضة على حب هذا الوجود إلى حد العبادة، فاستطاعت — يدفعها هذا الحب وهذه العبادة — أن تضع أساس هذه الحياة التي يتمتع بها إنسان هذا العصر السعيد. فكأنها قضية مفروغ منها، تلك هي أن الأمم المتدينة عاجزة عن الصعود بالحياة وبنفسها.

ومن الملاحظات الفردية في هذه القضية أن الأحاد الذين نراهم ينجحون في التجارة أو الصناعة أو العلوم أو غيرها من الجوانب الإنسانية هم دائماً من غير الأتقياء الورعين وأنه لا يقدر على المنافسة القاصمة إلا أولئك الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم. حتى إننا إذا حاولنا أن نلتمس في تاريخنا نفسه مكان أولئك الأفاضل القلائل الذين لمعوا في سماء الشعر أو الأدب الخالد، أو قاموا بنظريات علمية لها بقاء وخلود، أو جاءوا بفلسفة ذات شأن معترف به بين الفلسفات، لم نجد لهم إلا بين أولئك الذين وصفوا بالتمرد والانحلال الديني؛ أمثال المتنبي وأبي العلاء وابن الرومي والجاحظ وابن سينا والرازي والفارابي وابن رشد

٥ (١) ونحن نبرأ من كل الحاد وزيف. وليس عرضنا لهذه الأقوال من أجل الإيمان بها، ولكن من أجل الاعتبار وطلب الفائدة.

وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وسواهم ... ولا تزال حتى اليوم ترى أنه لا يقوم بتصريف شؤون الدولة الكبيرة، كالوزارة والسفارة وأمثالهما، إلا جماعات تختار من غير الأتقياء، حتى أمنا التي شهرت بالتدين وتأسيس ملكها وحكمها على أوامر الله، نجدها تعرف هذا وتتعرف به وتكل أمورها الرسمية ذات الشأن إلى غير المتدينين. وهذا لأنها تعلم بالاستقراء والتجربة أن هذه الشؤون إذا أسندت إلى جماعات الصالحين لم يحسنوا أو لم يستطيعوا القيام بها — ولأن هؤلاء من جهة أخرى لا يستطيعون بنوعهم وسعيهم أن يصلوا إلى رضا من إليهم المصير ومن يدهم الحل والربط والإعزاز والإذلال. فيقولون خاملين منسيين مبعدين. وقد قال الخليفة للمهم عمر بن الخطاب: «لوددت أنى وجدت رجلاً تقياً قوياً مسلماً استعمله» ... وقال مرة أخرى حينما حارب بين الأتقياء والأقوياء: «أشكو إلى الله جلد الفاجر وعجز الورع». وكلنا الآن إذا أردنا أن نشترى شيئاً أو أردنا من أحد أن يصنع لنا شيئاً — حتى لو أردنا أن نطبع مثل هذا الكتاب — لم نجد بداً من الذهاب إلى غير الأتقياء ليقوموا لنا بهذه الأمور، إذا كنا حقاً نرغب في الإتقان والجودة والكمال أو القريب من الكمال. أما إذا شئنا لأنفسنا الصناعة الرديئة أو الصنف الرديء أو إخلاف الوعود أو الحصول على الأكاذيب المتلاحقة، فإننا حينئذ لا نجد بداً من أن نقوم بعملية تفتيش عن هؤلاء الأتقياء وعملية تلمس لهم في جحورهم المظلمة.

ثم إنه قد علم بالتجربة أن المتدينين يفقدون الميزان الفكرى الذى توزن به الأمور فى الغالب، ويصبحون من الناحية النفسية أناساً طبيين خيرين، فاقدين لكل مناعة عقلية مستعدين استعداداً غريباً للوقوع فى حبال المشعوذين والدعاة المضللين، سمحيين عن كل الحقائق التى يراها ويستفيد منها الآخرون، ويرتفع لديهم سعر التهريج والدجل ارتفاعاً عجيباً، وتنفق بينهم سوقه، وتنتب أرضهم الدعاة الكثرين — دينيين وغير دينيين، ويصيخون لكل ناعق، ويهبون — بسخاء نادر — جيوبهم وقلوبهم وعقائدهم لكل سائل. لأنهم بعد أن عزلوا العقل وتنازلوا عن تحكيمه عجزوا عن أن يعرفوا الحق من الباطل، والصادق من الكاذب، والقائد من الصائد، فصدقوا المستحيلات والمتناقضات وآمنوا بأشنع الترهات، لأن العاصم من كل ذلك — وهو العقل — قد أبعد وعزل. وقد دلتنا هذه الحرب الماضية والإشاعات التى كانت تروج وتنفق فيها على مبلغ انهيار هؤلاء من الناحية العقلية ومبلغ استعدادهم لتصديق ما لا يجوز على العاقلين، بدون

مقاومة أو إباء . وقد كنا نعجب من الإذاعات الأجنبية التي كانت توجه إليهم ، وتعجب من السخف والكذب الذي ينجى فيها ، ونقول كيف يرجو هؤلاء العقلاء — إذ هم عقلاء بدون ريب — أن يؤمن لهم قومنا بكل هذا أو بشيء منه ! ولكن هؤلاء المذيعين كانوا أعلم منا بأنفس قومنا وبضعف الناعة العقلية لديهم ! فإن هذه الدعايات والإذاعات كانت تسمع وتصدق أيضاً — وكانت تنفع .

ومن أجل هذا الضعف في المقاومة الفكرية لدينا نبغ بيننا الدعاة الكثيرون وأسرفوا من العدوان على صميم الإنسانية وعلى أفضل صفات البشر؛ فإنك لن تلقى في حياتك — ما عشت — منظرًا أبشع من أن ترى الجموع من حملة الشهادات العالية ، في سائر العلوم التي قاومت الجهل والسخف عند غيرنا وطاردتهما ، يحشدون بشكل يزرى بالإنسان ، تحت ركاب رجل هو أقل منهم في كل شيء مما يتصل بالقيم الإنسانية ، ليسوقهم — بدون وعى ولا معارضة منهم — ويوجههم حيث تشاء رغباته ومطامعه ، ثم ليملئ عليهم ما يشاء وما تشاء له أنانيته وكبرياؤه وسغبه القاتل إلى المجد الذي حرم آباؤه وأجداده من الفروض والواجبات والقداسات التي يفرضها لشخصه الكريم ، باعتباره الإنسان المقدس الطاهر المعصوم الذي يجب أن يطاع طاعة عمياء ، والذي يجب ألا يخطر على البال ، بالنسبة لذاته الكريمة ، توجيه عبارة من عبارات الاستفهام — دع الاعتراض وما هو أشد منه — فترتفع من العاملة القائمة بين هذا الداعي الخير وبين اتباعه الخيرين كلمات : « لم » « كيف » « من أين » « إلى أين » . وليس لهذا الصنم الأرضي الذي ظفر من عبيده الصالحين الطيبين بكل هذه العبادة المطلقة من قوة خفية أو سحرية سوى كلمات جوفاء فوارغ مبهمة يتعم بها ويطلقها على ضحاياها وعباده كما يفعل مخاطبو العفاريت وضاربو الرمل ومطلقو البخور .

وليست روح التسليم العقلي عند المتدينين بحديثة ، بل هي روح ملازمة لهم منذ وجدوا وكيف وجدوا . حتى لقد وجد الأدباء والشعراء والمتهكمون في ذلك مجالاً لا بأس به للسخرية ، فأرسلوها عليهم لاذعة قاسية ! وقد طار في كل المحافل قول شيخ هؤلاء المتهكمين الساخرين — وهو أبو العلاء ، وقد قسا كثيراً : —

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له

مالي أرى كل الأنام لجهلهم بالدين أشباه النعام أو النعم
لو قال ذئب غضاً بعثت بملة من عند ربى قال بعضهم نعم :

ومن الواجب أن نعرف سبب هذا الاستسلام والضعف الفكرى لدى هؤلاء
المتدينين . والذى يظهر لنا كثيراً أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث
هذا الوجود ترابط عقلى وتعليل ثابت ! بل يرون أن الوجود كله — بما فيه من حوادث
وأحداث — محكوم بقوة مجنونة — أو هى كالمجنونة — فى أفعالها وتصرفها ! ولهذا
فلا قوانين ولا ضوابط للمعجزات والحوارق ، فكل شىء جائز ، وكل شىء مستحيل ...
فيصابون بالفساد الفكرى العام ، وإذا اختلت الوسيلة فكذلك النتيجة ، وإذا انهار
الأساس انهار بلا شك ما رفع عليه !! ولن تجد ميزاناً فكرياً لدى هؤلاء الذين يعيشون
فى هذا الجو المسحور المأبج بالحوارق والمعجزات والكرامات التى صنعها الشيوخ
والصالحون — ساخرين من القوانين الطبيعية !

وهذا التعليل صحيح على وجه الإجمال كما يبدو لنا ، كما علل بعض علماء النفس
والاجتماع القسوة التى يتصف بها المتدينون غالباً إذا قدروا ، وأخذهم خصومهم أخذاً
خالياً من الشفقة والإنسانية — بكثرة ممارستهم صناعة التخويف والتهويل للعصاة
والكافرين ، وكثرة قراءتهم النصوص التى تصف الأحوال المعدة لأهل الآثام
والشهوات . فقد صاغوا طباعهم وأنفسهم بطابع الغضبية والقسوة والعنف فارتاضوا على
ذلك كثيراً حتى أصبحوا وحوشاً تنطق باسم الدين ، وتفترس على حسابه ! ومن ثم فإننا
نعقد أن هذه الجماعات المنسوبة إلى الدين ، الناطقة باسمه لو أنها استطاعت الوثوب على
الحكم ووضعت السلاح فى يدها لحكم البشر عهد من الإرهاب يتضاءل إزاءه كل إرهاب
يستكره العالم اليوم . وهذا أمر يجب أن يعرفه أولو الرأى والمقدرة وأن يحسبوا له
الحساب قبل فوات الأوان . ولن تجد أقسى قلباً ولا أفتك يداً من إنسان يثب على عنقك
ومالك ، يقتلك ويسلبك ، معتقداً أنه يتقرب إلى الله بذلك ، ويجاهد فى سبيله ، وينفذ
أوامره وشرائعه !! والسوء لمن ناموا على فوهة البركان قائلين : لعله لا ينطلق .

كل هذه حقائق لا ريب فيها . ولكن ما معنى هذا ؟ هل معناه أن الدين مفسد
للشعر ، حائل بينهم وبين الكمال ، وأنه بطبعه مناف للروح العملية الإنسانية البدعة ؟
كلا ، ليس هذا هو المراد ولا هو الصحيح ، بل الدين بطبعه وروحه لا يعدو أن يكون
وثوباً بالعاطفة وبالخلق والعقل والعمل . وإنه كذلك إذا أخذ وفهم على وجهه .

ولكن ها هنا شيان : أحدها أنه إذا أخذ على غير وجهه وقصده جاء ضاراً
ومفسداً لأخلاق الإنسان وكل معانيه الطيبة ، أو التي يجب أن تكون طيبة ، كما
سبق البيان .

وثانيهما أن البشر عاجزون — في ما يبدو لنا حتى اليوم — عن أخذه وفهمه
ونصوره على وجهه النافع المفيد ، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين ، أو متدينين تدينياً
باطلاً — كما أثبت هذا جملة تاريخ الإنسان . ولا بد من استثناء فترات أو ومضات
قليلة خافتة .

ويظهر أن المبادئ الإنسانية العظيمة تأتي دائماً سابقة لاستعداد الجماهير من البشر .
فإذا دعوا إليها أو فرضت عليهم — قبل تمام هذا الاستعداد — أخذوها أخذاً سيئاً
ضاراً بهم وبالمبادئ نفسها ، وذهبوا يعملون بها على غير وجهها وصوابها . ومن هنا تأتي
النكبة . وكلما تقدم نضج الإنسان قرب من الإحسان ومن الفهم الصحيح والتصور
الصحيح لهذه المبادئ الجميلة التي تسبق استعداده . ولا شك في أن الناس اليوم يتصورون
الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والنظام العام للسلام ، وكيف يجب أن يكون الحكم
والحكومات ، ولغير ذلك من مسائل الإنسان العظمى ، تصوراً هو أرقى جداً من تصوره
لها منذ ألف سنة أو بضعة آلاف من السنين ، كما أن تصوره لهذا الوجود نفسه
وفهمهم له يتقدم ويرقى ويصح ويصدق دائماً . وهم أبداً يقومون بعملية تخل مستمرة
عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى القديمة لأموال هذا الوجود ، ليحلوا مكانها تصورات
وأفهاماً أرقى وأفضل . والدين هو أحد هذه الأمور الجميلة التي عجز الناس عن تصورها
تصوراً صحيحاً ، لأنها جاءت قبل استيفاء استعدادهم الموقوت ، فراحوا ضحايا هذا التصور
الباطل . وكان من نتائج ذلك أن نهض في الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان ويعملون
على إبطالها وتدميرها ، لأنها في ما بدا لهم واقفة متحجرة تسد الطريق . والواقع أن
الدين تحجروا وسدوا الطريق هم المتدينون لا الدين نفسه . ولا ريب عندنا في مجيء ذلك
اليوم الذي يقدر البشر فيه أن يدركوا من حقائق الأديان ما لم يدركوا ، وأن يفهموها
يفهموا مراميها السامية كما أريد منها وبها . وحينئذ — حينئذ فقط — تبلغ بهم
السمو المقدر لها ولهم .

والإنسانية — كما تحصل من مجموع تاريخها المعروف — لها ثلاث حالات :
إحداها أن تكون بلا دين ، لا باطل ولا صحيح ، وثانيها أن تكون على دين باطل

— أى على دين تتصوره بالصورة التى شرحناها فى هذا الكتاب ، وثالثها — وهذا خيرها بلا شك عندنا — أن تكون على دين صحيح ، تدركه إدراكاً صحيحاً . وهذه الحالات الثلاث هى على ثلاث درجات . ولا شك أن الحالة الثانية هى شر الحالات ، وأن الأمة التى تكون متدينة بهذا الدين تأتى عاجزة عن مقارعة الأمتين الآخرين ، وأن الأفراد الذين يكونون متدينين كذلك سيصرعون لا محالة إذا حاولوا منافسة الآخرين ومقاومتهم من أفراد هاتين الأمتين أيضاً . ولا يجب أن نغبط الأمة التى تحرص على مثل هذا الدين ، إذ إن مصيرها بين الأمم مقرر معروف . وما هو إلا مصير هذه القطعان الآدمية المتراخمة على البؤس والشقاء والجهل والاستعباد ، فى آسيا وإفريقيا ، التى نسميها أمتاً وشعوباً ، تلك القطعان التى تلهب جلودها الملونة سياط هؤلاء البيض منذ القرون ، بدون أن تستطيع المقاومة أو الحرب والشروع !! وهنا يجب أن يعلم الغافلون من إخواننا فى سائر بقاع الأرض أن سادتنا الغربيين ، ومنافسينا من الشرقيين لا يؤذيهم أبداً أن نكون متدينين بهذا الدين المحرف ، بل إن ذلك ليعجبهم ويرضيهم ! وإنهم لعلى استعداد تام لأن يشيدوا لنا المساجد والمعابد ، وأن يطبعوا لنا الكتب الدينية ، وأن يصنعوا فى هذا الغرض كل شئ وأن يعينونا على أداء كل فريضة من هذه الفرائض ! إذ أى ضرر يصيبهم من ذلك ؟ ولكنهم من جانب آخر مستعدون أتم استعداد — إذ لم يمنع من ذلك مانع — أن يهدموا كل مصنع نشيده وكل حياة صحيحة قوية حرة نحياها . وإنهم يحشون ويحترمون فى وقت واحد أمثال مصطفى كمال موجد تركيا الحديثة ، ويقرون عيناً — مع الاحتقار الشديد والفرح البالغ — بأمثال ذلك الرجل الجامد — ذلك الرجل الذى قتل شعبه بالجهل والنقر والمرض ، والذى أمر رعاياه فى العام الماضى بقراءة القرآن والبحارى لرفع الوباء الذى اجتاح بلاده التى ليس فيها وسيلة واحدة من وسائل مقاومة المرض الصحيحة ؛ هذا الرجل الذى عرضت عليه المساعدات الطبية دولة مجاورة ، لإيقاظ بلاده البائسة الشقية من طاعون وفد عليها منذ سنتين فقط بشدة مزعجة ، فرد هذه المساعدات قائلاً : إن الطاعون رحمة يخص الله بها بعض عباده فكيف نعمل على رفع الرحمة ؟ ! هذا الرجل الذى يمضى فى بناء السجون فى بلاده ، بينما تمضى كل الأمم فى بناء المدارس والمصانع والمصحات !! وإن هؤلاء الدعاة الدينيين أقرب إلى قلوبهم وإلى رضاها من أولئك الذين يوسمون بالإلحاد والزيف ، ممن يعملون على إيقاظ الشعور القومي وعلى بعث الكرامة الوطنية السجينة فى النفوس تحت هذه الألقاض المحطمة المتراكمة . وقد حدثنى

أحد الرجال المشهورين أنه حاول مرات أن يسافر إلى بلاده التي يقبض عليها الاستعمار بقسوة وإحكام ، فلم يستطع أن ينال التصريح الذي يبيح له السفر ، فلجأ إلى حيلة لطيفة ، هي أنه تزيى بزى رجال الدين الذين يقومون بوظيفة الوعظ والإرشاد ، واضعاً على رأسه عمامة تزيى بالهرم ، وعلى كتفيه جبة تتسع لإيواء كل الشياطين ، وتحت ابطنه من كتب التفسير والحديث والفقه والعقائد ما ينوء بحمله أحد حمر الحى . قال وقد نجحت هذه الحيلة أعظم نجاح ، فأعطيت جواز السفر والدخول مع الاحترام والتوقير والسرور . وقريب من هذا ما حدث قبيل هذه الحرب في البرلمان الفرنسى ، إذ قام أحد الأعضاء — على أثر حملات تبشيرية مسيحية قام بها رجال الدين الفرنسيون في المغرب العربى — قائلاً : إن فرنسا دولة علمية إلحادية ، فالحل والتبشير !؟ فنحن نستنكر ما يقوم به رجال الدين هناك . فقام الرئيس فرد عليه رداً ما أعجبه ! إذ قال إن هذه — يعنى العلمانية الإلحادية — بضاعة محلية لا تصدر إلى الخارج !! وقصده من هذا أن الدعوة إلى الأديان يجب أن تبقى مستمرة نشيطة في المستعمرات وإن حرمت في فرنسا نفسها . ويجب أن لا يخفى على أحد أنهم — أى الفرنسيين — لن يصدروا الخير إلى الخارج مجاناً ويحرموا بلادهم منه . ودعاة الاستعمار في العالم يعامون أن نفوذهم وبقاء سلطانهم في بلادنا المغلوبة مقدور بما في هذه البلاد من رجال الدين ومن شيوخ الطرق الصوفية ، وأنه بمقدار ما ينقص هؤلاء ينقص نفوذهم ويدنو أجلهم ، وبمقدار ما يزيدون يزيد ذلك ويأخذ في الرسوخ والبقاء . ولهذا فإنهم يعضون على هؤلاء الشيوخ والعلماء بالنواجذ ، ويعملون على توسيع سلطانهم ورفع مكانهم بين الجماهير والدهاء ، إذ هم أحسن لهم من الجيوش المدججة بالسلاح . من شرذوب الاستعمار دأبه دائماً على نصرته الرجعيين وتحطيم الأحرار وعلى البسط للأفكار والعقائد المؤخرة ومطاردة المقدمة . وكل هذا لا يخفى إلا على من أضله الله ولم يرد هو أن يهدى نفسه . هذه قضايا قد آن الأوان لأن تكون معلومة ؛ نعم ، ولكن ماذا أريد أن أقول ؟ أقول إن التدين المحرف الواهم نكبة على الجماعات وعلى الأفراد ؛ ولكن هل يصح أن يفهم أحد من هذا أنى أريد الاستغناء عن الدين ؟ كلا ، فالدين حاجة من حاجات الإنسان التي لا يمكن أن يستغنى عنها . ولكن ثبت أن البشرية عاجزة — إلا في ما ندر — عن فهمه على وجهه الصحيح ، هذه هي المشكلة التي لم يستطع حلها بعد . وإلا فكيف استطاع الدين أن يهب الإنسانية الأمل الحار والوقود لتسير في سبيلها الطويل الشاق ، لتبلغ هذه الغاية التي بلغتها ! وكم أضاء لها طريقها يوم أن كان يتعثر في الظلام ! وكم حجب إليها الأمل والعذاب في تحويمها حول أهدافها الكبرى ! وإن كل ما نحن فيه اليوم ما هو إلا إحدى

نتأج هذا التحويم . ومن المحقق أنه لولا هذه الهبة الإلهية السماوية — التي هي الدين — لتقرر مصير الإنسان على نحو آخر من النهايات — وما كان مستطاعاً أن يستغنى البشر عن الدين إلا إذا كان من المستطاع أن يستغنوا عن الأمل في حياتهم أو يصنعوا لهم أملاً آخر ، إذ لا حياة بدون أمل .

وإذن فهل معنى عجز الإنسان عن أن يفهم التدين والدين فهماً صحيحاً أن الواجب عليه ، أو المستحسن له ، أن يتركه ويتأى عنه اكلاً ، وإنما الواجب أن تنفق القوى والأوقات على محاولة فهمه وإفهامه ، وهذا هو عين ما فعلناه في كتابنا هذا . وقد كانت أعظم رسالات الأنبياء موجهة إلى تصحيح التدين وتصحيح الأديان . وهذا التصحيح هو إحدى رسالات الإنسان الكبرى .

أيها القارئ الكريم :

من الجائز أن أكون قد أخطأت أو بالغت في مواضع أو في مواضع ، ولكن أمرين يجب ألا يقع عندها خلاف ولا يسوء فيهما فهم ؛ أحدهما أني كنت مخلصاً في جميع ما كتبت ، وأنى ما أردت إلا خدمة الحق وخدمة أمتنا العريضة . وليكن هذا شفيحاً لي عند من يخالفني في بعض المسائل أو بعض الشروح والتفصيلات . وثانيهما أني لم أحاول إلا أن أكون مؤمناً بالله وأرسله وكتبه واليوم الآخر ، ولكنني حاولت أن يكون هذا الإيمان سليماً قوياً ، وأن يكون كإيمان عمر بن الخطاب وعمر بن العاص وخالد ابن الوليد وأمثال هؤلاء ، وأبيت أن يكون مثل إيمان الشعرائي والغزالي وابن عطاء الله والأسبوطي وغيرهم من شيوخ الطريق وحدادة الجهالة ورسد الفقر — ممن نكبوا البشر وانحرفوا بهم عن الغاية التي كان يجب أن يبلغوها .

اعتراف وشكر

الآن - وقد انتهى طبع هذا الكتاب - أجدني ملزماً بأنه أتقدم
بشكري وتقديري إلى رجال مطبعة مصر - التي قد تكونه أعظم مطبعة في
الشرق العربي - لما لقيت لديهم من عناية واهتمام
تم أخض بشكري رئيس مصححي هذه المطبعة : الأستاذ الشاعر
« محمود أبو الوفا » ؛ ذلك اللسان الذي طست فيه العقل والقلب معاً ،
فلقد كان معنياً بأنه يخرج الكتاب في أحسن صورة وأجمل حلة . فله مني
الشكر مكرراً مضافاً ؟

المؤلف

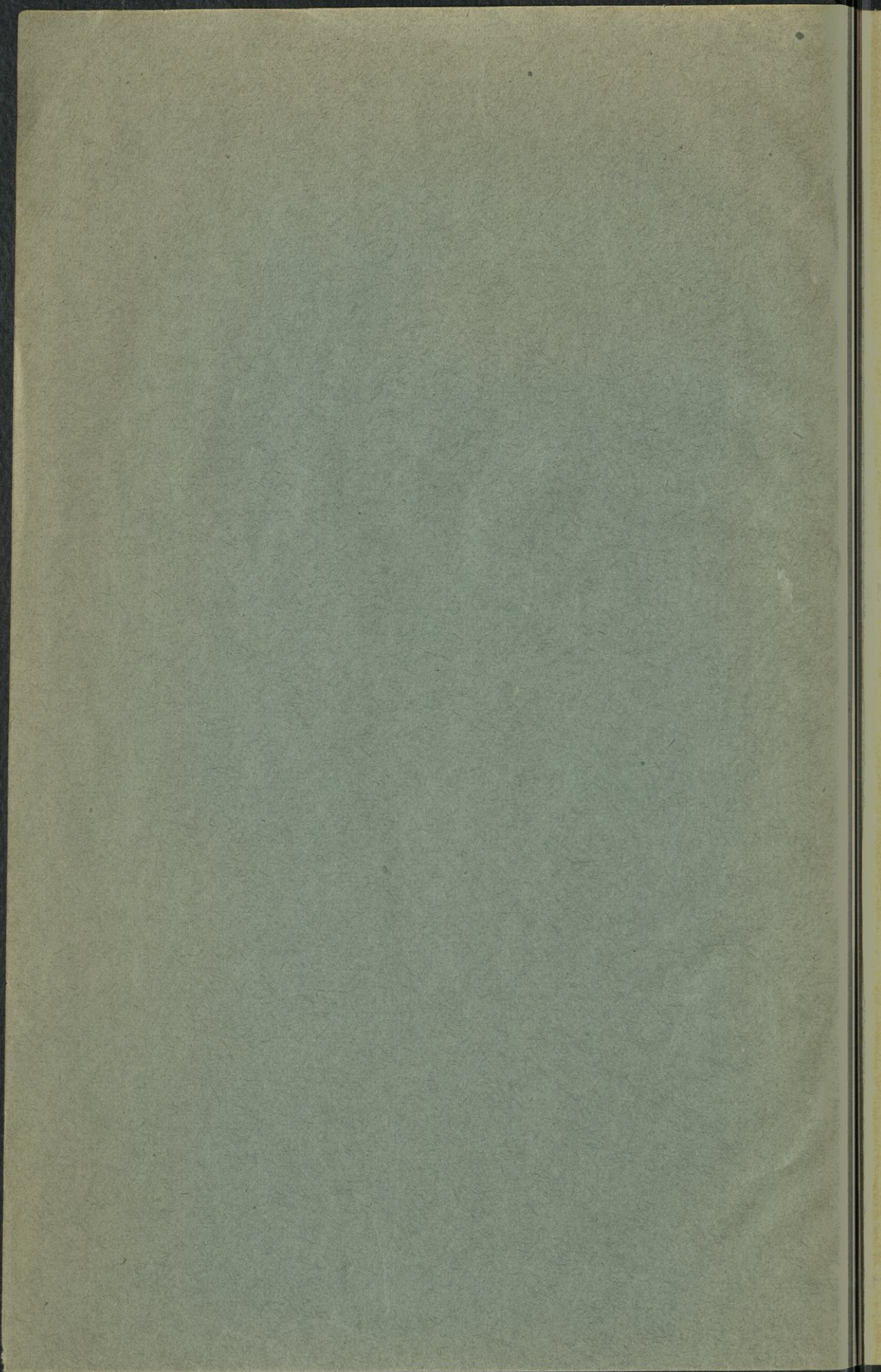
إصلاح الخطأ

صواب	رقم السطر	رقم الصفحة	خطأ
يصادفه	٣	٢٢	... يصادفه ...
وازدادت بذلك الثروة	٢٢	٢٥	... وازدادت بتلك الثروة ...
سنه	٢٤	٣٢	... سنة ...
تنفذ	١٠	٦٢	... تنفذ ...
تعزو	٦	٧٥	... تعزوا ...
أو يبيع الضرر	٢١	٩٩	... أو يبيع الضرر ...
انه لا سبيل	٢٣	١٧٦	... انه سبيل ...
حكاياته	١٩	٢٠٣	... حكاياته ...

عناوين الكتاب الرئيسية

صفحة

٥	مرفوع إلى ...
١٢	قبل البدء ...
٢٥	لقد كفروا بالإنسان — الإيمان به أول ...
٧١	العلم حجاب — الجهالة أم الفضائل — أكثر أهل الجنة البله — هكذا قالوا ...
٨٧	إنسان هي أم سلعة ...
	كراهة الحياة الدنيا — امتداح الجوع والفقر والمرض — العناية الواسعة
١٢٦	للزهد الخدر — هل جاء الدين لمحاربة العمران ؟ ...
	هل في سنن الله محاباة — الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم — كيف يجب
١٩٢	أن تفهم قوانين الطبيعة ...
٢٣٧	كيف فهما وكيف يجب أن يفهما وكيف قررا مصائر الشعوب ...
٢٦١	التوكل — أوهام الناس فيه — كيف يفهم ...
٢٧٢	الأسباب — كيف فهما الناس وكيف تفهم ...
٢٨٧	أمامنا لا وراءنا ...
٣١٥	المشكلة التي لم تحل ...



A.U.B. LIBRARY

CA:297.61:K19hA:c.1

القصيمي، عبد الله علي

هذي هي الاغلا...
...

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01057777

CA

297.61:K19hA

CLOSED AREA ✓

القصيمي، عبد الله علي

CA

297.61

K19hA

